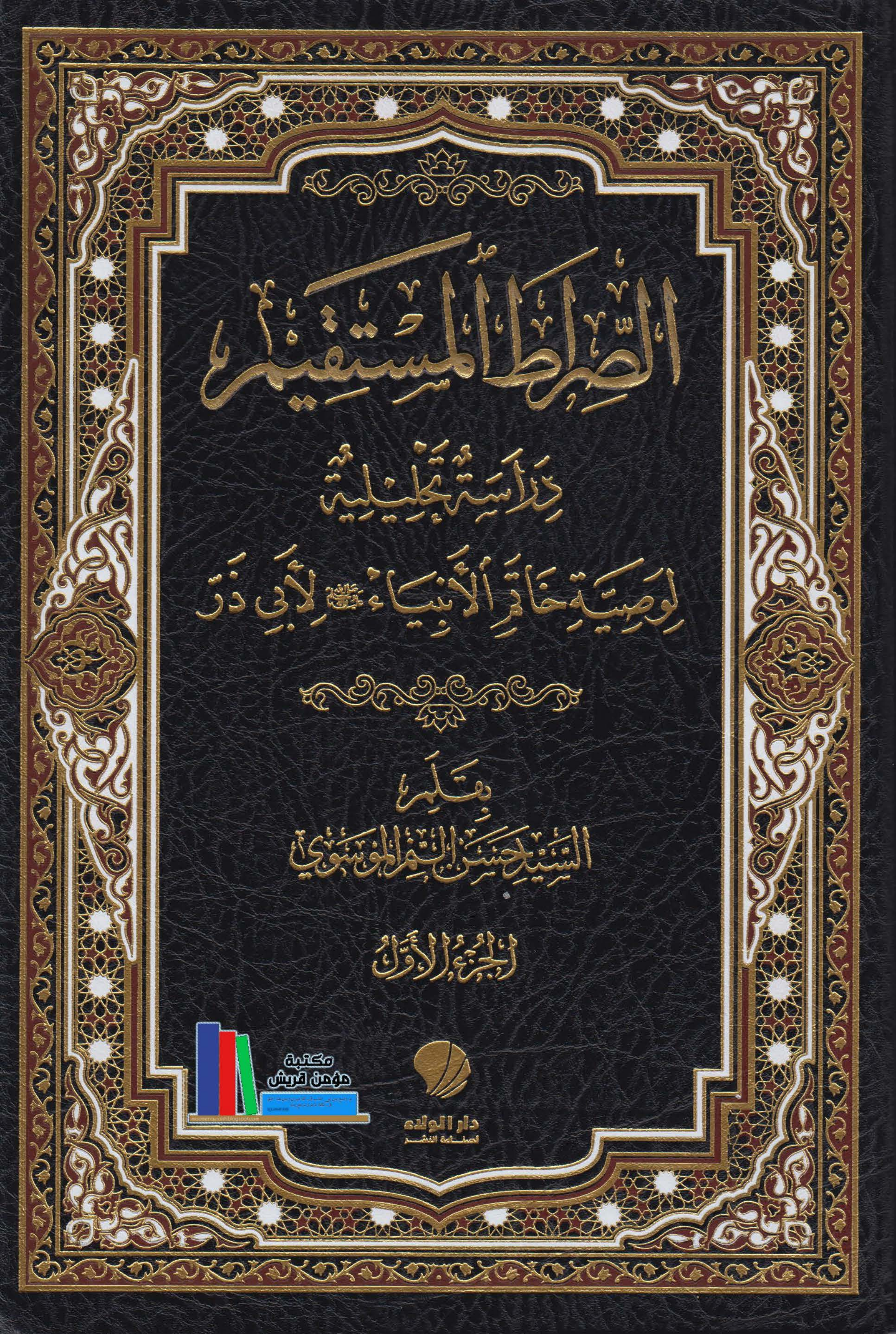

الصراط المستقيم
دراسة تحليلية
لوصية خاتم الأنبياء ﷺ لأبي ذر
بقلم
السيد حسن النمر الموسوي
الجزء الأول
دار الولاء
لصناعة النشر
مكتبة
مؤمن قريش

الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ

لأبي ذرّ رحمه الله



بيـروت - لبنـان، بـرج البراجـنة، الرويـس، شـارع الرويـس
Mob: 00961 3 689 496 | TeleFax: 00961 1 545 133 | P.O. Box: 307/25
info@daralwalaa.com | daralwalaa@yahoo.com | www.daralwalaa.com



ISBN 978-614-420-175-6

الكتاب: الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ لأبي ذرّ رَحِمَهُ اللهُ (الجزء الأول)

المؤلِّف: السيّد حسن النمر الموسويّ

الناشر: دار الولاء لصناعة النشر

الطبعة: الأولى ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م

الصراط المستقيم

دراسة تحليلية لوصيّة خاتم الأنبياء ﷺ

لأبي ذرّ رحمه الله

بقلم

السيد حسن النمر الموسويّ

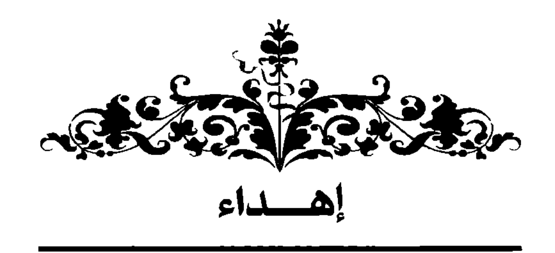
الجزء الأول



دار الولاء

لصناعة النشر


بسم الله الرحمن الرحیم



إهـــداء

في ذكرى شهادتك ومظلوميتك

سيدي أبا محمد الحسن المجتبى عليه السلام

سبط النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

ثاني أئمة العترة الهادية

أتقدم لك بهذه الهدية المتواضعة راجياً قبولها

محبك وخادمك

حسن



مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدِّد الخلق أجمعين وخاتم النبيين والمرسلين محمد بن عبدالله، وعلى آله الطيبين الطاهرين؛ مصابيح الهدى، وسفن النجاة، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فهذه دراسةٌ تربويةٌ متواضعةٌ لوصية النبي الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ؛ التي أوصى بها صاحبه الوفيَّ أبا ذر (رضوان الله عليه). كنت قد كتبتُها قبل سنوات، وألقيتها كمحاضرات؛ على مسامع جماعةٍ من المؤمنين في دورتين اثنتين:

أولاهما: في منزل ابن خالنا الوجيه السيد حسين العبدالله النمر.

ثانيتهما: في مسجد الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام بمدينة سيهات.

ونُشرت مسجلةً. ثم أعدتُ النظرَ فيها، وأضفتُ إليها ما وجدتُ أنه مفيدٌ؛ ولم أضمِّنها ما تطلبه الإلقاءُ الشفويُّ؛ حتى أصبحت بصورتِها الحاليةِ.

وها أنا ذا أقدّمها للقرّاء الكرام؛ راجياً أن تكون نافعةً ـ لي ولهم ـ وعوناً؛ في بلوغِ الصراط المستقيم، والسيرِ على هَدي مَن تفوَّه بها؛ وقال الله تعالى في حقِّهِ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧].

وأرجو ـ قبل ذلك ـ أن تكون مقبولةً عند الله عزَّ اسمُه، وسبباً لغفرانه عمّا بدر من عبدِهِ هذا؛ من عصيانٍ أو تقصيرٍ، في ما سلف من عمره، وعصمةً لما بقي منه؛ إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

ولا يفوتني أخيراً:

١ ـ تقديم الشكر لإخوانٍ كرامٍ ساهموا في تهيئة الفرصة المناسبة لتدوين مادة الكتاب ونشر مضمونه.

٢ ـ الشكر والتقدير لزوجتي الفاضلة السيدة الهاشمية، وأبنائي؛ الذين تحمَّلوا الكثيرَ من التقصير في حقهم؛ بسبب اشتغالي بإعداد مادة هذه الدراسة وكتابتها.

ولا أنسى ـ أيضاً ـ إخواني أعضاء المكتب الذين تحمّلوا عني أعباء كثيرة في خدمة المؤمنين؛ بالخصوص سماحة الشيخ عباس المازني؛ فأُتيحت لي الفرصة للكتابة والتأليف.

٣ ـ الاعتذار إلى الله تعالى ورسوله والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليه وعليهم)، وإلى القرّاء الكرام عمّا يجدونه من هفوات ـ علمية، أو فنيةً ـ فيما يقرأونه في هذا الكتاب، فهو جهدُ مُقلٍّ يعترف بقصوره وتقصيره؛ راجياً تنبيهه إلى ما فاته ولاحظوه.

كتبه في ذكرى شهادة سيِّد شباب أهل الجنة الإمام الحسن المجتبى بن الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام، ٧ من شهر صفر ١٤٣٦هـ، الموافق ٢٩/ ١١/ ٢٠١٤م:

الفقيرُ إلى ربِّه الغنيِّ

حسنُ بن السيد محمد النمر الصائغ الموسوي

الدمام/ السعودية



ملاحظات فنية

١ ـ ننبّه إلى أننا التزمنا إضافة كلمة [آله] ضمن جمل الصلوات على النبي ﷺ التي ننقلها عن مصادر العامة ممن يقتصرون على الصلاة والسلام عليه دون إلحاق آله عليهم السلام به.

٢ ـ التزمنا في توثيق الأحاديث إلى الإشارة إلى رقم الجزء، إن تعددت الأجزاء، ورقم الصفحة، وأضفنا إلى ذلك الباب والفصل ورقم الحديث، لتيسير الرجوع للمصادر عند تعدد الطبعات.

٣ ـ جعلنا توثيق الأحاديث في هامش الصفحة، أما الآيات فذكرنا اسم السورة ورقم الآية ـ أو الآيات ـ بعد الآية مباشرة.



توطئة

ملامح عن أبي ذر (رضوان الله عليه)

١ ـ أهمية الجانب الروحي في حياة الإنسان

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء/ ٨٨، ٨٩]، هكذا يقرر الوحيُ ـ بحسمٍ وجزمٍ ـ طريقَ النجاة عند الحساب، فأصحابُ (القلب السليم) ـ وحدَهم ـ الناجون، ومَن عداهم هالكٌ لأنهم ﴿وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء/ ٩٤].

وذلك، أنّ للجنة طريقَها وأسبابَها، كما أنّ للنار طريقَها وأسبابَها، والنتائج تتبع المقدمات.

وصناعة (القلب السليم) تتوقف على طيِّ (الصراط المستقيم). وهذا الطيُّ وتلكم الصناعة يتوقفان على عنصرين اثنين:

العنصر الأول: الوعي؛ الذي هو البصيرة وحسن الإدراك.

العنصر الثاني: الثبات؛ وهو: الاستقامة على النهج الصحيح.

ولا وعيَ، ولا ثباتَ، بغيرِ تعقلٍ أولاً، واتعاظٍ ثانياً.

لذلك، لا تخفى أهميةُ الموعظةِ؛ على ذي لبٍّ، في تنمية الجانب الروحيّ في الإنسان؛ خصوصاً في هذا الزمان؛ الذي صار القابضُ فيه على دينه كالقابض على جمرٍ[1].

---

(١) ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال ـ في وصيته لابن مسعود ـ: **يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ على**=

والمسلم الصالح ـ بطبيعة الحال ـ لا ينمو في فراغٍ، بل يتوقف ذلك على ما يحمله بين جوانحِهِ من قناعاتٍ ومعارفَ، تشكِّل وعيَه بخالقه تعالى وبمخلوقاته من جهةٍ، وتشكِّل وعيَه بذاتِهِ ودورِهِ الوظيفيِّ من جهةٍ أخرى. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]؛ ليدفعه هذا وذاك إلى التعبير عن وعيِهِ هذا ـ بشِقَّيه ـ بسلوكٍ مستقيمٍ.

وبين هذا الوعي، وتلكم القناعات، ينمو (القلب السليم)؛ الذي يفرض ـ بدوره ـ على صاحبه السيرَ في (الصراط المستقيم).

ثم إن هذا الوعيَ وهذا القلبَ هما اللذان لا يمكن معهما ـ عادةً ـ أن يخبوَ الاهتمامُ بالآخرةِ في حياتِهِ كمسلكٍ.

وهكذا كان الصحابي الجليل والعبد الصالح أبوذر (رضوان الله عليه). فقد روى الشيخُ الصدوقُ؛ بسنده عن أبي عبدالله الصادق، عن أبيه عليهما السلام، قال:

بكى أبو ذر رحمه الله من خشية الله عزّ وجلّ حتى اشتكى بصرَه.

فقيل له: يا أبا ذر! لو دعوتَ الله أن يشفي بصرَكَ!

فقال: إني عنه لمشغولٌ، بما هو من أكبرِ همِّي.

قالوا: وما يشغلك عنه؟

قال: العظيمتان: الجنةُ، والنارُ(١).

=**دينه مثلُ القابضِ على الجمر بكفِّهِ)** مكارم الأخلاق للطبرسي، وعنه: بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٨٢، كتاب الروضة، أبواب المواعظ، الباب ٥ ـ وصية النبي صلى الله عليه وآله إلى عبدالله بن مسعود، الحديث ١.

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١هـ)، الخصال، باب الاثنين، الحديث (٢٥)، ص٣٩ ـ ٤٠.
وهذا المضمونُ مأخوذٌ من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ في ما رواه الفريقان، وهو يؤكد فطنةَ أبي ذر رحمه الله وحسنَ تلقيه وتفاعله؛ فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **إذا صلى العبدُ ولم يسأل الله تعالى الجنةَ ولم يستعذه من النار، قالت الملائكةُ: أغفل العظيمتين؛ الجنةَ والنارَ)** [مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٦٥، الحديث (٥٣٧٠)].
وروى عبدالله بن عمر، قال: سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يقول: **لا تنسوا العظيمتين!**
قلنا: يا رسول الله! وما العظيمتان؟! قال (صلى الله عليه [وآله] وسلم): الجنة والنار.
فذكر ما ذكر حتى بكى إلى أن جرى الدمعُ، أو بل الدمعُ جانبي لحيته (صلى الله عليه [وآل] وسلم)، ثم=

٢ ـ التقوى وحدها لا تكفي، بل يجب معها الوعي والبصيرة

من المهم ـ بل من الضروري ـ التأكيدُ على أن الوعيَ المنشود والمفيد، لا يقف عند حدود الخوف والرجاء النفسانيين، بل يتعداهما إلى الحرص على تلقِّي المعرفة الصحيحة؛ وهذا التلقي وهذه المعرفة ـ بدورهما ـ يتوقفان على سلامةِ القناةِ المعرفيةِ.

وهذا ما حرص أبو ذر (رضوان الله عليه) على تحصيله، وحرص إلى جانب ذلك على أن يبثَّه بين الناس؛ كما نلمسه في ما رواه الشيخ الصدوق؛ في أماليه، بسنده عن أبي سخيلة، قال:

أتيت أبا ذر رضي الله عنه فقلت: يا أبا ذر! إني قد رأيتُ اختلافاً (اختلاطاً)، فبماذا تأمرني؟

قال: عليك بهاتين الخصلتين: كتابِ الله، والشيخِ عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ عليه السلام؛ فإني سمعتُ رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) يقول: هذا أولُ مَن آمن بي، وأولُ مَن يصافحني يوم القيامة، وهو الصديقُ الأكبرُ، وهو الفاروقُ الذي يفرق بين الحق والباطل)[(١)].

وقد بلغ من جلالة قدر أبي ذر رضي الله عنه عند أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا

=**قال: والذي نفسُ محمدٍ بيده! لو تعلمون من الأمرِ ما أعلم، لمشيتُم إلى الصعيد نحثيتُم على رؤوسكم الترابَ)** [المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ج١٣، ص٧٤٦، الحديث (٣٣١٨)].

(١) الأمالي، محمد بن علي الصدوق (ت٣٨١هـ)، ص١٥٥، المجلس السابع والثلاثون، الحديث ٥.

وهذا المضمونُ مرويٌّ عند الفريقين:

ففي مسند البزار ـ البحر الزخار، بإسناده عن أبي ذر رضي الله عنه (عن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) أنه قال لعلي بن أبي طالب [عليه السلام]: **أنت أولُ مَن آمن بي، وأنت أولُ من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصديقُ الأكبرُ، وأنت الفاروقُ تفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوبُ المؤمنين، والمالُ يعسوبُ الكفار)** [مسند البزار، ج٩، ص٣٤٢، الحديث (٣٨٩٨)].

ورواه ـ أيضاً ـ الطبراني؛ باختلافٍ يسيرٍ جداً، عن أبي ذر وسلمان (رضوان الله عليهما)، في معجمه الكبير، ج٦، ص٢٦٩، الحديث ٦١٨٤. ورواه ـ أيضاً ـ الشجري في موضعين بإسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي [ترتيب الأمالي الخميسية، ج١، ص٥٨، ص١٨٩].

يعظون الناسَ بموعظته! في دلالةٍ بالغةٍ على مقدار ما يعرفونه عنه؛ من تفاعلٍ مع الموعظة في نفسه، ومقدار احترام الناس له وتأثرهم بشخصيته.

فقد روى أبو بصير، قال:

سمعتُ أبا جعفرٍ [الباقر] عليه السلام يقول: كان أبو ذرٍّ يقول في عِظتِه:

يا مبتغيَ العلم! صلِّ قبل أن لا تقدِر على ليلٍ ولا نهارٍ تصلِّي فيه. إنما مثلُ الصلاة لصاحبها كمثلِ رجلٍ دخل على ذي سلطانٍ، فأنصتَ له حتى يفرغ من حاجته، كذلك المرءُ المسلمُ بإذن الله، ما دام في صلاته، لم يزل اللهُ ينظر إليه حتى يفرغ من صلاته)[(١)].

٣ ـ قصة إسلام أبي ذر (رضوان الله عليه)

ما دمنا بصدد الحديث عن معالم الصراط المستقيم، من خلال وصية النبي الأعظم ﷺ لتلميذه النجيب أبي ذر (رضوان الله عليه)[(٢)]، فإن من المناسب أن نقف قليلاً عند قصة إسلام هذا الصحابي؛ الذي وصفه أبو نعيم بقوله: العابد

(١) كتاب عاصم الحناط، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٣، ص٧٣، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض، الباب ٢٩، الحديث ١.

(٢) من اللافت ما ذكره أبو نعيم الإصفهاني؛ وهو أن هذا الصحابي الجليل كان موحِّداً قبل ظهور الإسلام؛ وهذا يعني أن لهذا الرجل شخصيةً متميزةً تتيح له الاستقلال الفكري والنفسي عن محيطه الفاسد، وهو الأمر الذي يفسر لنا مستقبل أبي ذر الرافض للواقع الفاسد الذي واجهه وانتفض عليه بعد تولي بني أمية أزمة الأمور ...

ففي رواية عبدالله ابن الصامت (**قال لي أبو ذر: يا ابن أخي صليتُ قبل الإسلام بأربع سنين. قال له: مَن كنتَ تعبد؟ قال: إله السماء. قلت: فأين كانت قبلتُك؟ قال: حيث وجَّهني الله عزّ وجلّ**) [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ذكر أهل الصفة، ترجمة أبي ذر، ج١، ص١٥٧].

وقد ذكر ابن الجوزي في منتظمه، ج٤، ص٣٤٦، ضمن ترجمته لأبي ذر، أنه (**كان يشهد أن لا إله إلا الله، وكان يتعبَّد قبل الإسلام. وقيل له: أين كنت تتوجه؟ قال: أين وجَّهني الله عزّ وجلّ**).

وقد استفاض النقل عن أبي ذر رضي الله عنه أنه (كان يتألَّه في الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله، ولا يعبد الأصنام) [انظر: طبقات ابن سعد، ج٤، ص٢٢٢، دار صادر؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٦٦، ص١٨٥، دار الفكر].

الزهّيد، القانت الوحيد، رابع الإسلام، ورافض الأزلام قبل نزول الشرع والأحكام. تعبَّد قبل الدعوة بالشهور والأعوام، وأول من حيًّا الرسول بتحية الإسلام. لم يكن تأخذه في الحق لائمة اللوام، ولا تفزعه سطوة الولاة والحكام)[١].

فقد روى الشيخ الصدوق ـ في أماليه ـ؛ بسنده عن أبي بصير، قال:

قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام لرجل من أصحابه: ألا أخبرك كيف كان سببُ إسلام سلمان وأبي ذر رحمه الله؟! فقال الرجل؛ وأخطأ[٢]، أما إسلامُ سلمان فقد علمتُ، فأخبرني كيف كان سببُ إسلام أبي ذر!

فقال أبو عبدالله الصادق عليه السلام إن أبا ذر (رحمة الله عليه) كان في بطن مَرٍّ[٣] يرعى غنماً له؛ إذ جاء ذئبٌ عن يمين غنمه فهشَّ أبو ذر بعصاه عليه، فجاء الذئبُ عن يسار غنمه، فهشَّ أبو ذر بعصاه عليه، ثم قال له: واللهِ! ما رأيتُ ذئباً أخبثَ

(١) الأصبهاني (ت٤٣٠هـ)، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، حلية الأولياء، ج١، ص١٥٦، ترجمة أبي ذر.

(٢) أي أنه كان يعتقد أنه يعرف كيف كان إسلام سلمان في حين أنه لم يكن يعرف، ولم يكن المقام مناسباً لتصحيح خطئه.

(٣) موضع قريب من مكة المكرمة.
وضبط الحمويُّ لفظَه، وحدده؛ في معجم البلدان، ج١، ص٤٤٩، بقوله «بطن مَرٍّ» ـ بفتح الميم، وتشديد الراء ـ: من نواحي مكة. عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً) انتهى.
وفي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي، ج١، ص١٤١، جاء في تحديد هذا الوادي قوله: من مكة إلى بطن مر ستة عشر ميلاً، وهو منزل فيه عينُ ماءٍ في مسيل رمل، وحوله نخيلاتٌ يأوي إليه قومٌ من العرب. ومن بطنِ مَرٍّ إلى عسفان ثلاثة وثلاثون ميلاً) انتهى.
وقال ابن بطوطة: وهو وادٍ مخصِبٌ كثيرُ النخل، ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية. ومن هذا الوادي تُجلَب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى) رحلة ابن بطوطة ط أكاديمية المملكة المغربية، ج١، ص٣٦٧.
وفي (مجمع البحرين) للشيخ فخر الدين الطريحي، مادة (مر):
ومَرّ ـ وزان فلس ـ موضعٌ بقرب مكة من جهة الشام نحو مرحلة) انتهى. ولكنه ذكر بعد ذلك قولَه: ويقال له «مر» و«مر الظهران».
وبطنُ مَرٍّ؛ هذا، هو موضع قصده النبي صلى الله عليه وآله لما عزم فتح مكة، كما جاء في الطبري ج٢، في فصل ذكر الخبر عن فتح مكة.

منك ولا شراً! فقال الذئب: شرٌّ ـ واللهِ! ـ مني أهلُ مكة بعث الله إليهم نبياً فكذبوه وشتموه.

فوقع كلامُ الذئب في أُذن أبي ذر؛ فقال لأختِهِ: هلُمّي مِزودي وإداوتي(١) وعصاي. ثم خرج يركض حتى دخل مكةَ فإذا هو بحلقةٍ مجتمِعِين؛ فجلس إليهم، فإذا هم يشتمون النبيَّ ﷺ ويسبونه؛ كما قال الذئبُ. فقال أبو ذر: هذا والله [ما] أخبرني به الذئبُ. فما زالت هذه حالتهم، حتى إذا كان آخرُ النهار، وأقبل أبو طالب، قال بعضهم لبعض: كُفُّوا! فقد جاء عمُّهُ. فلمّا دنا منهم أكرموه وعظَّموه؛ فلم يزل أبو طالب متكلمَهم وخطيبَهم؛ إلى أن تفرقوا.

فلما قام أبو طالب تبعتُهُ؛ فالتفت إليَّ فقال: ما حاجتك؟

فقلت: هذا النبي المبعوث فيكم.

قال: وما حاجتك إليه؟!

فقال له أبو ذر: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

فقال أبو طالب: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله؟!

قال: فقلت: نعم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

قال: فقال: إذا كان غداً في هذه الساعة فائتني.

قال: فلمّا كان من الغد جاء أبو ذر؛ فإذا الحلقةُ مجتمعون، وإذا هم يسبُّون النبيَّ ﷺ ويشتمونه؛ كما قال فجلس معهم حتى أقبل أبو طالب، فقال بعضهم لبعضٍ: كفُّوا فقد جاء عمُّه؛ فكفُّوا. فجاء أبو طالب فجلس، فما زال متكلمَهم وخطيبَهم إلى أن قام. فلمّا قام تبعه أبو ذر فالتفت إليه أبو طالب؛ فقال ما حاجتُك: فقال هذا النبي المبعوث فيكم.

قال: وما حاجتُك إليه؟!

قال: فقال له: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

---

(١) المِزود: وعاء يوضع فيه الطعام.
والإداوة: وعاءٌ جلديٌّ يوضع فيه الماء. وقد يسمى بالمطهرة.

فقال أبو طالب: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله؟!

فقال: نعم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

قال: فرفعني إلى بيتٍ فيه جعفرُ بن أبي طالب. قال: فلمّا دخلتُ سلَّمتُ؛ فرد عليَّ السلامَ، ثم قال: ما حاجتُك؟

قال: فقلت هذا النبي المبعوث فيكم!

قال: وما حاجتُك إليه؟!

قلت: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله؟!

قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

فرفعني إلى بيت فيه حمزةُ بنُ عبد المطلب. فلمّا دخلتُ سلَّمتُ فرد عليَّ السلامَ، ثم قال: ما حاجتُك؟!

فقلت: هذا النبي ﷺ المبعوث فيكم.

قال: وما حاجتُك إليه؟!

قلت: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله؟!

قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله.

قال: فرفعني إلى بيتٍ فيه عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام، فلمّا دخلتُ سلّمتُ؛ فرد عليَّ السلامَ، ثم قال: ما حاجتُك؟!

قلت: هذا النبي المبعوث فيكم.

قال: وما حاجتُك إليه؟!

قلت: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله؟!

قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

قال: فرفعني إلى بيتٍ فيه رسولُ الله ﷺ، وإذا هو نورٌ على نورٍ فلمّا دخلتُ سلَّمتُ؛ فرد عليَّ السلامَ، ثم قال: ما حاجتُك؟!

قلت: هذا النبي المبعوث فيكم.

قال: وما حاجتُك إليه؟

فقلت: أؤمن به، وأصدقه، ولا يأمرني بشيءٍ إلا أطعتُهُ.

قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسولُ الله؟!

قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسولُ الله.

فقال ﷺ: أنا رسولُ الله. يا أبا ذر! انطلق إلى بلادك؛ فإنك تجد ابنَ عمٍّ لك قد مات، فخذ مالَه، وكن بها حتى يظهر أمري.

قال أبو ذر: فانطلقتُ إلى بلادي فإذا ابنُ عم لي قد مات وخلَّف مالاً كثيراً في ذلك الوقت الذي أخبرني فيه رسول الله ﷺ؛ فاحتويتُ على مالِهِ، وبقيتُ ببلادي حتى ظهر أمر رسول الله ﷺ فأتيتُهُ)[١].

٤ ـ الاستقامة والابتلاء توأمان

إنه ـ إذاً ـ تاريخٌ حافلٌ بالاستقامةِ والثباتِ، ممزوجٌ بالعلم والمعرفة والبصيرة، لكنه لم يكن ـ بطبيعة الحال ـ ليخلو من الإحن والمحن والابتلاءات.

فقد كان أبو ذرٍّ رَحِمَهُ الله: من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن نجباء أصحاب النبي ﷺ[٢].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١هـ)، الأمالي، المجلس الثالث والسبعون، الحديث ١، ص٣٤٦ ـ ٣٤٨.

(٢) المزي، أبو الحجاج يوسف (ت٧٤٢هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج٣٣، ص٢٩٦، ترجمة أبي ذر.
وانظر أيضاً: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج٢، ص٤٦، ترجمة أبي ذر؛ صحيح ابن حبان، الحديث ٧١٣٤، ج١٦، ص٨٣؛ معرفة الصحابة لأبي نعيم، ترجمة أبي ذر رَحِمَهُ الله، ج٢، ص٥٥٧.

وكان (زاهداً، متقلِّلاً من الدنيا... قوَّالاً للحق)[(١)]، بل إنه **(كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم)**[(٢)].

ولا عجب أن يكون كذلك فقد روي عن الإمام علي عليه السلام، أنه قال: **سمعتُ رسولَ اللهِ (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يقول: ما أظلَّت الخضراءُ، ولا أقلَّت الغبراءُ من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذرٍّ)**[(٣)].

أبو ذر رضي الله عنه أصدق الصحابة:

لا غبارَ في أن أبا ذر هو الـ(أصدق لهجة) بين أقرانه، فقد شهد له بذلك رسولُ الله ﷺ؛ الذي روي عنه وصفه لهذا الصحابي الجليل بأنه الـ**(أصدق لهجةً)**[(٤)].

---

(١) النووي، الشيخ محيي الدين (ت٦٧٦هـ)، تهذيب الأسماء واللغات، ج٢، ص٢٢٩ ـ ٢٣٠، ترجمة أبي ذر (رضوان الله عليه).

(٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٤٧، ترجمة أبي ذر.

(٣) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (ت٧٤٢ هـ)، ج٣٣، ص٢٩٣، ترجمة أبي ذر.
والخضراء كناية عن السماء، والغبراء عن الأرض.
وقد استفاض؛ إن لم يتواتر، نقلُ هذا المضمون؛ بأسانيد متعددة ورواة متعددين، عن رسول الله ﷺ في حق أبي ذر رضي الله عنه؛ فلا شك في صدوره عنه، ولا شك ـ أيضاً ـ في صدق مضمونه بشهادة سيرة أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) سنن ابن ماجه، الحديث ١٥٦، باب فضل أصحاب رسول الله ﷺ؛ فضل أبي ذر، ج١، ص٥٥؛ مسند ابن بي شيبة ج١، ٤٧، ما رواه أبو الدرداء؛ مصنف ابن بي شيبة، ج٦، ص٣٨٧؛ فضائل الصحابة لابن حنبل، ج١، ص٤٣٢؛ مسند أحمد، ج١١، ص٦٥٠؛ سنن الترمذي، باب مناقب أبي ذر، ج٦، ص١٤٥.
أقول: للزركشي في كتابه (النكت على مقدمة ابن الصلاح) كلامٌ لا يخلو من أهمية في تقييم مسند أحمد رداً على من سعى إلى التقليل من شأنه عند المحدثين، ولنذكر نصه. قال:
قلت: ما ذكره [أي ابن الصلاح] من أن مسند أحمد لا يشترط في الحديث كونه محتجاً به، وأنه دون الكتب الخمسة، مردودٌ؛ فقد ذكر الحافظ أبو موسى المديني في كتاب فضائل مسند أحمد أن عبدالله سأل أباه عن هذا المسند، فقال: جعلته أصلاً للإسلام يرجعون إليه؛ فما ليس فيه فليس بصحيح. =

وقد أذعن لهذا المضمون المحدثون من أهل السنّة؛ الذين يفضلون ـ عادةً ـ بعضَ الصحابة على أبي ذر رضي الله عنه. ولذلك، ثار في أوساطهم إشكالٌ في تفضيل أبي ذر رضي الله عنه؛ من حيث الصدق والمصداقية على سائر الصحابة من جهةٍ، وحكم مَن خالفوه وخالفهم من جهةٍ ثانيةٍ.

ومن أجل حلِّ هذا الإشكال، ورفع هذا الإعضال، عقد الطحاويُّ؛ في كتابه مشكل الآثار، باباً جعل عنوانه (باب بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام في صدق أبي ذر رضي الله عنه) سعى فيه إلى معالجة مقام أبي ذر رضي الله عنه؛ بناءً على أحاديث رواها المحدثون يتنافى مضمونها مع ما افترضوه لآخرين من الصحابة؛ من مقام يفوق ما صدح به النبي صلى الله عليه وآله في حق أبي ذر رضي الله عنه، فقال ـ معالجاً ذلك ـ ما لفظه:

فتأملنا هذا الحديث؛ لنقف على المعنى الذي أريد به ما هو، فوجدناه قد أخبر فيه أن الخضراء ما أظلَّت، وأن الغبراء ما أقلَّت من ذي لهجة أصدق من أبي ذر؛ فكان ذلك عندنا ـ والله أعلم ـ على أنه كان رضي الله عنه في أعلى مراتب الصدق، ولم يكن في ذلك ما ينفي أن يكون قد كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم مَن هو في الصدق مثله، **فكان الذي في هذا الحديث إثبات أعلى مراتب الصدق لأبي ذر**، وليس فيه نفيُ غيرهِ من تلك المرتبة، إنما **فيه نفيُ غيره أن يكون في مرتبة من مراتب الصدق أعلى منها**)[1].

قلتُ: في كلامه ما لا يخفى؛ من حيث إن تعبير (أصدق) صيغة تفضيل، وهذا يعني التقدم ولا يسمح بالمشاركة في ما فُضِّل فيه، فتدبر.

ولعل هذا التساؤل يُثار؛ حتى في الوسط الشيعي؛ الذي يفضل أهلَ البيت عليهم السلام بالمطلق على أبي ذر رضي الله عنه وعلى غيره؛ فما هو توجيه هذه الشهادة؟

= وعنه أنه قال: جمعته، وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف وخمسين ألفاً، فما اختلف المسلمون من حديث رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) فارجعوا إليه؛ فإن كان فيه وإلا فليس بحجة) [النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي، ج١، ص٣٥١].

(١) الطحاوي، أبو جعفر (ت٣٢١ هـ)، شرح مشكل الآثار، ج٢، ص١٢، باب بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام في صدق أبي ذر رضي الله عنه.
أقول: تغليظ الجمل ـ أعلاه ـ منا.

الجواب: إن التفاضل إنما يُتصوَّر بين الصحابة، وقد يكون أحدُهم أفضلَ في جهةٍ، والآخرُ أفضلَ في جهةٍ أخرى، وأحدُهما أو غيرُهما أفضلَ منهما ومن غيرهما من حيث المجموع. والحكم الفاصل في ذلك هو ما يرد من نصوصٍ شرعيةٍ، سواء كانت قرآناً نازلاً من عند الله تعالى أو أحاديث نطق بها رسول الله ﷺ.

أما أهل البيت عليهم السلام فهم خارج دائرة التفاضل؛ فإنهم لا يقاس بهم أحد، وقد أقرَّت بذلك الأمةُ؛ علماؤها وعوامُّها؛ بمن فيهم ابنُ حنبل نفسُهُ[1].

وقد روي مسنداً عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **نحن أهلُ بيتٍ شجرةِ النبوةِ، ومعدنِ الرسالةِ، ليس أحدٌ من الخلائق يفضل أهلَ بيتي غيري)**[2].

---

(١) أخرج الهندي في كنز العمال، ج١٢، ص١٠٤، والسيوطي في جامع الأحاديث، ج٢٢، ص٢١٩، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج١١، ص٧، جميعاً عن الديلمي، قوله ﷺ: **نحن... أهل بيت لا يقاس بنا أحد)**.

وأخرج ابن السرى قول النبي ﷺ:... بنو عبد المطلب سادات أهل الجنة) كما في ذخائر العقبى في موضعين، ج١، ذكر أنهم سادات أهل الجنة، ص١٥، وذكر أنهم من سادات أهل الجنة، ص٨٥.

وعن عائشة، قالت: **قال رسولُ الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: قال لي جبريلُ** عليه السلام: **قلَّبتُ الأرضَ؛ مشارقَها ومغاربَها، فلم أجد رجلاً أفضلَ من محمد عليه الصلاة والسلام، وقلَّبت الأرضَ؛ مشارقَها ومغاربَها، فلم أجد بني أبٍ أفضلَ من بني هاشم)** السنة لابن أبي عاصم، ج٢، ص٦٣٢.

وأما ابن حنبل فقد **كان** (إذا سُئل عن علي [وأهل بيته]. قال: أهل بيت لا يقاس بهم أحدٌ) التبصرة لابن الجوزي، المجلس الحادي والثلاثون في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ج١، ص٤٥٨؛ مناقب الإمام أحمد، ج١، ص٢١٦، الباب العشرون.

وقد يستوحش بعضُ الناس من هذه المقولة، ويعتبرها غلواً أو باباً للغلو في أهل البيت عليهم السلام!!

ومن أجل تخفيف وطأة ذلك نقول: إنها قيلت ـ أيضاً ـ في حق عموم الصحابة، بل في غيرهم، فهل هي غلوٌ أيضاً، ولا بد من التحفظ عليها في حق الفريقين؟! أم أنها غلوٌ مرفوضٌ في أهل البيت عليهم السلام وإقرارٌ مقبولٌ بالفضل في حق غيرهم؟!

ندع الحكم للقارئ الحكيم والمنصف.

(٢) الشجري الجرجاني، يحيى (ت٤٩٩ هـ)، ترتيب الأمالي الخميسية، الحديث رقم (٧٥٠)، ج١، ص٢٠٢.

وقد أثيرت هذه الشبهةُ في محضر الإمام الصادق عليه السلام، وأجاب عنها. فقد روى الشيخ الصدوق في العلل؛ بسنده عن إسماعيل الفراء عن رجلٍ، قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أليس قال رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)؛ في أبي ذرٍّ (رحمة الله عليه): ما أظلَّت الخضراءُ، ولا أقلَّت الغبراءُ على ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذر؟!

قال: بلى!

قال: قلتُ: فأين رسولُ الله (صلى الله عليه وآله)، وأميرُ المؤمنين؟! وأين الحسنُ والحسينُ؟!

قال: فقال لي: كم السنةُ شهراً؟!

قال: قلتُ: اثنا عشر شهراً.

قال: كم منها حرمٌ؟!

قال: قلتُ: أربعةُ أشهرٍ.

قال: فشهرُ رمضان منها؟!

قال: قلتُ: لا.

قال: إن في شهر رمضان ليلةً أفضلُ من ألف شهرٍ! إنا ـ أهلَ البيت ـ لا يُقاس بنا أحدٌ[1].

وأبو ذر رضي الله عنه كان من المحبوبين لله تعالى؛ فقد روى عبدالله بن بريدة، عن أبيه، قال:

قال رَسولُ اللهِ (صلى الله عليه [وآله] وسلم):

أُمِرتُ بحبِّ أربعةٍ من أصحابي، وأخبرني اللهُ أنه يحبهم.

قلتُ: مَن هم يا رسولَ الله؟

---

(١) معاني الأخبار للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، تاريخ نبينا صلى الله عليه وآله، أبواب ما يتعلق به صلى الله عليه وآله من أولاده...، الباب ١٠ (كيفية إسلام أبي ذر...)، الحديث ٢٢.

قال: عليٌّ، وأبو ذرٍّ، وسلمانُ، والمقدادُ)[١].

ورواه الترمذي ـ باختلافٍ يسيرٍ جداً ـ في سننه؛ وحسَّنه[٢].

وقد استقام أبو ذر رحمه الله على نهج الرسول ﷺ؛ حتى توفاه الله في الربذة؛ حيث منفاه القسري[٣]؛ الذي ألجأته إليه السلطاتُ؛ لَمَّا ضاقت بصدقه ومجاهرته بالحق وصلابته فيه. وقد كان له موقفٌ صارمٌ منها؛ فنابذها ـ لظلمها ـ ونابذته.

---

(١) الروياني، أبو بكر محمد بن هارون (ت٣٠٧ هـ)، مسند الروياني، ج١، ص٧٢، الحديث ٢٩؛ تهذيب الكمال، ج٣٣، ص٢٩٧.

(٢) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الكبير ـ سنن الترمذي، الحديث ٣٧١٨، باب مناقب علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ج٦، ص٧٩، ولفظه عنده: **إن اللهَ أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم. قيل: يا رسولَ الله! سمِّهم لنا. قال: عليٌّ منهم)**، يقول ذلك ثلاثاً (**وأبو ذرٍّ، والمقداد، وسلمان. أمرني الله بحبهم، وأخبرني أنه يحبهم**). وعلَّق عليه الترمذيُّ بقوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث شريك).

(٣) الذهبي، شمس الدين أحمد (ت٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٥٧، ٦٣، ٧١. وفيه أن مَن أخبر بإخراجه من المدينة إنما هو رسول الله ﷺ بقوله (**أخرجوك**).

وممن روى نفيَ أبي ذر رحمه الله ابنُ سعد في الطبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٤؛ في سياق ترجمته لأبي ذر رحمه الله، بإسناده عن ابن مسعود، وجاء فيه قوله: ... نفى عثمانُ أبا ذرٍّ إلى الربذة).

وممن رواه ابن هشام في سيرته، فقال: ... عن عبدالله بن مسعود، قال: لَما نفى عثمانُ أبا ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلامه...) [سيرة ابن هشام، ج٢، ص٥٢٤، شأن أبي ذر].

وكذلك ابن عبد البر، قال: ... استقدمه عثمان لشكوى معاوية به، وأسكنه الربذة) [الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٢٥٣، ترجمة أبي ذر].

وكان رحمه الله يتعامل مع الربذة كمنفى، فقد قال ـ في حديث رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٦٦، ص١٩٢ ـ: ...**نُفِيتُ إلى الربذة**)، وقد جاء ذلك ـ أيضاً ـ في مسند أحمد في الحديث **٢١٢٩١** طبعة مؤسسة الرسالة.

وما دعانا إلى التأكيد على (نفيه) هو تعتيمُ بعض المحدثين والمؤرخين؛ بل كثيرٍ منهم، على تكذيب مسألة النفي والتسيير والإبعاد، وذكرهم (سكنى!!) أبي ذر رحمه الله في الربذة كما لو أن ذاك كان اختياراً منه؛ تغطيةً منهم للواقع السلطوي الغاشم الذي رفضه أبو ذر رحمه الله؛ حتى صرَّح بعضُهم بذلك؛ كما رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٦٦، ص**٢٠٢** عن الحافظ أبي القاسم أنه قال: ولم يسيِّر عثمانُ أبا ذر، لكنه خرج هو إلى الربذة لَمَّا تخوَّف من الفتنة التي حذره النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم). فلمّا خرج عقيب ما جرى بينه وبين أمير المؤمنين عثمان ظُنَّ أنه هو الذي أخرجه).

وقد بلغت المفاصلةُ بينهما أن يُتخذ القرارُ بنفيه إلى (الربذة)[١]، وأن يوصي هو مَن حضر عنده حين الوفاة أن لا يكفِّنه مَن ولي منهم ولايةً ـ من السلطة ـ صغيرةً أو كبيرةً، وخاطبهم قائلاً: **أنشدكم الله أن لا يكفِّنَني رجلٌ منكم كان أميراً، أو عريفاً، أو بريداً**[٢]؛ لتأكيد رفضِه مشروعيةَ السلطة ومَن عمل فيها وتبناها[٣].

وكشاهدٍ على أن أبا ذر ﷺ كان يرى الاستقامة والبلاء توأمين؛ لا يكادان ينفكان عن بعضهما، نورد الشاهد التالي:

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله عليه)، بسنده عن حماد بن عمرو، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال:

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر (رحمة الله عليه):

يا أبا ذر! إياك والسؤالَ؛ فإنه ذلٌّ حاضرٌ، وفقرٌ تتعجله، وفيه حسابٌ طويلٌ يومَ القيامة.

يا أبا ذر! تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتدخل الجنةَ وحدك. يسعد بك قومٌ ـ من أهل العراق ـ؛ يتولَّون غسلَك، وتجهيزَك، ودفنَك.

---

(١) قال الحموي في معجم البلدان في تحديد موقع الربذة [ج ٣، ص٢٤]:
الرَّبَذَة؛ بفتح أوّله وثانيه، وذال معجمة مفتوحة أيضاً:... من قرى المدينة على ثلاثة أيّام قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، وبهذا الموضع قبر أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه».
وقال الحميري (ت٩٠٠ هـ) في الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٦٦:
وإليها نفى عثمان رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه فمات بها سنة اثنتين وثلاثين).

(٢) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٢.
وفي بعض المصادر؛ كصحيح ابن حبان، ج١٥، ص٥٨، أضيف إلى ما ذكر أعلاه قوله (نقيباً).
والأمير والعريف والبريد والنقيب عناوين لوظائف ومسؤوليات يتولاها رجالٌ في الدولة.

(٣) ننبه إلى أنه قد رُوي عن أبي ذر ﷺ في صفاته وشمائله ومقولاته وفتاواه الكثيرُ من الأخبار المكذوبة أو المحرَّفة؛ مما أريد به تشويهُ شخصيته وجهاده؛ كما هي عادة كلِّ سلطة ظالمةٍ وعادة من يواليها؛ بوعيٍ أو بغير وعي، تجاه المعارضين؛ ليبدو أبو ذر مخطئاً في حركته، ويبدو خصومُهُ الظلمةُ ـ ممن تبوأ السلطة ـ مصيبين في ما أقدموا عليه عموماً، ومن إجراءات في حقه ـ ومنها نفيه ـ ظلماً خصوصاً.
ولا يتسع لنا الوقتُ ـ حالياً ـ للوقوف عليها، وتبيين ما يصح منها وما لا يصح.

يا أبا ذر! لا تسألْ بكفِّك، وإن أتاك شيءٌ فاقبله.

ثم قال ﷺ لأصحابه: ألا أخبركم بأشراركم؟

قالوا: بلى يا رسول الله!

قال: المشَّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون للبُرَآء العيبَ)(١).

٥ ـ الاستعداد الذاتي والبناء

كان الصحابي الجليل أبوذر رضي الله عنه محطةً جهاديةً بارزةً في تاريخ الإسلام؛ من حيث صدق لهجته وثباته واستقامته، مما أسهم في الحيلولة بين المنافقين وسعيهم إلى تحريف معارف الإسلام.

وقد اعتمد أبو ذر رضي الله عنه؛ في جهاده هذا، المعارفَ التي تربى عليها وتلقاها من أستاذه رسول الله ﷺ، والتي لم تكن لتؤثر فيه لولا توفره على بذور الصلاح والاستقامة؛ فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد/ ١١]، ومن ثم حظِيتْ شخصيتُهُ بقبولٍ واسعٍ لدى جمهور الأمة؛ لِما وجدوه فيه من نجابةٍ وسموٍّ وصدقٍ.

ولعل النص التالي؛ الذي رواه المحدث المجلسي عن تفسير علي بن إبراهيم، يجلِّي لنا هذه الحقيقةَ، وجاء فيه:

كان أبو ذر تخلَّف عن رسول الله ﷺ؛ في غزوة تبوك ثلاثة أيام. وذلك أن جَملَه كان أعجفَ، فلحق بعد ثلاثة أيام، ووقف عليه جملُهُ في بعض الطريق، فتركه، وحمل ثيابَه على ظهره. فلمّا ارتفع النهارُ نظر المسلمون إلى شخصٍ مقبلٍ، فقال رسول الله ﷺ: كأنَّ(٢) **أبا ذر.**

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، باب الثلاثة، الحديث ٢٤٩، ص١٨٢ ـ ١٨٣.
والمقصود بفقرة (الباغون للبرآء العيبَ) ـ والله العالم ـ الراغبون في البحث عن العيوب للأبرياء المنزهين، وفي بعض ألفاظ الحديث؛ كما في المجلس السادس عشر من الأمالي للشيخ الطوسي ومسند أحمد من حديث أسماء بنت يزيد، (العنت) بدل (العيب)، ومعناه ـ حينئذ ـ الراغبون لهم العناء والتعب.
وفي الكافي باب النميمة (الباغون للبراء المعايب).

(٢) (كن) في نسخة أخرى.

فقالوا: هو أبو ذر.

فقال رسول الله ﷺ: أدركوه بالماء؛ فإنه عطشان.

فأدركوه بالماء. ووافى أبو ذر رسولَ الله ﷺ ومعه إداوةٌ فيها ماءٌ!! فقال: رسول الله ﷺ: يا با ذر! معك ماء وعطشت؟!

فقال: نعم، يا رسول الله! بأبي أنت وأمي. انتهيت إلى صخرةٍ، وعليها ماء السماء، فذُقتُهُ، فإذا هو عذبٌ باردٌ. فقلت: لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر! رحمك الله، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك، وتدخل الجنةَ وحدك. يسعد بك قومٌ من أهل العراق، يتولون غسلَك وتجهيزَك والصلاةَ عليك ودفنَك.

فلما سيَّر به عثمانُ إلى الربذة، فمات بها ابنُه ذرٌّ، وقف على قبرِهِ، فقال: رحمك الله، يا ذرُّ، لقد كنت كريمَ الخلق، باراً بالوالدين، وما عليَّ في موتك من غضاضةٍ، وما لي إلى غيرِ الله من حاجةٍ، وقد شغلني الاهتمامُ لك عن الاغتمام بك، ولولا هولُ المطلع لأحببتُ أن أكون مكانَك. فليت شعري ما قالوا لك وما قلتَ لهم.

ثم قال: اللهم إنك فرضت لك عليه حقوقاً، وفرضت لي عليه حقوقاً؛ فإني قد وهبتُ له ما فرضتَ عليه من حقوقي، فهبْ له ما فرضتَ عليه من حقوقك؛ فإنك أولى بالحق، وأكرمُ مني.

وكانت لأبي ذر غنيماتٌ؛ يعيش هو وعيالُه منها، فأصابها داءٌ؛ يقال له (النقاب [النُّقَازُ])[1]، فماتت كلُّها؛ فأصاب أبا ذر وابنته الجوع، وماتت أهله.

---

(١) نقل العلامة المجلسي عن الفيروزآبادي قوله: النقب: قرحة تخرج في الجنب)، (النقاز كغراب: داء للماشية شبيه بالطاعون).

وفي تاج العروس مادة (نقز) ج١٥، ص٣٦٠: النُّقَاز؛ كغُراب: داءُ للماشية؛ وخُصَّ بالغنَم، شَبيهٌ بالطاعون، فتَثغو الشاةُ منه ثَغوةً واحدةً وتنزو وتَنقِزُ منه حتى تموتَ).

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي؛ مادة (نقب): النَّقْبُ: الثَّقْبُ، ج: أَنْقابٌ ونِقابٌ)، وقرحةٌ تخرج في الجنبِ، والجَرَب).

=

فقالت ابنته: أصابنا الجوعُ، وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً.

فقال لي أبي: يا بنية! قومي بنا إلى الرمل نطلب القت، وهو نبت له حب، فصرنا إلى الرمل؛ فلم نجد شيئاً، فجمع أبي رملاً، ووضع رأسه عليه، ورأيت عينيه قد انقلبتا؛ فبكيت.

فقلت له: يا أبه! كيف أصنع بك، وأنا وحيدة؟

فقال: يا بنتي! لا تخافي؛ فإني إذا متُّ جاءك من أهل العراق مَن يكفيك أمري! فإني أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ؛ في غزوة تبوك، فقال لي: يا با ذر! تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنةَ وحدك. يسعد بك أقوامٌ من أهل العراق، يتولون غسلك، وتجهيزك، ودفنك. فإذا أنا متُّ فمُدي الكساء على وجهي، ثم اقعدي على طريق العراق، فإذا أقبل ركبٌ؛ فقومي إليهم، وقولي: هذا أبو ذر؛ صاحب رسول الله ﷺ، قد توفي.

قالت: فدخل إليه قوم من أهل الربذة؛ فقالوا: يا أبا ذر! ما تشتكي؟

قال: ذنوبي.

قالوا: فما تشتهي؟

قال: رحمةَ ربي.

قالوا: هل لك بطبيب؟

قال: الطبيبُ أمرضني!

قالت ابنته: فلمّا عاين سمعتُهُ يقول: مرحباً بحبيبٍ أتى على فاقةٍ، لا أفلح مَن ندم، اللهم خنقني خناقك، فو حقك إنك لتعلم أني أُحب لقاءك.

قالت ابنته: فلمّا مات مددتُ الكساءَ على وجهه، ثم قعدتُ على طريق العراق، فجاء نفرٌ، فقلت لهم: يا معشر المسلمين! هذا أبو ذر؛ صاحبُ رسول الله ﷺ قد توفي.

= وفي مقاييس اللغة مادة (نقب)، ج٥، ص٤٦٥: النَّاقبةُ: قرحةٌ تخرج بالجنبِ تهجمُ على الجوف).
وفي لسان العرب مادة (نقز)، ج٥، ص٤٢٠: وأنقزَ إذا وقع في إبله النُّقازُ، وهو داءٌ). ويستفاد منه أنه غير خاص بالغنم، بل يصيب الإبل أيضاً.

فنزلوا، ومشوا يبكون، فجاؤوا، فغسَّلوه، وكفَّنوه، ودفَنوه. وكان فيهم الأشترُ، فروي أنه قال: كفَّنتُهُ في حلةٍ كانت معي؛ قيمتُها أربعةُ آلافِ درهمٍ.

فقالت ابنتُهُ: فكنتُ أصلي بصلاتِهِ، وأصوم بصيامِهِ، فبينا أنا ذاتُ ليلةٍ نائمةٌ عند قبره إذ سمعتُه يتهجد بالقرآن في نومي، كما كان يتهجد به في حياته، فقلت: يا أبه! ما ذا فعل بك ربُّك؟

قال: يا بنتي! قدمتُ على ربٍّ كريمٍ، رضي عني، ورضيتُ عنه، وأكرمني، وحبَاني، فاعملي، ولا تغتري)[١].

٦ ـ تعريف موجز بأبي ذر (رضوان الله عليه)

لعل القارئ تحفَّز ـ الآن ـ للتعرف بالتفصيل على هذه الشخصية النجيبة؛ بعد ما قدمناه من لمحات.

فمن هو أبو ذر؟

الجواب ـ بإيجازٍ شديدٍ ـ؛ فليست هذه دراسةً عن شخصية أبي ذر ﵀، غير أننا سنقف على موجزٍ من بطاقته الشخصية وسيرته. وأما التفصيل فموكولٌ لمجال آخر. ونقول:

إننا حينما نرجع إلى مدوِّني سيَر الصحابة وتراجمهم؛ وكذلك الرجاليين، يمكن تلخيص ما ذكروه في التالي:

أولاً ـ اسمه

اختُلف في اسمه (اختلافاً كبيراً)[٢] على أقوال؛ حكاها ابن عبد البر في الاستيعاب[٣]:

---

(١) تفسير القمي، وعنه: بحار الأنوار، ج ٢٢، ص٤٢٩ ـ ٤٣١.

(٢) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (ت٧٤٢ هـ)، ج٣٣، ص٢٩٣، ترجمة أبي ذر.

(٣) القرطبي، ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٢٥٢، ترجمة أبي ذر الغفاري.

أولها: أن اسمه هو (جُنْدُب، أو جُنْدَب، بن جنادة).

ثانيها: أن اسمه هو (برير بن جندب).

ثالثها: أن اسمه هو (برير بن عشرقة).

رابعها: أن اسمه هو (برير، أو يزيد، بن جنادة).

خامسها: أن اسمه هو (برير بن جندب).

سادسها: أن اسمه هو (جندب بن عبدالله).

سابعها: أن اسمه هو (جندب بن السّكن).

وأولها أشهرها، وأصحها[١].

كما اختلفوا في ما بعد (جنادة)؛ أي سلسلة آبائه، على أقوال، منها[٢]:

١ ـ أنه جنادة، بن قيس، بن عمرو، بن صعير، بن عبيد، بن حرام، بن غفار.

٢ ـ أنه جندب، بن جنادة، بن صعير، بن عبيد، بن حرام، بن غفار.

٣ ـ أنه جندب، ابن جنادة، بن سفيان، بن عبيد، بن حرام، بن غفار.

ثانياً ـ سابقته في الإسلام

اتفق مؤرخو حياة أبي ذر رَحِمَهُ اللهُ على أنه كان واحداً من السباقين الأوائل إلى الإسلام، فقد كان يفتخر ويقول (**أنا رابع الإسلام**)[٣]، وقيل إنه (**أسلم في أول المبعث؛ خامس خمسة**)[٤]. وفي ذلك دلالة بالغةٌ على وعيٍ عميقٍ عند أبي

---

(١) التستري، الشيخ محمد تقي، قاموس الرجال، ج١١، ص٣٢٠، ترجمة أبي ذر برقم (٣٣٨).

(٢) القرطبي، ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٢٥٢، ترجمة أبي ذر الغفاري.

(٣) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف (ت٧٤٢ هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج٣٣، ص٢٩٤؛ معرفة الصحابة لأبي نعيم، ج٢، ص٢٥٧.

(٤) الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين (ت٧٤٨ هـ)، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٨، ترجمة أبي ذر الغفاري.

ذر رحمه الله من جهةٍ. وعلى صدقٍ في البحث عن الحق من جهةٍ ثانيةٍ. وعلى حريةٍ فائقةٍ عن المحيط الاجتماعي من جهةٍ ثالثةٍ.

ولا عجب في شيءٍ من ذلك؛ فقد كان رحمه الله **(يتأله في الجاهلية، ويقول لا إله إلا الله، ولا يعبد الأصنام)**(١). كما أنه **(كان رأساً في العلم، والزهد، والجهاد، وصدق اللهجة، والإخلاص)**(٢). ولذلك، **(كان يصدع بالحق؛ وإن كان مراً)**(٣).

ثالثاً ـ علمه وفقهه

كان (رضوان الله عليه) **(من أوعية العلم المبرَّزين)**(٤)، وبالتالي فهو معدودٌ من علماء الصحابة. وفي مقام التفاضل بينهم **(كان يُوازَى بابن مسعود؛ في العلم والدين)**(٥)، وكان حريصاً جداً على العلم ونشره، ولم يخشَ في ذلك أحداً.

وفي هذا الصدد أكتفي بشواهد ثلاثة؛ رواها ابن سعد في طبقاته:

الشاهد الأول ـ ما رواه بإسناده، عن أبي الأسود، قال: قال بن جريج؛ ورجل، عن زاذان، قالا: سُئِل علي (رضي الله تعالى عنه) عن أبي ذر؛ فقال: **وعى علماً عجز فيه. وكان شحيحاً حريصاً؛ شحيحاً على دينه، حريصاً على**

---

(١) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ج٤، ص٢٢٢؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٦٦، ص١٨٥.

(٢) الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين (ت٧٤٨ هـ)، تذكرة الحفاظ، ج١، ص١٧، ترجمة أبي ذر الغفاري.

(٣) المصدر السابق.

(٤) القرطبي، ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٢٥٥، ترجمة أبي ذر الغفاري.

(٥) ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤ هـ)، جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن، ج٩، ص٣٨١.

وقال نحواً من ذلك الذهبيُّ؛ في تذكرة الحفاظ؛ في ترجمة أبي ذر رضي الله عنه، ج١، ص١٧، وقال: وكان يوازي ابنَ مسعود في العلم).

وسيتبين لنا قيمة هذه الموازاة إذا لاحظنا ما وصف به الذهبيُّ الصحابيَّ ابنَ مسعود؛ حيث قال في ترجمته: الإمام الرباني... من نبلاء الفقهاء... كان من سادة الصحابة، وأوعية العلم، وأئمة الهدى) ج١، ص١٣، ١٦.

العلم. وكان يُكثِر السؤالَ؛ فيُعطَى ويُمنَع. أما أن قد مُلِئ له في وعائه حتى امتلأ!)[١].

الشاهد الثاني ـ ما رواه بإسناده عن أبي ذر، قال: لقد تركَنَا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما يقلب طائرٌ جناحيه في السماءِ إلا ذكَّرَنا منه علماً)[٢].

الشاهد الثالث ـ ما رواه بإسناده عن مرثد؛ أو بن مرثد، عن أبيه، قال: جلست إلى أبي ذر الغفاري؛ إذ وقف عليه رجلٌ؛ فقال: ألم ينهك أميرُ المؤمنين عن الفُتيا؟!

فقال أبو ذر:

واللهِ! لو وضعتم الصَّمصامةَ[٣] على هذه؛ وأشار إلى حلقه، على أن أترك كلمةً سمعتُها من رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) لأنفذتُها قبل أن يكون ذلك)[٤].

وفي البخاري، باب العلم قبل القول والعمل، أنه قال: لو وضعتُم الصَّمصامةَ على هذه ـ وأشار إلى قفاه ـ، ثم ظننتُ أني أنفذ كلمةً سمعتُها من النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) قبل أن تُجيزوا عليَّ لأنفذتُها).

وبعد هذه الجولة السريعة في التعريف بهذه القامة الشامخة، نختم بنصين رُوِيا

---

(١) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٥٤، ترجمة أبي ذر.
وعلَّق ابن سعدٍ على النص بقوله:
فلم يدروا ما يريد بقوله «وعى علماً عجز فيه» أعجزٌ عن كشفه، أم عن ما عنده من العلم، أم عن طلب ما طلب من العلم إلى النبي ﷺ» انتهى.
وجاء في حديثٍ عن علي عليه السلام يصف فيه أبا ذر أنه: وعاءٌ مُلئ علماً). انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج٣٣، ص٢٩٧، ترجمة أبي ذر.

(٢) وروى هذا الطبريُّ في تفسيره، ج٩، ص٢٣٦، ذيل قوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام/ ٣٨]. وابن كثير [ج ٣، ٢٢٧]؛ والسيوطي في الدر المنثور [ج ٣، ص٢٦٨]، في ذيلها أيضاً. كما روى ذلك غيرهما.

(٣) الصمصام: السيف الصارم الذي لا ينثني.

(٤) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٥٤، ترجمة أبي ذر رحمه الله.

عن الصادق الأمين خاتم النبيين محمد ﷺ، يؤكدان على مكانة أبي ذر رحمه الله في الملأ الأعلى:

١ ـ روى بريدة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إن الله عزّ وجلّ أمرني بحبِّ أربعةٍ من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم. قلنا: يا رسول الله! فمن هم؟ فكلنا نحب أن نكون منهم. فقال: ألا إن علياً منهم، ثم سكت، ثم قال: ألا إن علياً منهم، وأبو ذر، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي)**[1].

٢ ـ عن علي عليه السلام، عن رسول اللهِ (صلى الله عليه [وآله] وسلم) قال: **ألا إن الجنةَ اشتاقت إلى أربعة من أصحابي، فأمرني ربي أن أحبهم). فانتدب صهيب الرومي، وبلال بن رباح، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، فقالوا: يا رسول الله، مَن هؤلاء الأربعة حتى نحبهم؟ قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم: يا عمار! عرَّفك الله المنافقين، وأما هؤلاء الأربعة فأحدهم: علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود الكندي، والثالث: سلمان الفارسي، والرابع: أبو ذر الغفاري)**[2].

وعلَّق الهيثميُّ؛ صاحبُ مجمع الزوائد، على الحديث بقوله: **رواه الطبرانيُّ في الأوسط، ورجاله ثقاتٌ؛ إلا ابن إسحاق مدلسٌ)**[3].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، ص٢٥٤، باب الأربعة، الحديث ١٢٧. والشيخ المفيد؛ في المجلس الخامس عشر؛ من أماليه، ص١٢٤.
وانظر أيضاً: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٤٨٤، ترجمة (المقدام بن معديكرب بن عمرو)، فقد أورده تحت الرقم (٢٥٦٢) باختلاف يسير، وكذلك أحمد بن حنبل في مسنده، عن بريدة، تحت الرقم (٢٣٠١٤) في طبعة مؤسسة الرسالة. وكذلك رواه الحاكم في مستدركه، تحت الرقم (٤٦٤٩)، وذيَّله بقوله (هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه)، ولم يعقب عليه الذهبي سوى أن قال: ما خرج مسلم لأبي ربيعة). ولم يعجب الألبانيَّ هذا التخريجُ من النيشابوري! ولا الحكمُ من الذهبي!! مما دعاه إلى التعرض للحديث في موضعين، وذلك ضمن تخريجه للحديث رقم (١٥٤٩)، والحديث رقم (٢١٧١)، من سلسلته (الضعيفة)؛ مؤكداً الحكمَ على الحديث بالضعف لأسباب منها (أنه يُشم منه رائحة التشيع!) ج٤، ص٥٥.

(٢) الهيثمي، أبو الحسن نور الدين (ت٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٥٥، تحت الرقم (١٤٩٣١)، تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٦٠، ص١٧٧.

(٣) يجب أن نلفت النظر إلى أن محمد بن إسحاق؛ هذا، وصفه الهيثميُّ نفسُه؛ في كتابه مجمع الزوائد=

علماً أن لهذا الحديث؛ على اختلاف ألفاظه، طرقاً أخرى وشواهد ومتابعات تدعو ـ بمجموعها ـ إلى الاطمئنان بصدور مضمونه عن النبي ﷺ.

رابعاً ـ صلابته في الحق

كان لأبي ذر رحمه الله؛ وهو العالم الرباني، صولاتٌ وجولاتٌ في الأمر

=بالوثاقة؛ فقال (وهو ثقة)؛ كما جاء في (باب الصلاة بالثوب الواحد وأكثر منه)، ج٢، ص٤٨، وكذلك في (باب ما تستفتح به الصلاة)، ج٢، ص١٠٧، وأيضاً في (باب تكفير الذنوب بالصلاة، باب في صلاة الليل)، ج٢، ص٢٥٢، وغيرها، مع التأكيد فيها جميعاً على وصفه إلى جانب ذلك بأنه (مدلس) في سياق تضعيف أحاديثه.

مع أن التدليس وُصِف به كثيرٌ من رواة العامة؛ بل أكابرهم؛ لأن ثمةَ ما يشبه الاتفاقَ على استبعاد بعض الرواة من دائرة المعتمدين؛ لأسبابٍ معلومةٍ!! منها روايتُهُم لِما يخالف معتقداتِ المحدثين والرجاليين العامة.

ومحمد ابن إسحاق من هؤلاء المستبعَدين، وقد اتخذوا من وصف التدليس ذريعةً لهذا الاستبعاد، مع أن هذا الوصفَ بعينه ـ كما قدمنا قبل قليل ـ جاء في حق آخرين ولم يُستبعدوا.

وإلا فإن الرجل موصوف بأنه (ثقة)؛ كما ذكرنا عن الهيثمي، وهو (صدوق) عند ابن حنبل؛ كما جاء في موسوعة الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله تحت الرقم (٢٢٧٥)، وأما الذهبي فقد وصفه بـ(العلامة الحافظ)؛ وذلك في ترجمته إياه في سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٣٣.

وابن إسحاق ممن روى عنه شعبةُ؛ وهو الذي قيل في حقه إنه (لا يروي إلا عن ثقة) [انظر: فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، ج٢، ص٤٥، فصل التعديل المبهم؛ صحيح أبي داود للألباني ج١، ص٣٥٦، باب الرخصة في ذلك؛ أي الوضوء من اللبن، ج٢، ص٤٤٣، باب رفع الصوت بالأذان وغيرهما].

بل إن شعبة كان يبالغ في الإشادة بابن إسحاق؛ حتى وصفه بقوله (**أمير المؤمنين في الحديث**)، وقال (**لو كان لي سلطان لأمَّرتُ ابنَ إسحاق على المحدثين**) [انظر: ميزان الاعتدال ـ ترجمة محمد بن إسحاق، وكذلك الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي؛ في ترجمة محمد بن إسحاق أيضاً].

ومن المفيد نقلُ ما أورده الذهبي؛ في ترجمة ابن إسحاق في السير [ج ٧، ص٣٨]؛ بمناسبة قدح مالك بن أنس في محمد بن إسحاق؛ حيث حكى ما قاله الخطيب: **ذكر بعضُهُم أن مالكاً عابه جماعةٌ من أهل العلم في زمانه؛ بإطلاق لسانه في قومٍ معروفين بالصلاح، والديانة، والثقة، والأمانة**).

وقد أراحنا الذهبيُّ بالكشف عن سبب القدح في ابن إسحاق؛ حيث قال:

وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غيرُ واحدٍ من العلماء؛ لأشياء، منها: **تشيعه**، ونُسب إلى القدر، ويدلِّس في حديثه، **فأما الصدقُ فليس بمدفوعٍ عنه**) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٣٨.

فقد بان أن السر وراء الطعن فيه هو (التشيع)!! ويا لها من جريمة لا تغتفر!!

بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ما اعوجّ من شؤون الأمة، ملتزماً ما عاهد عليه النبيَّ ﷺ. وقد تحمل في هذا السبيلِ الكثيرَ من العنت والأذى؛ حتى نُفي ومات غريباً؛ كما أخبره رسول الله ﷺ من قبلُ.

وما دعا أبا ذر رحمه الله إلى خياره هذا هو أنه تلقى عن رسول الله ﷺ علماً؛ عرف به الحقَّ ولزومَ العمل به. وقد كان (من أوعية العلم المبرزين)[1]؛ كما قدمنا، كما أن واقع الأمة السياسي والاجتماعي بعيدٌ جداً عن تعاليم الإسلام؛ كما تلقاها أبو ذر رحمه الله عن رسول الله ﷺ، وقد عمَّ ذلك من جهةٍ، وزاد قمع السلطات المنحرفة لمن يخالفهم من جهةٍ ثانيةٍ، وندر مَن يجهر بالحق ويصدع به من جهةٍ ثالثةٍ، وكان أبو ذر رحمه الله واحداً من هؤلاء النادرين؛ حتى روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **لم يبق ـ اليوم ـ أحدٌ لا يبالي في الله لومةَ لائمٍ غير أبي ذر...)**[2].

وقد كان رحمه الله صارماً في تعامله مع السلطة التي رآها منحرفةً عن نهج الإسلام كما جاء به النبي محمد ﷺ؛ حتى إنه كان يبني علاقاته مع الناس على أساس قربهم من هذه السلطة وبُعدهم عنها.

وتطبيقاً لهذا النهج فقد التقاه أبو موسى الأشعري ذات يوم، وأراد أن يلتزمه، وخاطبه بقوله (مرحباً بأخي)، فكان جواب أبي ذر رحمه الله أن دفعه وقال له: **لستُ بأخيك! إنما كنت أخاك قبل أن تُستعمَل)**[3]. هذا، مع العلم أن أبا موسى صحابيٌّ! ولم يكن أبو ذر ليفعل ما فعل لولا أنه كان يرى في سلطة زمنه أنها

---

(١) القرطبي، ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٢٥٥، ترجمة أبي ذر الغفاري.

(٢) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ترجمة أبي ذر، ج٤، ص٢٣١؛ تاريخ دمشق، ج٦٦، ص١٩٤؛ مختصر تاريخ دمشق، ج٢٨، ص٢٩٥؛ سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٦٤.

(٣) ابن سعد، محمد (ت٢٣٠ هـ)، الطبقات الكبرى، ترجمة أبي ذر، ج٤، ص٢٣٠، وعنه الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٧٤، وفيه (تلي) بدل (تستعمل). وقد علق المحقق ـ في الهامش ـ بأن رجالَه ثقاتٌ.

حادت عن الصراط المستقيم؛ الأمر الذي يجعل التقرب منها مدعاةً للخروج عن تعاليم النبي (صلى الله عليه وآله).

وقد ذكرنا ـ سابقاً ـ أنه منع مَن عمل في أجهزة السلطة أن يتولى تغسيله، أو تكفينه، أو دفنه.

لهذه الشمائل والخِلال حظي أبو ذر ﷺ بمكانةٍ عند الله تعالى أولاً؛ حتى إنّ الجنةَ لتشتاق إليه في مَن تشتاق إليهم، وعند رسول الله ﷺ ثانياً؛ حتى ورد أن رسول الله ﷺ كان (**لَيُدنِي أبا ذرٍّ إذا حضر، ويفتقده إذا غاب**)[١]. وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ، على فضله بين الصحابة، وعلو قدره عند رسول الله ﷺ.

تنويه:

لعل القارئ النابه لاحظ أننا اعتمدنا؛ في أغلب ما حكيناه من مواد، للتعريف بشخصية أبي ذر (رضوان الله عليه)، على ما ورد في مدرسة الخلفاء؛ إذا صح التعبير، وذلك بسبب أن ورود ما نقلناه من المادة المعرِّفة بأبي ذر ﷺ، والمادحة له، فيها، أدعى للتثبت والتسليم بحسن سيرة هذا الرجل.

ولو أننا نقلنا ما جاء في مصادر مدرسة أهل البيت ﷺ؛ وهو كثيرٌ ووفيرٌ، لسهل على الطاعن أن يغمز، والمشكك أن يستريب.

---

(١) الطبراني، أبو القاسم (ت٣٦٠ هـ)، مسند الشاميين، الحديث ١٤٦٤، ج٢، ص٣٤٤، عن أبي الدرداء؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٣٣٠؛ جامع المسانيد والسنن، ج٩، ص٣١٩.



نص الوصية

رُوِيت هذه الوصية في عدد من المصادر. فقد رواها الشيخ الطوسي في (الأمالي) بإسناده، وقال:

حدثنا الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي رَحِمَهُ اللهُ، قال: أخبرنا جماعة، عن أبي المفضل، قال: حدثنا رجاء بن يحيى بن الحسين العبرتائي الكاتب سنة أربع عشرة وثلاث مائة وفيها مات، قال. حدثنا محمد بن الحسن بن شمون، قال: حدثني عبدالله بن عبد الرحمن الأصم، عن الفضيل بن يسار، عن وهب بن عبدالله بن أبي دبي الهنائي، قال: حدثني أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي، عن أبيه أبي الأسود، قال: قدمت الربذة فدخلت على أبي ذر جندب بن جنادة فحدثني أبو ذر...)[1].

ورواها الشيخ ورَّام مرسلةً في كتابه (تنبيه الخواطر ونزهة الخواطر)؛ بعنوان (حديث أبي ذر). كما أوردها بتمامها السيد محسن الأمين في ترجمة أبي ذر جندب بن جنادة.

وأما اعتبارها فإن مضامينها تتفق ومضامين الكتاب الكريم وما ثبت من السنة، حتى أن الفقهاء قد أوردوا بعض فقراتها في مقام الاستدلال على أحكام فقهية عديدة. وكذلك اعتمدها المحدث الحر العاملي في كتابه وسائل الشيعة؛ حيث أوردها مفرقة في أبواب كتابه، الأمر الذي يعني أن الوصية معتبرة عندهم؛ من حيث جواز الاعتماد عليها؛ ولو في الجملة[2].

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)، الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الاسلامية ـ مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثقافة، ص٥٢٥.

(٢) كنماذج على ذلك: =

وروى هذه الوصية الشيخ الطبرسي رحمه الله؛ في كتاب مكارم الأخلاق، بطريقين عن الشيخ الطوسي؛ ونقلها عنه المحدث المجلسي في موسوعته (بحار الأنوار)؛ وهو النص الذي اعتمدناه في هذه الدراسة[١]؛ فقال:

يقول مولاي أبي؛ طول الله عمره، الفضل بن الحسن: هذه الأوراق من وصية رسول الله ﷺ لأبي ذر الغفاري (رضي الله عنه)؛ التي أخبرني بها الشيخ المفيد، أبو الوفاء، عبد الجبار بن عبدالله؛ المقرئ، الرازي[٢]، والشيخ الأجل الحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه (رضي الله عنهما)[٣]؛ إجازةً، قالا:

= انظر: الحدائق الناضرة للفقيه الشيخ يوسف البحراني، كتاب الصلاة، فضل السعي إلى المساجد، ج٧، ص٢٦٤، ومبحث (صلاة تحية المسجد)، ج١٠، ص٥٤٥، ومبحث عدم منافاة النهي عن موادة الذمي للوصية له، ج٢٢، ص٥٢١.

وانظر ـ أيضاً ـ: رياض المسائل للفقيه السيد علي الطباطبائي، كتاب الطهارة، مبحث سنن الخلوة، ج١، ص٢٠٨، وكتاب الصلاة، مبحث استحباب النافلة في المنزل، ج٣، ص٢٦٦.

وانظر ـ أيضاً ـ: مستند الشيعة للفقيه الشيخ أحمد النراقي، كتاب الطهارة، مبحث مستحبات التخلي، ج١، ص٣٨٣. وكتاب الصلاة، مبحث استحباب أداء الصلوات في المساجد، ج٤، ص٤٧٢.

وانظر ـ أيضاً ـ: جواهر الكلام للفقيه الشيخ محمد حسن النجفي، كتاب الطهارة، استحباب تغطية الرأس حال التخلي، ج٢، ص٥٥، وكتاب الصلاة، مبحث فضيلة أول الوقت، ج٧، ص٧٣، ومبحث استحباب الاذان والإقامة ووجوبهما، ج٩، ص١٨، وكتاب الصلاة، مبحث كراهة البيع والشراء... في المساجد...، ج١٤، ص١١٢، وكتاب الأطعمة والأشربة، مبحث استحباب إجابة دعوة المؤمن، ج٣٦، ص٧٢.

(١) انظر: بحار الأنوار، ط الأميرة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م ـ ١٤٢٩هـ، ج٧٤، ص٢٦٧ ـ ٢٧٨، كتاب الروضة، الباب ٤، ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي ذر رحمه الله، الحديث ٣.

(٢) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

أحمد بن علي الرازي (.. ـ..) يكنى: أبا الفتاح.

روى عن: أبي الوفاء عبد الجبار بن عبدالله بن علي المقرئ الرازي، وأبي علي الحسن بن أبي جعفر الطوسي. روى عنه: محمد بن علي بن شهرآشوب السروي المازندراني (المتوفى ٥٨٨ هـ).

قال عبدالله أفندي التبريزي: كان فاضلًا، عالماً، فقيهاً.

واحتمل أنّه أخو المفسر أبي الفتوح الحسين بن علي الرازي (المتوفى بعد ٥٥٢ هـ» موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ٢٠٧٤، ج٦، ص٢٤.

(٣) ترجم له أصحاب موسوعة الفقهاء على النحو التالي: =

أملى علينا الشيخ الأجل أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (قدس سره)[1].

= حَسَكا (ـ.. حدود ٥١٢هـ) الحسن بن الحسين بن الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، نزيل الري، الملقب بـ(شمس الإسلام)، والمعروف بـ (حسكا)، وهو جدّ منتجب الدين صاحب «الفهرست».

أخذ عن كبار فقهاء الطائفة: فقرأ بالغري (النجف) على أبي جعفر الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ) جميع تصانيفه.

وقرأ على: سلار بن عبد العزيز الديلمي، وابن البراج الطرابلسي، جميع تصانيفهما أيضاً.

وروى عن: عمّه أبي جعفر محمد بن الحسن بن الحسين، والسيد أبي عبدالله الحسين بن الحسن بن زيد بن محمد الحسيني القصبي الجرجاني.

وكان من أكابر شيوخ الامامية، فقيهاً، وجهاً.

روى عنه: ابنه عبيد الله بن الحسن، والمفسّر الفضل بن الحسن الطبرسي، وعماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري في سنة (٥١٠ هـ)، والحسين بن أحمد ابن طحال المقدادي. وصنّف كتباً، منها: **العبادات، الأعمال الصالحة**، وسير **الأنبياء والأئمّة** عليهم السلام، **موسوعة طبقات الفقهاء**، برقم ٢١٢٠، ج٦، ص٦٩.

(١) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

الطوسي (١١٨٢ ـ ١٢٥٧ هـ) محمد بن الحسن الطوسي (المشهدي) الخراساني، الفقيه الإمامي.

ولد في مشهد سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف.

ودرس مقدّمات العلوم.

وارتحل إلى العراق لاستكمال دراسته في الفقه والأصول وسائر الفنون، فحضر في الحائر (كربلاء) على السيد علي بن محمد علي الطباطبائي الحائري، وعلى محمد شريف بن حسن علي المازندراني الحائري، وأخذ في النجف الأشرف عن جعفر بن خضر الجناجي النجفي صاحب «كشف الغطاء».

وبرع في حياة أساتذته، وشرع في تأليف بعض كتبه.

ثم عاد إلى مشهد، فتصدى بها للتأليف والتدريس والإفادة، وأسّس مكتبة ضخمة.

وكان كثير الاعتناء بتلامذته.

أخذ عن جماعة، منهم نوروز علي البسطامي.

وصنَّف كتباً ورسائلَ، منها: الفيروزجة الطوسية في شرح «الدرة الغروية» في الفقه للسيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي، أنجزه في الحائر سنة (١٢٢٧ هـ)، رسالة كشف الغطاء عن حكم الغناء، رسالة في أحكام الذهب والفضة، زبدة وجيزة في تحقيق المقادير الشرعية، كتاب في أصول الفقه، مرشد الخواص في حل بعض الآيات والروايات المشكلة وفقرات الأدعية والزيارات، حجّة الشيعة، وكنز الذهب في ترجمة الرسالة الذهبية في الطب للإمام الرضا عليه السلام إلى الفارسية وشرحها، وغير ذلك.

توفي سنة سبع وخمسين ومائتين وألف) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ٤٢٤٠، ج١٣، ص٤٥٧ ـ ٤٥٨.

وأخبرني بذلك الشيخ العالم الحسين بن الفتح؛ الواعظ الجرجاني[1]؛ في مشهد الرضا عليه السلام، قال:

أخبرنا الشيخ الإمام أبو علي الحسن بن محمد الطوسي[2]، قال:

---

(١) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:
الحسين بن الفتح (ـ. ٥٣٦ هـ)، وقيل ابن أبي الفتح محمد الواعظ البكرآبادي، الجرجاني، الملقب بـ (موفق الدين)، أحد فقهاء الشيعة.
قرأ على أبي علي الحسن بن أبي جعفر الطوسي. وأخذ عن علماء بيهق، وقد سكنها مدة.
وأخذ بنيسابور الأدب واللغة.
ثم قفل إلى بلاده جرجان، وتوفي بها سنة ـ ست وثلاثين وخمسمائة. تفقّه به سديد الدين محمود بن علي الحمصي الرازي.
وروى عنه المفسِّر الفضل بن الحسن الطبرسي) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم **٢١٣٩**، ج٦، ص٨٨.

(٢) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:
أبو علي الطوسي (ـ. بعد ٥١٥ هـ) أبو علي الحسن بن فقيه الشيعة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، يُلقَّب بالمفيد، وبالمفيد الثاني مقابل المفيد الأول محمد بن محمد بن النعمان.
تلمَّذ على أبيه (المتوفى ٤٦٠ هـ)، وقرأ عليه جميع تصانيفه، وروى عنه وعن: سلار بن عبد العزيز الديلمي، و(أبي الطيب الطبري، والخلَّال، والتنوخي).
وكان من كبار العلماء، فقيهاً، محدِّثاً، راويةً للأخبار.
اثنى عليه ابن حجر، وقال فيه: فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي رضي الله عنه (في النجف الأشرف).
وقال الصفدي: رحلت طوائف الشيعة إليه إلى العراق، وحملوا عنه، وكان ورعاً عالماً متألِّهاً كثير الزهد، وبين عينيه كرُكبة العنز من أثر السجود، وكان يسترها.
أثنى عليه السمعاني) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم **٢١٢٩**، ج٦، ص٧٨.
قرأ عليه طائفةٌ من الفقهاء، منهم:
بدر بن سيف بن بدر العُرَني، وأردشير ابن أبي الماجد، وإسماعيل بن محمود بن إسماعيل الجبلي، والحسين بن أحمد بن طحال المقدادي، وأبو النجم الضياء بن إبراهيم بن الرضا الحسني الشجري، وظفر بن الداعي بن ظفر الحمداني، وغيرهم.
وكان يحدّث بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام.
وقد روى كتاب «الأمالي» لأبيه.
روى عنه: الحسين بن هبة الله بن رطبة السوراوي، ولطف الله بن عطاء بن أحمد الحسني الشجري، وعماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري، وإلياس بن هشام الحائري، وعبيد الله بن الحسن ابن بابويه والد منتجب الدين، و(أبو الفضل بن عطاف، وهبة الله السقطي، ومحمد بن محمد النسفي) وآخرون.=

حدثني أبي الشيخ أبو جعفر (قدس سره)، قال:

أخبرنا جماعة، عن أبي المفضل؛ محمد بن عبدالله بن محمد بن المطلب الشيباني[(١)]، قال:

حدثنا أبو الحسن رجاء بن يحيى العبرتائي؛ الكاتب؛ سنة أربع عشرة وثلاثمائة؛ وفيها مات[(٢)]، قال:

=وقد نُسبت لأبي علي تصانيف، هي: شرح «النهاية» لأبيه أبي جعفر، المرشد إلى سبيل التعبد، رسالة في الجمعة، والأنوار. وروى له الشهيد الأول في أربعينه عدةَ أحاديث.

قال ابن حجر: مات في ـ حدود الخمسمائة. وقال غيره: إنه كان حياً في سنة (٥١٥ هـ) كما في مواضع من «بشارة المصطفى» لتلميذه العماد الطبري.

(١) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

أبو المفضل الشيباني (٢٩٧ ـ ٣٨٧ هـ) محمد بن عبدالله بن محمد بن عبيد الله الشيباني، أبو المفضل الكوفي، نزيل بغداد.

ولد سنة سبع وتسعين ومائتين.

وسافر في طلب الحديث عمره، فزار مصر، والشام، والجزيرة، وغيرها.

حدَّث عن: محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن محمد الباغندي، وعبدالله ابن محمد البغوي، ومحمد بن القاسم بن زكريا المحاربي، ومحمد بن عبد الحي بن سويد الحربي، وطائفة.

وحدث عن محمد بن جعفر بن بطة المؤدِّب، وقرأ عليه ببغداد، وله منه إجازة.

وقد صنَّف أبو الفرج القناني الكاتب كتاباً في مشايخ أبي المفضل، سماه «معجم رجال أبي المفضل».

حدث عنه: تمَّام الرازي، والحسن بن محمد الخلال، وأبو القاسم التنوخي، وأبو العلاء الواسطي.

وسمع منه أبو العباس النجاشي كثيراً، ثم توقف عن الرواية عنه إلا بواسطة.

وكان محدِّثاً، حافظاً، كثيرَ الرواية، أخبارياً، كثيرَ التصانيف.

وكان يملي في مسجد الشرقية ببغداد. من تصانيفه: الفرائض، من روى حديث غدير خم، مزار الحسين عليه السلام، الدعاء، الشافي في علوم الزيدية، أخبار أبي حنيفة، ومن روى عن زيد بن عليّ بن الحسين، وغيرها.

توفي سنة ـ سبع وثمانين وثلاثمائة) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ١٦٠٥، ج٤، ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٢) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

رجاء بن يحيى (.. حدود ٣١٠ هـ) ابن سامان، أبو الحسين العَبَرْتائي الكاتب، من أصحاب الهادي عليه السلام.

قال أبو بكر الخطيب:

رجاء بن محمد بن يحيى: حدَّث عن: أبي هاشم داود ابن القاسم الجعفري، وحمّاد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي. روى عنه أبو المفضَّل الشيباني. =

حدثنا محمد بن الحسين بن ميمون[١]، قال:

حدثني عبدالله بن عبد الرحمن الأصم[٢]، عن الفُضَيْل بن يسار[٣]، عن

= وروى رجاء رسالة تسمى «المقنعة» في أبواب الشريعة، رواها عنه أبو المفضل محمد بن عبدالله بن محمد الشيباني.

أقول: بقي المترجم إلى أوائل القرن الرابع لرواية أبي المفضل (٢٩٧ ـ ٣٨٧ هـ) عنه، وقد عُني أبو المفضل بطلب الحديث منذ صغره) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ١٤٠٥، ج٤، ص١٩٦.

قلت: صريح سند الخبر أنه توفي سنة ٣١٤هـ، فلاحظ.

(١) قال النمازي: لم يذكروه. وقع في طريق الطبرسي في المكارم في حديث وصية الرسول لأبي ذر عن رجاء بن يحيى العبرتائي، عنه) مستدركات علم رجال الحديث، برقم ١٣١٩٤، ج٧، ص٦٤.

(٢) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

عبدالله بن عبد الرحمن الأصمّ (...) المِسْمَعي، أبو محمد البصري.

روى عن: أبي عبدالله البزّاز، وحريز بن عبدالله، وشعيب، وعبد الرحمن بن الحجاج البجلي، وعبدالله بن القاسم البطل، وأبي بكر عبدالله بن محمد الحضرمي، وعبدالله بن مسكان، وكُلَيْب الأسدي، ومسمع بن عبد الملك كردين، والهيثم بن واقد، وكرام.

روى عنه: إبراهيم بن هاشم، وأحمد بن محمد الكوفي، ومحمد بن جمهور، ومحمد بن حبيب، ومحمد بن الحسن بن شمون، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب.

وجاء في إسناد جملةٍ من روايات أهل البيت عليهم السلام تبلغ أكثر من خمسة وسبعين مورداً. ضعّفه أبو العباس النجاشيُّ، وغيره. له كتاب المزار، وكتاب الناسخ والمنسوخ، رواهما عنه محمد بن عيسى بن عبيد.

روى الشيخ الطوسي بسنده عن عبدالله بن عبد الرحمن الأصم، عن مسمع عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنَّ علياً عليه السلام قضى في شحمة الأُذن ثلث دية الأُذن) موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ٩٨٤، ج٣، ص٣٤٠.

(٣) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء، على النحو التالي:

الفُضَيْل بن يَسار (.. ـ قبل ١٤٨ هـ) النَّهدي، الفقيه، المحدِّث، الثقة، أبو القاسم، وأبو مسور البصري.

روى عن: زكريا النقاض، وعبد الواحد بن المختار الأنصاري.

روى عنه: أبان بن عثمان الأحمر، وجميل بن دَرّاج، وجميل بن صالح الأسدي، وحريز بن عبدالله، والحسن بن الجهم، والحسن بن زياد الصيقل، والحسين بن موسى الحناط، وخلف بن حماد، ودرست بن أبي منصور، وربعي بن عبدالله بن الجارود الهُذلي، وسيف بن عميرة النخعي، وعبد الكريم بن عمرو الخثعمي، وعبدالله بن بُكير، وحماد بن عثمان، وعلي بن رئاب، وعمر بن أُذينة، وموسى بن بكر، وولده القاسم بن الفضيل، وحفيده محمد بن القاسم بن الفضيل، وغيرهم.

وكان من حملة الحديث، ورجال الفقه، أخذ العلم عن الإمام محمد الباقر، وولده الإمام جعفر الصادق عليهما السلام وروى عنهما، ووقع في اسناد كثير من الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، تبلغ مائتين وأربعة وخمسين مورداً. وله كتاب يرويه عنه جماعة. =

وهب بن عبدالله الهُنَائي[١]، قال: حدثني أبو حرب ابن أبي الأسود الديلي[٢]، عن أبي الأسود[٣]، قال:

= وهو أحد الفقهاء الأعلام؛ المأخوذ منهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام، ومن أصحاب الإجماع؛ الذين أجمعت الشيعة على تصديقهم؛ من أصحاب الباقر والصادق عليهما السلام.

وقد وردت أخبار في مدح الفضيل، منها: أن الإمام الصادق عليه السلام كان إذا نظر إلى الفضيل بن يسار مقبلاً، قال: بشِّر المخبتين. وكان يقول: إن فضيلاً من أصحاب أبي، وإني لأُحبُّ الرجلَ أن يحبَّ أصحابَ أبيه).

روي عن الفضيل بن يسار أنه قال: قال لي جعفر بن محمد عليه السلام: رضاع اليهودية والنصرانية خير من رضاع الناصبية).

روى الشيخ الكليني بسنده عن ربعيّ، عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله [ولا يغتابه، ولا يخونه، ولا يحرمه]).

توفي الفضيل في حياة الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام، موسوعة طبقات الفقهاء، برقم ٦٠٣، ج٢، ص٤٥٠ ـ ٤٥١.

(١) ترجم له ابن حجر بقوله:

وهب بن عبدالله بن أبي ذبي؛ بموحدة مصغراً، الهُنائي؛ بضم الهاء ونون ومد، الكوفي، وقد ينسب لجده. ثقة. من الخامسة. وروايتُهُ عن سلمان مرسلةٌ) تقريب التهذيب، برقم ٧٥٠٥، ج٢، ص٢٩٢.

(٢) قال عنه السيد الأمين:

ذكره محمد بن سعد في الطبقات الكبير؛ في عداد من نزل البصرة من الصحابة والتابعين وأهل العلم والفقه؛ فقال: «أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي، وكان معروفاً، وله أحاديث»اهـ. وذكره ابن حجر في تهذيب التهذيب، وقال: ذكره ابن حبان في الثقات...) أعيان الشيعة، ج٢، ص٣٢٠، تحت عنوان (أبو حرب الدؤلي البصري).

(٣) ترجم له أصحاب موسوعة طبقات الفقهاء على النحو التالي:

ظالم بن عمرو، ويقال: عمرو بن ظالم، ويقال: عمرو بن سفيان، أبو الأسود الدُّوَلي، ويقال: الدِّيلي، البصري. كان من كبار التابعين، وذكره ابن شاهين في الصحابة. وكان ممن أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وآله، وهاجر إلى البصرة على عهد عمر بن الخطاب.

روى عن: عمر، وعلي عليه السلام، وأبي ذر، وابن مسعود، وأُبَيُّ بن كعب، والزبير بن العوام، وطائفة.

روى عنه: ابنه أبو حرب، ويحيى بن يعمر، وعبدالله بن بُريدة، وآخرون.

وكان أحد سادات المحدِّثين والفقهاء والشعراء والدهاة والنحاة، وكان من وجوه الشيعة، ومن أكملهم عقلاً ورأياً. وقد أمره الإمام علي عليه السلام بوضع شيء في النحو لَمَّا سمع اللحنَ، فأراه أبو الأسود ما وضع، فقال عليٌّ عليه السلام: ما أحسن هذا النحو الذي نحوْتَ»، فمن ثَمَّ سمِّي نحواً.

قال أبو عُبيدة: أخذ أبو الأسود عن عليٍّ العربية، وهو أول من نقط المصاحف. =

قدمتُ الربذة، فدخلت على أبي ذر جندب ابن جنادة (رضي الله عنه)، فحدثني أبو ذر، قال:

دخلتُ ذاتَ يومٍ؛ في صدر نهاره، على رسول الله ﷺ؛ في مسجده، فلم أرَ في المسجد أحداً من الناس إلا رسول الله ﷺ؛ وعليٌّ عليه السلام إلى جانبه جالسٌ، فاغتنمتُ خلوةَ المسجد، فقلت:

١ ـ يا رسولَ الله! بأبي أنت وأمي، أوصني بوصيةٍ ينفعني الله بها.

٢ ـ فقال: نعم، وأكرِم بك يا أبا ذر! إنك منا أهلَ البيت.

٣ ـ وإني موصيك بوصيةٍ فاحفظها؛ فإنها جامعةٌ لطرقِ الخير وسبلِه؛ فإنك إن حفظتها كان لك بها كِفلان.

٤ ـ يا أبا ذر! اعبدالله كأنك تراه؛ فإن كنتَ لا تراه فإنه[١] يراك[٢].

٥ ـ واعلم أن أولَ عبادةِ الله المعرفةُ به؛ فهو الأول قبل كلِّ شيءٍ؛ فلا شيءَ

= عُدّ من أصحاب الأئمة: علي والحسن والحسين والسجاد عليهم السلام، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام وقعة صفين.

قال ابن خلكان: وكان ينزل البصرة في بني قشير، وكانوا يرجمونه بالليل لمحبته علياً (كرم الله وجهه)، فإذا ذكر رجمهم قالوا: إن اللهَ يرجمك! فيقول لهم: تكذبون، لو رجمني الله لأصابني، ولكنكم ترجمون ولا تصيبون). [موسوعة طبقات الفقهاء، ج١، ص٤٠٩ ـ ٤١٠].

وجاء في نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص١٩، أن أبا الأسود:

في من صحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ وكان من المشهورين بصحبته ومحبته ومحبة أهل بيته، وفي ذلك يقول:

يقول الأرذلون بنو قُشيْرٍ... طوال الدهر لا تنسى علياً

فقلت لهم: فكيف يكون تركي... من الأعمال ما يحصى عليا

أحب محمدا حُبّاً شديداً... وعباساً وحمزةَ والوصيَّا

فإن يكُ حبهم رشداً أُصِبه... وفيهم أسوةٌ إن كان غياً

فكم رشداً أصبتُ وحزتُ مجداً... تقاصر دونه هامُ الثرياً).

(١) في الأمالي للشيخ الطوسي (**فإنه عزّ وجلّ**).

(٢) **أقول**: ترقيم فقرات الوصية منا، وليس من أصل الوصية الشريفة، وذلك من أجل تسهيل الإحالة إليها أثناء توزيع البحوث.

قبله، والفردُ فلا ثانيَ له، والباقي لا إلى غايةٍ، فاطرُ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيفُ الخبيرُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ.

٦ ـ ثم الإيمان بي، والإقرار بأن الله تعالى[١] أرسلني إلى كافة الناس؛ بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً.

٧ ـ ثم حبّ أهل بيتي؛ الذين أذهب الله عنهم الرجسَ، وطهرهم تطهيراً.

٨ ـ واعلم ـ يا أبا ذر ـ أن الله عزّ وجلّ[٢] جعل أهل بيتي؛ في أمتي، كسفينةِ نوحٍ؛ مَن ركبها نجا، ومَن رغب عنها غرق، ومثلَ بابِ حطةٍ؛ في بني إسرائيل، من دخلها كان آمناً.

٩ ـ يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به[٣] تكن سعيداً في الدنيا والآخرة.

١٠ ـ يا أبا ذر! نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة، والفراغ.

١١ ـ يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك.

١٢ ـ يا أبا ذر! إياك والتسويفَ بأملك؛ فإنك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غدٌ لك فكن في الغد كما كنتَ في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندمْ على ما فرَّطتَ في اليوم[٤].

١٣ ـ يا أبا ذر! كم من مستقبلٍ يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه.

١٤ ـ يا أبا ذر! لو نظرت إلى الأجلِ ومسيرِهِ لأبغضتَ الأملَ وغرورَه.

١٥ ـ يا أبا ذر! كن كأنك في الدنيا غريبٌ، أو كعابرِ سبيلٍ، وعدَّ نفسَك من أصحاب القبور.

---

(١) في الأمالي للشيخ الطوسي (بأن الله عزّ وجلّ).

(٢) في الأمالي للشيخ الطوسي (أن الله تعالى).

(٣) في الأمالي للشيخ الطوسي (ما أوصيتُك به).

(٤) في الأمالي للشيخ الطوسي (تكن في الغد كما كنت في اليوم؛ وإن إن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرطت في اليوم).

١٦ ـ يا أبا ذر! إذا أصبحتَ فلا تحدِّثْ نفسَك بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تحدِّثْ نفسَك بالصباح. وخذْ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك؛ فإنك لا تدري ما اسمُك غداً.

١٧ ـ يا أبا ذر! إياك أن تدركك الصرعة عند العثرة؛ فلا تقال العثرة، ولا تُمكَّن من الرجعة، ولا يحمدك مَن خلَّفت بما تركتَ، ولا يعذرك مَن تُقدِم عليه بما اشتغلتَ به.

١٨ ـ يا أبا ذر! كن على عمرك أشحَّ منك على درهمك وديناركِ.

١٩ ـ يا أبا ذر! هل ينتظرُ أحدٌ إلا غِنى مطغِياً، أو فقراً منسِياً، أو هرماً مفنِداً، أو موتا مجهِزاً، أو الدجال؛ فإنه شرٌّ غائبٌ ينتظر، أو الساعة؛ فالساعةُ أدهى، وأمرُّ.

٢٠ ـ يا أبا ذر! إن شرَّ الناسِ منزلةً عند الله؛ يومَ القيامة، عالمٌ لا ينتفع بعلمه. ومَن طلب علماً ليصرف به وجوهَ الناس إليه لم يجد ريح الجنة.

٢١ ـ يا أبا ذر! مَن ابتغى العلمَ ليخدع به الناسَ لم يجد ريحَ الجنة.

٢٢ ـ يا أبا ذر! إذا سُئلتَ عن علمٍ لا تعلمه فقل: لا أعلمه؛ تنجُ من تبعتِهِ. ولا تُفتِ بما لا علمَ لك به؛ تنجُ من عذاب الله يوم القيامة.

٢٣ ـ يا أبا ذر! يطَّلع قومٌ من أهل الجنة على قومٍ من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النارَ؛ وقد دخلنا الجنةَ لفضل تأديبكم وتعليمكم؟! فيقولون: إنا كنا نأمر بالخيرِ ولا نفعله.

٢٤ ـ يا أبا ذر! إن حقوقَ الله جل ثناؤه أعظمُ من أن يقوم بها العبادُ. وإن نعم الله أكثرُ من أن يحصيها العبادُ، ولكن أمسُوا، وأصبحوا تائبين.

٢٥ ـ يا أبا ذر! إنكم في ممر الليل والنهار في آجالٍ منقوصةٍ، وأعمالٍ محفوظةٍ، والموتُ يأتي بغتةً. ومن يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً. ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامةً، ولكلِّ زارعٍ مثلُ ما زرع.

٢٦ ـ لا يسبق بطيءٌ بحظه، ولا يدرك حريصٌ ما لم يُقدَّر له، ومَن أُعطي خيراً فاللهُ أعطاه، ومن وُقي شراً فالله وقاه.

٢٧ ـ يا أبا ذر! المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة.

٢٨ ـ إن المؤمنَ ليرى ذنبه كأنه تحت صخرة؛ يخاف أن تقع عليه، وإن الكافرَ يرى ذنبه كأنه ذباب؛ مرَّ على أنفه.

٢٩ ـ يا أبا ذر! إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل ذنوبَه بين عينيه ممثَّلةً، والإثمَ عليه ثقيلاً وبيلاً. وإذا أراد بعبدٍ شراً أنساه ذنوبه.

٣٠ ـ يا أبا ذر! لا تنظرْ إلى صِغرِ الخطيئةِ، ولكن انظر إلى مَن عصيتَ.

٣١ ـ يا أبا ذر! إن المؤمنَ أشدُّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور؛ حين يُقذف به في شركه.

٣٢ ـ يا أبا ذر! مَن وافق قولُه فعلَه فذاك الذي أصاب حظَّه، ومَن خالف قولُه فعلَه فإنما يوبخ نفسه.

٣٣ ـ يا أبا ذر! إن الرجلَ ليحرم رزقه بالذنب يصيبه.

٣٤ ـ يا أبا ذر! دعْ ما لستَ منه في شيءٍ؛ فلا تنطق بما لا يعنيك. واخزِن لسانَك كما تخزِن ورِقَك.

٣٥ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ جل ثناؤه ليدخل قوماً الجنةَ فيعطيهم؛ حتى يملوا، وفوقهم قومٌ في الدرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون: ربنا! إخواننا كنا معهم في الدنيا فبم فضَّلتَهم علينا؟! فيقال: هيهات هيهات! إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون.

٣٦ ـ يا أبا ذر! جعل الله؛ جل ثناؤه، قرةَ عيني في الصلاة، وحبَّب إليَّ الصلاةَ كما حبب إلى الجائعِ الطعامَ، وإلى الظمآنِ الماءَ. وإن الجائعَ إذا أكل شبع، وإن الظمآنَ إذا شرب روى، وأنا لا أشبع من الصلاة.

٣٧ ـ يا أبا ذر! أيما رجلٍ تطوَّع في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعة؛ سوى المكتوبة، كان له حقاً واجباً بيتٌ في الجنة.

٣٨ ـ يا أبا ذر! إنك ما دمتَ في الصلاة فإنك تقرع بابَ الملك الجبار، ومَن يكثر قرعَ بابِ الملِك يُفتحْ له.

٣٩ ـ يا أبا ذر! ما من مؤمنٍ يقوم مصلياً إلا تناثر عليه البِرُّ ما بينه وبين العرش، ووُكِّل به ملَكٌ ينادي: يا ابن آدم! لو تعلم ما لك في الصلاة، ومَن تناجي، ما انفتلت.

٤٠ ـ يا أبا ذر! طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة، يحملونها فيسبقون الناسَ إلى الجنة. ألا هم السابقون إلى المساجد؛ بالأسحار وغير الأسحار.

٤١ ـ يا أبا ذر! الصلاةُ عماد الدين، واللسانُ أكبرُ. والصدقةُ تمحو الخطيئةَ، واللسان أكبر. والصومُ جُنَّةٌ من النار، واللسان أكبر. والجهادُ نباهةٌ، واللسانُ أكبرُ.

٤٢ ـ يا أبا ذر! الدرجةُ في الجنة فوقَ الدرجة كما بين السماء والأرض، وإن العبدَ ليرفع بصره فيلمع له نورٌ يكاد يخطف بصرَه؛ فيفزع لذلك، فيقول: ما هذا؟! فيقال: هذا نورُ أخيك! فيقول: أخي فلان!كنا نعمل جميعاً في الدنيا وقد فضل علي هكذا؟! فيقال له: إنه كان أفضلَ منك عملاً، ثم يُجعل في قلبه الرضا؛ حتى يرضى.

٤٣ ـ يا أبا ذر! الدنيا سجنُ المؤمن وجنةُ الكافر، وما أصبح فيها مؤمنٌ إلا حزيناً، فكيف لا يحزن المؤمنُ وقد أوعده اللهُ؛ جل ثناؤه، أنه وارد جهنم، ولم يعِده أنه صادرٌ عنها. وليلقين أمراضاً ومصيباتٍ وأموراً تغيظه، وليُظلَمن فلا ينتصر؛ يبتغي ثواباً من الله تعالى، فلا يزال حزيناً حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة.

٤٤ ـ يا أبا ذر! ما عُبِد اللهُ عزّ وجلّ على مثل طول الحزن.

٤٥ ـ يا أبا ذر! مَن أوتي من العلم ما لا يبكيه لحقيقٌ أن يكون قد أوتي علماً لا ينفعه. إن اللهَ نعت العلماءَ فقال عزّ وجلّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء/ ١٠٨ ـ ١٠٩].

٤٦ ـ يا أبا ذر! مَن استطاع أن يبكيَ فليبكِ، ومَن لم يستطعْ فليُشعِر قلبَه الحزنَ وليتباكَ. إن القلبَ القاسيَ بعيدٌ من الله تعالى؛ ولكن لا تشعرون.

٤٧ ـ يا أبا ذر! يقول الله تعالى: لا أجمع على عبدٍ خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإذا أمِنني في الدنيا أخفتُه يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة.

(٤٨ ـ يا أبا ذر! لو أن رجلاً كان له كعملِ سبعين نبياً لاحتقره وخشي أن لا ينجو من شر يوم القيامة)[١].

٤٩ ـ يا أبا ذر! إن العبدَ ليُعرَض عليه ذنوبُهُ يوم القيامة في من ذنب ذنوبه فيقول: أما إني كنت خائفاً مشفقاً فيُغفر له.

٥٠ ـ يا أبا ذر! إن الرجل ليعمل الحسنة فيتَّكِل عليها، ويعمل المحقَّرات حتى يأتي اللهَ وهو عليه غضبان. وإن الرجلَ ليعمل السيئةَ فيفرَق منها يأتي آمناً يوم القيامة.

٥١ ـ يا أبا ذر! إن العبدَ ليذنب الذنبَ فيدخل به الجنة.

فقلت: وكيف ذلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟!

قال: يكون ذلك الذنبُ نصبَ عينيه تائباً منه، فاراً إلى الله عزّ وجلّ؛ حتى يدخل الجنةَ.

٥٢ ـ يا أبا ذر! الكيِّس مَن دان نفسَه، وعمل لِما بعد الموت. والعاجز مَن اتبع نفسه وهواها، وتمنى على اللهِ عزّ وجلّ الأماني.

٥٣ ـ يا أبا ذر! إن أولَ شيءٍ يُرفع من هذه الأمة: الأمانة، والخشوع؛ حتى لا تكاد تَرى خاشعاً.

٥٤ ـ يا أبا ذر! والذي نفس محمد بيده! لو أن الدنيا كانت تعدل عند الله جناحَ بعوضةٍ أو ذبابٍ، ما سقى الكافرَ منها شربةً من ماءٍ.

٥٥ ـ يا أبا ذر! إن الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلا ما ابتغي به وجهَ الله. وما من شيءٍ أبغضُ إلى الله تعالى من الدنيا، خلقها ثم عرضها فلم ينظر إليها،

---

(١) هذه الفقرة موجودة هنا في مكارم الأخلاق، لكنها غير موجودة في بحار الأنوار. وسيأتي في الفقرة (٧٤) نحوُها، فانتظر.

ولا ينظر إليها حتى تقوم الساعة. وما من شيءٍ أحبُّ إلى الله من: الإيمان به، وترك ما أمر بتركه.

٥٦ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ تبارك وتعالى أوحى إلى أخي عيسى عليه السلام: يا عيسى! لا تحبَّ الدنيا؛ فإني لستُ أحبُّها، وأحِبَّ الآخرةَ؛ فإنما هي دار المعاد.

٥٧ ـ يا أبا ذر! إن جبرئيلَ عليه السلام أتاني بخزائن الدنيا على بغلةٍ شهباءَ فقال لي: يا محمد! هذه خزائنُ الدنيا ولا تنقصك من حظك عند ربك.

فقلت: حبيبي جبرئيل! لا حاجةَ لي بها، إذا شبعتُ شكرتُ ربي، وإذا جعتُ سألتُهُ.

٥٨ ـ يا أبا ذر! إذا أراد اللهُ عزّ وجلّ بعبدٍ خيراً فقَّهه في الدين، وزهَّده في الدنيا، وبصَّره بعيوبِ نفسِهِ.

٥٩ ـ يا أبا ذر! ما زهَد عبدٌ في الدنيا إلا أنبتَ اللهُ الحكمةَ في قلبه، وأنطق بها لسانَهُ، ويبصِّره[1] بعيوبِ الدنيا ودائِها ودوائِها، وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام.

٦٠ ـ يا أبا ذر! إذا رأيتَ أخاك قد زهد في الدنيا فاستمع منه؛ فإنه يلقَّى[2] الحكمةَ.

فقلت: يا رسول الله! مَن أزهدُ الناس؟

فقال: مَن لم ينسَ المقابرَ والبِلى، وترك فضلَ زينةِ الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعُدَّ غداً من أيامه، وعَدَّ نفسَه في الموتى.

٦١ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ تبارك وتعالى لم يوحِ إليَّ أن أجمعَ المال[3]، ولكن أوحى إليَّ أن﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

---

(١) في المكارم (بصّره).

(٢) في المكارم (يلقن).

(٣) في المكارم (المال [إلى المال]).

٦٢ ـ يا أبا ذر! إني ألبس الغليظَ، وأجلس على الأرض، وألعق أصابعي، وأركب الحمارَ بغيرِ سرجٍ، وأُردِف خلفي؛ فمَن رغب عن سنتي فليس مني.

٦٣ ـ يا أبا ذر! حبُّ المالِ والشرفِ أذهبُ لدين الرجل من ذئبين ضاريين في زرب الغنم؛ فأغارا فيها حتى أصبحا، فماذا أبقيا منها؟!

قال: قلت: يا رسول الله! الخائفون، الخاضعون، المتواضعون، الذاكرون الله كثيراً، أهم يسبقون الناس إلى الجنة؟!

فقال: لا! ولكن فقراء المسلمين؛ فإنهم يأتون يتخطون رقابَ الناس، فيقول لهم خزنةُ الجنة كما أنتم؛ حتى تحاسَبوا!

فيقولون: بِم نُحاسَب؟! فواللهِ! ما ملكنا فنجورَ ونعدلَ، ولا أفيض علينا فنقبضَ ونبسطَ، ولكن عبدنا ربَّنا حتى دعانا فأجبنا.

٦٤ ـ يا أبا ذر! إن الدنيا مشغلةٌ للقلوب والأبدان، وإن اللهَ تبارك وتعالى سائلُنا عمّا نعمنا في حلاله، فكيف بما أنعمنا[1] في حرامه؟

٦٥ ـ يا أبا ذر! إني قد دعوتُ اللهَ جل ثناؤه أن يجعل رزقَ مَن يحبني كفافاً، وأن يعطي مَن يبغضني كثرةَ المال والولد.

٦٦ ـ يا أبا ذر! طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة؛ الذين اتخذوا أرضَ الله بساطاً، وترابَها فراشاً، وماءَها طيباً، واتخذوا كتابَ الله شعاراً، ودعاءَه دثاراً، يقرضون الدنيا قرضاً.

٦٧ ـ يا أبا ذر! حرثُ الآخرة العملُ الصالحُ. وحرثُ الدنيا المالُ والبنون.

٦٨ ـ يا أبا ذر! إن ربي أخبرني؛ فقال: وعزتي وجلالي! ما أدرك العابدون دركَ البكاءِ، وإني لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصراً لا يشركهم فيه أحدٌ.

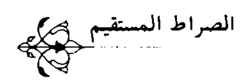
قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ المؤمنين أكيسُ؟

قال: أكثرُهُم للموت ذكراً، وأحسنُهُم له استعداداً.

٦٩ ـ يا أبا ذر! إذا دخل النورُ القلبَ انفسح القلبُ واتسع.

---

(١) في الوافي ٢٦/ ١٩١، والبحار ٧٤/ ٨١، وأعيان الشيعة ٤/ ٢٣٣: (نعمنا).



قلت: فما علامةُ ذلك؛ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟

قال ﷺ: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله.

٧٠ ـ يا أبا ذر! اتق اللهَ ولا تُرِ الناسَ أنك تخشى اللهَ؛ فيكرموك وقلبك فاجرٌ.

٧١ ـ يا أبا ذر! ليكن لك ـ في كل شيءٍ ـ نيةٌ صالحةٌ؛ حتى في النوم والأكل.

٧٢ ـ يا أبا ذر! لتعظِم جلالَ اللهِ في صدرك، فلا تذكرْهُ كما يذكره الجاهلُ عند الكلب: اللهم اخزه»، وعند الخنزير: اللهم اخزه».

٧٣ ـ يا أبا ذر! إن للهِ ملائكةً قياماً من خيفة الله ما رفعوا رؤوسهم حتى يُنفخ في الصور النفخةُ الآخرةُ؛ فيقولون جميعاً: سبحانك[١] وبحمدك! ما عبدناك كما ينبغي لك أن تُعبد.

٧٤ ـ يا أبا ذر! لو كان لرجلٍ عمل سبعين نبياً لاستقلَّ عملَهُ من شدةِ ما يرى يومئذٍ. ولو أن دلواً من غِسلين صُبَّ في مطلع الشمس لغَلَت منه جماجمُ مَن في مغربها، ولو زفرت جهنمُ زفرةً لم يبق ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، إلا خر جاثياً على ركبتيه يقول: رب[٢] نفسي؛ حتى ينسى إبراهيمُ إسحاقَ، ويقول: يا رب! أنا خليلُك إبراهيمُ؛ فلا تنسني.

٧٥ ـ يا أبا ذر! لو أن امرأةً؛ من نساء أهل الجنة، اطَّلعت من سماء الدنيا في ليلة ظلماء لأضاءت الأرضَ أفضلَ مما يضيئها القمرُ ليلةَ البدر، ولوجد ريحَ نشرِها جميعُ أهلِ الأرض.

ولو أن ثوباً من ثياب أهل الجنة نُشِر اليومَ في الدنيا لصعق مَن ينظر إليه، وما حملته أبصارُهُم.

---

(١) في المكارم (سبحانك [ربنا]).

(٢) في المكارم (رب [ارحم]).

٧٦ ـ يا أبا ذر! اخفِض صوتَك عند الجنائز، وعند القتال، وعند القرآن.

٧٧ ـ يا أبا ذر! إذا تبِعتَ جنازةً فليكن عقلُك فيها مشغولاً بالتفكر والخشوع، واعلم أنك لاحقٌ به.

٧٨ ـ يا أبا ذر! اعلم أن كلَّ شيءٍ إذا فسد فالملحُ دواؤُهُ، فإذا فسد الملحُ فليس له دواءٌ.

٧٩ ـ واعلم أن فيكم خُلُقين: الضحكَ من غير عجبٍ، والكسلَ من غير سهوٍ.

٨٠ ـ يا أبا ذر! ركعتان مقتصدتان في التفكر خيرٌ من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ.

٨١ ـ يا أبا ذر! الحقُّ ثقيلٌ مرٌّ، والباطلُ خفيفٌ حلوٌ.

٨٢ ـ ورب شهوةِ ساعةٍ تورث[١] حزناً طويلاً.

٨٣ ـ يا أبا ذر! لا يفقه الرجلُ كلَّ الفقهِ حتى يرى الناسَ ـ في جنب اللهِ ـ أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقرَ حاقرٍ لها.

٨٤ ـ يا أبا ذر! لا تصيب حقيقةَ الإيمان حتى ترى الناسَ كلَّهم حمقاء[٢] في دينهم وعقلاء في دنياهم.

٨٥ ـ يا أبا ذر! حاسب نفسَك قبل أن تُحاسَب فهو أهونُ لحسابِك غداً. وزِنْ نفسَك قبل أن تُوزَن. وتجهَّز للعرض الأكبر يومَ تُعرض لا تخفى منك على الله خافية.

٨٦ ـ يا أبا ذر! استحيي[٣] من الله، فإني والذي نفسي بيده! لأظل[٤] حين أذهب إلى الغائط متقنِّعاً[٥] بثوبي؛ أستحي من الملكين اللذين معي.

---

(١) في المكارم (توجب).
(٢) في المكارم (حمقى).
(٣) في المكارم (استح).
(٤) في المكارم (لا أزال).
(٥) في المكارم (مقنعاً).

٨٧ ـ يا أبا ذر! أتحب أن تدخل الجنة؟!

قلت: نعم؛ فداك أبي!

قال ﷺ: فاقصر من الأمل، واجعل الموتَ نصبَ عينيك. واستحِ من الله حق الحياء.

قال: قلت: يا رسول الله! كلنا نستحي من الله.

قال: ليس ذلك الحياء، ولكن الحياء من الله أن لا تنسى المقابر والبلى، وتحفظ الجوف وما وعى، والرأس وما حوى.

٨٨ ـ ومن أراد كرامة الآخرة فليدع زينةَ الدنيا

٨٩ ـ فإذا كنتَ كذلك أصبت ولايةَ الله.

٩٠ ـ يا أبا ذر! يكفي من الدعاء؛ مع البِر، ما يكفي الطعام من الملح.

٩١ ـ يا أبا ذر! مثلُ الذي يدعو بغير عملٍ كمثل الذي يرمي بغيرِ وَتَر.

٩٢ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ يصلِح؛ بصلاح العبد، ولدَهُ وولدَ ولدِهِ، ويحفظه في دويرتِهِ والدورِ حوله ما دام فيهم.

٩٣ ـ يا أبا ذر! إن ربَّك عزّ وجلّ يباهي الملائكةَ بثلاثةِ نفرٍ:

رجلٍ في أرض قفر؛ فيؤذِّن، ثم يقيم، ثم يصلي، فيقول ربك للملائكة: انظروا إلى عبدي؛ يصلي ولا يراه أحدٌ غيري!

فينزل سبعون ألف ملك يصلون وراءه، ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم.

ورجلٍ قام من الليل فصلى وحده، فسجد؛ ونام وهو ساجدٌ؛ فيقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي؛ روحه عندي، وجسدُه ساجدٌ.

ورجلٍ في زحف فرَّ أصحابُهُ، وثبت هو يقاتل؛ حتى يُقتَل.

٩٤ ـ يا أبا ذر! ما من رجلٍ يجعل جبهته في بقعةٍ من بقاع الأرض إلا شهدت له بها يوم القيامة. وما من منزل ينزله قومٌ إلا وأصبح ذلك المنزلُ يصلي عليهم أو يلعنهم.

٩٥ ـ يا أبا ذر! ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا وبقاعُ الأرض ينادي بعضُها

بعضاً: يا جارة! هل مرَّ بك مَن ذكر الله تعالى؟ أو عبدٌ وضع جبهتَه عليك ساجداً لله؟

فمن قائلةٍ: لا. ومن قائلةٍ: نعم

فإذا قالت: نعم؛ اهتزت، وانشرحت، وترى أن لها الفضلَ على جارتها.

٩٦ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ جل ثناؤُهُ لَـمَّا خلق الأرضَ، وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن في الأرض شجرةٌ يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً؛ فلم تزل الأرضُ والشجرُ كذلك حتى تكلَّم فجرةُ بني آدم بالكلمة العظيمة؛ قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾(١). فلمّا قالوها اقشعرت الأرضُ، وذهبت منفعةُ الأشجارِ.

٩٧ ـ يا أبا ذر! إن الأرضَ لتبكي على المؤمن؛ إذا مات، أربعين صباحاً.

٩٨ ـ يا أبا ذر! إذا كان العبدُ في أرضٍ قي [يعني قفر](٢) فتوضأ، أو تيمم، ثم أذن، وأقام، وصلى، أمر اللهُ عزّ وجلّ الملائكةَ فصفوا خلفه صفاً لا يُرى طرفاه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، ويؤمِّنون على دعائه.

٩٩ ـ يا أبا ذر! مَن أقام ولم يؤذن لم يصل معه إلا ملكاه اللذان معه.

١٠٠ ـ يا أبا ذر! ما من شابٍّ ترك الدنيا(٣)، وأفنى شبابه في طاعة الله، إلا أعطاه اللهُ أجرَ اثنين وسبعين صدِّيقاً.

١٠١ ـ يا أبا ذر! الذاكرُ في الغافلين كالمقاتل في الفارِّين.

١٠٢ ـ يا أبا ذر! الجليسُ الصالحُ خيرٌ من الوحدة، والوحدةُ خيرٌ من جليسِ السوء، وإملاءُ الخير خيرٌ من السكوت، والسكوتُ خيرٌ من إملاء السوء.

١٠٣ ـ يا أبا ذر! لا تصاحِب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامَك إلا تقيٌّ، ولا تأكل طعامَ الفاسقين.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٦، وسورة يونس، الآية ٦٨، وسورة الكهف، الآية ٤.

(٢) في المكارم، والأمالي، (أرض قفر).

(٣) في نسخة الأمالي: الدنيا ولهوها.

١٠٤ ـ يا أبا ذر! أطعِم طعامَك مَن تحبه في اللهِ. وكُلْ طعامَ مَن يحبك في الله عزّ وجلّ.

١٠٥ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ عزّ وجلّ عند لسانِ كلِّ قائلٍ، فليتق اللهَ امرؤٌ وليعلم ما يقول.

١٠٦ ـ يا أبا ذر! اترك فضولَ الكلامِ، وحسبك؛ من الكلام، ما تبلغ به حاجتك.

١٠٧ ـ يا أبا ذر! كفى بالمرء كذباً أن يحدِّثَ بكلِّ ما يسمع[١].

١٠٨ ـ يا أبا ذر! ما من شيءٍ أحقُّ بطولِ السجن من اللسان.

١٠٩ ـ يا أبا ذر! إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وإكرامَ حَمَلة القرآن العاملين، وإكرامَ السلطان المقسِط.

١١٠ ـ يا أبا ذر! ما عمل مَن لم يحفظ لسانه.

١١١ ـ يا أبا ذر! لا تكن عيَّاباً، ولا مدَّاحاً، ولا طعَّاناً، ولا ممارياً.

١١٢ ـ يا أبا ذر! لا يزال العبدُ يزداد من الله بعداً ما ساء خلقُه.

١١٣ ـ يا أبا ذر! الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خطوةٍ تخطوها إلى الصلاة صدقةٌ.

١١٤ ـ يا أبا ذر! مَن أجاب داعيَ الله، وأحسن عمارةَ مساجد الله، كان ثوابُهُ من الله الجنة.

١١٥ ـ فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! كيف تُعمر[٢] مساجدُ الله؟

قال: لا تُرفع[٣] فيها الأصوات، ولا يُخاض فيها بالباطل، ولا يُشترى فيها ولا يباع، واترك[٤] اللغوَ ما دمتَ فيها، فإن لم تفعل فلا تلومنَّ يومَ القيامة إلا نفسَك.

---

(١) في نسخة الأمالي للطوسي (سمعه).

(٢) في المكارم (يعمر).

(٣) في المكارم (يرفع).

(٤) في المكارم (فاترك).

١١٦ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ تعالى يعطيك ما دمتَ جالساً في المسجد بكلِّ نفَسٍ تنَّفستَ فيه درجةً في الجنة، وتصلي عليك الملائكةُ، ويُكتب لك بكلِّ نفَسٍ تنَّفست فيه عشرُ حسناتٍ، ويُمحى عنك عشرُ سيئات.

١١٧ ـ يا أبا ذر! أتعلم في أي شيء أنزلت هذه الآية ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ٢٠٠]؟

قلت: لا أدري؛ فداك أبي وأمي!

قال: في انتظار الصلاة خلف الصلاة.

١١٨ ـ يا أبا ذر! إسباغُ الوضوء في المكاره من الكفارات. وكثرةُ الاختلاف إلى المساجد فذلكم الرباطُ.

١١٩ ـ يا أبا ذر! يقول اللهُ تبارك وتعالى: إن أحبَّ العبادِ إليَّ المتحابُّون من أجلي، المتعلِّقةُ قلوبُهُم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار. أولئك إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً ذكرتُهُم فصرفتُ العقوبةَ عنهم.

١٢٠ ـ يا أبا ذر! كلُّ جلوسٍ في المسجد لغوٌ؛ إلا ثلاثة[١]: قراءةُ مصلٍّ، أو ذكرُ اللهِ، أو سائلٌ عن علمٍ.

١٢١ ـ يا أبا ذر! كُن بالعمل بالتقوى أشدَّ اهتماماً منك بالعمل؛ فإنه لا يقل عملٌ بالتقوى، وكيف يقل عملٌ يتقبل؟! يقول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٣٠].

١٢٢ ـ يا أبا ذر! لا يكون الرجلُ من المتقين حتى يحاسِب نفسَه أشدَّ من محاسبةِ الشريك شريكَهُ، فيعلم: من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حلٍّ أم من حرام؟!

١٢٣ ـ يا أبا ذر! مَن لم يُبالِ من أين يكتسب المالَ لم يبالِ اللهُ عزّ وجلّ من أين أدخله النار؟!

١٢٤ ـ يا أبا ذر! مَن سره أن يكون أكرمَ الناسِ فليتق اللهَ عزّ وجلّ.

---

(١) في المكارم (ثلاث).

١٢٥ ـ يا أبا ذر! إن أحبَّكم إلى اللهِ جل ثناؤه أكثرُكُم ذكراً له. وأكرمَكم عند الله عزّ وجلّ أتقاكم له. وأنجاكم من عذاب الله أشدُّكم له خوفاً.

١٢٦ ـ يا أبا ذر! إن المتقين الذين يتقون [الله عزّ وجلّ][(١)] من الشيء الذي لا يُتَّقَى منه؛ خوفاً من الدخول في الشبهة.

١٢٧ ـ يا أبا ذر! مَن أطاع اللهَ عزّ وجلّ فقد ذكر اللهَ؛ وإن قلَّت صلاتُهُ، وصيامُهُ، وتلاوتُهُ للقرآن.

١٢٨ ـ يا أبا ذر! ملاك الدين الورعُ، ورأسه الطاعة.

١٢٩ ـ يا أبا ذر! كُن ورِعًا تكن أعبدَ الناس، وخيرُ دينِكم الورعُ.

١٣٠ ـ يا أبا ذر! فضلُ العلم خيرٌ من فضل العبادة.

١٣١ ـ واعلم أنكم لو صليتُم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتُم حتى تكونوا كالأوتار، ما ينفعكم ذلك إلا بورعٍ.

١٣٢ ـ يا أبا ذر! إن أهلَ الورعِ والزهدِ في الدنيا هم أولياءُ الله تعالى حقاً.

١٣٣ ـ يا أبا ذر! مَن لم يأت يومَ القيامة بثلاثٍ فقد خسر.

قلت: وما الثلاث؛ فداك أبي وأمي؟

قال: ورعٌ يحجزه عمّا حرم اللهُ عزّ وجلّ عليه، وحلمٌ يرد به جهلَ السفهاء، وخُلُقٌ يداري به الناسَ.

١٣٤ ـ يا أبا ذر! إنْ سرَّك أن تكون أقوى الناس فتوكلْ على اللهِ عزّ وجلّ. وإن سرَّك أن تكون أكرمَ الناس فاتق اللهَ. وإن سرَّك أن تكون أغنى الناس فكُن بما في يدِ اللهِ عزّ وجلّ أوثقَ منك بما في يدك.

١٣٥ ـ يا أبا ذر! لو أن الناسَ كلَّهم أخذوا بهذه الآية لكفتْهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ ۝٣﴾ [الطلاق/ ٢ ـ ٣].

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في المكارم.

١٣٦ ـ يا أبا ذر! يقول اللهُ جل ثناؤه: وعزتي وجلالي! لا يؤثِر عبدي هواي على هواه إلا جعلتُ غناه في نفسه، وهمومه في آخرته، وضمنت السماواتُ والأرضُ رزقَهُ، وكففتُ عليه ضيعته[1]، وكنتُ له من وراء تجارةِ كلِّ تاجرٍ.

١٣٧ ـ يا أبا ذر! لو أن ابنَ آدمَ فرَّ من رزقِهِ؛ كما يفر من الموت، لأدركه كما يدركه الموتُ.

١٣٨ ـ يا أبا ذر! ألا أعلِّمك كلماتٍ ينفعك اللهُ عزّ وجلّ بهن؟!

قلت: بلى يا رسول الله!

قال: احفظ اللهَ يحفظْك. احفظ اللهَ تجدْهُ أمامَك. تعرَّف إلى اللهِ في الرخاء يعرفْك في الشدة. وإذا سألتَ فاسأل اللهَ عزّ وجلّ. وإذا استعنتَ فاستعن باللهِ، فقد جرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ، فلو أن الخلقَ كلَّهم جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يكتب لك ما قدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بشيءٍ لم يكتبه اللهُ عليك ما قدروا عليه. فإن استطعتَ أن تعمل للهِ عزّ وجلّ بالرضا في اليقين فافعلْ، وإن لم تستطعْ فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وإن النصرَ مع الصبرِ، والفرجَ مع الكربِ، وإن مع العسرِ يسراً.

١٣٩ ـ يا أبا ذر! استغنِ بغنى اللهِ يغنِك اللهُ.

فقلت: وما هو يا رسول الله؟!

قال ﷺ: غداءُ يومٍ، وعشاءُ ليلةٍ. فمن قنع بما رزقه اللهُ فهو أغنى الناس.

١٤٠ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ عزّ وجلّ يقول: إني لستُ كلامَ الحكيمِ أتقبَّل، ولكن همَّه وهواه، فإن كان همُّهُ وهواه في ما أحب وأرضى جعلتُ صمتَه حمداً لي وذكراً [ووقاراً] وإن لم يتكلم.

١٤١ ـ يا أبا ذر! إن اللهَ تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

١٤٢ ـ يا أبا ذر! التقوى هاهنا، التقوى هاهنا ـ وأشار إلى صدره ـ.

---

(١) في المكارم (وكففتُ عنه ضيقَهُ).

١٤٣ ـ يا أبا ذر! أربعٌ لا يصيبهن إلا مؤمنٌ: الصمتُ؛ وهو أول العبادة، والتواضعُ لله سبحانه، وذكرُ الله تعالى في كلِّ حالٍ، وقلةُ الشيء. يعني قلة المال.

١٤٤ ـ يا أبا ذر! هِمَّ بالحسنةِ؛ وإن لم تعملْها؛ لكيلا تُكتب من الغافلين.

١٤٥ ـ يا أبا ذر! مَن ملك ما بين فخذيه وبين لحييه دخل الجنةَ.

قلت: يا رسول الله! وإنا لنؤاخذ بما تنطق به ألسنتنا؟!

قال: يا أبا ذر! وهل يُكبُّ الناسَ على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم. إنك لا تزال سالماً ما سكتَّ، فإذا تكلمتَ كتب اللهُ لك أو عليك.

١٤٦ ـ يا أبا ذر! إن الرجل يتكلم بالكلمةِ؛ في المجلس؛ ليضحكهم بها، فيهوي في جهنم ما بين السماء والأرض.

١٤٧ ـ يا أبا ذر! ويلٌ للذي يحدِّث ويكذب؛ ليضحك به القومَ، ويلٌ له، ويلٌ له، [ويلٌ له].

١٤٨ ـ يا أبا ذر! مَن صمت نجا، فعليك بالصدق، ولا تخرجنَّ من فِيك كذبةٌ أبداً.

قلت: يا رسول الله! فما توبةُ الرجل الذي كذب متعمداً؟

قال: الاستغفار، وصلوات[1] الخمس تغسل ذلك.

١٤٩ ـ يا أبا ذر! إياك والغيبة، فإن الغيبةَ أشد من الزنا.

قلت: يا رسول الله! ولِمَ ذلك بأبي أنت وأمي؟!

قال: لأن الرجلَ يزني ويتوب إلى اللهِ؛ فيتوب اللهُ عليه، والغيبةُ لا تُغفر حتى يغفرها صاحبُها.

١٥٠ ـ يا أبا ذر! سِبابُ المؤمن فسوقٌ، وقتالُه كفرٌ، وأكلُ لحمِهِ من معاصي الله، وحرمةُ مالِهِ كحرمةِ دمِهِ.

قلتُ: يا رسولَ الله! وما الغيبةُ؟

---

(١) في المكارم (الصلوات).

قال: ذكرُك أخاك بما يَكره.

قلتُ: يا رسولَ الله! فإن كان فيه ذاك الذي يُذكر به؟

قال: اعلم أنك إذا ذكرتَه بما هو فيه فقد اغتبتَه، وإذا ذكرتَه بما ليس فيه فقد بهتَّهُ.

١٥١ ـ يا أبا ذر! مَن ذبَّ عن أخيه المسلم الغيبةَ كان حقاً على اللهِ أن يُعتِقه من النار.

١٥٢ ـ يا أبا ذر! مَن اغتِيب عنده أخوه المسلمُ؛ وهو يستطيع نصره، فنصره، نصره اللهُ عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة، فإن خذله؛ وهو يستطيع نصره خذله اللهُ في الدنيا والآخرة.

١٥٣ ـ يا أبا ذر! لا يدخل الجنةَ قتَّاتٌ.

قلت: وما القتَّاتُ؟

قال: النَّمَّام.

١٥٤ ـ يا أبا ذر! صاحبُ النميمة لا يستريح من عذابِ اللهِ عزّ وجلّ في الآخرة.

١٥٥ ـ يا أبا ذر! مَن كان ذا وجهينِ ولسانينِ في الدنيا فهو ذو لسانينِ في النار.

١٥٦ ـ يا أبا ذر! المجالسُ بالأمانة، وإفشاءُ سرِّ أخيك خيانةٌ؛ فاجتنب ذلك، واجتنب مجلس العشيرة.

١٥٧ ـ يا أبا ذر! تُعرض أعمالُ أهل الدنيا على الله من الجمعة إلى الجمعة؛ في يوم الاثنين والخميس؛ فيغفر[1] لكلِّ عبدٍ مؤمنٍ؛ إلا عبداً كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقال: اتركوا عملَ هذين حتى يصطلحا.

١٥٨ ـ يا أبا ذر! إياك وهجرانَ أخيك؛ فإن العمل لا يُتقبَّل مع الهجران.

---

(١) في المكارم (فيستغفر).

١٥٩ ـ يا أبا ذر! أنهاك عن الهجرانِ، وإن كنتَ لا بد فاعلاً تهجره فوق ثلاثة أيام [كملاً]، فمن مات فيها مهاجراً لأخيه كانت النارُ أولى به.

١٦٠ ـ يا أبا ذر! مَن أحبَّ أن يتمثَّل له الرجالُ قياماً فليتبوأ مقعدَه من النار.

١٦١ ـ يا أبا ذر! مَن مات وفي قلبه مثقالُ ذرةٍ من كبرٍ لم يجد رائحةَ الجنة؛ إلا أن يتوب قبل ذلك.

فقال رجل: يا رسول الله! إني ليعجبني الجَمال؛ حتى وددتُ أن عِلاقة سوطي وقبال نعلي حسنٌ؛ فهل يُرهب على ذلك؟

قال: كيف تجد قلبَك؟

قال: أجده عارفاً للحق، مطمئناً إليه.

قال: ليس ذلك بالكِبرِ، ولكن الكبرَ أن تترك الحقَّ، وتتجاوزه إلى غيره، وتنظر إلى الناسِ ولا ترى أن أحداً عرضَه كعرضِك، ولا دمَه كدمِك.

١٦٢ ـ يا أبا ذر! أكثرُ مَن يدخل النارَ المستكبرون.

١٦٣ ـ فقال رجل: وهل ينجو من الكبر أحدٌ يا رسول الله؟!

قال: نعم. مَن لبس الصوفَ، وركب الحمارَ، وحلب العنزَ[1]، وجالس المساكينَ.

١٦٤ ـ يا أبا ذر! مَن حمل بضاعتَه فقد برئ من الكِبر؛ يعني ما يشترى من السوق.

١٦٥ ـ يا أبا ذر! مَن جرَّ ثوبَه؛ خيلاءً، لم ينظر اللهُ عزّ وجلّ إليه يومَ القيامة.

١٦٦ ـ يا أبا ذر! إزرةُ المؤمن إلى أنصافِ ساقيه، ولا جناح عليه في ما بينه وبين كعبَيْه.

١٦٧ ـ يا أبا ذر! مَن رفع ذيلَه، وخصف نعلَه، وعفَّر وجهَه؛ فقد برئ من الكِبر.

---

(١) في المكارم (الشاة).

١٦٨ ـ يا أبا ذر! مَن كان له قميصان فليَلبَس أحدَهما وليُلبِس الآخرَ أخاه.

١٦٩ ـ يا أبا ذر! سيكون ناسٌ من أمتي يولدون في النعيم، ويغذون به، همتُهُم ألوانُ الطعام والشراب، ويُمدَحون بالقول، أولئك شرارُ أمتي.

١٧٠ ـ يا أبا ذر! مَن ترك لبسَ الجَمال؛ وهو يقدر عليه؛ تواضعاً للهِ عزّ وجلّ؛ فقد كساه اللهُ حلةَ الكرامةِ.

١٧١ ـ يا أبا ذرٍّ! طوبى لمن تواضع للهِ تعالى؛ في غيرِ منقصةٍ، وأذل نفسَه؛ في غيرِ مسكنةٍ، وأنفق ما جمعه؛ في غيرِ معصيةٍ، ورحم أهلَ الذل والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة.

١٧٢ ـ طوبى لِمن صلحت سريرتُهُ، وحسُنت علانيتُهُ، وعزل عن الناس شرَّهُ.

١٧٣ ـ طوبى لِمن عمل بعلمِه، وأنفق الفضلَ من مالِه، وأمسك الفضل من قولِه.

١٧٤ ـ يا أبا ذر! البس الخشنَ من اللباس، والصفيقَ من الثياب؛ لئلا يجد الفخرُ فيك مسلكاً.

١٧٥ ـ يا أبا ذر! يكون في آخر الزمان قومٌ يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم، يرون أن لهم الفضلَ بذلك على غيرهم، أولئك تلعنهم ملائكةُ السماوات والأرض.

١٧٦ ـ يا أبا ذر! ألا أخبرك بأهلِ الجنة؟!

قلت: بلى يا رسولَ الله!

قال ﷺ: كلُّ أشعثَ أغبرَ، ذي طمرين؛ لا يؤبه له، لو أقسم على اللهِ لأبرَّهُ.

انتهت الوصية



تمهيد

أجواء الوصية

حفَّ بهذه الوصية؛ كما نجده في صدرها، أجواءٌ لا بد من استجلائها؛ إذا ما أردنا أن نتعرَّف على خلفياتها من جهةٍ، وعلى معطياتها من جهةٍ ثانيةٍ، وعلى ما ينبغي مراعاته من أجل هذه وتلك من جهةٍ ثالثةٍ.

فلنتعرف عليها ضمن وقفات:

الوقفة الأولى: تجربة حياة

لعل أول ما يلفت النظرَ في بداية هذه الوصية أنّ أبا ذر ﵁ روى هذه الوصية وهو منفيٌّ في الربذة، أي إنها في أخريات أيامه. ونستوحي من ذلك أن أبا ذر (رضوان الله عليه)، لَمَّا روى هذه الوصية لأبي الأسود الدؤلي (رضوان الله عليه) إنما كان يريد التأكيدَ على تلخيص المبادئ التي صنعت منه ذاك الثائر؛ الذي أدت به ثوريتُهُ النابعةُ من مبادئَ أصيلةٍ راسخةٍ، إلى ما أدَّت إليه من نفيٍ وتشريدٍ، ولسان حاله يقول:

١ ـ لم يكن ما صنعتُ؛ من مجابهةٍ جسورةٍ وفريدةٍ، مجردَ شأنٍ سياسيٍّ بقدر ما كان شأناً دينياً تلقيته من لسان حبيبي رسول الله محمد ﷺ.

٢ ـ أني أرى في هذه الوصية خلاصةَ تلك المبادئ؛ التي يجب المحافظة عليها، ويلزمني إبلاغُكُم إياها، وإيصاؤُكُم بما أوصاني به منها معلِّمي وحبيبي رسول الله ﷺ.

الوقفة الثانية: حرص أبي ذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على التعلم والتفقه

نلمس في سلوك أبي ذر (رضوان الله عليه)؛ كما قرأناه في صدر الوصية، حرصاً على التعلم والتفقه في ما يجب تعلمه والتفقه فيه. فهو يقول لحبيبه ومعلمه ومربيه:

(يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، أوصني بوصيةٍ ينفعني الله بها) [الفقرة/ ١].

وهذا السلوكُ النبويُّ ينسجم تماماً والدورَ الربانيَّ الخطير؛ الذي كُلِّف به رسولُنا محمد ﷺ، وكما جاء في دعوة خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله المحكي في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة/ ١٢٩].

فالدور الوظيفي للنبي ﷺ يتمثّل؛ وفقاً للآية، في:

١ ـ تلاوة آيات الله

٢ ـ تعليم الكتاب والحكمة

٣ ـ تزكية من أرسل إليهم

فأبو ذر (رضوان الله عليه)؛ وهو التلميذ النجيب لرسول الله ﷺ، سعى إلى التعلّم من علوم النبي ﷺ، والتزكّي بتزكيته؛ ليكون من المفلحين؛ فـ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى/ ١٤].

الوقفة الثالثة: تفاوت الناس

نلمس؛ في صدر هذه الوصية، تصنيفاً للناس، وتفاوتاً بينهم؛ في: مستوى الوعي، والهمم، والتفاعل، والأداء، والعاقبة والمصير.

أ ـ اختلاف العاقبة والمصير:

قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى/ ٧]. وقال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر/ ١٩].

وقد نجد صياغةً قرآنيةً أخرى للتعبير عن هذين الفريقين، وذلك في قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر/ ٢٢]؛ حيث تشير الآيةُ إلى أن الناسَ ـ بالنسبة لتقبلهم مضمون الرسالة السماوية، وبالتالي بالنسبة إلى مصيرهم ـ هم فريقان:

١ ـ أحياء، وهم الذين قبلوا دعوته واستجابوا لرسله.

٢ ـ أموات، وهم الذين صمُّوا أسماعهم عن قول الله، ولَغَوْا في القرآن.

ولعل في ما رُوي عن علي عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام؛ حيث يقول: **أحيِ قلبَك بالموعظةِ، وأمِتهُ بالزَّهادةِ**[١]، ما يلقي ضوءًا على تعبير الحياة والموت بالنسبة للإنسان. وبالطبع، فإن المقصودَ بالحياة والموت ـ هنا ـ الإنسانيان لا الماديان.

---

(١) نهج البلاغة، وصية الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام، بالرقم ٣١؛ من باب الكتب؛ عيون الحكم والمواعظ للواسطي، الفصل الثالث، ص٨٥. وفي كنز العمال، ج١٦، ص١٦٨، (وأمته بالزهد).

قال الشيخ البحراني: أمره أن يحيى قلبه بالموعظة، واستعار وصف الإحياء له باعتبار تكميله لنفسه بالعلم والاعتبار الحاصل عن الموعظة كما يكمل المرء بالحياة... قوله (**أمته بالزهادة**)، والذي يميته هي النفس الأمّارة بالسوء، وإماتتها كسرها عن ميولها المخالفة لأداء العقل بترك الدنيا والإعراض عنها وتطويعها بذلك. ويحتمل أن يريد به النفس العاقلة أيضاً، وإماتتها قطعها عن متابعة هواها) [شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٨ ـ ٩].

وقال ابن أبي الحديد؛ في تفسير الجملة: والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة، وإماتة الشهوات عنه) [شرح نهج البلاغة، ج١٦، ص٦٣].

ب ـ اختلاف الوعي

نلمس ـ أيضاً ـ اختلافاً على مستوى الوعي بين الناس؛ ففيهم مَن هو واعٍ على درجةٍ عاليةٍ من الوعي؛ لنفسه ولمن حوله وما حوله، وكما جاء في ما اشتهر أنه حديث نبوي، أو علوي، شريف **(مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه)**[1].

وفي ذلك يقول القرآن، ضمن استدلاله على ربوبية الله تعالى المطلقة، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد/ ١٦].

وفيهم مَن هو دون ذلك؛ ممن يتنكر للحقائق البيِّنة والمبيَّنة؛ حتى صنَّفهم ضمن الموتى؛ وهم الذين يقول الله تعالى فيهم ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام/ ١٢٢]، كما علَّق حياة الإنسان الحقيقية على تلبية النداء الإلهي، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال/ ٢٤].

فالناس ـ إذاً ـ فريقان:

١ ـ أحياء؛ وهم خصوص مَن استجاب لله ولرسوله ﷺ.

٢ ـ موتى؛ وهم من أدبر وتولّى.

ج ـ اختلاف الأداء

كذلك نلمس اختلافاً فاحشاً بين الناس؛ في مستوى أداء هذا الفرد وذاك. ولن نجد أفضل مما جاء في الكتاب الكريم لتمثيل واقع الناس والتعرف عليه، وحكاية واقع بعضهم ضمن نصين شريفين:

---

(١) مصباح الشريعة، الباب ٦٢؛ متشابه القرآن للمازندراني، ص٤٤؛ عوالي اللئالئ، ج٤، ص١٠٢؛ شرح كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، الكلمة ٦، ص٩؛ شرح نهج البلاغة للبحراني، ج١، ص٥٣؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام، الحكمة ٣٣٩، ج٢٠، ص٢٩٢.

الأول: قال تعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل/ ٧٦]. فكم هو الفرق شاسع ـ كما تصوِّره الآيةُ الشريفةُ ـ بين:

أ ـ شخص يجمع بين وصف العبودية؛ فهو يفتقد الحرية، وهو ـ أيضاً ـ لا يتكلم؛ أي إنه (أبكم)، ثم إنه يتصف ـ مع ذلك ـ بـ(التخلف)؛ ومن ثَم فهو موصوف بـ(العجز) عن القدرة عن إنجازِ أيِّ مهمةٍ تُوكَل إليه؛ فهو ـ بالتالي ـ عبءٌ على سيده.

ب ـ شخص اجتهد في تربية نفسه؛ روحياً وفكرياً وعملياً؛ حتى أصبح ناجحاً في ذاته؛ وذلك عبر سيره على الصراط المستقيم، لم تختلط عليه الأهداف ولا الوسائل، وهو ـ إلى جانب ذلك ـ مارس عمليةَ التوجيه لغيره؛ عبر دفعه ـ بأفضل وسائل التوجيه والدفع ـ نحو الفضيلة والسموّ في مختلف الأصعدة.

الثاني: قال تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩]. وهذه الآية تسلط الضوء ـ أولاً ـ على طبيعة السلوك في الفرد الصالح ـ في المنطق القرآني ـ؛ بسعيه الدؤوب والحثيث في نيل رضا الله تعالى والاعتراف بحقوقه على عبده؛ من خلال التعبد باستشعار الفقر التام أمام الله سبحانه وسؤاله في بهيم الليل؛ حيث يخلو العاشقُ بمعشوقه، وحيث يبث العبدُ همومَهُ وآلامَهُ وآماله؛ خوفاً من النار؛ حيث البعد عن المعشوق؛ وشوقاً إلى الجنة؛ حيث اللقاء والعطاء.

ثم تشير الآيةُ ـ ثانياً ـ إلى السرِّ والسببِ في نشوء هذه الحالة، المتمثِّل في ما يحمله هذا العبد العاشق من علم ومعرفة بالله تعالى، وأن ذلك إنما ناله مَن ناله بإعماله نعمة العقل وتوظيفه توظيفاً صحيحاً، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إنما يُدرَك الخيرُ كلُّهُ بالعقل. ولا دينَ لمن لا عقلَ له**)[١].

---

(١) الحراني، ابن شعبة (ق ٤ هـ)، تحف العقول، باب ما روي عن رسول الله ﷺ، في قصار كلماته، ص٥٤.
=

د ـ اختلاف الاستجابة

نلمس اختلافاً ـ رابعاً ـ يتمثل في تفاوت الاستجابة لدى هذا الطرف وذاك. فبينما يسرع إنسانٌ إلى تمثُّل ما عقِله في وجدانه من معارف في سلوكه العام والخاص، نجد آخرَ لا يكاد يطبق شيئاً مما يحيط به من قيم، وبين هذا وذاك درجات ومراتب يصعب حصرها.

والقرآن الكريم يؤكد أن المعارف الإسلامية حقٌّ لا باطلَ فيه، وأنها سببٌ للحياة الحقيقية، وأن مَن لا يستمع لها، ولا يجيب داعيَها، فليس من الأحياء. وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال/ ٢٤].

وفي ذيل الآية إشارةٌ إلى أن التوفيقَ إلى نيل هذه الحياة لن يُنال بغير التوفيق من الله، أو لنقل: إنه فعلُ الله، وأن دورَ العبد لا يعدو كونَه سؤالاً وطلباً لن يخيِّبه الله تعالى، فهو عزّ وجلّ لا يخلف الميعاد[1]. فقال تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

ثم يختم الحقُّ قولَه بالتنبيه إلى أن الإنسانَ سيواجه عواقبَ عملِهِ؛ بقوله ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال/ ١٠].

ومثالاً آخر؛ على الاختلاف في الاستجابة، يمكن أن نسوقه؛ هو قول الله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد/ ٢٤].

وفي الآية بيانٌ واضحٌ أن الناس ليسوا سواءً؛ من حيث سرعة الاستجابة وبطؤها على المستوى العملي (الإنفاق والقتال)؛ بلحاظ مَن يساهم من المنفِقين

= ورواه ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجمع بن جارية في كتابه (مكارم الأخلاق)، باب ذكر الحياء وما جاء فيه، ص٤٤، بهذا اللفظ: **(الحياءُ شعبةٌ من شعب الإيمان، ولا إيمانَ لمن لا حياءَ له، وإنما يُدرَك الخيرُ كلُّه بالعقل، ولا دينَ لمن لا عقل له).**

(١) سورة آل عمران/ ٩.

قبل الفتح في تحقيق الفتح، ومَن لا يساهم بالإنفاق؛ حيث يكون تراخيه سبباً في تعطيل المسيرة.

مع أن الله سبحانه لا يبخس أياً من الطرفين مثوبةَ الإنفاق، ولكن كلٌّ بحسبه.

الوقفة الرابعة: اغتنام الفرص

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: (**إضاعةُ الفرصةِ غُصَّةٌ**)[١].

ومن هذا المنطلق، نجد الصحابيَّ الجليلَ أبا ذر (رضوان الله عليه) حريصاً على اغتنام فرصةٍ؛ ربما كان يتحيَّنها بين الحين والآخر. وذلك، أن المتعلِّم النابِه يدرك ـ بجلاءٍ ـ أن المعلومات والمعارف ليست متاحةً في كل مكان وزمان، ولا لكلِّ طالبٍ ومتعلِّمٍ، فما يُتاح منها في مكانٍ قد لا يُتاح في مكانٍ آخر، وما يتوفر منها في زمانٍ قد لا نُوفَّق إليه في زمانٍ آخر، وما يناسب طالباً ليس بالضرورة يكون مناسباً لشخصٍ آخر.

وليس هناك شكٌّ في أن معارفَ الإسلام متفاوتةٌ في وضوحها وعمقها، كما أن المسلمين؛ بما فيهم جيلُ الصحابةِ نفسُهُ، مختلِفون ومتفاوِتون؛ من حيث الاستعداد والطلب معاً[٢].

وغيرُ خفيٍّ على المتابع لسيرة أبي ذر (رضوان الله عليه) أنه كان من نجباء الصحابة وفقهائهم؛ وقد ألمحنا إلى ذلك سابقاً.

وهذا ما يفسر اغتنامه رحمه الله تلك الـ(خلوة) من الرسول صلى الله عليه وآله في المسجد؛ حيث لم يكن سواه وعلي عليه السلام، فاندفع مغتنماً الفرصة التي سنحت؛ فاستوصى الرسولَ صلى الله عليه وآله بما يكون نافعاً له في حاضره ومستقبله.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١١٨.

(٢) قال الإيجي؛ في تعداد ما ذُكر من أدلة فضل علي بن أبي طالب عليه السلام على غيره من الصحابة ما لفظه:... ولقوله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): (**أقضاكُم عليٌّ**)، والقضاء يحتاج إلى جميع العلوم؛ فلا يعارضه نحو (**أفرضُكم زيدٌ، وأقرؤكُم أُبيٌّ**).

ولقوله تعالى ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، وأكثر المفسرين على أنه علي) المواقف، ج٣، ص٦٢٧.

الوقفة الخامسة: مجتمع صدر الإسلام

يحلو لبعض المسلمين؛ عن حسن نيةٍ في كثيرٍ من الأحيان، أن يصوِّر جيلَ الصحابة (جميعاً!) بالتفرد والتميز؛ بالمستوى الذي لا يمكن لجيل آخر أن يساويه فضلاً عن أن يفضُلَه!!

والذي نعتقده أن هذا الكلام يخلو من الدقة، ويجانبه الصواب، لسببين على الأقل:

١ ـ واقع الصحابة

لا تسمح الشواهد التاريخية المؤكَّدة على التسليم بمضمون التزكية المطلقة لهذا الجيل بجميع أفراده ذلك؛ سواء إبان معايشتهم للرسول الأعظم ﷺ زمن نزول النصوص، أو بعد مفارقته لهم:

أ ـ ففي حياته الشريفة ﷺ خالفه كثيرٌ منهم؛ حتى غضب عليهم مراراً وتكراراً؛ إلى أن عاتبهم الله على ذلك.

فقال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة/ ١١][(١)].

وقال تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور/ ٦٣].

وقد أخرج عبد الرزاق، عن زيد بن أسلم: أن رسولَ الله صلى الله عليه [وآله] وَسلم قال لأصحابه ذات يوم؛ وهو مستقبل العدو: **لا يقاتلْ أحدٌ منكم! فعمِد رجلٌ منهم، ورمى العدوَّ، وقاتلهم فقتلوه! فقيل للنَّبي (صلى الله عليه [وآله]**

---

(١) روى مسلم في صحيحه، كتاب التفسير، الباب ١١، وغيرُه، واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبدالله: **أن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يبقَ إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة** ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾).

وسلم): **استُشهِد فلانُ! فقال: أبعد ما نهيتُ عن القتال؟! قالوا: نعم! قال: لا يدخل الجنةَ عاصٍ)**(١). وروى عبدالله ابن عمر، قال: بعث النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، بعثاً، وأمّر عليهم أسامةَ بنَ زيد؛ فطعن بعضُ الناس في إمارته، فقال النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: **(إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبلُ...)**(٢). والمقصود بـ(بعض الناس) الطاعنين هو جماعةٌ من الصحابة!

ب ـ أما بعد حياته فقد شجر بينهم من الخلاف ما عجز عن استيعابه عددٌ كبيرٌ ممن يُعد من خواص المسلمين وعلمائهم؛ فضلاً عن عوامهم، ولم يجد له البعض حلاً سوى القول بوجوب الإمساك عن الحديث في ما شجر بين الصحابة(٣).

---

(١) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٦، ص٢٣٢.

(٢) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، باب مناقب زيد بن حارثة، وأخرجه في ثلاثة مواضع أخرى أيضاً. وكذلك رواه مسلم في صحيحه، باب فضائل زيد بن حارثة.

(٣) لا بأس بإيراد بعض الأقوال لمن ذهب إلى ذلك من المفسرين وشراح الحديث والمؤرخين، وهم المختصون بالعلوم الثلاثة؛ أعني التفسير والحديث والتاريخ، التي شكّلت وعي الأمة في خواصها وعوامها:

النص الأول: ما دوّنه المفسر القرطبي في تفسيره (أحكام القرآن) ج١٦ ـ ص٣٢١: **لا يجوز أن يُنسب إلى أحدٍ من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا في ما فعلوه وأرادوا الله عزّ وجلّ، وهم كلهم لنا أئمةٌ. وقد تعبَّدنا بالكف عمّا شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر).**

أقول: لغة التعميم هذه، والتقديس التام، والتعامل مع هذا الموقف على أنه مما عبَّدنا الله به، مما لا دليلَ عليه، ولا يصير إلى القول به عالمٌ محققٌ.

النص الثاني: ما قاله العيني في كتابه عمدة القاري في شرح البخاري ج١ ـ ص٢١٢:

والحق الذي عليه أهل السنة الإمساك عمّا شجر بين الصحابة، وحسن الظن بهم، والتأويل لهم، وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصيةً ولا محض الدنيا، فمنهم المخطئ في اجتهاده والمصيب، وقد رفع الله الحرج عن المجتهد المخطئ في الفروع، وضعف أجر المصيب).

النص الثالث: ما قاله المؤرخ الذهبي؛ الذي وهو من الحفاظ أيضاً، في كتابه الشهير سير أعلام النبلاء، في ج٧ ـ ص٣٧٠: **سبيلنا أن نستغفر للكل ونحبهم، ونكف عمّا شجر بينهم).**

النص الرابع: ما جاء من بعض علماء الدعوة النجدية [الوهابية]، جواباً عن سؤالٍ عن الحروب التي وقعت بين الصحابة؛ من قولٍ مرتضى عندهم ومعروف عنهم: =

٢ ـ النصوص النبوية

هناك نصوص نبوية عديدة تنقض دعوى عدالة الصحابة (جميعاً)، ولنورد شواهد على ذلك:

الشاهد الأول: ما رواه البخاري، أنه ﷺ قال: **ما بعث اللهُ من نبيٍّ، ولا استخلف من خليفةٍ، إلا كانت له بطانتان؛ بطانةٌ تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشر، وتحضه عليه؛ فالمعصوم من عصم الله تعالى)**[1].

والحديث ظاهر جداً في الدلالة على أن مَن يحفُّون بالنبي؛ أيّ نبي، ليسوا

... وأما الحروب التي وقعت بين الصحابة، فالصواب فيها قول أهل السنة والجماعة، وهو الذي نعتقده دينا ونرضاه مذهباً؛ وهو **السكوت عمّا شجر بينهم، والترضي عنهم، وموالاتهم، ومحبتهم كلهم،** رضوان الله عليهم أجمعين) [الدرر السنية في الأجوبة النجدية ١/ ٢١٣. وتكرر ذلك في هذه الموسوعة عشرات المرات].

أقول: ليس في المسلمين أحدٌ يطعن في (جميع!!) الصحابة، فالمرجعيات الفكرية لطوائف المسلمين ـ دون استثناء ـ تنتهي إلى الصحابة، غير أن الخلاف بينهم هو في الحكم بعدالة (الجميع)، وهذا ما لم يذهب إليه الصحابةُ أنفسهم، فقد اختلفوا إلى حد الاقتتال!! ولم تتفق كلمتُهم على الرضا على مَن وقع الخلاف حولهم.

والمسألةُ ـ بعدُ ـ طويلةُ الذيل.

ولخطورة هذه المسألة وترتب الآثار الخطيرة عليها، فقد تناولها ـ بموضوعيةٍ متناهيةٍ ـ الكثيرُ من الباحثين، من الشيعة والسنة، وردُّوها؛ لبطلانها في نفسها، ولمنافاتها للمبادئ الإسلامية الأصيلة. ومن هؤلاء الباحثين العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي في موسوعته (الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ) حيث عقد فصلاً بعنوان: إجراءات وضوابط مشبوهة، وذلك في الجزء ١، ص١٩٥ وما بعدها، وكذلك الباحث حسن بن فرحان المالكي في كتابه (الصحبة والصحابة). وكذلك الباحث محمود أبو رية في كتابيه (أضواء على السنة المحمدية) و(أبو هريرة شيخ المضيرة)، وغير هؤلاء كثيرٌ من العلماء والباحثين.

(١) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، برقم (٧١٩٨)، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته.

قال القاري في شرح عنوان الباب الذي جاء فيه الحديث ما لفظه:

البِطانة ـ بكسر الباء الموحدة ـ الصاحب الوليجة، والدخيل، والمطلع على السريرة. وفسره البخاري بقوله: الدخلاء، وهو جمع دخيل؛ وهو: الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته، ويفضي إليه بسره، ويصدقه في ما يخبر به مما يخفى عليه من أمر رعيته ويعمل بمقتضاه) [عمدة القاري شرح البخاري، ج ٢٤، ص٢٦٩].

بالضرورة من الصالحين بالمطلق، فقد يكونون كذلك وقد لا يكونون. بل إن الحديث يؤكد على أن في بطانات الأنبياء ﷺ ـ دون استثناء ـ من هو من الأشرار.

ولهذه الدلالة الظاهرة والواضحة استشكل القائلون بنظرية عدالة الصحابة على الحديث. ومن هؤلاء القاري في شرحه على البخاري؛ حيث قال:

فَإن قلت: هذا التقسيم مشكلٌ في حق النبيِّ!

قلت: في بقية الحديث الإشارة إلى سلامة النبي من بطانة الشرِّ بقوله (والمعصوم من عصم الله)، وهو معصوم لا شك فيه. ولا يلزم من وجود من يُشير على النبي بالشر أن يقبل منه.

وقيل: المُراد بالبطانتين ـ في حق النبي ـ: الملَك، والشيطان، وشيطانه قد أسلم فلا يأمره إلا بخيرٍ)[١].

أقول: كلام القاري ينحل إلى جوابين:

أولهما: قوله (وهو معصوم لا شك فيه).

ثانيهما: أن المشير بالشر لا يعني ـ بالضرورة ـ قبولَ النبي ﷺ مشورتَه.

وكلاهما لا يصلح جواباً عن السؤال. وذلك، لوجوه، منها:

أولاً: أن كافة الأنبياء ﷺ معصومون، ولو كانت العصمةُ في شخص النبي محمد ﷺ عاصمةً له من بطانة الشر لعصمت مَن سبقه من الأنبياء ﷺ، وهو لا يقول بذلك.

ثانياً: أن الأنبياء السابقين ﷺ لا يلزم أن يقبلوا مشورةَ البطانة السيئة لعصمة الله تعالى أنبياءه. ولعل هذا هو ما حدا ببعض الشراح؛ كالقسطلاني، إلى القول: وهذا متصوَّر في بعض الخلفاء، لا في الأنبياء)[٢]، مع أن الحديث يتحدث ـ بالصراحة والنص ـ عن الأنبياء والخلفاء معاً!!

---

(١) العيني، بدر الدين (ت٨٥٥ هـ)، عمدة القاري شرح البخاري، ج ٢٤، ص٢٦٩.

(٢) القسطلاني، أحمد بن محمد (ت٩٢٣ هـ)، إرشاد الساري لشرح البخاري، ج ١٠، ص٢٥٠.

فلا مناص من التسليم بدلالة الحديث ـ إن قلنا بصحته؛ كما هو مذهب القائلين بعدالة جميع الصحابة ـ على أن جميع الأنبياء عليهم السلام لهم بطانةٌ مختلَطةٌ؛ من الصالحين وغيرهم.

والجواب عن التفسير الثاني للبطانة كالجواب عن التفسير الأول لها.

الشاهد الثاني: ما رواه أنس، قال:

قال رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): **متى ألقى إخواني؟ قالوا: يا رسولَ الله! ألسنا إخوانك؟!**

قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني[(١)].

وظاهرٌ أن وصف (الأخ) أفضل من وصف (الصاحب).

ومما يشهد لذلك قضيةُ المؤاخاة التي تسالم عليها المؤرخون للسيرة النبوية؛ فإن النبي (صلى الله عليه وآله سلم) (آخى بين المهاجرين والأنصار لما قدم المدينة)[(٢)]، (والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة)[(٣)]. ثم اصطفى ـ من بينهم جميعاً ـ علي بن أبي طالب عليه السلام ليكون أخاه؛ فقد روى ابن عمر، وقال: **آخى رسولُ**

---

(١) الموصلي، أحمد بن محمد (٣٠٧ هـ)، معجم أبي يعلى الموصلي، ص٢٣٠.
وفي موطأ مالك [ت عبد الباقي، ج١، ص٢٨ ـ ٢٩]: عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خرج إلى المقبرة، فقال: **السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددتُ أني قد رأيت إخواننا**). فقالوا: يا رسول الله! ألسنا بإخوانك؟ **قال: بل أنتم أصحابي. وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ. وأنا فرطهم على الحوض**) انتهى.

(٢) ابن تيمية، أحمد (ت٧٢٨ هـ)، مجموع الفتاوى، ج١١، ص٩٩؛ منهاج السنة، ج٧، ص٣٦٠.
ولكنه نفى نفياً قاطعاً وجود هذا الحديث في كتب الحديث!! ونفى صحته!! بل جزم بوضعه!! فقال: هذا الحديث موضوعٌ عند أهل الحديث، لا يرتاب أحدٌ من أهل المعرفة بالحديث أنه موضوعٌ، وواضعُه جاهلٌ، كذب كذباً ظاهراً مكشوفاً، يعرف أنه كذبٌ مَن له أدنى معرفة بالحديث) وأضاف قائلاً: أحاديث المؤاخاة لعلي **كلها موضوعة**)!!
أقول: بل الحديثُ ثابتٌ، وهو مرويٌّ في ما يُعرف ـ عندهم ـ بـ(الصحاح)، ومحكوم إسناده بالحسن؛ كما ستقرأ لاحقاً.

(٣) العسقلاني، ابن حجر (ت٨٥٢ هـ)، فتح الباري في شرح صحيح الإمام البخاري، كتاب الهجر، باب الإخاء والحلف، ج١٠، ص٥٠١.

الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) بين أصحابه، فجاء عليٌّ تدمع عيناه، فقال: يا رسولَ الله! آخيتَ بين أصحابك، ولم تؤاخِ بيني وبين أحدٍ؟! فقال رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): أنت أخي في الدنيا والآخرة)[١].

وحكم عليه الترمذي بقوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ).

ويبدو أن التشكيك في الحادثة قديم، ويبيِّن ذلك ما رواه الطبراني بإسناده عن أبي الجحاف وكثير النوَّاء، قالا: ثنا جُمَيع بن عُمَير، قال: قلتُ لعبدالله بن عمر: حدِّثْني عن عليٍّ، قال: **رأيتُ رسولَ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) آخَى بين المؤمنين، فسمعتُهُ يقول: يا نبيَّ الله! كلُّهم يرجع وله أخ غيري؟! فقال له رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): أما ترضى أن أكون أخاك؟! قال: بلى! قال: فأنا أخوك في الدنيا والآخرة).**

قال كَثير:

فقلتُ: يا جُمَيع! آلله؛ الذي لا إله إلا هو، إنك سمعتَهُ من عبدالله بن عمر؟! فحلف ثلاث مرات أنه سمعه من عبد الله بن عمر)[٢].

الشاهد الثالث: ما رواه أنس ـ أيضاً ـ، قال: قال رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): طوبى لمن رآني وآمن بي مرةً، وطوبى لمن لم يرني وآمن بي سبع مرات)[٣].

والحديث ظاهر في البشارة المضاعفة لمن آمن به ﷺ ولم يره على من آمن به وقد رآه، وهذا عبارة أخرى عن التفضيل.

الشاهد الرابع؛ ولعله من أفضل الشواهد دلالةً في الباب: ما رواه (أحمد،

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (ت٢٧٩ هـ)، سنن الترمذي، باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ج٦، ص٨٠. ورواه ـ أيضاً ـ الحاكم في المستدرك برقم (٤٢٨٨)، وغيره في غيره.

(٢) الطبراني، سليمان بن أحمد (ت٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير، ج١٣، ص١٩٨.

(٣) الهيثمي، أبو الحسن (ت٨٠٧ هـ)، المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، ج٤، ص٢٦١. ورواه الكناني الشافعي؛ في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ج٧، ص٣٤٢، وعلق عليه بقوله (رواته ثقات).

والدارمي، بإسنادٍ حسنٍ، وصححه الحاكم)[١] أن أبا عبيدة سأل رسول الله ﷺ، وقال: **يا رسولَ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم)! أحدٌ خيرٌ منا، أسلمنا معك، وجاهدنا معك؟! قال: نعم! قومٌ يكونون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني**)[٢].

وروي بصيغة أخرى، عن صالح بن جبير، قال:

قدم علينا أبو جمعة الأنصاري رضي الله عنه؛ صاحب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، بيتَ المقدس؛ ليصلي فيها، ومعنا رجاء بن حيوة يومئذ. فلمّا أردنا الانصراف قال: إن لكم عليَّ جائزةً وحقاً؛ أحدثكم بحديثٍ سمعته من رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: فقلنا هات يرحمك الله. قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم؛ ومعنا معاذ بن جبل رضي الله عنه عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله! هل من قومٍ أعظمُ منا أجراً؛ آمنا بك، واتبعناك؟! قال: فما منعكم من ذلك ورسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم بين أظهركم يأتيكم الوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتابٌ بين لوحين؛ فيؤمنون به، ويعملون به، أولئك أعظمُ منكم أجراً، أولئك أعظم منكم أجراً)[٣].

ومع وضوح هذه النصوص في التفضيل بين الناس مطلقاً؛ مَن تقدم منهم ومَن تأخر؛ إلا أنك إذا راجعتَ كلمات شراح الأحاديث؛ ممن تبنى نظرية تفضيل

---

(١) القسطلاني، أحمد بن محمد (ت٩٢٣ هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، باب مناقب المهاجرين وفضلهم منهم، ج٦، ص٨١.

(٢) الكناني الشافعي، أحمد بن أبي بكر (ت٨٤٠ هـ)، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٧، ص٣٤٣.

(٣) ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد (ت٢٧٨ هـ) الآحاد والمثاني، ج٤، ص١٥٢ برقم (٢١٣٦).
وقال محقق الكتاب باسم فيصل الجوابرة في الهامش؛ معلقاً على الحديث:
رواه البخاري في خلق أفعال العباد ١٢٤ رقم ٣٩٠ والطبراني ٢٧/٤ رقم ٣٥٤٠ كلاهما من طرق عبدالله بن صالح به نحوه، ورواه البخاري في تاريخه ٢/ ٣١٠ والطبراني ٢٨/٤ رقم ٣٥٤١ من طريق مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير به نحوه مختصراً، وإسناده حسن. صالح بن جبير صدوق وأبو صالح كاتب الليث صدوق كثير الغلط ثبتٌ في كتابه وقد توبع).
وقد رواه الطبراني؛ في معجمه الكبير (ج ٤، ص٢٣)، غير أن جملة (أولئك أعظم أجراً) تكررت عنده ثلاثاً.

الصحابة بالمطلق على مَن عداهم، لوجدتَ التمحلات والتكلفات في التوجيه بما لا طائل من ورائه، ولا أساس له سوى المذهبية المقيتة.

وكفانا في ذلك النص القرآني الحاكم على كلِّ نصٍّ؛ وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

ومبدأ التفاضل؛ هذا، جارٍ حتى في الصحابة أنفسهم؛ فلم يكونوا على قدم واحدةٍ في الفضل، وقد مرَّ عليك سابقاً أن النبي ﷺ كان (**ليُدني أبا ذر إذا حضر، ويفتقده إذا غاب**)[١].

وبناءً على التعريف المشهور للصحابة؛ عند مَن يرون عدالتهم جميعاً؛ وأن الصحابيَّ هو مَن رأى النبي ﷺ[٢]، فإن هذا الإدناء لأبي ذر إذا حضر، والتفقد إذا غاب، يدل بشكلٍ واضحٍ على أنه لم يكن صحابياً عادياً؛ بل كان من خواص الصحابة، وحواريي الرسول ﷺ.

مضافاً إلى: أنه جاء في مقدمة هذه الوصية ما يدعم مقولة التفاضل هذه؛ وهو أن الرسول ﷺ وعلياً عليه السلام كانا وحدهما في المسجد، وفي صدر النهار، ولم يكن معهما أحد، بما يعني أن الصحابةَ مجتمعٌ كغيره من المجتمعات؛ له من

---

(١) الطبراني، أبو القاسم (ت٣٦٠ هـ)، مسند الشاميين، الحديث ١٤٦٤، ج٢، ص٣٤٤، عن أبي الدرداء؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٣٣٠؛ جامع المسانيد والسنن، ج٩، ص٣١٩.

(٢) قال ابن حجر (ت٨٥٢ هـ):
ومن صحب النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، أو رآه من المسلمين، فهو من أصحابه) [فتح الباري لابن حجر، (قوله باب فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم)، ج٧، ص٣].
وعرَّفه ـ أيضاً ـ بقوله: وهو من لقي النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردة في الأصح) [نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، ت الرحيلي، ص/ ١٤٠].
وقال السخاوي (ت٩٠٢ هـ):
وممن نص على الاكتفاء بها أحمد؛ فإنه قال: من صحبه سنةً أو شهراً أو يوماً أو ساعةً، أو رآه فهو من أصحابه. وكذا قال ابن المديني: من صحب النبي ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ أو رآه؛ ولو ساعة من نهار، فهو من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ.
وتبعهما تلميذُهما البخاري فقال: من صحب النبي ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ، أو رآه من المسلمين، فهو من أصحابه) [فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، ج٤، ص٧٨].

المشاغل والهموم ما يبعده قليلاً وكثيراً عن أحبابه؛ حتى ولو كان هذا الحبيب هو الرسول ﷺ، الذي هو رحمةٌ للعالمين[1]، ذاك الرسول الذي يطيب لنا أن نتصور لو كنا في زمانه أننا لن نفارقه ليلاً ولا نهاراً!!

الوقفة السادسة: الأدب مع رسول الله ﷺ

نلمس في تعبيرات أبي ذر (رضوان الله عليه) ما يكشف؛ من حيث يشعر أو لا يشعر، عن نجابةٍ وهي ـ بالضرورة ـ ليست متوفرةً في مَن لا ينهل مما نهل منه أبو ذر، وذلك في مخاطبته لحبيبه رسول ﷺ مفدِّياً إياه بأبويه، حيث يقول:

(يا رسولَ الله! بأبي أنت وأمي!).

الوقفة السابعة: ترتيب الأولويات

نلمس ـ مضافاً إلى ما تقدم ـ نباهةً حادةً في أبي ذر (رضوان الله عليه) ونجابةً لافتةً؛ حيث استوصى رسولَ الله ﷺ بقوله **(ما ينفعني)**.

وهذه حكمةٌ ينبغي أن يتوفر عليها كلُّ طالب ومتعلم، مفادها: تقديم الأهم والأولى بنحو اللزوم. وهذا مبدأٌ متفقٌ عليه بين العقلاء؛ وهو (من الفطريات المستغنية عن البرهان)[2].

ولذلك، تسالموا في ما بينهم على أن (العاقل ينبغي أن يكون سعيه في تقديم الأهم على المهم)[3].

وفي ذلك روي عن الإمام علي عليه السلام قوله: **(العمرُ أقصرُ من أن تعلَّم كلَّ ما يحسن بك علمُهُ؛ فتعلَّمْ الأهمَّ فالأهمَّ)**[4].

---

(١) انظر: سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) السبزواري، السيد عبد الأعلى (ت١٤١٤ هـ)، مهذب الأحكام في بيان الحلال والحرام، ج٥، ص١٣٢.

(٣) الرازي، فخر الدين (ت٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب، تفسير سورة الكوثر، ج٣٢، ص٢٧٠.

(٤) المعتزلي، عز الدين ابن أبي الحديد (ت٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٢٦٢، الحكم المنسوبة، الحكمة ٦٠.

والنافع أولى بالاهتمام من غير النافع؛ كما لا يخفى.

قال المحقق الفيض:... يجب على كلِّ مكلفٍ طالبٍ للحق والنجاة أن يتحرى الأهمَّ في الدين فالأهم، ويأخذ بالأقرب من اليقين فالأقرب، ولا يترك ما يعنيه إلى ما لا يعنيه، ولا ما يهم نفسَه إلى ما يهم غيرَه)[1].

الوقفة الثامنة: البعد التوحيدي

ينطلق أبوذر (رضوان الله عليه) في مسعاه النبيل هذا ليكشف؛ من حيث يريد أو لا يريد، عن أسس تفكيره ومنابعه، المتمثِّلة في (توحيد الله)، وأنه تعالى وحده (الغني)، وما يتفرع عنهما من (الفقر الذاتي) للمخلوقات؛ ومنها الإنسان. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ٦]. وينتج من طرفي المعادلة هذين نتيجةٌ مفادها: أن النفع كله من عند الله تعالى[2]، فقال:

● [الفقرة/ ١]:

(أوصني بوصيةٍ ينفعني اللهُ بها).

الوقفة التاسعة: اهتمام المعلِّم بالمتعلِّم

يتضمن صدرُ هذه الوصية الشريفة مبدأً تربوياً هاماً ينبغي أن نقف عنده؛ وهو أن على المعلِّم أن يحسن استقبالَ المتعلِّم، ويؤمِّن له حاجته العلمية والمعرفية والتربوية، مع الإشادة به إن كان يستحق ذلك، وهذا ما فعله معلمنا رسول الله ﷺ حيث استقبل طلب أبي ذر (رضوان الله عليه) بقوله، حيث استوصاه:

---

(١) الكاشاني، محمد محسن الفيض (ت١٠٩١ هـ)، الأصول الأصلية، ص١٧٠.

(٢) جاء في دعاء الإمام السجاد عليه السلام المعروف بـ(دعاء أبي حمزة الثمالي): **من أين لي الخيرُ ولا يوجد إلا من عندك؟!)** [مفاتيح الجنان].

- [الفقرة/ ٢]:

(نعم. وأكرِم بك ـ يا أبا ذر ـ إنك منا أهلَ البيت).

وهذا ما ينسجم مع ما نعرفه من الحضّ والحثّ على التعليم ونشره، وأن زكاةَ العلم تعليمُهُ، ومع ما نقرؤه في الحديث الشريف عن إمامنا الصادق عليه السلام أن نبيَّ الله عيسى عليه السلام خطب في بني إسرائيل، وقال: **(لا تحدِّثوا الجهالَ بالحكمةِ فتظلموها، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهم)**[1]. والمقصود من ذلك ليس هو تعليم المستحقين، بل تعليم غير المؤهلين (فإن بثَّ المعارف إلى غير أهلها مذمومٌ)[2]، كما أنه تضييعٌ للوقت في ما لا ينبغي تضييعه فيه.

وقال الشاعر[3]:

ومن منح الجهالَ علماً أضاعه ... ومن منع المستوجِبين فقد ظَلَم

الوقفة العاشرة: التفاعل

نلمس في هذا المقطع؛ الذي يمثل أجواء الوصية، أن فاعلية الوصية ـ أي وصية ـ إنما تتحقّق بتفاعل الموصَى مع مضمون ما أوصِي به. لذلك، عقَّب الرسول صلى الله عليه وآله بقوله:

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، كتاب العلم، باب بذل العلم، الحديث ٤؛ الأمالي، الشيخ الصدوق، المجلس الخامس والستون. وانظر أيضاً: المستدرك للصحيحين للنيشابوري، كتاب الأدب، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، باب آفة العلم.

(٢) حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت١٠٦٧ هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المنظر الثامن، ج١، ص٤٨.

(٣) المشهور أنه للإمام الشافعي، كما في ديوانه، لكنه نُسِب ـ أيضاً ـ إلى السهروردي.

● [الفقرة/ ٣]:

(وإني موصيك بوصيةٍ؛ فاحفظها؛ فإنها جامعةٌ لطرقِ الخير وسبلِه؛ فإنك إن حفظتها كان لك بها كِفلان).

وهذا مبدأٌ تربويٌّ أصيلٌ؛ يؤكده النصُّ القرآنيُّ القائل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد/ ١١].

معنى الحفظ:

من المفيد، بل من الضروري، أن ننبِّه إلى أن المراد بـ(الحفظ)؛ الذي أمر به رسول الله ﷺ، لا يُراد به مجردُ (الاستظهار)، والتثبيتِ في الذاكرة، أو في الكتب والأسفار، بل يُراد به مجموع معانٍ أربعة:

١ ـ (المراقبة)

٢ ـ (التفاعل)

٣ ـ (التطبيق)

٤ ـ (التجسيد)

ولعل هذا هو ما حدا بالخليل بن أحمد؛ في موسوعته اللغوية المسماة بـ(العين)[1]، وكذلك الأزهري في (تهذيب اللغة)[2]، إلى تفسير الحفظ بأنه: نقيض النسيان؛ وهو: التعاهد، وقلة الغفلة)، كما أن الوعي فُسِّر بالحفظ؛ فقال: وَعَى يَعِي وَعْياً؛ أيْ: حَفِظ حديثاً، ونحوه)[3].

---

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٠ هـ)، كتاب العين، مادة (حفظ).

(٢) تهذيب اللغة، مادة (ح ظ ف).

(٣) كتاب العين، مادة (وعي).

وأما اللغوي ابن فارس فقال: (حفظ)؛ الحاء والفاء والظاء، أصل واحد، يدل على مراعاة الشيء)[١].

وقال الجوهري: حَفِظتُ الشيء حِفظاً، أي حَرَسْتُه. وحَفِظْتُهُ أيضاً بمعنى استظهرته)[٢].

وقال الراغب: الحفظ يقال:

* تارةً لهيئة النفس؛ التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم.

* وتارةً لضبط في النفس، ويضاده النسيان.

* وتارةً لاستعمال تلك القوة؛ فيقال: حفظتُ كذا حفظاً.

ثم يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية)[٣].

نعم قد يكون (الاستظهار) مُعِيناً على استحضار المعنى في الوجدان والوعي مقدمةً للتطبيق والتجسيد.

ولعلّ ما اشتهر بين أهل العلم؛ من قوله ﷺ: **مَن حفِظ من أمتي أربعين حديثاً ينتفعون به بعثه الله يومَ القيامة فقيهاً)**[٤]، يصلح شاهداً على ما نقول؛ حيث

---

(١) ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، مادة (حفظ).

(٢) الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣ هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (حفظ).

(٣) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، حرف الحاء، كتاب الحاء وما يتصل بها، مادة (حفظ).

(٤) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، باب من حفظ أربعين حديثاً، الحديث ١٥، ص٥٤١.
وروى البيهقي، بإسناده عن أبي الدرداء، قال: **سُئل رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: ما حد العلم إذا بلغه الرجل كان فقيهاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: مَن حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينه بعثه الله فقيهاً، وكنتُ له يوم القيامة شافعاً وشهيداً)** [شعب الإيمان، ج٣، ص٢٤٠، الحديث ١٥٩٧].
وقال المحدث الفيض الكاشاني؛ معلّقاً على حديث نقله عن كتاب الكافي، بهذا المضمون: هذا الحديث مشهور مستفيض بين الخاصة والعامة، بل قال بعضهم بتواتره. وقد رواه أصحابنا بطرقٍ كثيرةٍ؛ مع اختلاف في اللفظ) [الوافي، ج١، ص١٣٦ ـ ١٣٧، ج٣ ـ باب صفة العلم].
والظاهر أن الفيض رحمه الله أخذه من شيخه المجلسي رحمه الله؛ الذي قال: هذا المضمون مشهور مستفيض بين=

استقر في فهم العلماء أن المراد بـ(الحفظ) ـ هنا ـ هو إشاعتُها بين الناس؛ حتى يكونوا على مسافةٍ قريبةٍ منها نظرياً بما يجعلها أيسر في التطبيق.

وسيأتي في هذه الوصية الشريفة قوله ﷺ:

(يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به[١] تكن سعيداً في الدنيا والآخرة) [الفقرة/ ٥].

وقوله ﷺ:

(احفظ اللهَ يحفظْك) [الفقرة/ ١٢٥][٢].

وهما يؤيدان ما ذكرناه من المعنى؛ إذ لا يُحتمل أن يكون المرادُ بالحفظ ـ المنتِج للسعادة ـ هو مجرد (الاستظهار)؛ بمعنى التثبيت في الذاكرة، بل لا يُتصور معنى صحيحٌ ووجيهٌ لقوله (**احفظْ اللهَ**)؛ إذا حملناه على مجرد (الاستظهار).

قال العلامة المجلسي (ت١١١١هـ):

للحفظ مراتب؛ يختلف الثوابُ بحسبها:

فإحداها: حفظ لفظها؛ سواء في الخاطر أو في الدفاتر، وتصحيح لفظها، واستجازتها، وإجازتها، وروايتها.

وثانيتها: حفظ معانيها، والتفكر في دقائقها، واستنباط الحكم والمعارف منها.

وثالثها: حفظها بالعمل بها، والاعتناء بشأنها، والاتعاظ بمودَعها)[٣].

=الخاصة والعامة، بل قيل: إنه متواتر) [بحار الأنوار، ج٢، ص١٥٦، الباب ٢٠، في بيان على الحديث ١٠].

(١) في الأمالي (ما أوصيتُك به).

(٢) خصصنا الفصل ٢٥ لشرحها؛ وجعلنا عنوانه (الله تعالى أولاً وأخيراً)، فانتظر.

(٣) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ٢، ص١٥٦، باب ٢٠ من حفظ أربعين حديثاً، ذيل الحديث ١٠.

ووفقاً لهذا التفسير، فإنّ المطلوب منّا ـ جميعاً ـ هو أن نراقب ونتفاعل ونعمل بما علِمنا ليعلّمنا اللهُ ما لم نعلم، كما أن المطلوب منا ـ أيضاً ـ هو أن نتمسك بالكتاب والعترة[١]، لا أن نتغنّى بهما في حدود الشعار دون أن نجسِّد ذلك على مستوى الشعور.

وهذا المعنى هو ما يمكن استفادته من عدد من الآيات؛ منها:

قوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف/ ٣].

وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء/ ١٧٥].

الوقفة الحادية عشرة: المنهج السليم

نختم وقفاتِنا التمهيدية؛ هذه، بالتأكيد على أن الرسول ﷺ نبَّهَنا ـ في هذه الوصية ـ إلى أن للخير طرقاً وسبلاً؛ لا يُنال إلا بها. وبالتالي، فإنَّ مَن سلك غير هذا الطريق ليس له ـ منطقياً ـ أن يتوقّع الخيرَ. قال الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء/ ١١٥].

والسبب في ذلك يكمن في ما قدمناه؛ في الوقفة الثامنة، من أن الخير كله من الله، قال تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [الصف/ ٥٣].

---

(١) وهو ما أمرنا به الرسول الأعظم ﷺ، في قوله ـ المتواتر مضموناً ـ: **إني تاركٌ فيكم الثقلين؛ أحدهما أكبرُ من الآخر: كتاب الله؛ حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهلُ بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ**) [مسند أحمد، ط الرسالة، ج١٧، ص١٧٠].

الوقفة الثانية عشرة: الصراط المستقيم والحكمة

عند تطوافنا بين آيات الكتاب الكريم ومضامين السنة المطهرة؛ القولية والفعلية، نجد معارفها وتعاليمها تتمحور حول الوظيفة الأساسية التي بُعِث الأنبياءُ عليهم السلام من أجلها، والتي انتهت، وخُتِمت، وتكاملت، ببعثة سيدهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ؛ وهي (تعليم الحكمة).

والحكمة ـ كما تفيده أمهات كتب اللغة العربية ـ مأخوذة من الإحكام؛ بمعنى الإتقان والدقة. وهي صفة من صفات الله؛ ذاتاً وفعلاً، فكلُّ فعلِهِ حكيمٌ، وهو في ذاته عزّ وجلّ حكيمٌ، ولهذا وذاك صار اسمه (الحكيم). كما أن الحكمة جاءت وصفاً للقرآن الكريم ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود/ ١].

والحكمة هي الصفة التي نُدِب الناس؛ الذين هم خلقُ الله وأحبابُهُ، أن يتحلَّوا بها؛ فبُعِث النبيُّ ﷺ من أجل أن يعلمهم الحكمة ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة/ ١٥١].

وقد قام النبي ﷺ بهذا الدور بأفضل ما يمكن أن يقوم به أحدٌ، وبذل في ذلك الغاليَ والنفيسَ، بل لقد بالغ في ذلك حتى كادت أن تزهق نفسُهُ حسرةً وألماً على ما سيؤول إليه مخالفوه؛ حتى جاءته المواساة من ربه تعالى بقوله ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر/ ٨]، وقوله تعالى ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه/ ١ ـ ٢].

وهذه الوصية؛ التي نحن بصدد شرحها، عالجت الحكمة؛ من خلال تحديد معالم الصراط المستقيم وتبيان جوامع الخير.

ونعني بـ(الحكمة)؛ ما جاء في تعريفها أنها (إصابة الحق بالعلم والعقل)(١)، وأنها التي تفرض: وضعَ الأمور في محلها، في جانبيها النظري والعملي(٢):

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (حكم).

(٢) أفاض العلماء في تعريف الحكمة. =

أ ـ (الحكمة النظرية)

نريد بـ(الحكمة النظرية): مجموعة الأفكار والرؤى الصحيحة والمعرفة الحقيقية، عن الله تعالى (الخالق)، وعن فعله وتدبيره الإيجادي (الخلق)، وعن تدبيره الربوبي والتربوي للناس؛ من خلال: النبوة، والإمامة، والمعاد، وما يتشعب منها من معارف.

ولابد للعامل؛ إذا أراد لعمله أن يكون منتِجاً، أن يعتمد على أساس الصواب والحق، وهو مجموع المبادئ والمعارف حول الله وأفعاله والطريق إليه، وهي ما اصطلح عليه في الأزمان المتأخرة بـ(الرؤية الكونية) أو يمكن وصفه بـ(البناء المعرفي).

= فقال العلامة الطباطبائي (ت١٤٠٢ هـ):

الحِكمة؛ بكسر الحاء، على [وزن] فِعلة، بناءُ نوع يدل على نوع المعنى. فمعناه: النوع من الإحكام والإتقان، أو نوع من الأمر المحكَم المتقَن الذي لا يوجد فيه ثلمةٌ ولا فتورٌ.

وغلب استعماله في المعلومات العقلية الحقة الصادقة التي لا تقبل البطلان والكذب البتة...

فالحكمة هي: القضايا الحقة المطابقة للواقع؛ من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الانسان كالمعارف الحقة الإلهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الإنسان كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية) [الميزان في تفسير القرآن، ذيل الآيات ٢٦١ ـ ٢٧٢ من سورة البقرة].

وقال أبو العلا عفيفي: الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها. فلها ـ إذن ـ ناحيتان: ناحية نظرية، وأخرى عملية، وهي بهذا المعنى مرادفة للفلسفة بقسميها النظري والعملي) [التعليقات على فصوص الحكم، ج٢، ص٣].

وقال العلامة المجلسي (ت١١١١ هـ):

قيل: الحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل .**وقيل**: ما يمنع من الجهل .**وقيل**: هي الإصابة في القول .**وقيل**: هي طاعة الله .**وقيل**: هي الفقه في الدين .**وقال ابن دريد**: كل ما يؤدي إلى مكرمة، أو يمنع من قبيح. **وقيل**: ما يتضمن صلاح النشأتين.

والتفاسير متقاربة.

والظاهر من الأخبار أنها: العلوم الحقة النافعة مع العمل بمقتضاها. وقد يطلق على العلوم الفائضة من جنابه تعالى على العبد بعد العمل بما يعلم) [بحار الأنوار ج١، ص٢٥٦، الباب ٦ ـ العلوم التي أمر الناس بتعلمها، التعليق على الحديث ٢٥].

ب ـ (الحكمة العملية)

نعني بـ(الحكمة العملية): مجموع التصرفات اللازمة أو اللائقة، في ما يتعلق بالذات (الأنا) وغيرها (الآخر)؛ سواء في ذلك الخالق والمخلوق، والمؤالف والمخالف.

وبعبارة أخرى هي: مجموع الأدوات والآليات المعتمَدة في تنظيم العلاقة العملية مع الخالق والنفس والخلق. سواء في ذلك السلوكيات الظاهرة، والسلوكيات الباطنة.

وهذا التقسيم للحكمة، إلى نظريةٍ وعمليةٍ، لا يعني بالضرورة الفصلَ التامَّ بين الجانبين؛ لأن الفرزَ الحادَّ والصارمَ بين النوعين غيرُ ميسورٍ؛ لذلك قد يجد القارئُ بعضَ التداخل بين قسمي الحكمة.

وسيتبين؛ من بحوث هذا القسم الثاني من الكتاب وفصوله، أن ثمة تآزراً، وترابطاً وثيقاً بين الحكمتين.

والصراط المستقيم؛ الذي نرمي إليه ـ في هذا الكتاب ـ إلى التعرف عليه أولاً، وتجسيده ثانياً، هو مجموع الحكمتين؛ الذي يؤدي بنا:

* عملياً إلى (طاعة الربّ في القيام بأوامره، واجتناب نواهيه، والتخلُّق بآدابه؛ على ما نهج لهم من دينه، وبيّن لعباده من معرفته من الأحكام الشرعية المبيّنة بلسان الشرع)[1].
* ووجدانياً وغائياً (إلى محبتِهِ تعالى، وإلى جنتِهِ)[2].

وهاتان الحكمتان على قدرٍ عالٍ من الأهمية، ذلك أن (الإنسان؛ الذي هو في مسيرِ حياتِهِ على صراط مستقيم، يجرى في أعماله على الفطرة الإنسانية؛ من غير أن يناقض بعضُ أعماله بعضاً، أو يتخلَّف عن شيءٍ مما يراه حقاً)[3].

---

(١) الكربلائي، الشيخ جواد عباس (ت١٤٣٢ هـ)، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، ج٣، ذيل قوله عليه السلام: وأدلاء على صراطه)، ص٤٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص٤٥٠.

(٣) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص٣٠٢، ذيل قوله تعالى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل/٧٦].

الوقفة الثالثة عشرة: خطة البحث

١ ـ العلم والعمل

من أجل السير على الصراط المستقيم لا يكفي أن تتعرف نظرياً على المبادئ والأسس الفكرية، بل يجب أن يُشفَع ذلك بالأدوات والآليات؛ التي تمثل البرنامج العملي لتجسيد تلك المبادئ.

لذلك، خصصنا الباب الأول؛ من هذه الدراسة المتواضعة، لمعالجة المبادئ والمعارف النظرية المتكفِّلة بمعالجة النقصِ الفكريِّ، وإزالة التشوُّهات الفكرية؛ التي من شأن الابتلاء بها إعاقةُ الإنسانِ عن الوصول إلى الصراط المستقيم؛ فضلاً عن السير فيه والثبات عليه.

وخصَّصنا الباب الثاني لمعالجة الجانب التطبيقي للمعارف النظرية السابقة؛ وهي ما اصطلح عليه العلماءُ بـ(الحكمة العملية)؛ استلهاماً من قول الله تعالى ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

٢ ـ المانع والمقتضي:

يجب التنبيه إلى أن هذه الأدوات والآليات تتنوع إلى نوعين:

النوع الأول: الموانع

وذلك، أن في الطريق إلى الصراط المستقيم سدوداً وحُفراً وعوائقَ تحول بين السائر وبين الشروع في السير، أو الاستمرار فيه؛ وهي ما نصفه بـ(الموانع). وما لم يسعَ طالبُ الصراط المستقيم في دفع هذه الموانع، ورفعها، وتخطيها، فسيكون نشدانُهُ لهذا الصراط مجردَ أمنيةٍ كاذبةٍ لا قيمةَ لها، ومجرد تنظيرٍ خالٍ من المضمون.

النوع الثاني: المقتضِيات

نعني بـ(المقتضِيات): مجموع العوامل الواجب توفيرها، والتوفر عليها؛ لبلوغ الصراط المستقيم من جهةٍ، والثبات عليه من جهةٍ ثانيةٍ.

وقد توزَّعت وصايا النبي ﷺ لأبي ذر رحمه الله على المحاور الثلاثة، أعني:

١ ـ الأسس النظرية الفكرية، التي عالجناها في الباب الأول.

٢ ـ الأدوات والآليات بقسميها (الموانع، والمقتضِيات). التي خصصنا الباب الثاني لمعالجتها.

ومراعاةً لتسلسل الوصية؛ كما رُوِيت عن النبي ﷺ، فقد تناولنا الفقرات بالبحث والتحليل كما جاءت في الرواية، إلا في بعض الفصول، وسننبِّه إلى ذلك إن شاء الله تعالى.



الباب الأوّل

الأسس الفكريّة للصراط المستقيم (الحكمة النظريّة)

● [الفقرات/ ٤ ـ ٩]:

(يا أبا ذر! اعبد اللهَ كأنك تراه؛ فإن كنتَ لا تراه فإنه يراك.

واعلم أن أولَ عبادةِ الله المعرفةُ به؛ فهو الأول قبل كلِّ شيءٍ؛ فلا شيءَ قبله، والفردُ فلا ثانيَ له، والباقي لا إلى غايةٍ، فاطرُ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيفُ الخبيرُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ.

ثم الإيمان بي، والإقرار بأن الله تعالى[1] أرسلني إلى كافة الناس؛ بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً.

ثم حبّ أهل بيتي؛ الذين أذهب الله عنهم الرجسَ، وطهرهم تطهيراً.

واعلم ـ يا أبا ذر ـ أن الله عزّ وجلّ[2] جعل أهل بيتي؛ في أمتي، كسفينةِ نوحٍ؛ مَن ركبها نجا، ومَن رغب عنها غرق، ومثلَ بابِ حطةٍ؛ في بني إسرائيل، من دخلها كان آمناً.

يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به[3] تكن سعيداً في الدنيا والآخرة).

---

(١) في الأمالي للشيخ الطوسي (بأن الله عزّ وجلّ).

(٢) في الأمالي للشيخ الطوسي (أن الله تعالى).

(٣) في الأمالي للشيخ الطوسي (ما أوصيتُك به).

مدخل:

تتشكل هذه الوصية الشريفة من عشرات البنود، ولا مناص من البحث عن المحور الجامع، وإن شئت قلت: الخيط الرابط بين مجموع هذه البنود؛ حفظاً للحكمة في كلام الحكيم؛ وهو هنا سيدِّد البشر وخاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ﷺ الذي روي عنه قوله: (**أُعطِيتُ جوامعَ الكلمِ**)[1]. ولا يخفى أن معلِّمَ الحكمة يجب أن يكون (حكيماً)؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

ولعل ما جاء في مستهل الوصية من قوله ﷺ (**يا أبا ذر! اعبد اللهَ كأنك تراه؛ فإن كنتَ لا تراه فإنه يراك**) [الفقرة/ ٤]، هو المحورُ الجامعُ، أو الخيطُ الرابطُ لجميع البنود الواردة في هذه الوصية.

ويؤكد ذلك ما عالجته الوصية الشريفة من صفات حسنة وقبيحة، وما تناولته من موضوعات، من قبيل:

١ ـ الله سبحانه، باعتباره خالقاً ومعبوداً ومنعِماً... وبلحاظ ما له من الحقوق في أعناق المخلوقين.

٢ ـ الإنسان في مساره ومصيره، وجوارحه وجوانحه، وآلامه وآماله، ومبدئه ومنتهاه، وفضائله ورذائله...

٣ ـ الصلاة وأهميتها عند الله، ودورها في صناعة العبد الصالح...

---

(١) هذه الجملة هي فقرةٌ من نص نبوي؛ رواه الشيخ الصدوق في الأمالي، المجلس الثامن والثلاثون، الحديث ٦، ص١٦١ ـ ١٦٢، وهذا نصه:

بسنده عن إسماعيل الجعفي: أنه سمع أبا جعفر الباقر عليه السلام: يقول: قال رسول الله ﷺ: **أعطيتُ خمساً لم يُعطَها أحدٌ قبلي: جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهورا، وأُحِل لي المغنم، ونُصِرْت بالرعب، وُأعطيتُ جوامع الكلم، وأُعطيتُ الشفاعة**)، ورواه الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، برقم (٧٢٤)، ج١، ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

وجاء في صحيح مسلم، ج١، ص٣٧١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ في حديثٍ عن أبي هريرة ـ ما لفظه: أن رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، قال: **فُضِّلت على الأنبياء بستٍّ: أُعطِيت جوامعَ الكلم، ونُصِرت بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعِلت لي الأرضُ طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلت إلى الخلق كافةً، وخُتِم بي النبيون**).

٤ ـ الجنة والنار وبعض شؤونهما، وكيف يجب التعامل معهما.

٥ ـ العلم والفقه والمعرفة.

٦ ـ الذنوب والمعاصي وآثار ذلك على الإنسان في حاضره ومستقبله.

٧ ـ الدنيا والآخرة وكيف نتعامل معهما.

٨ ـ بعض الفضائل المهمة في تحقيق إنسانية الإنسان، كالزهد والتواضع والإيمان وحقيقته، ومحاسبة النفس، والحياء من الله تعالى، والتعبد والذكر، والصمت...

٩ ـ بعض الرذائل المدمرة للإنسان فرداً وجماعة، من قبيل: الكذب، والغيبة، والنميمة، وإفشاء الأسرار، والهجران للإخوان، والكبر.

١٠ ـ خلال ذلك تناولت الوصية عنصرين أساسيين وهما: القلب وشؤونه، واللسان ومخاطره...

وهذه المحاورُ تُعد ـ كما لا يخفى ـ محاورَ مفصليةً؛ في سياق برنامج تحقيق إنسانية الإنسان، وتكامله، وتجسيد عبوديته، وتنظيم علاقته بمعبوده؛ على أساس قواعد الصراط المستقيم ومتطلباته؛ ابتداءً وانتهاءً.



بين يدي البحث:

الخالق معبوداً، والمخلوق عبداً

تقرر لدى الباحثين في عالم الوجود والموجود أن لكلِّ موجودٍ غايةً وجوديةً يسعى نحوها(١)، وتحدد دوره. غير أن هذه الغايةَ قد يتيسر لنا أن نحيط بها، وقد لا يتيسر لنا ذلك فتخفى علينا.

---

(١) قال الملا صدرا الشيرازي (ت١٠٥٠ هـ):

اعلم أن الأصول الحكمية دالة على أن القسر لا يدوم على طبيعة، وأن لكلِّ موجودٍ من الموجودات الطبيعية غايةً ينتهي إليها وقتاً؛ وهي خيره وكماله، وأن الواجب (جل ذكره) أوجد الأشياءَ على وجهٍ تكون مجبولةً على قوة ينحفظ بها خيرُها الموجودُ وتطلب بها كمالَها المفقودَ؛ كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه/ ٥٠].

فلأجل ذلك، يكون لكلٍّ منها عشقٌ للوجود وشوقٌ إلى كمال الوجود؛ وهو غايته الذاتية التي يطلبها ويتحرك إليها بالذات. وهكذا الكلام في غايته وغاية غايته حتى ينتهي إلى غاية الغايات وخير الخيرات إلا أن يعوق له عن ذلك عائق ويقسر قاسر.

لكن العوائق ليست أكثريةً ولا دائمةً؛ كما سبق ذكره، وإلا لبطل النظام، وتعطلت الأشياء، وبطلت الخيرات، ولم تقم الأرض والسماء، ولم ينشأ الآخرة والأولى ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص/ ٢٧].

فعُلِم: أن الأشياء ـ كلها ـ طالبةٌ لذاتها للحق، مشتاقةٌ إلى لقائه بالذات، وأن العداوة والكراهة طارئةٌ بالعرض. فمن أحب لقاء الله بالذات أحب الله لقاءه بالذات، ومن كره لقاء الله بالعرض لأجل مرضٍ طارٍ على نفسه كره اللهُ لقاءه بالعرض؛ فيعذبه مدةً حتى يبرأ من مرضه ويعود إلى فطرته الأولى، أو يعتاد بهذه الكيفية المرضية زال ألمه وعذابه لحصول اليأس ويحصل له فطرة أخرى ثانية؛ وهي فطرة الكفار الآيسين من رحمة الله الخاصة بعباده، وأما الرحمة العامة فهي التي وسعت كلَّ شيء كما قال تعالى ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف/ ١٥٦]. =

وبالنسبة لـ(الإنسان) فإن له ـ بطبيعة الحال ـ غايةً وجوديةً تشكِّل الهدفَ والغايةَ من خلقه، وتتحدد من خلالها وظيفتُهُ ودورُهُ.

وحسب المنطق الإسلامي؛ المستنبط من نصوصه الوحيانية الأساسية، فإن هذه الغاية تتمثل في (العبادة)؛ التي تعني ـ في عبارةٍ موجزةٍ ـ: شكل العلاقة بين العبد والمعبود. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

ويتفاوت العبَّاد في تجسيد العبادة، ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران/ ١٦٣] فمنهم المثالي، ومنهم المتوسط، ومنهم المتدني، وبين هذا وذاك مستويات بعدد الخلائق[١]، يحكمها نسيجٌ ظاهرٌ وخفيٌّ من المكوِّنات في عقل العابد ونفسه؛ من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر؛ (فإن الطرق إلى الله، وإلى دار ملكوته، لا تنحصر في بابٍ واحدٍ؛ كما قال تعالى ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة/ ١٤٨]، وكقوله تعالى ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود/ ٥٦]، وهو صراط الإنسان المؤدي بسالكه إلى ربّ محمد ﷺ وجميع الأنبياء وآله(عليهم السلام)»[٢].

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

[إن] العُبَّادُ ثلاثةٌ[٣]: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً، فتلك عبادة

= وعندنا ـ أيضاً ـ أصولٌ دالةٌ على أن الجحيم وآلامها وشرورها دائمةٌ بأهلها، كما أن الجنةَ ونعيمَها وخيراتِها دائمةٌ بأهلها؛ إلا أن الدوامَ لكلٍّ منهما على معنى آخر) [الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٩، ص٣٤٧].

(١) ولعل القول المأثور: **الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق** يشير إلى ذلك. وهي مقولة منسوبة إلى أبي يزيد البسطامي؛ على ما في تفسير الآلوسي ج٣، ص٣٣٢.
وقد تُورَد هذه المقولة على أساس أنها حديثٌ نبويٌّ، لكني لم أجدها بهذا اللفظ في جوامع الأحاديث الأخبار للفريقين؛ في حدود تتبعي.

(٢) الشيرازي، صدر الدين محمد (١٠٥٠ هـ)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ج٥، ص٢٥ـ ٢٦، الباب ٨ ـ إبطال التناسخ، الفصل ٢.

(٣) في بعض النسخ [العبادة ثلاث]، كما في وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٩ ـ ما يجوز قصده من غايات النية وما يستحب اختياره منها، الحديث ١.
ولعلها أرجح مما أثبتناه في المتن، والله العالم.

العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلبَ الثواب، فتلك عبادةُ الأجَراء، وقومٌ عبدوا الله عزّ وجلّ حباً له، فتلك عبادةُ الأحرار؛ وهي أفضلُ العبادة)[١].

ومن منطلق التفاوت؛ هذا، يوصي الرسولُ الأعظمُ ﷺ؛ وهو المعلِّم الحكيم والمؤدِّب الشفيق، تلميذَهُ النجيبَ أبا ذر (رضوان الله عليه)، بأن يسعى ويجتهد في أن تكون عبادتُهُ من المستوى المثالي، وذلك بجعلها نابضةً بالحياة، لا كما يتعبد كثيرٌ من الناس؛ حيث تغيب الحياة والحيوية في عبادتهم، حتى إنها تتحول ـ بسوء فعلهم ـ إلى طقسٍ جامدٍ لا حراك فيه.

وفي الخبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال:

بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالسٌ في المسجد؛ إذ دخل رجلٌ فقام يصلي، فلم يتم ركوعه، ولا سجوده، فقال (صلى الله عليه وآله): نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا؛ وهكذا صلاته، ليموتَنَّ على غير ديني)[٢].

وذكر النبيُّ ﷺ لأبي ذر رحمه الله آليةً ووسيلةً؛ إن هو اعتمدها، فهي كفيلةٌ ـ بعون الله تعالى ـ أن تجعل من عبادته عبادةً فاعلةً نابضةً بالحياة.

وتلك الآليةُ تتمثل في ما يمكن أن نسميه بـ(المراقبة)، و(اليقظة)، و(البصيرة)...

ولكي نستوعب هذه الغاية، وما ترمي إليه، نرى أن من المفيد أن نتذكر حقائق ترتبط بهذا الإنسان؛ وهو (العبد)، وحقائق ترتبط بخالقه (عز وجل)؛ الذي هو (المعبود).

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، الحديث ٥.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج٤، ص٣١ ـ ٤٢، كتاب الصلاة، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها وما يناسبها، الباب ٨ ـ وجوب إتمام الصلاة وإقامتها، الحديث ٢.

ولعل هذا هو ما أشارت إليه المقولة المعروفة (**مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه**)[١].

ولنتناول ذلك في مستويات ثلاثة:

المستوى الأول: حقائق عن العبد

في هذا المستوى نلحظ عدداً من المقدمات؛ انتظمتها الوصيةُ بأشكالٍ مختلفةٍ، تدور جميعُها حول تبيان سلسلة من الحقائق، تمثِّل في نفسها قوانينَ وجوديةً لا مجال للتنكُّر لها.

ومن تلك الحقائق نذكر ما يلي:

الحقيقة الأولى: الإنسانُ لم يخلق نفسَهُ

نتبين في هذه الحقيقة مقدماتٍ لا يختلف عليها اثنان، وهي:

١ ـ أن الإنسانَ مخلوقٌ.

٢ ـ أن خالقَهُ غيرُهُ.

٣ ـ أن هذا الخالقَ ليس إنساناً.

أما المقدمة الأولى: فيحكم بها الوجدانُ، حيث لا يتخيل أحدٌ أن الإنسان؛ بل الناس جميعاً، غيرُ مخلوقين.

وبيان ذلك أن يقال: ما دام الوجودُ بالنسبة لهم غيرَ ضروريٍّ، بل هو طارئٌ

---

(١) رواها ـ مرسلةً ـ ابنُ أبي جمهور الأحسائي عن النبي ﷺ في عوالي اللئالئ، ج٤، ص١٠٢، والمجلسي في بحار الأنوار، باب استعمال العلم...، شطراً من الحديث ٢٢، ج٢، ص٣٢، وفي ج٥٨ ص٥٩، ضمن رسالة للشيخ علي بن يونس العاملي. كما أنها ذُكرت في باب العلم من كتاب مصباح الشريعة؛ المنسوب للإمام الصادق عليه السلام.
وقد تحفَّظ على نسبتها إلى النبي ﷺ كثيرٌ من أهل العلم. غير أن مضمونها مقبولٌ بعدة معانٍ.
وذكرها ابن أبي الحديد المعتزلي؛ ضمن الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، برقم ٣٣٩؛ في شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٢٩٢.

عليهم، فلا بد أن هناك موجِداً لهم، والعقلُ يفرض أن يكون الموجِدُ ليس مخلوقاً مثلهم؛ وإلا عاد السؤال، فلا بد أن هذا الموجِدَ والخالقَ موجودٌ غيرُ مخلوقٍ؛ وهو الله الخالق عز اسمه[1].

وأما المقدمة الثانية: فيحكم بها العقلُ؛ الذي يقضي بأن الشيءَ لا يخلق نفسه، وإلا كان المتأخرُ؛ الذي هو (مخلوق)، متقدماً؛ حيث نفترض أنه (خالقٌ)، والشيءُ لا يتقدم على نفسه؛ كما هو واضحٌ لكلِّ عاقلٍ؛ لاستلزامه التناقض المستحيل عقلاً.

وأما المقدمة الثالثة: فتدركها العقولُ السليمةُ؛ التي لا تختلف في أن فاقدَ الشيء لا يعطيه، وإلا وقعنا في التناقض، الذي هو أوضح المحالات وأولها.

وهذه المقدمات الثلاث يمكن استخراجها من قول الله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور/ ٣٥] و(هذا تقسيمٌ حاصرٌ؛ لأنه ممتنعٌ خلقُهُم من غير خالق خلَقَهم، وكونُه[2] يخلقون أنفسهم أشدُّ امتناعاً؛ فعُلِم أن لهم خالقاً خلقهم)[3].

وقد روى الحسين بن خالد، عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

أنه دخل عليه رجلٌ فقال له: يا ابن رسول الله! ما الدليل على حدوث العالم؟

---

(١) صاغ أحدُ المفسرين المطلبَ على هذا النحو:
تقرر في العقل مع الشرع، أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:
إما أنهم خلقوا من غير شيء؛ أي: لا خالق خلقهم، بل وُجِدوا من غير إيجاد ولا موجِد! وهذا عين المحال.
أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال؛، فإنه لا يتصور، أن يوجد أحدٌ نفسه.
فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتُهما، تعين القسمُ الثالثُ؛ وهو: أن الله هو الذي خلقهم) [تفسير السعدي، ذيل قوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور/ ٣٥]].

(٢) كذا في الأصل! ولعل الضمير أرجِع إلى الشأن أو الأمر؛ عطفاً على (لأنه)، والأصوب أن يقال (وكونهم)؛ ليعود الضمير إلى المخلوقين وهم البشر، والله العالم.

(٣) الزركشي، محمد بن عبدالله (ت٧٩٤ هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، مسالك العلة، مسلك السبر والتقسيم، ج٦، ص٢٢٢.

فقال: أنت، لم تكن ثم كنتَ، وقد علمتَ أنك لم تكوِّن نفسَك، ولا كوَّنك من هو مثلُك)[١].

وقد سبق الإمامُ الصادقُ ﷺ باستدلال على ذلك؛ فقال للديصاني[٢]؛ لَما سأله قائلاً:

ما الدليل على أن لك صانعاً؟

فقال: وجدتُ نفسي لا تخلو من إحدى جهتين: إما أن أكون صنعتُها أنا، فلا أخلو من أحدِ معنيين:

إما أن أكون صنعتُها؛ وكانت موجودةً.

أو صنعتُها؛ وكانت معدومةً.

فإن كنت صنعتُها؛ وكانت موجودةً، فقد استغنيتُ بوجودها عن صنعتِها، وإن كانت معدومةً فإنك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً.

فقد ثبت المعنى الثالث؛ أن لي صانعاً؛ وهو الله ربّ العالمين.

فقام؛ وما أجاب جواباً)[٣].

وعلَّق المحدث المجلسي رحمه الله؛ على هذا الحديث، بقوله: هذا برهانٌ متينٌ

---

(١) التوحيد للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٣، ص٣٦، باب إثبات الصانع، الحديث ١١.

(٢) ترجمه صاحب كتاب (الفائق في رواة وأصحاب الإمام الصادق) بقوله:

أبو شاكر عبدالله الديصاني، كان في بادئ أمره زنديقاً خبيثاً، ديصاني الطريقة، على مذهب ديصان القائل بالثنوية وهي النور والظلمة، ثم اجتمع بالإمام ﷺ وسأله عن معبوده، فهداه الإمام ﷺ إلى ربّ السماوات والأرضين فأسلم واهتدى، وكان يدعي انتماءه إلى الإمامية) برقم ١٩١٧، ص٢٧٤.

وقال الطريحي في مادة (ديص): في الحديث عبدالله الديصاني، وكنيته أبو شاكر، كان زنديقاً من الزنادقة، وأسلم... وداص يديص ديصاناً: زاغ وحاد، ولعل نسبته إلى الديصانية من ذلك، والله أعلم) مادة (ديصان).

(٣) التوحيد للشيخ الصدوق، وعنه: المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ٣، ص٥٠، باب إثبات الصانع، الحديث ٢٣.

مبنيٌّ على توقف التأثير والإيجاد على وجود الموجِد والمؤثِّر، والضرورةُ الوجدانيةُ حاكمةٌ بحقيتها، ولا مجالَ للعقل في إنكارها)[1].

الحقيقة الثانية: أن الخالق هو الله

يمكننا إدراك حقيقة أن (الخالق هو الله)، إذا لاحظناأن الإنسانَ هو أرقى كائنٍ وجوديٍّ، وإذا لاحظناه بمجموع ما يتصف به من صفات وسمات، وبما يتحلى به من إمكاناتٍ وخصائصَ وسماتٍ، فهو:

١ ـ الوحيد القادر على الانطلاق في عالم التكامل. وتاريخ الإنسان؛ في الصُّعُد العلمية والتاريخية والأخلاقية والاجتماعية...، شاهدٌ وجدانيٌّ على هذه الدعوى وصدقها. فالإنسان ـ إذاً ـ يتربع على السلم الوجودي في عالم المخلوقات. قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء/ ٧٠].

٢ ـ هو الوحيد القادر على أن يتصرف؛ بالفعل وبالقوة، في كلِّ ما يحيط به من موجوداتٍ. وتاريخه السابق واللاحق، يؤكد صحة هذه الدعوى، بينما نجد المخلوقات الأخرى؛ سوى الإنسان، تعيش مستوى وجودياً واحداً تقريباً مع أسلافها عبر التاريخ.
فأين كان الإنسان قبل آلاف السنين في طرائق عيشه وإمكاناته، وأين أصبح اليوم؟ فالأسُود ـ مثلاً ـ لا يبدو أن مستوى معيشتها، وطرائق حياتها، اختلفت عمّا كانت عليه منذ أن خلقها الله أسوداً، وهكذا غيرها من العجماوات.

٣ ـ أن غير الإنسان؛ الذي يقصُر في ذاته وإمكاناته عن واقع الإنسان، لا يُعقل أن يكون خالقاً له، ولا واهباً له ما يفتقده، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، كما ألمحنا إليه.

---

(١) المصدر نفسه.

بهذه الملاحظات الثلاث ننتهي إلى أن (الله) وحده هو الخالق، فهو الكامل المطلق، وهو الغني المطلق، وهو الوهاب المطلق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

الحقيقة الثالثة: أن هذا الإنسان خُلِق لغايةٍ

إن حكمة الخالق في أفعاله تفرض:

أولاً: أن يكون المخلوق؛ أي مخلوق، فضلاً عن الأشرف والأفضل؛ وهو الإنسان، قد خُلق لغايةٍ.

ثانياً: أن هذه الغاية يجب ـ عقلائياً ـ أن تتناسب وحكمة الله/ الخالق.

وهذا ما أشار إليه القرآن في قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦].

الحقيقة الرابعة: أن الإنسان محكومٌ بقوانين

إذا افترضنا أن الإنسانَ مخلوقٌ فهو ـ بطبيعة الحال ـ مغلوبٌ محكومٌ بسنن الخالق وقوانين الخلقة. وهذه السنن والقوانين قاهرةٌ غالبةٌ يلزمه الانصياع لها، والتناغم معها، قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف/ ٢١]، وقال تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام/ ١٧، ١٨].

المستوى الثاني: حقائق عن المعبود

إذا كان عالَم العبد محاطاً بسلسلة من الحقائق، فإن عالَم المعبود هو ـ أيضاً ـ مشحونٌ بحقائق وجوديةٍ تقتضيها ذاتُهُ، وهي كثيرةٌ، يعنينا منها ـ هنا ـ ما يرتبط بفهم طبيعة العلاقة بين (العبد) و(المعبود).

ومن تلك الحقائق ما يلي:

الحقيقة الأولى: أن الله تعالى هو خالق الإنسان

قد تقدم الإلماح إلى ذلك في الحقيقة الثانية من المستوى الأول.

الحقيقة الثانية: أن الخالق هو المالك

الْمُلك ـ هنا ـ لا يراد به ما هو من سنخ الملكية الاعتبارية الدارجة بيننا؛ حيث نملك الشيء اليوم ونبيعه غداً، وإنما هو سنخُ ملكيةٍ حقيقيةٍ يتقوَّم وجود المملوك فيها بالمالك. وهذا المعنى لا ينفك عن الخالقية، فمَن كان مالكاً؛ على هذا النحو، فهو الخالق، ومَن كان خالقاً فهو المالك لا محالة.

الحقيقة الثالثة: أن الله الخالق غني

نعني بأن الخالقَ (غنيٌّ) هو: أن ما يتصف به الله؛ من قدراتٍ لا حصرَ لها، وإمكاناتٍ لا حدَّ لها، لم يحصل عليها من غيره؛ إذ إننا لا نفترض موجوداً يقع فوق (الله) في هرم الوجود بكل مفرداته.

ويترتب على هذه الحقيقة أن نقول: إنه عزّ وجلّ لم يخلق مخلوقاته إثر حاجةٍ تكمن فيه، أو أنها ألَمَّت به بعدئذٍ، واحتاج إلى مَن يرفع احتياجه؛ فخلَق ما خلَق. لأن خلقه إياها ـ لهذا السبب ـ يتضمن وقوعاً في تناقضٍ صارخ؛ حيث يتصادم مع افتراضنا أن هذا الخالق غنيٌّ بنحوٍ مطلقٍ. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ٥].

المستوى الثالث: آفاق العبادة

بما تقدم ـ من معطيات في المستويين السابقين ـ يتبين لنا جملةُ أمورٍ، منها:

أولاً: أن هناك طرفين بينهما علاقةٌ خاصةٌ تجعل من أحدهما (عبداً)، والآخر (معبوداً). ونسمي هذه العلاقة بـ(العبودية) من الطرف الأول؛ الذي نصفه بأنه (عبد) للثاني؛ الذي نصفه بأنه (معبود).

ثانياً: أن هذه العبوديةَ هي معنى يجب التعبيرُ عنه على مستوى الممارسة؛ لأنه ليس مجردَ شعارٍ أجوفَ، وإنما هو حقيقةٌ وجوديةٌ ذاتُ تجلياتٍ وتمظهراتٍ؛

هي ما يُعبَّر عنها في الثقافة الدينية بـ(العبادة)؛ حيث يترجم العبدُ عبوديتَه لمعبوده تعالى من خلالها.

ثالثاً: أنا إذا لاحظنا أن مادة (عبد) تعني - في اللغة -: الخضوع، والتذلل[1]، فسندرك أن (العبودية)؛ المفترضة من قِبَل (العبد) تجاه (المعبود)، تعني - في ما تعني -: الخضوعَ المناسبَ لطبيعة العبودية القائمة في ذات العبد تجاه المعبود؛ لأننا افترضنا أن هناك (حاجة مطلقة) من قِبَل (عبد مطلق) لـ(معبود مطلق).

ولازم (الخضوع المطلق): استحالة استغناء الفقير عن الغني؛ في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وضرورة الخضوع المطلق من العبد للمعبود في مختلف جوانب حياته، ولنُشِر إلى ذلك بما يلي:

١ - وجود ذات (العبد) لا يعدو كونه هبةً ونعمةً؛ امتنَّ بها الموجود الغنيُّ (المعبود) على الموجود الفقير (العبد). وهو لا يملك أن يوجِد ذاتَهُ ولا أن يعدمها، ولا خيارَ له إلا أن يخضع لقوانين الله وسننه الكونية.

٢ - إن صفاتِ العبد الحسنةَ وفضائلَه وكمالاتِهِ؛ التي يتوفر عليها، إنما هي شكلٌ من أشكال التوفيق واللطف؛ الذي حفَّ بهذا العبد من الخالق المعبود.

٣ - إن أفعالَ الإنسان الحسنةَ والمرضيةَ ليست سوى سلسلةٍ من العطاءات الإلهية للعبد، كما أن هذا العبدَ ليس قادراً على أن يرتكب شراً ما لم يأذن الله سبحانه فيه[2]، دون أن يسلب ذلك قدرةَ العبد على الاختيار فنقع في مشكلة الجبر!

---

(١) الأفريقي، ابن منظور (ت٧١١ هـ)، لسان العرب، مادة (عبد).

(٢) قال تعالى ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن/ ١١]، وقال تعالى ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة/ ١٠]، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف/ ٢٣ - ٢٤].

ويجب أن يُعلَم بأن إذن الله ومشيئته - هنا - لا يعنيان الرضا، ولا يستلزمانه. وتفصيل ذلك يُطلَب في محله.

يؤكد ما قلناه نصوصٌ قرآنيةٌ كثيرةٌ، من قبيل:

* قوله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].
* قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم/ ٣٢].
* قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية/ ١٣].
* قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور/ ٢١].

موجِبات العبودية وأسباب العبادة:

يشكِّل القرآنُ الكريمُ الدستورَ الإلهيَّ والمصدرَ الربانيَّ لتعريف الإنسان بربه وبنفسه. ومن ثَمَّ، فإنه تضمَّن المبادئَ العامةَ للمشروع الإسلامي في ما يرتبط بالرؤية الكونية.

وعلى أساس تلك المبادئ نخطو للتعرف على هذه العبادة في موجباتها وأسبابها، وهذا ما سنكون بصدد التعرف عليه قرآنياً؛ باعتبار أن النبي ﷺ هو الشارح والمفسر للقرآن لقوله تعالى في تبيان دوره الوظيفي ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران/ ١٦٤]، وفي مضمونها وآدابها من ناحيةٍ أخرى، وهو ما جاء وصيةً من النبي ﷺ لأبي ذر (رضوان الله عليه)؛ كما سيتبين خلال الشرح بتوفيق الله تعالى.

موجِبات العبادة:

موجِباتُ العبادة ـ كما نلحظها في ثنايا وتضاعيف آيات القرآن الكريم ـ كثيرةٌ جداً، تدور جميعُها حول تأكيد الغِنى في (المعبود) والفقر في (العبد) على جميع الأصعدة والمستويات، بما لا يسوغ معه افتراضُ أن لـ(العبد) حقاً في (التمرد)

على (المعبود)، أو أن له التنكرَ لحقوق المولى سبحانه والتمرد عليها؛ مهما كان ذاك التنكر، أو التمرد، متواضعاً وخفياً؛ فضلاً عن أن يكون صارخاً ومعلَناً.

* قال تعالى في الإلزام بطاعة رسوله؛ انبثاقاً من طاعته تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء/ ٦٥].

* وقال تعالى؛ في بيان جهل مَن أطاع غيرَ الله بعيداً عن أمر الله تعالى ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠].

وأما تفصيل موجبات العبادة فكثيرة، منها:

السبب الأول: الخَلْق

القرآن يطرح فعل (الخلق)[1]؛ الذي يعني: الإيجاد بعد العدم، كسببٍ لعبودية (المخلوق) لـ(الخالق). وعملية الخلْق ـ هذه ـ تشمل العاقلَ وغيرَ العاقل على السواء.

أ ـ ففي بيان حقيقة عملية (الخلق) وأنها ليست وهماً، يقول تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور/ ٣٥].

ب ـ في إثبات التلازم بين الخالقية والمعبودية، يقول تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف/ ١٩١].

---

(١) حديثنا يدور حول (الخلق) التام الناشئ من الاستقلال في القدرة، وهو ما لا يحتاج إلى عونٍ من أحدٍ ولا إذنٍ من أحدٍ. أما ما كان من قبيل ما فعله نبيُّ الله عيسى عليه السلام؛ في ما حكاه الباري سبحانه على لسانه بقوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/ ٤٩]؛ فلا يستلزم ما ذكرناه في المتن.

جـ ـ في إيجاب (الخلق) لـ(العبودية)، التي تعني اتصاف (المخلوق) بأنه (عبد) للخالق، نورد نماذج على ذلك:

١ ـ عن الإنسان، قال تعالى حكايةً لقول مؤمنٍ دعا قومَهُ للإيمان بالله عز اسمه ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس/ ٢٢].

٢ ـ يقرر ـ إلى ذلك ـ أن هذه الخالقيةَ ليست لجيلٍ من الناس دون جيلٍ، بل هي شاملةٌ لمن سبق أيضاً، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة/ ٢١].

٣ ـ عن شمولية هذه الخالقية لغير الإنسان والحيوان؛ أعني الجماد وسائر الظواهر الوجودية، بما يخرجها عن أهليتها لأن تُعبد من دون الله أو معه، قال تعالى ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت/ ٣٧].

السبب الثاني: مالكية الله المطلقة

يتناول القرآن سبباً آخر لـ(العبودية)؛ وهو كون الله مالكاً مطلقاً للإنسان بل لكل شيءٍ. ومن ثَمَّ، يقرر أن العلاقة المنطقية تفرض أن مَن كان مالكاً؛ مِلكاً مطلقاً، وحقيقياً، فإن حقَّه أن يُعبد.

* قال تعالى ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ﴾ [هود/ ١٢٣]. وليس لذلك مصداقٌ ـ كما تفيده الآية الكريمة ـ إلا الله تعالى.

السبب الثالث: الألوهية

من موجبات عبودية مَن عدا الله، وما عداه، لله تعالى هو أنه ـ سبحانه ـ (إلهٌ). فإننا إذا وصفنا موجوداً بـ(الإله) فهذا يعني أن ما يقابله، ومَن يقابله، يجب أن يكون (عبداً).

ومعنى (الإله): المتحيِّر فيه، أو المعبود، أو المستحق للعبادة[1]...، قال

(١) قال الشيخ البهائي العاملي؛ في كتابه (مشرق الشمسين)، ص٣٩٥: =

تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء/ ٢٥]، وقال تعالى ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة/ ١٣٣].

السبب الرابع: الرازقية

من الأسباب الداعية لعبودية المخلوقين للخالق هو أنه تعالى الرازق إياهم كلَّ ما يحتاجونه؛ مما يعرفون وما لا يعرفون.

* قال تعالى؛ في تأكيد التلازم بين المعبودية والرازقية ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنًا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ **[العنكبوت/ ١٧]**.

* وقال تعالى ـ في النكير على مَن يعبد مَن لا يتصف بأنه (رازق)، ولا يمارس فعل (الرزق) ـ ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ [الأنبياء/ ٦٦].

= اختلف في اشتقاق الإله:

فقيل: من (أَلَه) كـ(عبد)، وزناً ومعنى، إلهة كـ(عبادة)، وألوهة، وأُلوهية؛ بالضم، وهو بمعنى المألوه، كالكتاب بمعنى المكتوب.

وقيل: من (إله) بالكسر، بمعنى تحيَّر، لتحير العقول فيه.

وقيل: بمعنى سكن، لأن الأرواح تسكن إليه، والقلوب تطمئن بذكره.

وقيل: بمعنى فزع من أمر ترك عليه، ومنه ألهه غيره، إذا أزال فزعه وأجاره، لأن العابد يفزع إليه، وهو يحيره في الواقع، أو في زعمه الباطل.

وقيل: بمعنى أولع، إذ العباد مولَعون بذكره والتضرع إليه.

وقيل: من (وِله)، بالكسر، إذا تحيَّر وتحبَّط عقلُه. وكان أصله ولاه فقلبت الواو همزة لنقل كسرتها.

وقيل: أصل لفظ الجلالة [الله] لاه، مصدر لاها ولهاً، إذا احتجت وارتفع، لأنه سبحانه محتجِبٌ عن إدراك الأبصار والبصاير، ومرتفعٌ عن كل شيء وعما لا يليق بعز شأنه وسمو سلطانه) انتهى.

السبب الخامس: الخوف

تؤكد الرؤية القرآنية على أن (الخوف) هو من أسباب وموجبات الإذعان بالألوهية لله تعالى والعبودية للعبد. وهذا الخوف ينشأ من قدرة المخوف منه إلحاق الأذى والضرر بالخائف. وبعبارة أخرى: إن مَن لا يستطيع ذلك لا يكون إلهاً.

* قال تعالى ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء/ ٦٦].

* وقال تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران/ ٣٠].

السبب السادس: الهداية

تؤكد الرؤية القرآنية ـ أيضاً ـ على أن (الهداية)؛ التي تعني: الدلالة والإرشاد؛ علمياً وعملياً؛ لتحصيل الخير ودفع الضر، هي أحدُ مظاهر الربوبية والألوهية.

* قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس/ ٣٤-٣٥].

* وقال تعالى ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان/ ١].

* وقال تعالى ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام/ ٨٨].

السبب السابع: الرحمة

من أسباب العبودية والعبادة، وموجباتها: أن الله تعالى هو وحده مالك (الرحمة)، والمتحكم في أسبابها.

قال تعالى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف/ ٤٥].

السبب الثامن: القهر المطلق

من أسباب العبادة، وموجباتها، هو أن لله تعالى على خلقه (قهارية مطلقة)؛ بحيث لا يخرج من سلطانه أحد.

* قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام/ ٦١].

السبب التاسع: الحشر والحساب

وأخيراً، فإن من موجبات العبادة، ومن لوازم العبودية، هو أن الله تعالى سيحشر الناسَ، ويحاسبهم على ما قدموه؛ من خيرٍ أو شرٍّ.

* قال تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء/ ١٧٢].

* وقال تعالى ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس/ ٢٢].

***

هذه الأسباب التسعة؛ وغيرها، تقرر حقيقةً واقعيةً؛ لا لبسَ فيها ولا ريبَ، مفادها: أن ما عدا الله ليس سوى عبدٍ لله تعالى.

وهي حقيقةٌ لا مفرَّ منها في دنيا ولا آخرة، ولا يُستثنى منها شريفٌ ولا وضيعٌ. وهذا ما صاغته الآية الكريمة بقوله عز من قائل ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم/ ٢٦] (إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقي لجميع من في السماوات والأرض؛ وهم المحشورون إليه. وذلك لأن وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة، لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه. وهذا هو الملك الحقيقي؛ الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء، فله تعالى أن يتصرف في مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة)[1].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٦، ذيل قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ سورة المؤمنون/ ١.

والكريمة الأخرى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم/ ٩٣]؛ (فإن اللهَ سبحانه مالكُ كلِّ ما يسمى (شيئاً) بحقيقة معنى الملك؛ فلا يملك شيء من نفسه ولا من غيره شيئاً؛ من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور، ولا يستقل أمرٌ في الوجود بذات ولا وصف ولا فعل. اللهم إلا ما ملَّكه اللهُ ذلك؛ تمليكاً لا يبطل بذلك ملكُهُ تعالى، ولا ينتقل به الملكُ عنه إلى غيره، بل هو المالكُ لِما ملَّكهم، والقادرُ على ما عليه أقدرهم، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ وبكلِّ شيءٍ محيطٌ)[١].

(١) المصدر السابق، ج٦، ص٣٤٠، ذيل قوله تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ [مريم/ ٩٣].



الفصل الأول

العبودية النموذجية، والعبادة المثالية

ينتقل النصُّ النبويُّ؛ بعد التمهيد بأهمية الوصية، وضرورة حفظها بمعنى مراعاتها، إلى ما يمكن عدُّهُ جوهرَ هذا البند، إن لم نقل إنه جوهرُ الوصيةِ كلِّها؛ أعني تجاوز الشكل في العبادة إلى المضمون.

وذلك بقوله ﷺ:

(**يا أبا ذر! اعبد اللهَ كأنك تراه، فإن كنتَ لا تراه فإنه يراك**) [الفقرة/ ٤].

ويشير الموصِي؛ وهو النبي ﷺ، إلى التنبيهِ إلى عامِلَين؛ يعدَّان وسيلتين فعالتين لتحقيق ذلك.

إحداهما: داخلية، هي أشبه ما تكون بالدافع الذاتي.

والأخرى: خارجية، هي أشبه ما تكون بالضاغط الخارجي.

وإن كانت الوسيلتان بحاجةٍ؛ في تفعيلهما، إلى أن يقوم بهما الإنسان ذاته.

وهاتان الوسيلتان تتمثلان في:

١ ـ العامل الداخلي

نعني بـ(العامل الداخلي): تفاعل العبد؛ الذي هو الإنسان، مع معبوده؛ الذي هو الله تعالى، كما لو كان مرئياً له.

ولتوضيح ذلك نقول: إن الله سبحانه خلق الإنسان لدورٍ وظيفيٍّ هامٍّ متعددِ الجوانب والمستويات، ويتوقف القيامُ بهذا الواجب على توفر هذا المخلوق على سلسلةٍ من المعارف؛ بكل ما يُراد له التواصل معه واستثماره. ولزومُ أصل المعرفة، وبعض مصاديقها، أمرٌ واجبٌ في جميع الشؤون في عرف العقلاء.

وفي التنبيه على هذا العامل نقرأ عدداً من النصوص الوحيانية، في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولنورد نماذج منها:

* **النموذج الأول:** قول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء/ ٣٦].

* **النموذج الثاني:** قول رسول الله ﷺ: **طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلمٍ**[(١)].

* **النموذج الثالث:** قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ لصاحبه كميل بن زياد النخعي[(٢)]:

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٣٠، كتاب فضل العلم، الحديث ١؛ وانظر ـ أيضاً ـ: سنن ابن ماجة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٢) ترجم له الشيخ جعفر السبحاني في (موسوعة طبقات الفقهاء)، ج١، ص٤٩٨ ـ ٥٠٢، برقم (٢٤١)، بقوله:

كُمَيل بن زياد (١٢ ـ ٨٢ هـ) ابن نهيك بن الهيثم النَّخعي، الكوفي، صاحب أمير المؤمنين عليه السلام.

روى عن: علي عليه السلام، وعبدالله بن مسعود، وعمر، وأبي مسعود الأنصاري، وغيرهم.

روى عنه: سليمان الأعمش، والعباس بن ذريح، وعبدالله بن يزيد الصُّهباني، وعبد الرحمن بن جندب الفزاري، وأبو إسحاق السَّبيعي، وآخرون.

وكان من رؤساء الشيعة، وثقاتهم، وعبّادهم.

وثَّقه: ابن معين، والعجلي، وابن عمار، وابن حجر، وذكره ابن حبان في «الثقات».

قال ابن سعد: وكان شريفاً مطاعاً في قومه.. وكان ثقة، قليل الحديث، وكان كميل من أصحاب الإمام علي عليه السلام وشيعته وخاصته. =

. . . .

= شهد معه وقعة صفين، وكان عامله على هيت، كما عُدّ من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام.
وهو أحد المنفيّين من أهل الكوفة إلى دمشق؛ حيث شكاهم سعيد بن العاص والي الكوفة إلى عثمان لإنكارهم عليه قوله (إنما هذا السواد بستانٌ لقريش)، وطعنهم عليه وعلى عثمان في أمور؛ وصفها ابنُ حجَر بالأمور الاجتهادية التي لا يُعترض فيها على الخليفة، وهي في واقعها اجتهادات مخالفة للنصوص، مناقضة للشريعة، فأمر عثمان بتسييرهم إلى الشام.
وقد وُصف هؤلاء المنفيُّون بأنهم: قراء المصر، وزعماؤه، ونسَّاكه، وفقهاؤه، وهم القدوة في التقوى والنسك، وبهم الأُسوة في الفقه والأخلاق.
وشهد كميل بن زياد وقعة الجماجم، وكان رجلاً ركيناً في إحدى كتائبها المعروفة بكتيبة القرّاء، التي صمدت لحملات ثلاث كتائب عبأها الحجَّاج لها.
ولما انتهت المعركة بهزيمة ابن الأشعث، دعا الحجاج الثقفي بكميل بن زياد، وجرى بينهما كلام، ثم قال كميل: أيها الرجل من ثقيف لا تصرف عليَّ أنيابك، ولا تكشِّر عليَّ كالذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار، اقض ما أنت قاض، فإنَّ الموعد الله وبعد القتل الحساب، [ولقد خبَّرني أمير المؤمنين عليه السلام أنَّك قاتلي].
فقال الحجَّاج: فإنَّ الحجة عليك.
قال: ذلك إذا كان القضاء إليك.
فأمر به فقُتل، وكان خصيصاً بأمير المؤمنين عليه السلام.
قال كميل: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فأخرجني إلى الجبّان، فلمّا أصحر تنفَّس الصعداء، ثم قال: يا كميلُ! إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها، فاحفظ عنِّي ما أقول لك: الناسُ ثلاثةٌ: فعالم رَبَّاني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهَمَج رعاع؛ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلون مع كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق...
يا كميل هلك خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، ها إنّ هاهنا لعلماً جمّاً وأشار بيده إلى صدره لو أصبتُ له حَمَلة، بلى أصبت لَقِناً غير مأمون عليه، مستعملًا آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقاداً لحَمَلَة الحقِّ، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشكُّ في قلبه لأول عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً بلذة سلس القياد للشهوة، أو مُغرماً بالجمع والادّخار، ليسا من رُعاة الدين في شيء، أقرب شيء شبهاً بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة: إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيِّناته، وكم ذا وأين أُولئك؟ أُولئك الاقلّون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً).
روى ابن طاووس (المتوفى ٦٦٤هـ، أو ٦٦٨ هـ) الدعاء المعروف بـ(دعاء كميل)، وهو دعاء طويل، سمعه كميل من أمير المؤمنين عليه السلام، وأوله: =

يا كميلُ! ما من حركةٍ إلا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفةٍ[١].

لذلك، زوَّد اللهُ بلطفه هذا الإنسانَ بالقنوات الشرعية، والوسائل الصحيحة، والمناهج السليمة؛ التي يتيسر له التواصل ـ من خلالها ـ مع مختلف الظواهر الوجودية؛ بالنحو المطلوب، والمفيد، والمنتج.

ويمكن تقسيم هذه الظواهر الوجودية إلى قسمين:

١ ـ الظواهر المادية

٢ ـ الظواهر غير المادية

والتعامل المعرفي مع القسم الأول يختلف عنه مع القسم الثاني، لذلك زُوِّد هذا الإنسانُ بوسائل تمكِّنه من التعرف على كلا القسمين.

والوسائل التي نتعرف من خلالها على القسم الأول هي (الحواس الخمس): الذائقة، واللامسة، والسامعة، والباصرة، والشامّة[٢]. إن صحّ أن نسميها وسائل

= **اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، وبقوتك التي قهرتَ بها كلَّ شيء، وخضع لها كلُّ شيء.**

ومنه:

إلهي وسيدي ومولاي أتراكَ مُعذِّبي بنارك بعد توحيدك، وبعد ما انطوى عليه قلبي من معرفتك، ولَهِجَ به لساني من ذكرك، واعتقده ضميري من حبّك.. يا سيدي يا مَن عليه مُعَوّلي: يا مَن شكوتُ إليه أحوالي، يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ، قوِّ على خدمتك جوارحي، واشدد على العزيمة جوانحي، وهب لي الجِدّ في خشيتك، والدوامَ في الاتصال بخدمتك..).

استشهد كميل بن زياد في سنة اثنتين وثمانين، وقيل غير ذلك.

قال ابن أبي الحديد: قتله الحجَّاج على المذهب في مَن قتل من الشيعة) انتهى.

(١) تحف العقول، وعنه: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص٢٦٧، باب وصيته عليه السلام لكميل بن زياد النخعي، الحديث ١؛ مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٢٦٧، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به، الباب ٧ ـ باب وجوب الرجوع في جميع الأحكام إلى المعصومين عليهم السلام.

(٢) وقديماً قيل: من فقد حساً فقد علماً).

وقد نُسبت هذه المقولة إلى النبي صلى الله عليه وآله؛ كما في التفسير المنسوب لابن عربي، ج٢، ص٥٦. ونُسِبت إلى المعلم الأول؛ أي أرسطو، كما في الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، ص٢٠٠. =

معرفية، وإلا فإنها ـ في حقيقتها ـ وسائل تواصل واتصال؛ تنتقل المعلومات ـ من خلالها ـ إلى جهازي المعرفة؛ اللذين هما: العقل، والقلب.

وإذا صرنا بصدد الموازنة بين هذه الحواس، فسنجد أن حاسة الباصرة (الرؤية) قد تكون هي الأقوى تأثيراً في الإنسان، والأبعد مدى في الكشف بشكلٍ عامٍّ.

ولعل هذه الخاصية هي السبب في تركيز النبي ﷺ على اختيار تفاعل العبد مع الله المعبود كما لو كان يراه. مع ملاحظة أن المقام لا يتجاوز التشبيه بما يتيسر للسامع أن يعرف المقصود من خلاله؛ أي التشبيه.

والظاهر أن هذا هو السر في قوله ﷺ **(كأنَّك تراه)**. فإن اللهَ تعالى عن أن يُرى[1] فهو ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام/ ١٠٣]. وهذا من الواضحات التي لا تخفى على مَن تأمل؛ باعتبار أن قوانين الرؤية البصرية؛ والتي تتقوَّم بها حاسة البصر، إنما يُتصوَّر تحققُها في الماديات المحسوسة[2]. الأمر الذي يعني أن المرئيَّ يجب أن يكون متوفراً على مقتضِيات الرؤية، خالياً من موانعها.

= وقال الشيخ المظفر: ... فإن الأعمى، أو ضعيف البصر، يفقد كثيراً من العلم بالمنظورات، وكذا الأصم في المسموعات، وفاقد الذائقة في المذوقات. وهكذا) [المنطق، ص٢٠].

(١) وقد روى أبو الحسن الموصلي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: **جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)، فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيتَ ربَّك حين عبدته؟!**

قال: فقال: ويلك! ما كنتُ أعبد رباً لم أره!

قال: وكيف رأيته؟! قال: ويلك لا تدركه العيونُ في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوبُ بحقائق الإيمان) [أصول الكافي، ج١، ص٩٨، كتاب التوحيد، باب إبطال الرؤية، الحديث ٦].

قال الخليل في العين [٣/ ٢١٨]: الحِبْرُ والحَبْرُ: العالِمُ من علماء أهل الدين، وجمعهُ أحبار، ذِمِّياً كانَ أو مُسلِماً بعد أن يكون من أهل الكتاب).

(٢) وقد ورد في الحديث عن إسماعيل بن الفضل، قال: **سألتُ أبا عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى؛ هل يُرى في المعاد؟!**

فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. يا ابن الفضل! إن الأبصارَ لا تدرك إلا ما له لونٌ وكيفيةٌ، والله خالقُ الألوان والكيفية) [أمالي الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج ٤، ص٣١، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية، الحديث ٥].

وهذه القوانين يمكن أن نلخصها في ما يلي:

أولاً: أن يكون جسماً مادياً؛ فكل ما ليس كذلك لا يمكن رؤيته.

ثانياً: أن يكون ذا لون، فإنَّ الجسم الذي لا لونَ له لا يُرى.

ثالثاً: أن يكون ذا حجمٍ قابلٍ للرؤية؛ فالجسم المتناهي في الصغر لا تراه العين المجردة، بل قد تتعذر رؤيتُهُ حتى مع الاستعانة بالأجهزة المكبِّرة أحياناً.

رابعاً: أن لا يكون بعيداً؛ فإن الجسم إذا بعُد حال بُعدُه عن رؤيته؛ إلا إذا استُعِين بوسائل مقرِّبة.

خامساً: أن لا يكون قريباً إلى حدّ الالتصاق بالعين، وإلا فلن يُرى حينئذٍ.

سادساً: أن لا يكون بين الرائي والمرئي حائلٌ.

سابعاً: أن يتوفر الضوء اللازم؛ فإن العين لا ترى في الظلمة.

وإذا انتفت (المادية)، و(الجسمية)، عن الله سبحانه فإنه ـ بطبيعة الحال ـ لن يُرى؛ وذلك لعدم توفر بعض شروط الرؤية، وستكون القضية ـ كما يقول المناطقة ـ (سالبة بانتفاء الموضوع).

وبعد هذا الإيضاح نقول:

جاء النص القرآني مؤكداً حقيقةَ أن الله سبحانه يتعالى عن أن يرى. وذلك في قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام/ ١٠٢].

كما استفاض النص على ذلك عن آل البيت عليهم السلام[1].

---

(١) انظر: بحار الأنوار، ج٤، الباب ٥ ـ نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها.

وقد ختم الشيخُ المجلسيُّ رحمه الله البابَ؛ بعد إيراد الأخبار، وتأويل ما أوهم إمكانَ الرؤية، بقوله: وقد عرفتَ؛ مما مر، أن استحالة ذلك [الرؤية] مطلقاً هو المعلوم من مذهب أهل البيت عليهم السلام. وعليه إجماع الشيعة باتفاق المخالف والمؤالف. وقد دلّت عليه الآيات الكريمة وأقيمت عليه البراهين الجلية...) ج٤، ص٦١. وقال أيضاً: ونفي الرؤية عن آل محمد عليهم السلام أكثر من أن يقع عليها الإحصاء) ج١٠، ص٤٥٣.

ويجب التنويه إلى ما أن نفي الرؤية هو معتقد ديني ثبت بالعقل وعززته النصوص؛ فـ (الحاكم بامتناع=

وقد تسأل وتقول: إذا انتفت إمكانيةُ رؤية الله تعالى، ألا يعني ذلك أن نتعامل في عبادتنا إياه على أسسٍ جافةٍ وخاليةٍ من المضمون؟!

الجواب: كلا! لأن الله سبحانه مكّن هذا الإنسانَ المكرَّمَ من تعويض ما يمكن أن يفوته بفقدانِ حاسةٍ بما يتصل به ويتواصل معه بحاسةٍ أخرى، وما لا يمكن التعاملُ وإياه بحاسةٍ؛ كالخالق عز اسمه، مكّنه من التعرف عليه بقوى أخرى أودِعت في هذا الإنسان؛ كالعقل والفؤاد والروح؛ باعتبار أن هذه كلها أدواتُ تواصلٍ؛ تتجاوز وتتفوق في قدراتها وإمكانياتها المعرفية قدرات وإمكانات الحواس، التي بدورها لا تعدو كونها آلات وأدوات معرفية من المستوى الثاني إذا قيست بالعقل والروح والفؤاد.

فالمعرفة العقلية، والوجدانية، ليست أقلَّ شأناً من المعرفة الحسية، بل إنها أقوى ـ كما تقرَّر في محله ـ. فالحواس تخطئ وتتوهم، أما العقل فلا يخطئ في إدراكاته الضرورية؛ في ما يتأتى للعقل أن يحكم عليه أو يدركه.

وغيرُ خفيٍّ أن للجانب الروحي والمعنوي في الإنسان إمكاناتٍ هائلةً غفل عنه كثيرٌ من الناس عبر التاريخ، وشكّل إحياؤه وتفعيلُهُ محوراً رئيساً من محاور عمل الأنبياء عليهم السلام، الذين قال عنهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ ضمن بيانه وظيفة الأنبياء عليهم السلام: .. **يثيروا لهم دفائنَ العقول**[1]. ولعلنا نتعرض لذلك في بعض البحوث الآتية؛ بعون الله تعالى وتوفيقه.

٢ ـ العامل الخارجي

إذا لم يتمكن العبدُ من استشعارِ قربِه من الله تعالى؛ بمرتبةٍ تجعله بمثابة الرائي له (**كأنك تراه**)، وذلك حينما يفتقد المستوى المعرفي اللازم لاستشعار القرب من الله والتعرف عليه وجدانياً، فلا يعني ذلك أن يقف الإنسانُ عند هذا

=رؤيته هو العقل) حسب المجلسي رحمه الله [ج ٤، ص٢٤٤]، أما الآيات والأخبار فدورها هو التنبيه والتأكيد لما تقرر لدى العقل.

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

الحد، بل إن من اللازم عليه أن ينتقل إلى مسارٍ آخر؛ يعيد إليه توازنه المطلوب في عملية (التعبد)؛ وهي أن يدرك ـ بعقله، ووجدانه ـ أن وجوده وكيانه وأفعاله كلها؛ الظاهرة والباطنة، وكذلك تعبده هو بمرأى ومسمع من الله تعالى (**فإنه يراك**).

* قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥].
* وقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء/ ١].

والغرض من التأكيد على هذين العاملين ـ كما هو واضحٌ ـ هو أن نجعل من العبادة عبادةً حقيقيةً تؤثِّر أثرَها، وتحقِّق غايتَها؛ في ضبط العبد من الوقوع في الخطأ والخطيئة من ناحيةٍ، وفي الدفع به إلى السلوك السوي الراقي من ناحيةٍ ثانيةٍ، وإلى الإنتاجية على مختلف الأصعدة من ناحيةٍ ثالثةٍ.

وبذلك فقط تتحقق (العبادة) امتثالاً لأمر (**اعبد الله**)؛ والتي تتوقف على تحقق (العبودية). وهذا ما يتوقف ـ طبعاً ـ على إدراك العبد لموقعه، ولمكانة ربه تعالى عنده (**كأنك تراه، فإن كنتَ لا تراه فإنه يراك**).

وعند ذاك ـ فحسب ـ يكون الإنسانُ على الصراط المستقيم. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران/ ٥١].

وهذا لا يتأتى إلا من عند الله تعالى؛ لأنه اعتصامٌ بحبل الحق، ونعمةٌ لا يهبها إلا الله سبحانه. قال تعالى ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران/ ١٠١]، وقال ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل/ ٥٣].

والاعتصام بالله لا يتحقق بغير التعبدِ التامِّ له؛ كما هو واضحٌ. قال تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران/ ١٠٣]، وقال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة/ ٢٠٨]. وقال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران/ ٣٢].



الفصل الثاني

معرفة اللَّه تعالى

لتحقيق العبودية لله والتعبير عنها بالعبادة أشكالٌ متعددةٌ، كما أن لها أسباباً وموجباتٍ. ومن أجل أن تكتمل المعالجةُ الموضوعيةُ لهذه وتلك كان لا بد من التعرف ـ بإيجازٍ ـ على مناشئ العبادة والعبودية، والتعرف كذلك على الخطوات الأولى وما يتلوها.

وهنا محطّات:

المحطة الأولى: أهميّة البحث والنظر والمعرفة

لعلّك تسأل قائلاً:

لِمَ كلُّ هذا التشدد في الإسلام؛ على: البحث، والنظر، والتثبت، والتبين، والمعرفة؟

والجواب: إن الإنسان لا يستطيع التفكيكَ بين ما يؤمن به وبين سلوكه وممارساته؛ لأن السلوك والممارسات إنما يندفع صاحبُها نحوها، ويلتزم بفعلها؛ تبعاً لإيمانه بها، وقناعته بصوابها، ويتركها ويهملها إذا اعتقد خطأها وقبحها، سواء في ذلك النتائج العاجلة والآجلة، على تفاوتٍ بين الناس في الإقدام والإحجام، كما أنه يقدِم أو يحجِم تبعاً لمحبته أو بغضه للشيء ونقيضه.

المحطة الثانية: مراعاة الأولويات (معرفة الله أولاً)

عندما تتزاحم المهمات والأمور، ولا يتيسر القيام بها معاً، فإن من الطبيعي،

والمنطقي، والعقلائي، والشرعي، أن يتقدم إنجازُ بعضها على الآخر، كما أن من الطبيعي، والمنطقي...، أن يكون المتقدِّم هو الأَولى بالتقدم، وهو ما نسميه بـ(مراعاة الأولويات).

وفي هذه الوصية النبوية الشريفة نصَّ الرسولُ ﷺ على ضرورة مماشاة هذا الأمر، فقال ﷺ:

(واعلم: **أنَّ أولَ عبادةِ اللهِ المعرفةُ بهِ**)[1] [الفقرة/ ٥].

فالمطلوبُ من الإنسان أن (يعبد) ربَّه، ويجب عليه؛ طبقاً للنص، أن (يعلم) أن (أول) ما يجب عليه مراعاته هو (المعرفة).

وللأولية؛ التي نبِّه إليها بكلمة (أول)، احتمالان:

١ ـ أن يُراد بها الأولية العددية. وهو واضحٌ؛ لأن الإسلام والإيمان إنما يكونان في حق مَن (عَرفنا) وجوبَ الإسلام له والإيمان به؛ وهو الله تعالى.

٢ ـ أن يراد بها (الأولوية) بمعنى الأهمية، وأنها في ما يتعلق بعبادة الله لـ(المعرفة) به عزّ اسمه.

وعلى كلا الاحتمالين فإن المطلوب أن تُؤسَّس العبادةُ على قاعدة (المعرفة) بالله تعالى. وواضحٌ جداً أن هناك ترابطاً طردياً بين المعرفة والعبادة، فكلما كانت المعرفةُ أعلى كانت العبادةُ أفضلَ، وكلما كانت المعرفةُ أقلَّ انعكس ذلك على مستوى العبادة.

لكل ذلك، نجد حشداً كبيراً من النصوص الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكد على أهمية (معرفة الله)، من ذلك ما أورده الكليني في روضة الكافي، بسنده عن جميل بن دراج، عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال:

---

(١) جاء في أولى خطب نهج البلاغة لمولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: **أولُ الدينِ معرفتُه**).

لو يعلم الناسُ ما في فضلِ معرفةِ اللهِ عزّ وجلّ ما مدُّوا أعينَهم إلى ما متع اللهُ به الأعداءَ؛ من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقلَّ عندهم مما يطؤونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفةِ الله عزّ وجلّ، وتلذذوا بها؛ تلذذ مَن لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله.

إن معرفةَ اللهِ عزّ وجلّ أنسٌ من كلِّ وحشةٍ، وصاحبٌ من كلِّ وحدةٍ، ونورٌ من كلِّ ظلمةٍ، وقوةٌ من كلِّ ضعفٍ، وشفاءٌ من كلِّ سقمٍ.

ثم قال عليه السلام:

وقد كان قبلكم قومٌ يُقتَلون، ويُحرَقون، وينشَّرون بالمناشير، وتضيق عليهم الأرضُ برحبها، فما يردهم عمّا هم عليه شيءٌ مما هم فيه؛ من غير تِرة وتروا من فعل ذلك بهم، ولا أذى، بل ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

فاسألوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم، تدركوا سعيَهم)[1].

وليس غريباً مثلُ هذا التأكيد؛ باعتبار أن (**معرفة الله**) تشكل محورَ التصحيح في فهم الذات والعالم، وبالتالي: التصحيحَ في طريقة التعامل الأمثل مع الذات والآخر. وذلك، أن العلاقات بين الأشياء في الوجود؛ بما في ذلك الخالق والمخلوق، تقوم على أساس (حقوق وواجبات) متبادَلة من كل طرف تجاه الطرف الآخر. والعمل وفقاً لهذا الأساس يتطلب ـ كما لا يخفى ـ معرفة تلك الحقوق والواجبات.

فهذه المعرفة ـ إذاً ـ هي أول أشكال العبادة، وأهم مظاهر العبودية لمن أراد السير على الصراط المستقيم، كما يقرره المبعوث رحمةً للعاملين خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

المحطة الثالثة: إضاءات ومعطيات

لجلاء الأمر ووضوحه نورد بعض النصوص:

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٨، ص٢٤٨، الحديث ٣٤٧.

١ ـ معرفة الله وتفعيل الوعود الإلهية

في القرآن الكريم الكثيرُ من القوانين والسنن؛ التي نعلم أنها لا تختلف ولا تتخلف ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب/ ٦٢]. ومع ذلك قد يقع في وهم البعض أن هذه القوانين والسنن إنما هي وعودٌ لم تتحقق!!

غير أن الإحاطة العلمية؛ ولو في حدودها الدنيا، بطبيعة المعارف القرآنية وشروطها سرعان ما تبدد مثل هذا الوهم.

ومن أمثلة تلك السنن قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر/ ٦٠]، وهو ـ كما ترى ـ وعدٌ قاطعٌ حفَّته العديد من المؤكِّدات، ومع ذلك فإننا ندعو ولا يُستجاب لنا، وهذا تساؤلٌ جديدٌ قديمٌ.

ويمكن الإجابة عنه بوجوهٍ، منها:

أولاً: الجهل بالله تعالى، ومعصيته

فقد رُوي عن إمامنا موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: قال قوم للصادق عليه السلام: **ندعو فلا يُستجاب لنا؟!**

قال: لأنكم تدعون مَن لا تعرفونه)[1].

ولا ينفك الجهلُ بالله ـ عادةً ـ عن معصيتِهِ. ولعل ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام؛ لما سأله رجلٌ قائلاً: إنا ندعو اللهَ فلا يستجيب لنا! قال: **إنكم تدعون مَن لا تهابونه وتعصونه، وكيف يستجيب لكم؟!)**[2].

ثانياً: وجود موانع الإجابة

فقد جاء في الدعاء المعروف بـ(دعاء كميل): **اللهم اغفر لي الذنوبَ التي**

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، التوحيد، ص٢٨٩، باب أنه لا يُعرف إلا به، الحديث ٧.

(٢) الديلمي، أبو الحسن (ق ٨ هـ)، إرشاد القلوب، ص١٥٢، في الدعاء، وبركته، وفضله.

تحبس الدعاءَ...)[١]، وروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام دعاء؛ جاء فيه: ...**وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس الدعاءَ...)**[٢].

وفي حديثٍ سأل أحدُهم الإمامَ الصادقَ عليه السلام عن السبب في عدم استجابة الدعاء بعد وعد الله تعالى، فبيَّن الإمامُ عليه السلام له وجه ذلك.

قال الراوي:

آيتان في كتاب الله عزّ وجلّ أطلبهما فلا أجدهما!

قال: وما هما؟

قلتُ: قول الله عزّ وجلّ ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [المؤمن/ ٦٠]؛ فندعوه ولا نرى إجابة!

قال: أفترى اللهَ عزّ وجلّ أخلف وعده؟

قلت: لا.

قال: فمم ذلك؟

قلت: لا أدري

قال: لكني أخبرك. مَن أطاع اللهَ عزّ وجلّ؛ في ما أمره، ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه.

قلت: وما جهة الدعاء؟

قال: تبدأ فتحمد الله، وتذكر نعمه عندك، ثم تشكره، ثم تصلي على النبي (صلى الله عليه وآله)، ثم تذكر ذنوبك؛ فتقر بها، ثم تستعيذ منها، فهذا جهة الدعاء...)[٣].

---

(١) القمي، الشيخ عباس (ت١٣٥٩ هـ)، مفاتيح الجنان.

(٢) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، تهذيب الأخبار، ، ج٣، ص٩٥، كتاب الصلاة، ... باب الدعاء في الزيادة تمام المائة ركعة، الحديث ٢٩.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٨٦، كتاب الإيمان والكفر، كتاب الدعاء، باب الثناء قبل الدعاء، الحديث ٨.

ثالثاً: حكمة الله ولطفه برعاية مصلحة الداعي

قال الإمام علي عليه السلام ـ في وصيته لنجله الإمام الحسن عليه السلام ـ:

... وربما أُخِّرت عنك الإجابةُ ليكون ذلك أعظمَ لأجرِ السائلِ، وأجزلَ لعطاءِ الآمِلِ.

وربما سألتَ الشيءَ فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه؛ عاجلاً أو آجلاً، أو صُرِف عنك لِما هو خيرٌ لك.

فلربَّ أمرٍ قد طلبتَهُ فيه هلاكُ دينِك لو أُوتيتَه...)[١].

٢ ـ معرفة الله إصلاح شامل للحياة

تتجاوز آثار معرفة الله تعالى البعد العقلي لتشمل ـ إلى جانب ذلك ـ الأبعاد السياسية والأخلاقية والتربوية والقانونية والاقتصادية...؛ لأن معرفة الله تعني ـ في جوهرها ـ عبادتَهُ، والانصياعَ لأوامره في كل جانب، والتلقيَ من القنوات الشرعية التي أمر بالتلقي منها دون ما عداها.

فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: خرج الحسينُ بن علي عليه السلام على أصحابه؛ فقال:

أيها الناسُ! إن اللهَ؛ جل ذكره، ما خلق العبادَ إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه.

فقال له رجل: يا بن رسول الله! بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟

قال: معرفةُ أهلِ كلِّ زمانٍ إمامَهم؛ الذي يجب عليهم طاعتُهُ)[٢].

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

(٢) العلل للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٥، ص٣٠٩، الباب ١٥ ـ علة خلق العباد وتكليفهم، والعلة التي من أجلها جعل الله في الدنيا اللذات والآلام والمحن، الحديث ١.

٣ ـ معرفة الله مستويات

إنّ من الضروري التنبهَ إلى أن معرفة الله تتفاوت من شخصٍ لآخر، وعلى أساس مستوى المعرفة تتبين قيمة الإنسان فـ(**قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يحسنه**)[١]. لذلك، لا ينبغي أن تختلط علينا الأولوياتُ في المعارف التي ننشدها، فقد روي عن ابن عباس أنه قال:

يا رسول الله! علّمني من غرائب العلم!

قال: ما صنعت في رأس العلم؛ حتى تسأل عن غرائبه؟

قال الرجل: ما رأسُ العلم يا رسول الله؟

قال: معرفة الله حقّ معرفته.

قال الأعرابي: وما معرفة الله حق معرفته؟

قال: تعرفه بلا مِثلٍ، ولا شِبهٍ، ولا نِدٍّ. وأنه واحدٌ، أحدٌ، ظاهرٌ، باطنٌ، أولُ، آخرُ، لا كفوَ له ولا نظيرَ.

فذلك حقُّ معرفتِهِ)[٢].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٨١.

(٢) التوحيد للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج ٣، ص٢٦٩، كتاب التوحيد، الباب ١٠ ـ أدنى ما يجزي من المعرفة في التوحيد، وأنه لا يعرف الله إلا به، الحديث ٤.
وقد رواه ابن عبد البر (ت٤٦٣ هـ)، عن عبدالله بن المسور بهذا اللفظ:
جاء رجلٌ إلى النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، فقال له: أتيتُك ـ يا رسول الله ـ لتعلّمني من غرائب العلم! فقال له رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): ما صنعتَ في رأس العلم؟! قال: وما رأسُ العلم؟! قال: هل عرفتَ الربَّ؟ قال: نعم. قال: فما صَنَعْتَ في حقه؟! قال: ما شاء الله! قال: هل عرفتَ الموتَ؟ قال: نعم. قال: فما أعددتَ له؟! قال: ما شاء اللهُ! قال: اذهب فأحكِم ما هنالك، ثم تعال نعلمك من غرائب العلم) [جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٦٩١ ـ ٦٩٢].



الفصل الثالث

معرفة اللّٰه ـ الواقع والبنية

بعد التأكيد على مبدأ المعرفة بالله تعالى، شرع النبي ﷺ في تفصيل واقع هذه المعرفة وبنيتها؛ ضمن مسائل اشتمل عليها هذا المقطع من الوصية:

(فهو الأول قبل كلِّ شيءٍ؛ فلا شيءَ قبله، والفردُ فلا ثانيَ له، والباقي لا إلى غايةٍ، فاطرُ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيء، وهو الله اللطيفُ الخبيرُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ) [الفقرة/ ٥].

المسألة الأولى: مضمون معرفة الله

ينتقل النص النبوي في الارتقاء بالمستوصِي أبي ذر (رضوان الله عليه) إلى أفقٍ سامٍ؛ هو التعرف على منبع الوجود ومفيضه؛ أعني الله سبحانه، ناصاً على عدد من الصفات على مستوى الذات والصفات والفعل.

وذلك أننا:

* تارة: نصف الذات الإلهية بلحاظ نفسها.

* وأخرى: نصف الذات الإلهية بلحاظ ما تتسم به من صفات وسمات.

* وثالثة: نصف الذات بلحاظ فعلها.

ولن نعالج المسألة من زاوية كلامية أو فلسفية؛ فلذلك مناهجه البحثية

الخاصة، وأدواته المعرفية المحددة، وسنشير إلى ذلك ـ بإيجازٍ ـ لاحقاً، بل يهمنا في الدرجة الأولى أن نبقى في الجو التربوي للوصية.

لهذا، سنسعى إلى التيسير والتسهيل قدر المستطاع، فنقول:

إن هذه الصفات ـ في مجموعها، وجهاتها الثلاث ـ تؤكد على التفرد المطلق في الذات الإلهية، والتميز غير المحدود، بالمستوى الذي ينفي احتمال النِّدِّية والضدية من قِبَل الغير، أياً كان هذا الغير. ومن ثَمّ، فلا استحقاق للربوبية لأحدٍ غير الله تعالى، وليس للمخلوق ـ الواعي والفطِن ـ أن يدعي ذلك لأحدٍ؛ مهما رأى فيه من قدرات خارقةٍ، أو يذعن به لمن يدعيه غير الله تعالى مهما أظهر من أفعالٍ وقدراتٍ يعجز عنها غيره من الخلق.

ويُفترض بالإنسان؛ الذي هو أشرف المخلوقات، أن يعي ذلك أولاً، وينظِّم حياته على أساسه ثانياً؛ حرصاً منه على السير نحو الصراط المستقيم وفيه؛ لأن الخطوات الطبيعية للسيرورة الإنسانية تقتضي ذلك، لسببٍ بسيطٍ وواضحٍ؛ هو أن:

١ ـ المعرفة تولد القناعة.

٢ ـ والقناعة تنتج الإرادة.

٣ ـ والإرادة تحرك نحو الفعل.

٤ ـ والفعل يؤسس للعادة.

٥ ـ والعادة تنتهي إلى الملَكَة.

***

لكل هذا، جاء في النص التأكيدُ على أن الله تعالى يتحلى بكمالاتٍ؛ ذُكِر منها العناوينُ التاليةُ:

١ ـ (الأولُ قبل كلِّ شيءٍ)

الأوَّليّة ـ هنا ـ تفيد الأقدمية الوجودية[١]؛ أي الأسبقية والتقدم والأفضلية، فإذا التفتنا إلى أننا نتحدث على مستوى الوجود ستكون النتيجة أن منبع الوجود وأساسه هو (الله) سبحانه، وبالتالي فهو الأصلُ وغيره فرعٌ. وهذا تعبيرٌ آخرُ عن عملية الخلق والإبداع الربوبيين، فأن يكون الله تعالى هو (الأول) قبل كل شيء، ولا شيء قبله، يعني:

أ ـ أنه تعالى هو (الخالق)، وأن غيره ـ بالمطلق، ودون استثناء ـ هو (مخلوق).

ب ـ أن للخالقِ حقوقاً في عنق المخلوق.

ولكي لا يقع في الوهم أن له سبحانه في هذه (الأولية) شريكاً أو نظيراً، وُصف ثانياً بأنه:

٢ ـ (الفردُ فلا ثانيَ لهُ)

فهو عزّ وجلّ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ.

ولكي لا يقع في الوهم ـ أيضاً ـ أن اتصافَه سبحانه بهذا الوصفِ السامي مؤقتٌ؛ وإن طال زمن الاتصاف، وُصِف ثالثاً بأنه:

٣ ـ (الباقي لا إلى غايةٍ)

فالذات الإلهية ليست موجوداً طارئاً ولا عارضاً، وإنما هو كان قبل كل شيءٍ، وهو باقٍ بعد كل شيء. ويتأسس على هذا الاعتقاد رؤيةٌ عقليةٌ، وقناعةٌ وجدانيةٌ، تُبنَى عليها قناعاتٌ وإراداتٌ، وتُنظَّم وفقاً لها ممارساتٌ وسلوكياتٌ.

---

(١) لا يُراد بـ(الأول)؛ حينما يكون وصفاً لله تعالى، الأول العددي؛ لأن هذه الأولية إنما تُتصوَّر ـ كما لا يخفى ـ في عالم المحدود والمقيد، والله سبحانه يتجاوز الحدود والقيود. وللتوسع انظر: الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي، ج٦، تفسير سورة المائدة، (فصل كلام في معنى التوحيد في القرآن).

وهذه الصفات الثلاث ترتبط بـ(الذات)؛ لينتقل النص النبوي ـ بعد ذلك ـ من الحديث عن صفات الله على مستوى الذات إلى الحديث عن صفاته تعالى على مستوى الفعل:

٤ ـ (فاطر السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما من شيءٍ...)

فالله تعالى فاطر؛ أي: خالق وموجِد السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ أي: إن الله سبحانه هو الخالق لكل ذلك من العدم، والمبدِع له بلا سبقٍ من غيره، فما من شيء إلا وهو مخلوقٌ له، وما من شيءٍ خارجٌ عن سلطانه.

٥ ـ (اللطيف الخبير)

ثم انتقل النصُّ النبويُّ الشريفُ إلى التأكيد على أن هذه الذات ـ بكل ما تملكه من التميز، وبما لها من الشمولية المطلقة من خَلقٍ وسلطةٍ ـ ليست تمارس ذلك على أساس السلطة الفوقية الخالية من الإتقان والدقة في الصنع والتفوق في الربوبية...، بل إن ذلك ـ كلَّه ـ قائمٌ على أساس (اللطف والخبرة)؛ الذي يعني ـ في ما يعني ـ:

* العلم الشامل
* الدقة العالية
* الإتقان الشديد
* الإبداع في الخلقة والتدبير
* مراعاة شأن المخلوق

٦ ـ (القديرُ على كلِّ شيءٍ)

هذه الصفة تؤكد أن أيّاً من المخلوقات لا يخرج عن سلطان الله تعالى، ولا يُتصوَّر أن يخرج شيءٌ منها في ما يأتي في مستقبل الزمن مهما امتد.

***

وهذه المضامين لو التفت إليها الإنسان لأمكنه ـ إن هو أذعن لها، وسلَّم بلوازمها ـ أن يحقق في عقله ووجدانه استقراراً واطمئناناً فكرياً ونفسياً، وسينعكس ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلى استقرارٍ وتناغم على مستوى السلوك، وسيلمس هو ـ وغيرُهُ ـ تناغماً وانسجاماً بين القول والفعل، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

ويفتقد إلى هذا الاطمئنان وذاك الاستقرار كثيرٌ من الناس، وهم فريقٌ آخرُ يعيش الاضطراب والانفصام يبيِّن القرآن الكريم حالَه بقوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٢٩].

كما أن مضمون هذه المعرفة يتفاوت من شخصٍ لآخر، كلٌّ حسب طاقته فـ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٨٤].

فلا ينبغي أن يقع في وهم أحدٍ أنّ بإمكانه أن يكون في مستوى مَن قال عن نفسه (**أدَّبني ربي فأحسنَ تأديبي**)(١)؛ ألا وهو النبي ﷺ، وهو الصادق الذي وصفه الله تعالى بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/ ٤]، والموعود بمكافأةٍ لا حدودَ لها، وذلك في قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم/ ٣]، وقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى/ ٥]، أو أن يكون في مستوى ربيبه وتلميذه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ الذي وصَلنا بعض ما صدر عنه في التعريف بالله سبحانه؛ مما لا يعرفه به إلا إياه، أو من علَّمه، أو تعلَّم منه. كقوله عليه السلام:

الحمدُ للهِ الذي لا يبلغ مدحتَه القائلون، ولا يحصي نعماءَه العادُّون، ولا يؤدِّي حقَّه المجتهدون. الذي لا يدركه بُعدُ الهِمم، ولا يناله غوصُ الفِطَن. الذي ليس لصفته حدٌّ محدودٌ، ولا نعتٌ موجودٌ، ولا وقتٌ معدودٌ، ولا أجلٌ ممدودٌ.

فطرَ الخلائقَ بقدرته، ونشر الرياحَ برحمتِهِ، ووتَّد بالصخورِ مَيَدانَ أرضِهِ.

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص٣٨٢، الباب ٩٢ ـ حسن الخلق وتفسير قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ذيل الحديث ١٧؛ كنز العمال، ج١١، ص٤٠٦، الحديث ٣١٨٩٥.

أولُ الدينِ معرفتُهُ، وكمالُ معرفتِهِ التصديقِ به، وكمالُ التصديقِ به توحيدُهُ، وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ له، وكمالُ الإخلاصِ له نفيُ الصفاتِ عنه؛ لشهادةِ كلِّ صفةٍ أنها غيرُ الموصوفِ، وشهادةِ كلِّ موصوفٍ أنه غيرُ الصفةِ.

فمَن وصف اللهَ سبحانه فقد قَرَنه، ومَن قرَنه فقد ثنَّاه، ومَن ثنَّاه فقد جزَّأه، ومن جزَّأه فقد جهله، ومَن جهله فقد أشار إليه، ومَن أشار إليه فقد حدَّه، ومَن حدَّه فقد عدَّه، ومَن قال (في مَ؟!) فقد ضمَّنه، ومَن قال (على مَ؟!) فقد أخلى منه.

كائنٌ لا عن حدثٍ، موجودٌ لا عن عدمٍ، مع كلِّ شيءٍ لا بمقارنةٍ، وغيرُ كلِّ شيءٍ لا بمزايلةٍ. فاعلٌ لا بمعنى الحركاتِ والآلة، بصيرٌ إذ لا منظورَ إليه من خلقه، متوحِّدٌ إذ لا سكنَ يستأنس به ولا يستوحش لفقده.

أنشأ الخلقَ إنشاءً، وابتدأه ابتداءً؛ بلا رويَّةٍ أجالها، ولا تجربةٍ استفادها، ولا حركةٍ أحدثها، ولا همامةِ نفسٍ اضطرب فيها.

أحال الأشياءَ لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرَّز غرائزَها، وألزمها أشباحَها. عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها، وانتهائها عارفاً بقرائنها وأحنائها)[١].

ولعمري إنه نصٌّ يجلِّي مستوى المعرفة التي أهَّلت علياً عليه السلام ليكون خير خلفٍ لخيرِ سلفٍ، وليكون (الوصي) لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ معلِّماً للأمة، ومربياً إياها على النهج الرباني الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت/ ٤٢]. ولا عجب فـ(**علي بنُ أبي طالبٍ أعلمُ الناسِ باللهِ...**)[٢]. وهذا ما شهدت له به أم المؤمنين عائشة؛ في ما رواه عطاء عنها، وأنها كانت تقول: **عليٌ أعلمُ الناس بالسنةِ**)[٣].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى.

(٢) المتقي الهندي، علي (ت٩٧٥ هـ)، كنز العمال، ج١، ص٦١٤، الحديث ٣٢٩٧٩، وذيَّله بقوله (أبو نعيم ـ عن علي)؛ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي، ج١١، ص٢٩٨.

(٣) الخلال، أبو بكر (ت٢٨٧ هـ)، السنة، ج٢، ص٣٤٣، الحديث ٤٥١؛ تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٤٢، ص٤٠٨؛ الرياض النضرة في مناقب العشرة، ج٣، ص١٦٠؛ التاريخ الكبير للبخاري، ج٢، ص٢٥٥.

وهذا بعينه ما جعل أبا ذر رحمه الله يفضّل علياً عليه السلام في المحبة على غيره؛ فقد:

جاء رجل أبا ذر؛ وهو جالس في مسجد الرسول، فقال: يا أبا ذر! ألا تخبرني بأحب الناس إليك؟ فإني أعرف أن أحبَّهم إليك أحبُّهم إلى رسول الله؟

قال: إي ورب الكعبة! إن أحبَّهم إليَّ أحبهم إلى رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، وهو ذاك الشيخ، وأشار بيدِه إلى عليٍّ، وهو يصلي أمامه)[1].

المسألة الثانية: ثمرات معرفة الله تعالى

ثمة فوائد وثمرات يمكن أن يجنيها العارفُ؛ بسبب معرفته بالله تعالى، كما أن ثمة لوازم تترتب على تلكم المعرفة.

وهذه الثمراتُ كثيرةٌ؛ يتعسر ـ بل يتعذر ـ حصرها في هذا البحث المختصر.

ومن باب أنه (**لا يسقط الميسورُ بالمعسورِ**)[2] نقف عند بعض تلك الثمرات؛ مما رُوي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

الثمرة الأولى: التوحيد

قال الإمام علي عليه السلام: **من عرف اللهَ توحَّد**)[3].

وهو عليه السلام بقوله هذا يكشف حقيقة أن (المعرفة) الحقيقية لا يمكن أن تنتهي بصاحبها إلا إلى (التوحيد)؛ لأن ما عدا الله باطلٌ. ولذلك، جاء النهي القرآني عن دعاء غير الله تعالى والمبني عليها، في قوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص/ ٨٨]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ **[الحج/ ٦٢]**.

---

(١) الخلال، أبو بكر، السنة، ج٢، ص٣٤٤، الحديث ٤٥٢.

(٢) روي ـ مرسلاً ـ عن النبي صلى الله عليه وآله؛ كما في عوالي اللئالئ؛ برقم (٢٠٥)، ج٤، ص٥٨.

(٣) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٥٢؛ الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، ميزان الحكمة، مادة (المعرفة) ـ ثمرات المعرفة.

ولهذا ـ أيضاً ـ، يصح القول: إن غير الموحدين ليسوا سوى (جهال) بواقع الأمر، و(**المرءُ عدوٌّ ما جهل**)[1] كما قال عليه السلام، والأمر كذلك في ما نقرأه في الكتاب العزيز في قول الله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾ [يونس/ ٣٩].

والإمام عليه السلام يشير؛ في قوله (**مَن عرف اللهَ توحَّد**)، إلى مرتبتين للتوحيد؛ هما:

١ ـ المرتبة العلمية

نعني بـ(المرتبة العلمية) للتوحيد: الاعتقاد بأن اللهَ واحدٌ لا شريكَ له، والوصول إلى ذلك بالاطمئنان واليقين، على أساس البراهين القاطعة.

وهو ما عناه بقوله (**مَن عرف اللهَ**)؛ حيث إن العارف بالله وما له من الوجود والقدرة والعلم، وأنه مصدرُ كلِّ خيرٍ، وأنه النافعُ والضارُّ، وأنه المعطي والمانع....، إذا عرف كلَّ ذلك فلن يرى في غيره سوى باطلٍ محضٍ، إلا بقدر ما يترشَّح عليه من خير من الله عز اسمه، وقد ورد في الدعاء (**من أين لي الخيرُ ولا يوجد إلا من عندك**)[2]، وهو ما يتطابق والآية الشريفة ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

٢ ـ المرتبة العملية

نعني بـ(المرتبة العملية) أن يعيش العارف واقعَ التوحيد؛ فتكون كلُّ أعمالِهِ ومقاصدِهِ لله تعالى؛ سواء في أقواله أو في أفعاله، في إقدامه أو إحجامه.

وهذا المعنى هو ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله (**توحَّد**)، فـ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٨٠].

وهذا المعنى ـ أيضاً ـ يمكن استفادته من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة/ ٢٠٨].

---

(١) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٣٩.

(٢) القمي، الشيخ عباس (ت١٣٥٩ هـ)، مفاتيح الجنان، دعاء الإمام السجاد الذي علمه لأبي حمزة الثمالي في سحر شهر رمضان.

الثمرة الثانية: حياة النفس

هذه الثمرة ـ أيضاً ـ ليست سوى نتيجةٍ منطقيةٍ، ووليدٍ شرعيٍّ، لسابقتها؛ حيث يكتشف العارف الموحد أن مبدأه من الله، ومنتهاه إليه ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة/ ١٥٦]، وليكتشف ـ مع ذلك ـ أن ما به من الخير إنما هو من عند الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣].

ثم إن الموحِّد يخرج ـ بتوحيده ـ من عالم الأوهام إلى عالم الحقائق ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم/ ٦]؛ ولأنهم ـ ببركة توحيدهم ـ يعلمون علم اليقين واقع الدنيا ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٤]، في مقابل غير الموحِّد؛ الغارق في أوهام تحيط به من كلِّ جانبٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم/ ٦ ـ ٧].

الثمرة الثالثة: السعادة

من ثمرات معرفة الله أن ينال الموحِّدُ السعادةَ؛ فلا يشقى أبداً. وهذه الثمرة ـ كسالفتها ـ هي نتيجةٌ منطقيةٌ للمعرفة الحقيقية لطبيعة هذا العالم، وللسنن الحاكمة فيه، وهي ـ بطبيعتها ـ سننٌ لا تتضاد ولا تتناقض، ولا تختلف ولا تتخلف ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ [الأحزاب/ ٦٢].

وبالتالي، سيكون العارفُ بالله تعالى، المؤمنُ به، على درجةٍ عاليةٍ من الاطمئنان؛ يستقيها من منبع الاطمئنان؛ فـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].

وينتج من ذلك أنه ستتولد لديه الشجاعةُ لمواجهة الواقع؛ بما يمليه عليه الواجب الإلهي، دون تلكؤٍ ولا ترددٍ؛ لأنه على يقينٍ من أنه ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة/ ٥١].

الثمرة الرابعة: بكاء العاشقين

قال الإمام علي ﷺ: **البكاء من خيفة اللهِ للبعد عن الله عبادةُ العارفين)**[١].

للعارفين بالله عشقٌ وتولُّهٌ؛ يثير في دواخلهم حالةً من القلق والاضطراب؛ مخافةَ أن يتخلَّفوا عن الركب لأيِّ سببٍ. لذلك، فإن حالهم الدائم هو أنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج/ ٣٥].

والسر في هذا القلق والخوف ينبع من معرفتهم أنهم نالوا ما لا يجوز التفريطُ به، وما يجب المحافظةُ عليه من الإنجاز؛ ولأنهم لم يحصلوا عليه بيسرٍ وسهولةٍ، وإنما بعد جهدٍ جهيدٍ وعناءٍ شديدٍ، فهم الذين وصفهم معشوقُهم بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

وبسبب ما يترتَّب على البكاء من آثارٍ تربويةٍ هامةٍ جاءت نصوصٌ عديدةٌ لتبيين ذلك. ففي ما روي عن الإمام الصادق ﷺ أنه قال: **ما من عينٍ إلا وهي باكيةٌ يومَ القيامة؛ إلا عيناً بكت من خوفِ اللهِ، وما اغرورقت عينٌ بمائها من خشيةِ الله عزّ وجلّ، إلا حرم الله عزّ وجلّ سائرَ جسدِهِ على النار، ولا فاضت على خده فرهق ذلك الوجه قترٌ ولا ذلةٌ. وما من شيءٍ إلا وله كيلٌ ووزنٌ؛ إلا الدمعة، فإن الله عزّ وجلّ يطفئ باليسير منها البحار من النار، فلو أن عبداً بكى في أمةٍ لرحم الله عزّ وجلّ تلك الأمةِ ببكاءِ ذلك العبد)**[٢].

ومن أجل هذا الدور، وذاك الثواب، جهد المعلمون الربانيون على التأكيد عليه من جهةٍ، وضرورة تحصيله من جهةٍ ثانيةٍ؛ تقرباً إلى الله تعالى. فقد روي عن الإمام أبي جعفر الباقر ﷺ، أنه قال: **ما من قطرةٍ أحب إلى الله عزّ وجلّ من قطرة دموعٍ في سواد الليل؛ مخافةً من الله، لا يُراد بها غيرُهُ)**[٣].

كما ورد التأكيدُ على بذل الوسع والطاقة بالتدرب عليه، فقد روى عنبسة

---

(١) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٥٣.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٨١، كتاب الدعاء، باب البكاء، الحديث ٢.

(٣) المصدر السابق، ص٤٨٢، الحديث ٣.

العابد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، أنه قال: **إن لم تكن [يكن] بك بكاءٌ فتباكَ)**[1].

الثمرة الخامسة: شدة الخوف من الله تعالى

قال الإمام علي عليه السلام: **عجبتُ لمن عرف اللهَ كيف لا يشتد خوفُهُ)**[2].

للخوف صولاتٌ وجولاتٌ في نفوس العارفين يعقبها جناتٌ؛ عرضها السماوات والأرض أعِدَّت للمتقين. ولهذا، نصَّ الحقُّ سبحانه في كتابه الكريم على ذلك بقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن/ ٤٢].

وسر ذلك يكمن في معرفتهم بقدرة الله وسطوته ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر/ ١٣]، ولأنهم عرفاء بالله علماء فسيكونون من أهل الخوف والخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/ ٢٨].

الثمرة السادسة: الطلب من الله تعالى

ومما قاله الإمام علي عليه السلام في الباب: **أعلمُ الناس بالله أكثرهم له مسألةً)**[3].

يقرر عليه السلام أن هناك تناسباً طردياً بين معرفة الله وسؤاله، فكلما كان الإنسانُ أعرفَ بالله وأعلمَ اشتد سؤالُهُ له والإلحاحُ عليه. وما ذلك إلا بسبب مجموعة معارف، يمكن صوغها كالتالي:

---

(١) المصدر السابق، ص٤٨٣، الحديث ٨.

وقال محقق الكتاب: في بعض النسخ [إن لم تكن بكاء]، وفي بعضها [إن لم تك بكاء].

أقول: يحتمل أن الأصل: إن لم يكن بك بكاءٌ فتباكَ)؛ كما في نسخة الوافي.

وقال الملا صالح المازندراني (ت١٠٨١ هـ) في شرحه: (كذا) الظاهر إن لم تك خطاب. وبكاء بتشديد الكاف للمبالغة وهو من يقدر على البكاء بسهولة. ويحتمل الغيبة وتخفيف الكاف وضم الباء و«كان» حينئذ تامة.

والتباكي إظهار البكاء مع عدمه، وفيه تشبه بالباكي؛ وهو مطلوب، مع أنَّه قد يفضي إلى البكاء ولو قليلاً) شرح أصول الكافي، ج١٠، ص٢٥٥.

(٢) الواسطي، علي بن محمد (ق ٦ هـ)، عيون الحكم والمواعظ، ص٣٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص١٢٢.

أولاً ـ علمه بأن الله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وأن السؤالَ عبادةٌ، وأنه مأمورٌ بعبادته ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ وأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام/ ١٠٢].

ثانياً ـ علمه ـ أيضاً ـ بأن الله وحده هو ﴿ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة/ ٢٨٢]؛ أي القائم بشؤون عباده، والمتكفِّل لهم بقضاء حوائجهم؛ فـ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل/ ٥٣].

ثالثاً ـ علم العارف ـ أيضاً ـ أن الله سبحانه وعدَ مَن يدعوه بأنه مجيبُهُ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر/ ٦٠]، وأنه تعالى صادق الوعد ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم/ ٦]. وفي دعاء الإمام علي عليه السلام: **إلهي كيف أدعوك وقدْ عصيتُك؟! وكيف لا أدعوك وقد عرفتُك)**[١].

الثمرة السابعة: غنى النفس

للمعرفة بالله تعالى تأثيرٌ بالغٌ في الأحاسيس والمشاعر، فيترقى ـ بمعرفته تلك ـ من حالٍ إلى حالٍ، ومن مقامٍ إلى مقام. فهو يطوي مراحلَ السير والسلوك إلى الله تعالى بكلِّ جدٍّ وجلَدٍ، لا يعيقه في هذا السير عائقٌ، ولا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ.

وقد لا نجانب الصوابَ إذا قلنا إن الأرضَ التي يقف عليها هذا العارف الثابت إنما هي معرفته الراسخة بأن الخيرَ كلَّه من عند الله، وأن الضار والنافع ليس سواه. ومن ثم، فلن يغيب عن وجدانه قولُ الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام؛ مؤكِّداً هذه الحقيقة: **مَن سكن قلبَه العلمُ باللهِ، سكنه الغنى عن خلقِ الله)**[٢].

---

(١) من دعاء له عليه السلام في مسجد جعفي، كما أورده الشيخ محمد بن المشهدي في كتابه المزار، ص١٤٩.
(٢) الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، ميزان الحكمة، مادة (المعرفة ٣) نقلاً عن غرر الحكم.

الثمرة الثامنة: الفهم العميق للواقع، والإرادة الصلبة

من أخطر ما يصيب الإنسانَ هو أن تختلط عليه الأمورُ؛ بسبب ضعف الوعي من جهةٍ، وضعفِ الإرادة من جهةٍ ثانيةٍ.

وتُعَالج مشكلة الاختلاط هذه من زاويتين:

أ ـ العمق المعرفي

ب ـ تقوية الإرادة

ولن نجد ما يحقق ذلك كـ(معرفة الله)؛ التي تؤمِّن لصاحبها الأمرين معاً، بقدر ما يختزن الإنسانُ في ذاته من معرفةٍ بالله تعالى.

فإنه ـ من خلال هذه المعرفة ـ يضع كلَّ شيءٍ في مرتبته، ويختار على أساس تلك المرتبة، فيقدم ما يجب تقديمُهُ، ويؤخر ما يجب تأخيرُهُ.

وعبر ذلك يتمكن العارفُ من التعامل مع إشكالية التزاحم بين الدنيا والآخرة. وهي الإشكالية التي يقوم عليها جميعُ أشكال الصراع في العالم، القائم على أساس الجشع والطمع والحرص والشهوات المبتذلة....

ويختصر هذه الحقيقةَ مولانا أمير المؤمنين وسيد العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام بقوله: **ثمرةُ المعرفةِ العزوفُ عن دارِ الفناءِ)**[١]. ولما كانت الدنيا فانيةً فإنها لا تستحق كلَّ هذا التهالك والعناية؛ التي تدفع بالإنسان إلى التعلق بالفاني على حساب الباقي.

وفي مقولة أخرى له عليه السلام يصوغ المعادلة من زاوية مختلفة؛ فيقول: **ينبغي لمن عرف اللهَ سبحانه أن يرغب في ما لديه)**[٢]. والسر في هذا أن ما عند الله باقٍ؛ على خلاف ما هو من شؤون الدنيا فـ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل/ ٩٦]. وفي هذه الآية الشريفة ـ كما

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لا يخفى ـ دلالةٌ على ضرورة أن يكون الراغب في إبقاء عمله من الصابرين، والصبر يعني: قوة الإرادة.

الثمرة التاسعة: التوازن

قلةٌ أولئك الذين يشعرون بالرضا عن أنفسهم؛ فالإنسان يتقلَّب بين صفات متضادة، تسيطر عليه واحدةٌ لتُسلِمه في ظروفٍ مختلفةٍ إلى أخرى، فهو ـ دائماً ـ بين الحرب والسلم، وبين الرضا والسخط، وبين العلم والجهل...

١ ـ من تلك الحالات التي يتقلب فيها الإنسان بين الشيء ونقيضه علاقتُه بربه تعالى؛ فهل يجب أن يرجوه ويخافه؟ أم يرجوه بلا خوف؟ أم يخافه بلا رجاء؟

يجيب سيدِّد العارفين علي بن أبي طالب عليه السلام على ذلك بقوله: **ينبغي لمن عرف اللهَ سبحانه أن لا يخلوَ قلبُهُ من رجائِهِ وخوفِهِ)**[١]. فالمطلوب ـ إذاً ـ أن يكون القلبُ، ومن صفاته وحالاته، الرجاءَ والخوفَ؛ لأن الاثنين ـ معاً ـ ضروريان لتحقيق العبودية الحقيقية في نفسه. فلكلٍّ منهما دورُهُ، ولعلَّنا نتعرض لذلك في موضعه المناسب.

٢ ـ من تلك الحالات الأنسُ والحزنُ، فبأيهما ينبغي للعارف بالله تعالى أن يتصف؟ هل يناسبه أن يكون على بشاشةٍ دائماً؟ أم حزيناً دائماً؟ أم أن للحزن مجالاً وللأنس مجالاً آخر؟

يجيب الإنسان الكامل علي بن أبي طالب عليه السلام بالقول: **العارفُ وجهه مستبشرٌ مبتسمٌ، وقلبُه وجِلٌ محزونٌ)**[٢].

فالبِشر والبشاشة والتبسم، كلُّ ذلك يُعتبر مظهراً وسبيلَ تواصلٍ مع الآخرين، وينبغي أن تكون هذه الحالاتُ هي المسيطرة، أو الغالبة، على العارف؛ ليكون إيجابياً في تفاعله مع الآخرين من أمثاله بني البشر، وليكون ذلك أدعى لإقباله عليهم، وقيامِهِ بواجبِهِ تجاههم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

وأما الحزن فباعتباره علامةً على السعي الدؤوب من العارف؛ لنيل ما يجب نيلُه، والحصولِ على ما يجب الحصولُ عليه؛ وهو الانعتاقُ الحقيقيُّ والحريةُ الحقيقيةُ. وذلك ما يحول دونه العديدُ من العوائق؛ التي يضعُفُ الإنسانُ عن مواجهتِها والتغلبِ عليها. وهذا يقتضي أن يكون (حزيناً)؛ ليجعل من حزنه وقوداً يدفع به نحوَ حثِّ الخطى والمجاهدةِ في أعلى مستوياتها؛ ليكون ذلك سبيلاً للحصول على العون والمدد الإلهيين ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩].

الثمرة العاشرة: الحرية

يعيش العارفُ باللهِ هاجسَ (الحرية)؛ فهو لا يقبل أن يضحي بها مهما كان الثمن؛ لأنها تعني له (إنسانيته). وإصرارُهُ عليها يتجاوز حدودَ ما تعارف الناسُ على تسميته بـ(الحرية)؛ حيث يقصرونها ويحصرونها في أن يكون الإنسانُ حراً أمام الغير من بني جلدته، بل إن العارفَ يتعمَّق فيها؛ متجاوزاً عالم المادة إلى ما وراءها. وعلى رأس ذلك الصفات النفسانية والشهوات الغرائز؛ التي تحد من انطلاقه في التحليق إلى ملكوت الفضيلة والإنسانية.

لذلك، يسعى العارفُ بالله تعالى إلى تحصيلِ خبرةٍ واسعةٍ في التعرف على مجاهيل نفسه؛ لأن (**من عرف نفسه فقد عرف ربَّه**)[1]. ومن ثَمَّ، فهو حريصٌ ـ أشدَّ الحرص ـ على التعرف؛ بكل ما تعنيه الكلمة، على الألغام التي قد تنفجر في وجهِهِ، مما يكون تسبَّب فيه مباشرةً؛ بأخطائه وخطاياه، أو ما تسبَّب فيه بشكل غيرِ مباشرٍ؛ بقصوره وتقصيره؛ حيث يتيح للشيطان؛ الذي هو عدوه المبين[2]، أن يتسلط عليه.

وبغير ذلك لا يستحق الإنسانُ أن يسمى عارفاً بالله تعالى، فهو (حرٌّ) أمام كلِّ

---

(١) ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد (ق ٩)، عوالي اللئالئ، ج٤، ص١٠٢.

(٢) البقرة/ ١٦٨، ٢٠٨؛ الأنعام/ ١٤٢؛ الأعراف ٢٢؛ يوسف/ ٥؛ يس/ ٦٠؛ الزخرف/ ٦٢.

ما يرتكس به إلى الأرض؛ حيث الدونية والانحطاط، وهو (حرٌّ) أمام كلّ رذيلةٍ؛ تخدش إنسانيتَهُ، وتبتعد به عن مقامِ ربِّهِ؛ الذي هو مقام العزة الشامخ.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين ﷺ: **العارفُ من عرف نفسه فأعتقها، ونزَّهها عن كلِّ ما يبعدها ويوبقها)**[1].

المسألة الثالثة: مناهج التعرف على الله تعالى

إذا كان لمعرفة الله تعالى هذه الأهمية ويترتب عليها كل هذه الثمرات المهمة، فمن الطبيعي أن يتساءل الحكيم الباحث في الصراط المستقيم عن المناهج الصحيحة والميسورة للتعرف على الله تعالى، ونقول: إنها عديدة، نشير إلى بعضها[2]:

الأول ـ الطريق العقلي

إذا ثبت كونه سبحانه غنياً غير محتاج إلى شيء، فإن هذا الأمر يمكن أن يكون مبدأً لإثبات كثيرٍ من الصفات الجلالية، فإن كل وصف استلزم خللاً في غناه ونقضاً له، انتفى عنه ولزم سلبه عن ذاته.

الثاني: المطالعة في الآفاق والأنفس

من الطرق والأصول التي يمكن التعرف بها على صفات الله، مطالعة الكون المحيط بنا، وما فيه من بديع النظام، فإنه يكشف عن علم واسع وقدرة مطلقة عارفة بجميع الخصوصيات الكامنة فيه، وكل القوانين التي تسود الكائنات.

فمن خلال هذه القاعدة وعبر هذا الطريق أي مطالعة الكون، يمكن للإنسان أن يهتدي إلى قسم كبير من الصفات الجمالية. وبهذا يتبين أن ذات الله سبحانه

---

(١) الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، ميزان الحكمة، مادة (المعرفة ٣)، نقلاً عن غرر الحكم. ولخادم الشرع الحنيف؛ مؤلف هذا الكتاب، دراسةٌ موجزةٌ مطبوعةٌ عن الحرية؛ بعنوان (حول الحرية في المنطق القرآني) يمكن مراجعتها.

(٢) هذه الطرق نقلناها ـ بالنص ـ عن كتاب الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني، بقلم الشيخ حسن مكي العاملي، ج١، ص٩٣ ـ ٩٤.

وصفاته ـ بحكم أنها ليس كمثلها شيء ـ ليست محجوبةً عن التعرف المطلق وغير واقعة في أفق التعقل، حتى نعطل العقول ونقول: «إنما أُعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية».

وقد أمر الكتاب العزيز بسلوك هذا الطريق، يقول سبحانه ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس/ ١٠١]، وقال سبحانه ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران/ ١٩٠]، وقال سبحانه ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس/ ٦].

الثالث: الرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة

وهناك أصل ثالث يعتمد عليه أتباع الشرع، وهو التعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله بما ورد في الكتب السماوية وأقوال الأنبياء وكلماتهم، وذلك بعد ما ثبت وجوده سبحانه وقسم من صفاته، ووقفنا على أن الأنبياء مبعوثون من جانب الله تعالى، وصادقون في أقوالهم وكلماتهم.

وباختصار، بفضل الوحي الذي لا خطأ فيه ولا زلل نقف على ما في المبدأ الأعلى من نعوت وشؤون. فمن ذلك قوله سبحانه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر/ ٢٣ ـ ٢٤].

الرابع: الكشف والشهود

وهناك ثلة قليلة يشاهدون بعيون القلوب ما لا يدرك بالأبصار، فيرون جماله وجلاله وصفاته وأفعاله بإدراك قلبي، يدرك لأصحابه ولا يوصف لغيرهم. والفتوحات الباطنية، من المكاشفات والمشاهدات الروحية والإلقاءات في الروع غير مسدودة، بنص الكتاب العزيز، قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال/ ٢٩]. أي يجعل في قلوبكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وتميزون به بين الصحيح والزائف لا بالبرهنة والاستدلال بل بالشهود

والمكاشفة، وقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد/ ٢٨]. والمراد من النور هو ما يمشي المؤمن في ضوئه طيلة حياته في معاده، في دينه ودنياه[١]. وقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت/ ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الظاهرة في أن المؤمن يصل إلى معارف وحقائق في ضوء المجاهدة والتقوى، إلى أن يقدر على رؤية الجحيم في هذه الدنيا المادية، قال سبحانه ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر/ ٥ ـ ٦]) انتهى.

خاتمة: نماذج من الكتاب والسنة في التعريف بالله سبحانه

أولاً: الفطرة

قال الإمام علي عليه السلام: **الحمد لله الملهم عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيته)**[٢].

وعنه عليه السلام قوله: **إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله؛ جل ذكره، الإيمانُ باللهِ ورسله، وما جاءت به من عند الله، والجهاد في سبيله؛ فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص؛ فإنها الفطرة، وإقامة الصلاة؛ فإنها الملة)**[٣].

وعنه عليه السلام: **فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول)**[٤].

---

(١) أما في الدنيا فهو النور الذي أشار إليه سبحانه بقوله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾[الأنعام/ ١٢٢]. وأما في الآخرة فهو ما أشار إليه سبحانه بقوله ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد/ ١٢].

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٣٩، كتاب التوحيد، باب جوامع التوحيد، الحديث ٥.

(٣) تحف العقول لابن شعبة، وعنه: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص٢٩١، كتاب الروضة، أبواب المواعظ والحكم، الباب ١٤ ـ خطبه صلوات الله عليه المعروفة، برقم ٢.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١.

وعنه عليه السلام ـ في الدعاء ـ: ...**اللهم خلقت القلوب على إرادتك، وفطرت العقول على معرفتك؛ فتململت الأفئدة من مخافتك، وصرخت القلوب بالوله، وتقاصر وسع قدر العقول عن الثناء عليك، وانقطعت الألفاظ عن مقدار محاسنك، وكلَّت الألسن عن إحصاء نعمك، فإذا ولجت بطرق البحث عن نعتك بهرتها حيرة العجز عن إدراك وصفك؛ فهي تردد في التقصير عن مجاوزة ما حددت لها؛ إذ ليس لها أن تتجاوز ما أمرتها**)[1].

ثانياً: العقل

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **بصنع الله يُستدل عليه، وبالعقول يُعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجتُه**)[2].

وعنه عليه السلام: **ظهر للعقول؛ بما أرانا؛ من علاماتِ التدبير المتقن، والقضاء المبرم**)[3].

وعنه عليه السلام: ... **فأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته، وعظيم قدرته، ما انقادت له العقول؛ معترفةً به، ومسلِّمةً له، ونعقت في أسماعنا دلائلُه على وحدانيته**)[4].

وعنه عليه السلام؛ لما قال له الجاثليق في مناظرته: ... فخبرني عنه تعالى: أمدرَكٌ بالحواس عندك، فيسلك المسترشدُ في طلبه استعمالَ الحواس؟ أم كيف طريق المعرفة به إن لم يكن الأمر كذلك؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **تعالى الملكُ الجبارُ أن يوصف بمقدارٍ، أو تدركه**

---

(١) مهج الدعوات للسيد ابن طاووس، وعنه: بحار الأنوار، ج ٩٢، ص٤٠٢، كتاب الدعاء، الباب ١٢٩ ـ الدعوات المأثورة غير الموقتة...، برقم ٣٤.

(٢) جامع الأخبار، وعنه: بحار الأنوار، كتاب التوحيد، الباب ٣ ـ إثبات الصانع...، الحديث ٢٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

(٤) المصدر السابق، الخطبة ١٦٥.

الحواس، أو يقاس بالناس. والطريقُ إلى معرفته صنائعُهُ الباهرةُ للعقول، الدالةُ ذوي الاعتبار بما هو عنده مشهودٌ ومعقولٌ)[١].

ثالثاً: التدبير

عنه عليه السلام ـ لما سُئِل عن إثبات الصانع ـ: **البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكلٌ علويٌّ؛ بهذه اللطافة، ومركز سفلي؛ بهذه الكثافة، كيف لا يدلان على اللطيف الخبير؟!)**[٢].

وعنه عليه السلام ـ أنه كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل ـ: **أشهد أن السماوات والأرض وما بينهما آيات تدل عليك، وشواهد تشهد بما إليه دعوت، كل ما يؤدي عنك الحجة، ويشهد لك بالربوبية، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك. علوتَ بها عن خلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر، وكفاها رجم الاحتجاج؛ فهي مع معرفتها بك، وولهها إليك، شاهدةٌ بأنك لا تأخذك الأوهام بك، ولا تدركك العقول ولا الأبصار)**[٣].

رابعاً: معرفة النفس

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **من عرف نفسَه فقد عرف ربَّه)**[٤].

وعنه عليه السلام: **عجبتُ لمن يجهل نفسَه كيف يعرف ربه؟!)**[٥].

---

(١) الفضائل، وعنه: بحار الأنوار، ج١٠، ص٥٦، الباب ٣ ـ احتجاجاته صلوات الله عليه على النصارى، الحديث ٢.

(٢) جامع الأخبار، وعنه: بحار الأنوار، ج٣، ص٥٥، الباب ٣ ـ إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، الحديث ٢٧.

(٣) المعتزلي، عز الدين ابن أبي الحديد (ت٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، ج٢٠، ص٢٥٥، الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الحكمة ١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة ٤٦٣٧.

(٥) المصدر السابق، الحكمة ٤٦٥٩.

وعنه عليه السلام: **عرفتُ اللهَ؛ سبحانه، بفسخ العزائم، وحلِّ العقود، ونقضِ الهمم)**[١].

وعن الإمام الحسين عليه السلام: **أن رجلاً قام إلى أمير المؤمنين عليه السلام؛ فقال له: يا أمير المؤمنين! بِمَ عرفتَ ربك؟**

قال: بفسخ العزم، ونقض الهمم، لَما أن هممتُ حال بيني وبين همِّي، وعزمتُ فخالف القضاءُ عزمي، فعلمتُ أن المدبرَ غيري)[٢].

خامساً: صفاء القلب

جاء في مناجاة الإمام علي عليه السلام؛ المعروفة بالمناجاة الشعبانية: **إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك... وأتحفني [وألحقني] بنور عزك الأبهج، فأكون لك عارفاً، وعن سواك منحرفاً، ومنك خائفاً مترقباً...)**[٣].

وعنه عليه السلام؛ في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه: **قد أحيا عقله، وأمات نفسَه؛ حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامعٌ كثيرُ البرق؛ فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة؛ بما استعمل قلبه، وأرضى ربه)**[٤].

سادساً: معرفة الله بحر لا ساحل له

من المنطقي أن لا يحيط المحدودُ باللا محدود. لذلك، جاءت النصوص

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٠.

(٢) الخصال، وعنه: بحار الأنوار، ج٣، ص٤٢، كتاب التوحيد، الباب ٣ ـ إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته، الحديث ١٧.

(٣) الكتاب العتيق الغروي، وعنه: بحار الأنوار، ج٩١، ص٩٨، الباب ٣٢ ـ أدعية المناجاة، الدعاء ١٣.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٠.

الشرعية المروية عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام؛ وهم العارفون الحقيقيون بالله تعالى وأساتذة البشر في هذا الفن، جاءت منبهةً إلى ضرورة استشعار العجز عن بلوغ المعرفة؛ إلا في حدودٍ معينةٍ.

فقد روي أن الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام كان إذا قرأ هذه الآية ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم/ ٣٤]، يقول: **سبحان من لم يجعل في أحدٍ من معرفة نعمةٍ؛ إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل في أحدٍ من معرفةِ إدراكِهِ أكثرَ من العلم أنه لا يدركه؛ فشكر جل وعز معرفةَ العارفين بالتقصير عن معرفة شكره؛ فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علِم علمَ العالمين أنهم لا يدركونه؛ فجعله إيماناً علماً منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك...**)[١].

وقال ـ في دعاء آخر من روائع أدعيته ـ: **... وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة بكرمك وآلائك، وإن أوحش ما بيني وبينك فرط العصيان والطغيان، فقد آنسني بشرى الغفران والرضوان. أسألك بسبحات وجهك، وبأنوار قدسك، وأبتهل إليك بعواطف رحمتك، ولطائف برك، أن تحقق ظني بما أؤمله؛ من جزيل إكرامك، وجميل إنعامك؛ في القربى منك، والزلفى لديك، والتمتع بالنظر إليك. وها أنا متعرض لنفحات روحك وعطفك، ومنتجع غيث جودك ولطفك، فارٌّ من سخطك إلى رضاك، هارب منك إليك، راجٍ أحسنَ ما لديك، معوّلٌ على مواهبك، مفتقرٌ إلى رعايتك...**)[٢].

سابعاً: معرفة الله تحتاج إلى توفيق

لما كانت معرفةُ الله نعمةً كبيرةً، بل هي أكبرُ نعمةٍ، ومنطق القرآن يؤكد سنةً من أهم السنن بقوله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل/ ٥٣]؛ فإن النتيجة الطبيعية

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٨، ص٣٩٤، الحديث ٥٩٢.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٩١، ص١٤٥، الباب ٣٢ ـ أدعية المناجاة، المناجاة الخامسة عشرة.

والمنطقية سيكون مفادها: أن أيَّ معرفةٍ لا يمكن أن تكون إلا من الله تعالى، وإلا بالله، وإلا من الله.

لذلك، جاء عن أبي حمزة الثمالي أنه قال: كان علي بن الحسين سيدِّد العابدين (صلوات الله عليهما) يصلي عامة الليل في شهر رمضان، فإذا كان السحر دعا بهذا الدعاء:

اللهم لا تؤدبني بعقوبتك، ولا تمكر بي في حيلتك، من أين لي الخير ولا يوجد إلا من عندك، ومن أين لي النجاة ولا تستطاع إلا بك، لا الذي أحسن استغنى عن عونك، ولا الذي أساء خرج عن قدرتك، يا ربّ بك عرفتك، وأنت دليلي، ولولا أنت ما دريت من أنت...)[١].

ثامناً: الشروط الموضوعية للدعوة إلى الله تعالى

جاء في الخبر عن ثابت بن سعيد أنه قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: **يا ثابت مالكم وللناس، كفوا عن الناس ولا تدعوا أحداً إلى أمركم، فوالله لو أن أهل السماوات وأهل الأرضين اجتمعوا على أن يهدوا عبداً يريد الله ضلالته ما استطاعوا على أن يهدوه، ولو أن أهل السماوات وأهل الأرضين اجتمعوا على أن يضلوا عبداً يريد اللهُ هدايتَه ما استطاعوا أن يضلوه. كفوا عن الناسِ ولا يقول أحدٌ: عمي! وأخي! وابن عمي! وجاري! فإن اللهَ إذا أراد بعبدٍ خيراً طيَّب روحَه فلا يسمع معروفاً إلا عرفه، ولا منكراً إلا أنكره، ثم يقذف اللهُ في قلبه كلمةً يجمع بها أمره)**[٢].

وهذا النص الشريف ـ كما لا يخفى ـ لا يُراد به الحدُّ من الدعوة إلى الله تعالى والتعريف به؛ فإن ذلك من أوجب الواجبات بمقتضى قوله تعالى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٩١، ص٣٩، الباب ٣٢ ـ أدعية المناجاة، فصل فيما نذكره مما يختص باليوم الرابع عشر من دعاء غير متكرر، الدعاء ١.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٦٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الهداية أنها من الله عزّ وجلّ..، الحديث ١.

سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل/ ١٢٥]، وإنما يُراد به عدم ترك العنان للحماس الشخصي لتوجيه الداعي والمبلغ؛ بحيث يكون الهمُّ منصباً على رعاية مصلحة الرحم لأنه رحم، بحيث قد يتوسل الداعي إلى وسائل غير مَرضية تماماً، يدفعه إلى ذلك داعٍ غير رباني.

لذلك، حرص المعصوم عليه السلام على تبيانِ حقيقةٍ هامةٍ؛ قد يغفل عنها هذا الحريص، وهي أن هناك سلسلةً من الشروط الموضوعية، والأسباب الربانية، تكمن في أن الهاديَ الحقيقيَّ هو اللهُ سبحانه، وذلك إذا توفرت دواعيها المتمثلة في الرغبة الإنسانية، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩]، وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص/ ٥٦].

وهذا ما ينسجم تماماً والتأسيَ بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ويقتضي الدعوة إلى الله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف/ ١٠٨].

وتتميماً للفائدة من المناسب نقل ما ذكره العلامة المجلسي رحمه الله؛ في الجمع بين ما يبدو من تعارض طائفتين من النصوص؛ حول مسألة الدعوة إلى الله تعالى، قال (قدس الله سره):

أخبار هذا الباب تشتمل على أمرين:

الأول: ترك المجادلة والمخاصمة والاحتجاج في مسائل الدين، والآيات والأخبار في ذلك متعارضةٌ ظاهراً؛ إذ كثيرٌ منها دالةٌ على: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضل الهداية والتعليم، ودفع شبه المخالفين، وكثيرٌ منها تدل على: رجحان الكف عن ذلك، وعدم التعرض لهم، والنهي عن المراء والمجادلة والمخاصمة.

ويمكن الجمع بينها بوجوه:

الأول: حمل أخبار النهي على التقية والاتقاء على الشيعة؛ فإنهم لحرصهم على هداية الخلق ودخولهم في هذا الأمر كانوا يلقون أنفسهم في المهالك، ويحتجون على المخالفين بما يعود به الضرر العظيم عليهم وعلى أنفسهم في

المهالك، ويحتجون على المخالفين بما يعود به الضرر العظيم عليهم وعلى أئمتهم عليهم السلام، كما كان من أمر هشام بن الحكم وأضرابه، فنهوهم عن ذلك وأزالوا التوهم الذي صار سبباً لحرصهم في ذلك من قدرتهم على هداية الخلق بالمبالغة والاهتمام في الاحتجاج فيها، بأن الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب من قبل الله تعالى، ولو علم الله المصلحة في جبرهم على اختيار الحق لكان قادراً عليه ولفعل، فإذا لم يفعل الله ذلك لمنافاته للتكليف وغير ذلك من المصالح، فلم تتعرضون أنتم للمهالك، مع عدم قدرتكم عليه، وقد منع اللهُ نبيَّه (صلوات الله عليه) من ذلك وقال ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص/ ٥٦]. وأما إظهار الحق فإنما يجب مع عدم التقية. مع أنه قد تبين الرشد من الغي وتمت الحجة عليهم بما رأوا من فضل الأئمة وعلمهم وورعهم وكمالهم، وفجور خلفائهم الجائرين وبغيهم، وانتشرت الأخبار الدالة على الحق بينهم، ويكفي ذلك لهدايتهم إن كانوا قابلين، ولإتمام الحجة عليهم إن كانوا متعنتين.

الثاني: أن يكون الأمرُ بها عند عدم ظهور الحق واشتباه الأمر على الناس والنهي عنها، أو تجويز تركها عند وضوح الحق وظهور الأمر كما أشرنا إليه.

الثالث: أن يحمل أخبار الأمر على ما إذا كان لظهور الحق وهداية الخلق، وأخبار النهي على ما إذا كان للمراء والمخاصمة، وإظهار الفضل والكمال، والتعنت والغلبة، وإن كان بالباطل، وهذا من أخسّ الصفات الذميمة وأرذلها.

الرابع: يمكن حمل بعض أخبار النهي على المسائل التي نهي عن الخوض فيها كمسألة القدر وكنه صفات الباري تعالى وأشباه ذلك.

الخامس: أن يكون النهي محمولاً على مجادلة من يعلم أنه لا يؤول إلى الحق لشدة رسوخه في باطله.

السادس: أن يكون بعضها محمولاً على مَن لا تقدر على إلقاء الحجج ودفع الشبه؛ فيكون مخاصمته سبباً لقوة حجة الخصم ورسوخه في ضلالته.

ويدل عليه: ما رواه الكشي عن عبد الأعلى قال: **إن الناسَ يعيبون عليَّ بالكلامِ وأنا أكلِّم الناسَ، فقال: أما مثلُك؛ من يقع ثم يطير، فنعم، وأما مَن يقع**

ثم لا يطير، فلا). وعن الطيار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: **بلغني أنك كرهتَ مناظرةَ الناس، فقال: أما مثلك فلا يكره؛ من إذا طار يحسن أن يقع، وإن وقع يحسن أن يطير، فمن كان هكذا لا نكرهه)،** وعن حماد قال: كان أبو الحسن عليه السلام **يأمر محمّد بن حكيم أن يجالس أهل المدينة في مسجد رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وآله، وأن يكلمهم، ويخاصمهم، حتى كلمهم في صاحب القبر. وكان إذا انصرف إليه، قال له: ما قلت لهم وما قالوا لك؟! ويرضى بذلك منه).** وعن هشام بن الحكم قال: **قال لي أبو عبدالله** عليه السلام: **ما فعل ابن الطيار؟! قال: قلت: مات. قال: رحمه الله، ولقاه نضرةً وسروراً؛ فقد كان شديد الخصومة عنا أهلَ البيت).**

ويؤيد الوجه الثالث ما روي في تفسير الإمام عليه السلام قال: ذكر عن الصادق عليه السلام الجدالُ في الدين وأن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام قد نهوا عنه؛ فقال الصادق عليه السلام:

لم يُنهَ عنه مطلقاً، لكنه نُهِي عن الجدال بغير التي هي أحسن. أما تسمعون الله يقول ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، **وقوله تعالى** ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾. **فالجدال بغير التي هي أحسن حرَّمه الله تعالى على شيعتنا.**

وكيف يحرِّم الله الجدالَ جملةً؛ وهو يقول ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾. **قال الله تعالى** ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، **فجعل علم الصدق والإيمان بالبرهان، وهل يؤتى بالبرهان إلا في الجدال بالتي هي أحسن؟!**

قيل: يا ابن رسول الله! فما الجدال بالتي هي أحسن، والتي ليست بأحسن؟

قال: أما الجدال بغير التي هي أحسن أن تجادل مبطِلاً؛ فيورد عليك باطلاً؛ فلا ترده بحجةٍ قد نصبها الله تعالى، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقاً يريد ذلك المبطِلُ أن يعين به باطلَه؛ فتجحد ذلك الحقَّ مخافةَ أن يكون له عليك فيه حجةٌ؛ لأنك لا تدري كيف المخلَص منه، فذلك حرامٌ على شيعتنا؛ أن يصيروا فتنةً على ضعفاء إخوانهم وعلى المبطلين.

أما المبطلون فيجعلون ضعفَ الضعيف منكم؛ إذا تعاطى مجادلته، وضعف في يده، حجةً له على باطله، وأما الضعفاء منكم فتغم قلوبُهم؛ لِما يرون من ضعف المحِق في يد المبطِل)، ثم ذكر عليه السلام له احتجاجات النبي صلى الله عليه وآله على أرباب الملل الباطلة.

ومما يؤيد سائر الوجوه:

ما رواه الصدوق في الخصال عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ... **إياك والخصومات؛ فإنها تورث الشك، وتهبط بالعمل، وتردي صاحبها. وعسى أن يتكلم بالشيء فلا يغفر له).**

وفي المجالس عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **إياك والخصومة في الدين؛ فإنها تشغل القلب عن ذكر الله عزّ وجلّ، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن، وتستجيز الكذب)**...

إلى آخر ما قال رحمه الله؛ تعليقاً على الحديث الذي أوردناه؛ فراجع كلامه بتمامه[1].

---

(١) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ)، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج٢، ص٢٤٣.



الفصل الرابع

معرفة النبي ﷺ

(ثم الإيمان بي، والإقرار بأن الله تعالى أرسلني إلى كافة الناس؛ بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً) [الفقرة/ ٦].

نعالج في هذا الفصل فقرةً من الوصية، أوضح فيها النبيُّ ﷺ لمستوصيه أبي ذر (رض) مفردةً من مفردات عقيدة المسلم، والتي تشكل أصلاً من أصول فكره؛ أعني (مسألة النبوة) كمبدأٍ ومشروعٍ، وشخصَ (النبي) كمجسِّد لهذا الأصل.

كما أنه أوضح ـ في الفقرة ـ الدورَ الوظيفيَّ والمهامَّ المنوطةَ بالنبي الخاتَم ﷺ.

ولنتناول ذلك في السطور التالية؛ بإيجاز يتناسب وطبيعةَ البحث؛ ضمن مسائل تحمل العناوين والتساؤلات التالية:

١ ـ ماذا يعني الإيمان؟

٢ ـ ماذا تعني النبوة والرسالة؟

٣ ـ عمومية نبوة محمد ﷺ

٤ ـ التبشير والإنذار

٥ ـ الدعوة إلى الله تعالى

٦ ـ ما المراد بالسراج المنير؟

***

المسألة الأولى: ماذا يعني الإيمان؟

تكررت مادة (أ م ن)؛ التي هي أصل (الإيمان)، ومشتقاتها في القرآن الكريم ما يزيد عن (٨٠٠) مرة، وذاك يفيد أن لهذا المعنى حيويةً خاصةً في بنية الإنسان وسلوكه، وبالتالي مآله ومعاده.

ونلاحظ ـ هنا ـ أن (الإيمان)؛ الذي عدَّه الرسول ﷺ بنداً آخر بعد (المعرفة)، ليس بعيداً عنه في المضمون؛ لأنهما ـ أي: المعرفة والإيمان ـ يجتمعان في (الإذعان) بحقيقةٍ معينةٍ؛ هي (الألوهية والربوبية) في البند السابق، وكذلك مسألة (النبوة والرسالة) في هذا البند.

والإيمان هو (الإذعان والتصديق بشيءٍ؛ بالالتزام بلوازمه)[١]. أو (عقد القلب على الدين؛ بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح)[٢]. والأصل فيه ـ كما قال الراغب ـ: طمأنينةُ النفس، وزوالُ الخوف)[٣].

المحطة الأولى: مراتب الإيمان

يُستفاد من نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة أن الإيمان على مراتب[٤]:

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٦، ذيل الآية الكريمة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون/ ١].

(٢) المصدر السابق، ج١٦، ص٣١٤، ذيل الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب/ ٣٥].

(٣) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (أمن).

(٤) انظر: شرح أصول الكافي للملا محمد صالح المازندراني (ت١٠٨١ هـ)، ج٢، ص٤٥، وكتاب الطهارة للإمام الخميني، ج٣، ص٣٣٣.

* قال الله تعالى ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٢٢].

* وقال تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة/ ١٢٤].

* وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد/ ١٧].

* وعن أبي عمرو الزبيري، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: ... **الإيمان حالات، ودرجات، وطبقات، ومنازل. فمنه التام المنتهِي تمامُه، ومنه الناقص البيِّن نقصانُه، ومنه الراجح الزائد رجحانُه)**[1].

* وجاء في الدعاء المعروف بـ(مكارم الأخلاق)؛ للإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام قوله: ... **وبلغ بإيماني أكمل الإيمان...)**[2].

وسبب التفاوت بين المراتب ينبع من مستوى المعرفة التي يحملها (المؤمن)، ومن مستوى (الالتزام) بمضمون تلكم المعرفة. ولسنا بحاجة إلى إثبات أن الناس في ذلك ليسوا سواءً في المعرفة؛ من حيث مستواها والالتزام بمضمونها ولوازمها. لذلك، فإن من الطبيعي أن يكون في الناس من هو كامل في إيمانه، وفيهم المتوسط، وفيهم مَن هو في حده الأدنى.

المحطة الثانية: عمق الإيمان في رسول الله ﷺ

فإذا تأملنا في حياة الرسول ﷺ لوجدناه في المرتبة العليا حتى توالت الشهادات الربانية بذلك. ولنقف على شهادتين من تلك الشهادات:

* **الشهادة الأولى**: قول الله تعالى ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه/ ١ ـ ٣]، الذي بيّن فيه اللهُ سبحانه شدةَ اجتهاد

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر، باب في أن الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلها، الحديث ١.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء العشرون (وكان من دعائه عليه السلام في مكارم الاخلاق ومرضي الأفعال).

النبي ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى، والنابع من عمق إيمانه بما كُلِّف به، وتحمله في ذاته العنت والشدة على مستوى التطبيق والتفاعل.

* **الشهادة الثانية:** قول الله تعالى ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر/ ٨]. وقد بيَّن الله تعالى ـ في هذا النص الشريف ـ كيف تفانى رسولُ الله ﷺ في دعوة الناس إلى الله سبحانه؛ حباً فيهم، وإشفاقاً عليهم، إلى الدرجة التي كادت نفسُهُ الشريفةُ تزهق حسرةً وألماً على مَن لم يؤمن منهم. ولا نتصور إنسانيةً وإحساساً بالغير أعلى من هذه المرتبة.

المحطة الثالثة: نماذج لاهتزاز الإيمان

في مقابل عمق الإيمان نجد نماذج من المؤمنين يجتمع لديهم الإيمان بشوائب تفسده بطريقةٍ أو بأخرى. وإليك بعض هذه النماذج:

النموذج الأول: قال تعالى ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف/ ١٠٦]، ويستفاد منه أن الإيمان قد يختلط؛ لضعفه، بشائبة الشرك؛ وما أقبحها من شائبة تنافيه أشد التنافي[(١)].

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام؛ بياناً لمعنى الآية ما لفظه، قال:

هو قولُ الرجل (لولا فلان لهلكت)، و(لولا فلان ما أصبت كذا وكذا)، و(لولا فلان لضاع عيالي).

ألا ترى أنه قد جعل للهِ شريكاً في ملكه؛ يرزقه، ويدفع عنه؟!

---

(١) قال الفيض الكاشاني:
الشرك قسمان:
شرك عبادة؛ وهو: أن يعبد غير الله من صنم أو كوكب أو إنسان أو غير ذلك؛ وهو الشرك الجلي.
وشرك طاعة؛ وهو: أن يطاع غيرُ الله في ما لا يرضى الله؛ من إنسان أو شيطان أو هوى أو غير ذلك؛ وهو الشرك الخفي. وقلّما يخلو مؤمنٌ من هذا النوع من الشرك ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [الوافي، ج٨، ص١٠٨٤].

قلت: فيقول: ماذا يقول؛ لولا أن منَّ اللهُ عليَّ بفلانٍ لهلكتُ؟!

قال: نعم، لا بأس بهذا، أو نحوه)(١).

النموذج الثاني: قال الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج/ ١١].

والآية الكريمة تكشف عن أن الإنسان ـ في الوقت الذي يقر على نفسه بأنه عبدٌ لله تعالى، مؤمنٌ به وبرسوله ـ قد يُبتلى بقشريةٍ وهشاشةٍ في عبادته؛ سرعان ما تكون سبباً في خسرانه دنياه وآخرته؛ بدون أن تشفع له عبادته هذه في النجاة.

ففي الخبر، قال زرارة:

سألتُ عنها [أي الآية] أبا جعفر عليه السلام فقال: هؤلاء قومٌ عبدوا اللهَ، وخلعوا عبادةَ مَن يُعبد من دون الله، وشكوا في محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به؛ فتكلموا بالإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقروا بالقرآن؛ وهم في ذلك شاكون في محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به، وليسوا شكاكاً في الله. قال الله عزّ وجلّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، يعني على شك في محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ يعني عافية في نفسه وماله وولده ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ ورضي به ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾، يعني بلاء في جسده، أو ماله، تطيَّر، وكره المقام على الإقرار بالنبي (صلى الله عليه وآله)؛ فرجع إلى الوقوف والشك، فنصب العداوةَ لله ولرسوله والجحود بالنبي وما جاء به)(٢).

النموذج الثالث: قال الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن

(١) عدة الداعي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٢١٥، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب عدم جواز تعلق الرجاء والأمل بغير الله، الحديث ٢.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤١٣، كتب الإيمان والكفر، باب في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، الحديث ١.

مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

وهذا النص القرآني جاء لتبيين ما حصل من انتكاسة في معركة أحد؛ حيث تخلت الغالبية الساحقة من المسلمين عن رسول الله ﷺ، وانفضوا عنه؛ حتى لم يجد بعض المفسرين؛ كالقرطبي في تفسيره، تعبيراً أدق من قوله **(انهزام المسلمين)**[١]. وذلك أنه لم يبق مع النبي ﷺ سوى عدد قليل بلغوا ثلاثين لَما دعاهم ﷺ إليه[٢].

والظاهر أن لهذه الواقعة نظائر؛ فلم تقع لمرة واحدة فحسب؛ كما يفيده ما روي **(أن علياً كان يقول في حياة رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): إن الله عزّ وجلّ يقول ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، واللهِ! لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله تعالى، والله لئن مات أو قتل لأقاتلنَّ على ما قاتل عليه؛ حتى أموت. والله! إني لأخوه، ووليه، وابن عمه، ووارثه، فمَن أحق به مني؟!)**[٣].

النموذج الرابع: ما يحكيه الله سبحانه في الكتاب الكريم عن ميل الناس إلى مصالحهم الدنيوية؛ على حساب مصالحهم الحقيقية؛ بسبب ضعف إيمانهم، قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة/ ١١].

---

(١) القرطبي، أبو عبدالله (ت٦٧١)، جامع أحكام القرآن، ج٤، ص٢٢١.

(٢) الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠)، تاريخ الطبري، ج٢، أحداث معركة أحد.

(٣) ابن حنبل، أحمد (ت٢٤١)، فضائل الصحابة، من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، ج٢، ص٦٥٢ - ٦٥٣. وقال محقق الكتاب؛ في ما علق به على الحديث: في مجمع الزوائد (ج ٩، ص١٣٤): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح).
ورواه - أيضاً - النسائي في سننه الكبرى، باب ذكر الأخوة، ج٧، ص٤٣١، والطبراني في معجمه الكبير؛ في ما أسند عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ج١، ص١٠٧، والحاكم في مستدركه برقم (٤٦٣٥)؛ ضمن مناقب علي عليه السلام؛ ولم يعقب عليه الذهبيُّ بشيء؛ مما يعني تسليمه به، والمقدسيُّ في الأحاديث المختارة، ج٢، ص٢٣٣، إلا أنه عقَّب عليه بقوله (في إسناده لين)!!.

وكان ذلك في عتاب جماعة المصلين؛ من صحابة النبي ﷺ؛ لَما سمعوا طبولَ الإعلام بقدوم قافلة تجارية إلى المدينة، وكان الرسول ﷺ مشغولاً بخطبة الجمعة، فانفضوا عنه!! حتى لم يبق معه منهم غيرُ اثني عشر رجلاً.

فعن جابر بن عبدالله الأنصاري (رضي الله عنه)، قال: أقبلت عيرٌ؛ ونحن نصلي مع النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) الجمعةَ؛ فانفضَّ الناسُ؛ إلا اثني عشر رجلاً؛ فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾[1].

***

المسألة الثانية: ماذا تعني النبوة والرسالة؟

عند استقرائنا لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة سنجد أنفسنا أمام كمٍّ هائلٍ من البيانات التي عالجت مسألة النبوة والرسالة من زاويتين:

الأولى: من حيث الضرورة، والمفهوم، والدور، والنتائج.

الثانية: من حيث الأشخاص (الأنبياء)، وتاريخهم وتجاربهم...

وما ذلك إلا لِما يمكن لـ(النبوة) أن تحدثه من تغيير في الكائن الإنساني، وتأهيله للقيام بأفضل ما ينبغي له أن يقوم به.

ولنقارب ذلك في فقرتين:

الفقرة الأولى: معنى النبوة والرسالة

أولاً: النبوة

كلمة (نبي) مشتقة من (النَّبْو) بمعنى الارتفاع، أو من (الإِنْباء) بمعنى الإخبار، أو من (النبي) بمعنى (الطريق)[2].

---

(١) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، كتاب البيوع، باب ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾؛ وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب قوله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾.

(٢) قال في الصحاح، مادة (نبا):... =

وجميع هذه المعاني ـ ونظائرها ـ متحقِّقة في (النبي)؛ فهو الرفيع في قدره، وعلمه، وكمالاته...، وهو ـ أيضاً ـ المخبِر عن ربه بما لا يعرفه من هو نبيٌّ لهم، وهو الطريق إلى الخير في الدارين.

ثانياً: الرسول

أما كلمة (رسول) فمشتقة من رسل، وتستعمل بمعنى حامل الرسالة من طرف إلى طرف(١).

ويجمع المعنيين أن النبي والرسول هما: الإنسان المكلَّف من عند الله تعالى بوظائف تعليمية وتربوية وقيادية، تأخذ بالإنسان إلى الله تعالى؛ عبر تحقيق مصالحه العاجلة والآجلة، فـ(النبيُّ بُعث لينبئ الناس بما عنده من نبأ الغيب؛ لكونه خبيراً بما عند الله. والرسولُ هو المرسَل برسالة خاصة زائدة على أصل نبأ النبوة)(٢).

وأما النبوة فـ(هي: منصب البعث والتبليغ).

وأما الرسالة فـ(هي: السفارة الخاصة التي تستتبع الحكم والقضاء بالحق بين الناس؛ إما بالبقاء والنعمة، أو بالهلاك)(٣).

= والنَّبْوَةُ والنَّباوَةُ: ما ارتفع من الأرض. فإنْ جعلت النَّبِيَّ مأخوذاً منه، أي أنه شُرِّفَ على سائر الخلق فأصله غير الهمز، وهو فعيل بمعنى مفعول، وتصغيره نبي، والجمع أنبياء).

وقال ابن فارس في مجمل اللغة:...

والنبي: من النبوة والنباوة، وهي الارتفاع.

والنبي: الطريق، ويكون من ذلك اشتقاق اسم النبي ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ، والنبأ: الخبر).

وقال في القاموس المحيط:

... والنَّبِيءُ: المخبِرُ عن الله تعالى، وتركُ الهمزِ المختارُ، ج: أنبياء، نُبَآءُ، وأَنْبَاءٌ، والنَّبِيؤُونَ، والاسمُ: النُّبُوءَةُ).

(١) قال الأنباري؛ في ما حكاه عنه الأزهري:

والرسول معناه ـ في اللغة ـ: الذي يتابع أخبارَ الذي بعثه) [تهذيب اللغة، ج١٢، ص٢٧٢].

وفي المقاييس لابن فارس أن المادة أصل واحد يدل على الانبعاث والتمدد. انظر: مادة (رسل).

وفي كثير من المعاجم أنها تدل على التتابع.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص١٤٠.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٩٨.

وهناك فروق بين النبي والرسول أشارت إليها النصوص الدينية، وهي التي يفرض المنهجُ العلميُّ الرجوعَ إليها للتعرف على طبيعة النبوة والرسالة، وهما أمران غيبيان؛ يعجز غير المطلع على الغيب عن أن يبتَّ فيه إثباتاً ونفياً.

ولا يعنينا ـ الآن ـ الدخول في تفاصيل طبيعة النبوة والرسالة؛ خشية الإطالة بما يخرج عن طبيعة البحث(١). ونكتفي بما جاء في الخبر الصحيح عن زرارة،

---

(١) قال الشيخ المجلسي:
اعلم أن العلماء اختلفوا في الفرق بين الرسول والنبي:
فمنهم من قال: لا فرق بينهما.
وأما من قال بالفرق:
فمنهم من قال: إن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وإنما يدعو إلى كتاب من قبله.
ومنهم من قال: إن من كان صاحب المعجز وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول.
ومنهم من قال: إن من جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم فهو النبي.
كذا ذكره الرازي وغيره.
وقد ظهر لك من الأخبار فساد ما سوى القول الأخير؛ لما قد ورد من عدد المرسلين والكتب، وكون من نسخ شرعه ليس إلا خمسة، فالمعول على هذا الخبر المؤيد بأخبار كثيرة مذكورة في الكافي).
والخبر المعوَّل عليه؛ الذي أورد هذا البيان بمناسبته، هو ما رواه عن الصفار في بصائر الدرجات؛ والكليني في الكافي، بسنده عن الأحول، قال: **سمعت زرارة يسأل أبا جعفر عليه السلام، قال: أخبرني عن الرسول، والنبي، والمحدَّث.**
فقال أبو جعفر عليه السلام الرسول الذي يأتيه جبرئيل قبلاً؛ فيراه، ويكلمه. فهذا الرسول.
وأما النبي فإنه يرى [يؤتى خ ل] في منامه؛ على نحو ما رأى إبراهيم، ونحو ما كان رأى رسول الله من أسباب النبوة قبل الوحي؛ حتى أتاه جبرئيل من عند الله بالرسالة. وكان محمد (صلى الله عليه وآله) حين جمع له النبوة، وجاءته الرسالة من عند الله، يجيئه بها جبرئيل ويكلمه بها قبلاً».
ومن الأنبياء من جمع له النبوة، ويرى في منامه، يأتيه الروح فيكلمه ويحدثه؛ من غير أن يكون رآه في اليقظة.
وأما المحدث فهو الذي يُحدَّث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه). وقد أورد الشيخ الكليني الخبر نفسه بسند صحيح.
انظر: بحار الأنوار، كتاب النبوة، الرسول والنبي والمحدث وكيفية الوحي، ج١١، ص٥٤. وانظر=

قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾: **ما الرسولُ، وما النبيُّ؟**

قال: النبيُّ: الذي يرى في منامه، ويسمع الصوتَ، ولا يعاين الملكَ. والرسول: الذي يسمع الصوتَ، ويرى في المنام، ويعاين الملكَ...)[1].

فالنبي والرسول ـ إذاً ـ يشتركان في أنهما يتلقيان علومَهما ومعارفَهما وقدراتِهما من الله تعالى؛ عبر الوحي والإلهام ونحو ذلك، وإن اختلفا؛ وفقاً للحديث، في طريقة التلقي.

ولهذا الاشتراك ـ بين النبي والرسول ـ في التلقي ثمراتٌ مهمةٌ؛ ومن أهمها عصمتهما في ما يقولانه؛ فهما: لا يخطئان، ولا يشتبهان، ولا يصدر عنهما إلا الحق والصدق.

قال الله تعالى ـ واصفاً حال محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله؛ باعتباره نبياً ـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٣ ـ ٤]. وينسحب هذا الوصف إلى جميع الأنبياء؛ بلحاظ وظيفة (النبوة).

الفقرة الثانية: ضرورة النبوة

قامت الأدلة والبراهين على ضرورة النبوة بالنسبة للإنسان، يعنينا منها ـ هنا ـ ما يرتبط بالجانب الوظيفي للأنبياء عليهم السلام.

وذلك أن القرآن الكريم؛ وهو خطاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت/ ٤٢]، يصوغ لنا فلسفةً ساميةً وراء خلقة هذا الإنسان، فلسفةً تقوم على أساس التوحيد الإلهي.

ولنتأمل هذا الدليل ضمن النقاط والمقدمات والأصول التالية:

=ـ أيضاً ـ: مرآة العقول، ج٢، ص٢٨٩. وقد عقد السيد الطباطبائي؛ في تفسير الميزان، بحثاً قرآنياً؛ بعنوان (كلام في النبوة)، وآخر فلسفياً، ضمَّنهما مختاره في مسألة النبوة والفرق بينها وبين الرسول فراجعهما في ج٢ ص١٣٩ حتى ١٦٧.

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، أصول الكافي، ج١، ص١٧٦، كتاب الحجة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث، الحديث ١.

الأصل الأول: الخالقية

وخلاصة هذا الأصل: أن الله تعالى ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام/ ١٠٢]؛ بما في ذلك (الإنسان).

الأصل الثاني: الحكمة

وخلاصة هذا الأصل: أن الله تعالى ـ الخالق لهذا العالم ـ يتصف بـ(الحكمة)، والتي تعني: وضع الشيء في محله. وإن شئت قلت (تنزيل الأشياء منازلها، وترتيبها في التكوين والتفضيل)[1]. قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف/ ٨٤].

وهذه الحكمة تستبطن الهدفية والغائية في كلِّ فعلٍ يصدر عن الله تعالى؛ لأن العبثَ خلافُ الحكمة. قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الدخان/ ٣٨].

الأصل الثالث: اللطف

وخلاصة هذا الأصل: أن الله تعالى يتصف بـ(اللطف)؛ الذي يعني: الدقة في الصنع والفعل، وتهيئة وسائل الوصول للهدف برفقٍ ويسرٍ. قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك/ ١٤]، وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى/ ١٩].

الأصل الرابع: الإحسان

وخلاصة هذا الأصل: أن الله تعالى يتصف بـ(الإحسان)؛ الذي يعني: إفاضة الخير على المستحِق.

وهو يستلزم أن يتصف المحسِن بوصفين أساسيين؛ هما:

* القدرة من جهةٍ

* والغنى من جهةٍ ثانيةٍ.

قال تعالى ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، مادة (قدم).

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص/ ٧٧].

فإذا كان الله عز اسمه: خالقاً، وحكيماً، ولطيفاً، ومحسناً؛ وهو كذلك، وكان الإنسان في المقابل:

١ ـ مخلوقاً لله

٢ ـ مملوكاً له

٣ ـ محتاجاً إليه

٤ ـ قاصراً عن القدرة على قراءة طبيعته وجوهره، وبالتالي عاجزاً عن: التخطيط الشامل، والكامل، لعاجله وآجله.

فإن ذلك ـ كله ـ يفرض أن يكون اللهُ سبحانه هو المتصديَ للهداية والتوجيه والتعليم لهذا الإنسان.

وانطلاقاً من هذا التأسيس والتأصيل، كانت السنة الإلهية بإرسال الرسل وبعث الأنبياء. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر/ ١٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر/ ٢٤].

ونعرف جميعاً أن سنن الله لا تتخلف ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح/ ٢٣].

وقد تقدم بعضُ السائلين إلى الإمام الصادق عليه السلام بسؤالٍ حول النبوة؛ فأجابه بما منهجناه ضمن ما تقدم:

قال السائل: فمن أين أثبتَّ أنبياءَ ورسلاً؟

قال عليه السلام: إنا لَما أثبتنا أن لنا خالقاً، صانعاً، متعالياً عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانعُ حكيماً لم يجُز أن يشاهده خلقُهُ، ولا أن يلامسوه، ولا أن يباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراءَ في خلقه وعباده؛ يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أن له معبرين وهم الأنبياء

وصفوته من خلقه، حكماء مؤدِّبين[١] بالحكمة، مبعوثين عنه، مشارِكِين للناس في أحوالهم؛ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤدين من عند الحكيم العليم بالحكمة[٢] والدلائل والبراهين والشواهد؛ من: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فلا تخلو الأرض من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته)[٣].

وقد نبّه بعضُ العلماء، في لفتةٍ جميلةٍ، إلى امتياز هذا الدليل على ما أقامه الفلاسفة من دليلٍ على النبوة؛ من جهةِ بيانِهِ أن الحاجةَ إلى الأنبياء لتبيان المصالح الحقيقية والشاملة للدنيا والآخرة، وليس ما يعود إلى الجانب الاجتماعي فحسب[٤].

---

(١) يحتمل أن تقرأ بصيغة المبني للمفعول (مُؤَدَّبِينَ)، بمعنى أن الله أدبهم بالحكمة ليكونوا مؤهَّلين للتأديب بها.

(٢) قال محقق البحار: في المصدر: مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة.

(٣) الصدوق، كتاب التوحيد، ص٢٤٩ ـ ٢٥٠، وعنه: بحار الأنوار، ج ١٠، ص١٦٤، الباب ١٣ ـ احتجاجات الصادق صلوات الله عليه، الحديث ٢.

(٤) انظر: مبحث النبوة في منهاج الصالحين ج١، للمرجع الشيخ الوحيد الخراساني (حفظه الله).



الفصل الخامس

الأنبياء ـ وظائف ومهمات

لا نستطيع أن نستوعب الدورَ المنوط بالأنبياءِ القيامُ به دون وضعِه في سياقه الوجودي المنطقي؛ المتفرِّع عن الولاية الإلهية الأصلية.

وإذا عُدنا إلى القرآن الكريم سنجد أنه بيَّن أن من مقتضيات ولاية الله تعالى على عباده اللطفَ بهم؛ عبر إخراجهم من الظلمات إلى النور. ويدل على ذلك قولُ الله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة/ ٢٥٧].

واتساقاً مع هذه المهمة الربانية الأصلية، حدد اللهُ تعالى للأنبياء عليهم السلام ـ الذين هم (رسل من الله، وعباد مكرَمون، بُعثوا لدعوة الخلق إلى الحق)[١] ـ وأوكل إليهم مهمةً رئيسةً؛ تنتظم فيها سلسلةٌ من المهمات.

وهذه المهمة الرئيسة هي: **إخراج الناس من الظلمات إلى النور**. ويجب أن نلفت النظر إلى أن هذه المهمة هي ـ في الأساس ـ لله سبحانه في حق خلقه؛ بمقتضى كونِهِ ولياً لهم؛ كما تقدم قبل قليل. وهو سبحانه يتوسل ـ لتحقيق هذا الغرض النبيل ـ بأفضل الوسائل والسبل المستبطِنَة للرحمة والرأفة بالناس؛ حتى في ما يكلفهم به وينهاهم عنه. قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٤٣].

ويتلطف اللهُ سبحانه عبادَه بالدلائل الواضحة، والبراهين البينة؛ ليكون قبولُ

(١) آل كاشف الغطاء، الشيخ محمد الحسين (ت١٣٧٣ هـ)، أصل الشيعة وأصولها، ص٢٢٠.

ما يُكلَّفون به أيسرَ لهم، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد/ ٩].

بينما يكون السائرون في غير الطريق الرباني على مشارفِ هلكةٍ؛ فـ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة/ ٢٥٧].

ولا يستثنى من هذه المهمة نبيٌّ سابقٌ أو لاحقٌ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/ ٨٤].

وقد خُتمت هذه المسيرة المباركة بالقرآن المنزل على خاتم النبيين محمد ﷺ؛ لينتهي ـ بنبوته الخاتمة ـ مطافُ إخراج الناس من الظلمات إلى النور على مستوى النبوة. قال تعالى ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم/ ١].

ولما كانت الظلماتُ أنواعاً؛ يرتبط بعضُها بالفكر، وبعضُها الآخر بالمشاعر، وبعضُها بالسلوك، وكانت ـ ثانياً ـ تتوزع بين الفرد والجماعة، وكانت ـ ثالثاً ـ تتسع لتشمل السياسة إلى جانب الاقتصاد... فستكون جبهاتُ الصراع ـ تبعاً لذلك ـ متعددةً.

ولهذه الأسباب والعوامل تعددت الجبهاتُ؛ مع أن جوهرَ الصراع واحدٌ؛ باعتبار أن الحقَّ واحدٌ[1]، فـ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

(١) انظر: كتاب الفصول المهمة في أصول الأئمة للشيخ الحر العاملي، الباب ٢٣ ـ عدم جواز الاختلاف في الأحكام لغير تقية، وأن الحق من الأقوال المختلفة لا يكون أكثر من واحد في نفس الأمر، ج١، ص٥٤٣.

وقال ابن حزم الظاهري:

الحق في الأقوال ما حكم الله تعالى به فيه، وهو واحد لا يختلف...، وأن الخطأ ما لم يكن من عند الله عزّ وجلّ. ومن ادعى أن الأقوالَ كلَّها حقٌ، وأن كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ؛ فقد قال قولاً لم يأتِ به قرآنٌ ولا سنةٌ ولا إجماعٌ ولا معقولٌ) المحلى، ج١، ص٧٠، المسألة التاسعة بعد المائة.

زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور/ ٣٥].

أجل، تجليات الحق ـ الذي هو واحدٌ ـ قد تتعدد، أما الباطل فـ(متشتت مختلف، لا وحدة فيه)[١]. وإن شئت قلت (الحق واحد، وللباطل شعب كثيرة)[٢].

وأما المهمات الفرعية للنبوات والأنبياء؛ انبثاقاً من تلكم المهمة الرئيسة، فنجملها في ما يلي من عناوين:

المهمة الأولى: إقامة الحجة

نعني بـ(إقامة الحجة): أن اللهَ سبحانه استخلف الإنسانَ، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [البقرة/ ٣٠]، وحمَّله الأمانةَ، كما يفيده قوله سبحانه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب/ ٧٢]، وكلَّفه بسلسلةٍ من المهام؛ تدور حول إعمار الأرض والإحسان والإصلاح...؛ على أساس التقوى؛ ليكون ذلك سبباً للسعادة في الدنيا والآخرة معاً.

ولنقف عند عدد من المقدمات وما تؤدي بنا إليه من نتيجة:

المقدمة الأولى: أن في عنق هذا الإنسان مهامَّ ووظائفَ. بمقتضى كونه خليفةً وحاملاً للأمانة.

المقدمة الثانية: أن الناسَ ليسوا سواءً؛ من حيث العلم بالتكليف والجهل به، فإن فيهم مَن يعرف وفيهم مَن لا يعرف.

وهذا ما أشارت إليه آياتٌ كثيرةٌ، منها: قوله تعالى ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٣٤٦.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٥٢، بيان من العلامة المجلسي رحمه الله في قول الصادق عليه السلام (مَن كان همُّهُ هماً واحداً، ومَن كان همُّه في كلِّ وادٍ).

ﱡٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَﱠ [يوسف/ ٤٠]، وقوله تعالى ﱡقُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗﱠ [الزمر/ ٩].

المقدمة الثالثة: أن الناس ليسوا سواءً؛ من حيث الامتثال للتكليف وعدمه، فإن فيهم مَن ينجز مهمتَه وفيهم مَن لا ينجزها. يدل على ذلك قول الله تعالى ﱡوَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُﱠ [سبأ/ ١٣].

النتيجة: أنه لا بد من الحجة والدليل على المهمة من جهة، والشهادة على الامتثال من عدمه من جهة أخرى. ويدل على ذلك قول الله تعالى ﱡفَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗاﱠ [النساء/ ٤١].

وهذا بالتحديد هو ما أردناه من عنوان (إقامة الحجة)؛ كتفصيلٍ من تفصيلات إخراج الناس من الظلمات إلى النور. قال تعالى ﱡإِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ﱠ [الأنفال/ ٤٢].

وفي كلِّ ذلك جاءت آياتٌ عديدةٌ؛ من أجل بيان هذا الدور الخطير للأنبياء، وواقع الناس من حيث الاستجابة وعدمها، وعاقبة المطيعين والعاصين؛ فقال عز من قائل ـ في واحدٍ من بياناته وبيناته ـ: ﱡإِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗاﱠ [النساء/ ١٦٣ ـ ١٦٥].

المهمة الثانية: رفع الاختلاف

مفردة الاختلاف، وكذلك المخالفة، تطلق على ـ في اللغة ـ على معان. ويعنينا منها ـ هنا ـ إطلاقُهُ وإرادةُ التنوع في الاختيار؛ بـ(أن يأخذ كلُّ واحدٍ طريقاً غير طريق الآخر؛ في حاله أو فعله)(١).

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (خلف).

وهذه المفردة والمادة؛ باشتقاقاتها المتنوعة، لا تساوي ـ في المعنى، والاستعمال ـ الخصومةَ والتنازعَ، فليس دائماً إذا اختلف الناسُ يعني أنهم تنازعوا. لكن (لَما كان الاختلافُ بين النَّاس في القول قد يقتضي التنازع استعير ذلك [الاختلاف] للمنازعة والمجادلة)(١).

لذلك، نقول: إن الاختلاف ـ في حدِّ نفسِه ـ ليس معيباً ولا مرفوضاً بالمطلق؛ فبعضه له أسبابُهُ ومناشئُهُ الطبيعية والموضوعية، لكن الاختلاف يكون مذموماً ـ بمستوى التحريم تارةً، والكراهة تارةً ـ إذا أدى بالمختلفين إلى خصوماتٍ وتنازعٍ بالباطل وتنافرٍ مضرٍّ في شأن دينيٍّ أو دنيويٍّ هامٍّ.

والاختلاف المذموم؛ وما يترتب عليه من تنازعٍ، يُعد من المشكلات التي تودي بالمجتمعات البشرية.

لذلك، أدَّبنا ربنا تعالى على أن نتجنب التنازعَ؛ عبر النأي بأنفسنا عن أسبابه. فقال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال/ ٤٦]؛ (فقد رتب على المنازعة والاختلاف الفشل، وبعدها تذهب ريحهم؛ وهي كناية عن ذهاب القوة والنصر. فإن الله سبحانه يمد الأمةَ بالنصر والتأييد واللطف منه، وهذا تكريمٌ منه إليهم عند اجتماعهم ووحدتهم، فإذا اختلفوا، وتفرقوا، سَلب تلك النعمة العظيمة، وباتوا على شفا جرفٍ هارٍ)(٢).

ومن أجل الابتعاد عن التنظير الفكري البعيد عن الواقع وتعقيداته، فقد أخذت الآيةُ الشريفةُ ـ إلى جانب النهي عن أصل التنازع ـ ببيان أن رفعَ التنازع يكمن في طاعة الله ورسوله؛ لأن في طاعتهما عملاً بما فيه المصلحة الحقيقية للإنسان. وإنما أمر بطاعة ولاة الأمر باعتباره طريقاً سالكةً (لنفي الاختلاف والتنازع)(٣).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الموسوي، السيد عبد الحسين شرف الدين، المراجعات، مقدمة ط ٢، ص٩.

(٣) الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، ذيل الآية ٥٧، من سورة الأنفال، ج٤، ص٢٥١.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، تأكَّد احتياج الناس إلى الأنبياء ﷺ؛ الذين هم شريحةٌ بشريةٌ مصطفاةٌ من الله تعالى، وتأكَّد احتياجهم؛ أعني الناس، لِما جاء به الأنبياءُ من الحق؛ الذي يمتاز بأنه إذا عمل الناسُ به رجعوا إلى الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها. وهذه الفطرة تتمثل في (كلمة التوحيد التي تقضي بوجوب تطبيق الأعمال الفردية والاجتماعية على الإسلام لله وبسط القسط والعدل)(١).

قال تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا﴾ [البقرة/ ٢١٣]، (فالدين الإلهي هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الإنساني، والمصلِح لأمر حياته. يصلح الفطرةَ بالفطرة، ويعدِّل قواها المختلفة عند طغيانها، وينظِّم للإنسان سلكَ حياته الدنيوية والأخروية، والمادية والمعنوية)(٢).

تنويع الاختلاف:

نحسب أن ما قدمناه ـ من أن الاختلاف ليس مذموماً بالمطلق ـ هو بمثابة الإشارة التي تحتاج إلى شيءٍ من البسط، فنقول:

لابد من التنبيه إلى أن الاختلاف؛ الذي هو: التقابل والتباين والتعدد؛ على مستوى الذات أو الصفة، أو الفعل، هو نوعان:

الأول: اختلاف محمود

وهذا الاختلاف اقتضته طبيعةُ الاستخلاف وإعمار الأرض، اللذين يتطلبان تنوعاً؛ تتوزع فيه الأدوار بين إنسان وآخر، أفراداً وجماعات.

قال تعالى في بيان التفاوت بين الناس؛ الذي هو شكل من أشكال الاختلاف ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ﴾ [الزخرف/ ٢٣].

ولولا أن الناسَ مختلفون في المساكن والأذواق والاهتمامات؛ ونحو ذلك من رغبات تتعلق بالمعيشة الدنيوية، لَما نهضت دنياهم. فلو كانوا مزارعين فقط،

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٢٤٨.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١١٢، ذيل الآية الكريمة.

أو تجار حبوب فقط، أو طلاب علم فقط، وهكذا، فهل ستستقيم الحياة الإنسانية الاجتماعية فضلاً عن أن تدوم؟!

الجواب: كلا.

ونضيف: لولا أن الناسَ مختلفون من حيث الذكورة والأنوثة لَما حصل التناسل، ولانقرضت البشرية.

ولولا اختلاف الليل والنهار، والصيف والشتاء والربيع والخريف، والبرودة والحرارة...، لَما تيسر للناس هذه النعمُ؛ التي تتنوع بين اللازم لحياتهم، والمفيد، والكمالي.

فهذا النوعُ من الاختلافِ محمودٌ؛ لأنه مفيدٌ، بل ضروريٌّ.

الثاني: اختلاف مذموم

وفي مقابل الاختلاف المحمود، هناك اختلافٌ مذمومٌ؛ وهو ما يقع فيه الناسُ بسبب أنانياتهم، وأهوائهم، وقصورهم، وتقصيرهم، ونحو ذلك؛ من عوامل تنبع من فوات جهةٍ من جهات الخير، أو تفويتها؛ فتعمى الأبصارُ والبصائرُ عن رؤية الحق وإدراكه؛ بما يؤدي إليه من ترك العمل بالحق وتحكيمه.

وفي هذا الاختلافِ القبيح يقول الله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الجاثية/ ١٧]. وقال تعالى ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [البقرة/ ٢١٣].

فالاختلاف ـ إذا كان بسبب التفاوت في القدرات والأذواق ونحو ذلك ـ هو طبيعةٌ بشريةٌ؛ لا يلحق الإنسانَ بسببه ذمٌّ ولا عيبٌ. والمذموم ـ في هذا النحو من الاختلاف ـ إنما هو سوء التعامل معه؛ بما يؤدي إلى التنازع والتخاصم.

وأما الاختلاف في الدين؛ بمعنى أن تتعدد وجهات الناس وغاياتهم الأساسية، فهو اختلافٌ مذمومٌ؛ لأنه يؤدي بالناس إلى الصراع، والتخاصم، والتنازع؛ وما يترتب على ذلك من مُهلِكات.

وتأسيساً على هذا، فإن الإنسانَ السويَّ ينشُدُ حسنَ التعامل مع ظاهرة

الاختلاف الطبيعية؛ على قاعدة الارتباط بِمَن يكون قريناً للحق بنحو اللزوم؛ وهو المعصوم الذي لا يخطئ.

ومصداق هذا العنوان يتمثل في هذه شريحة المعصومين؛ الذين هم المصطَفَون من الله تعالى في حد النبوة، في ما اتفق عليه أتباع الديانات السماوية، أو ـ مضافاً إلى ذلك ـ الإمامة كما هو مقرر عند الإمامية، حيث يتولى المعصومُ تبيانَ الحق من الباطل والخير من الشر...

وبذلك تتوفر أسباب الألفة والوحدة التي تُعد نعمةً من الله ومنةً من مِننه؛ فله تعالى الحمد والمنّة. قال الله تعالى ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال/ ٦٣]، وقال تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

المهمة الثالثة: إقامة القسط

تُعتبر مسألةُ العدالة؛ التي هي (إعطاء كلٍّ ذي حقٍّ حقَّه)، من المسائل التي أقضَّت مضجعَ الإنسان منذ فجر التاريخ؛ حيث كان يبحث ـ دائماً ـ عن تحقيق مصالحه، والحؤول دون التعدي عليها، غير أن الذي حصل ـ عبر التاريخ ـ هو أن الصراعَ احتدم؛ بين طلاب العدالة من جهة، والأنانيين الذين لا يهمهم سوى مصالحهم، والظالمين الذين استبد بهم الجشعُ للجاه والمنصب والمال، من جهةٍ ثانيةٍ.

الأمر الذي دفع بهؤلاء الظالمين وأولئك الأنانيين إلى الحط من أقدار الآخرين ونهب أموالهم ونحو ذلك وصولاً إلى قتلهم. فحصل الصراع المستميت نحو إقامة القسط، بين مَن ينشده من ذوي الفِطَر السليمة، وبين مَن يقاومه من ذوي النفوس المريضة، ولا يزال الصراع وسيظل إلى أجل مسمى.

فكان لابد من النبوة؛ التي تقوم في هذا الصدد بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: إصلاح النفس الإنسانية

وذلك بالعمل على مسارين:

المسار الأول: الحثّ على التفكير السليم؛ بترشيد العقول.

المسار الثاني: الحضّ على تقويم الإرادة وتقويتها؛ بتهذيب النفوس.

قال الرازي: النفس الإنسانية لها قوتان:

* **القوة النظرية**، وكمالها في معرفة الأشياء، ورئيس المعارف وسلطانها معرفة الله.

* **القوة العملية**، وكمالها في فعل الخيرات والطاعات، ورئيس الأعمال الصالحة وسلطانها خدمة الله)(١).

الأمر الثاني: تأليف الناس بعضهم لبعض

وذلك عبر العمل على بناء المجتمع الراشد؛ وفقاً لأسسٍ سليمةٍ وأهدافٍ قويمةٍ.

ولا يخفى أن هذين الأمرين ـ إذا أردنا تحقيقهما على الوجه الكامل؛ وهو ما يريده الله اللطيف بعباده ـ يتطلبان بناء (الإنسان الكامل). ولن يتحقق ذلك إلا بطي الصراط المستقيم؛ من خلال توجيه مَن يسلكه ويثبت عليه بهدايةٍ من الخبير العليم.

وفي ذلك يقول سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد/ ٢٥].

وقد ورد الحثّ ـ في القرآن الكريم ـ على العدل والقسط؛ بشكلٍ مؤكَّدٍ، وبصيغٍ متنوعةٍ، منها قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ

(١) الرازي، فخر الدين (ت٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب، ج١٧، ص٢١٣، ذيل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس/ ٩].

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء/ ١٣٥].

المهمة الرابعة: التربية والتعليم

للأنبياء عليهم السلام مهمةٌ تأتي في سياق الغرض الأصلي من خِلقة الإنسان؛ التي هي خلافة الله تعالى[1]. وهذه المهمة تتمثل في (التربية والتعليم)؛ واللذين يشكلان ـ معاً ـ الأداةَ التي لا غنى عنها لكلِّ مَن أراد لنفسه وللآخرين الخيرَ؛ على المدَيَيْن القريب والبعيد.

ولسنا نعني بـ(التربية والتعليم) القراءة والكتابة وسلسلة العلوم؛ التي جرت أعراف قطاعات واسعة من الناس على تعلمها والتأدب عليها؛ حتى يُصنَّفوا ضمن المتعلمين، وإنما نعني بـ(التربية والتعليم): خصوص المعارف والقيم والسلوكيات التي تحتاجُ إلى الأنبياء عليهم السلام؛ باعتبارهم حملةً لرسالةٍ ربانيةٍ أُوحِيت إليهم؛ لكي يقوموا بترويجها ونشرها والدعوة إليها بالقول والفعل.

وذلك من أجل الوصول إلى معارفَ نظريةٍ وعمليةٍ لا يحيط بها غير مَن اصطفاه الله تعالى واجتباه، كما قال الله سبحانه في حق نبيه وكليمه موسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه/ ٣٩]، وقال تعالى ـ في شأن حبيبه وسيد رسله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء/ ١١٣].

وهذا النحو من الجهد التربوي لا يقدر عليه سوى الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/ ٢].

المهمة الخامسة: تحرير العقول والنفوس

إلى جانب ما تقدم من مهمات أنيطت بالأنبياء عليهم السلام فإن هناك مهمةً لا تقل شأناً عن سابقاتها؛ وهي إلى جانب ذلك ترتبط ارتباطاً وثيقاً بما يسعى الإنسانُ

---

(١) حيث يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠].

نحوه؛ من حيث يعلم ولا يعلم، لكنه قد يقع في خلافه من حيث يقصد ولا يقصد.

وهذه المهمة تتمثل في: الانعتاق من الأساطير والخرافات والأوهام في كل الاتجاهات.

ونعني بالأساطير وأخواتها: كل كلام لا أصل له، ولا نظام، من عقل أو نقل؛ سواء تعلق بالخالق أو الخلق، وسواء تعلق بالماضي أو الحاضر أو المستقبل(١). أو قل إنها: منتجات القوة الواهمة والمتخيلة؛ مع إذعان النفس لها، من دون أن تمتَّ للحقيقة بصلة، فلا مطابق لها لا في العقل ولا في الحس)(٢).

---

(١) قال الدكتور إبراهيم بيومي مدكور:
يعز علينا ـ حقيقةً ـ أن نعرِّف الخرافة تعريفاً شاملاً، وأن نضع لها حداً ثابتاً.
فلا يمكننا أن نقول: إنها كل ما خالف العلم الصحيح. فإن هذا العلم نفسه لما يُحدَّد تماماً؛ على أنه قد يقصد أموراً يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة. فكثيرٌ من المثقفين يؤمن ـ اليوم ـ بتحضير الأرواح، ويجتهد في أن يفسره تفسيراً علمياً.
ولا نستطيع أن نقول: إن الخرافة كل ما ناقض الدين. فإن هناك أشياءَ اكتست بكساءٍ دينيٍّ كاملٍ في حين أنها خرافة صريحة.
وفي شيء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة: كل فكرة، أو عقيدة فردية، أو جمعية، تفسر ظواهر العالم؛ على نحو لا يلتئم مع العقل، ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة) مجلة الرسالة العدد ١٠٠/ ٢١ [حسب ترقيم المكتبة الشاملة].
أقول: في تعريفه للخرافة قصور لا يخفى. وأشير ـ بعجالة ـ إلى ملاحظتين:
أولاً: ما هو مقصوده بـ(العقل) الذي يكون مخالفه خرافة؟ فهل هو ما اتفق عليه جميع العقلاء، أو غالبيتهم، أو النخبة منهم؟
ثانياً: ما أشار إليه بقوله (درجتنا العلمية الحاضرة) يجعل من الخرافة حكماً مرناً، فما هو خرافة عند فريق قد لا يكون كذلك عند فريق آخر.
ويهون الأمر أنه قال أن تعريفه هو في إطار الـ(تقريب).

(٢) سند، الشيخ محمد (معاصر)، الشعائر الدينية، ص٥١.
وانظر ـ أيضاً ـ: الفصل ١٢٥ ـ الكتاب والعلماء، من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٥، ص٣١٣ وما بعدها. والفصل ٦١ ـ أديان العرب، من الكتاب نفسه، ج١١، ص٥ وما بعدها.

ولما كانت هذه الأمورُ مستهجنةً عند العقلاء من الناس، ولا يرضى واحدٌ منهم بأن يقال إنه ينطلق منها، بل قد يشوِّه خصمَه بنسبتها إليه؛ فيصف الحقَّ بالأساطير؛ ليدرك لاحقاً أن ﴿هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة/ ٩٥].

ومن هذا الصنف من الناس خصمٌ للإمام علي عليه السلام؛ وهو معاوية، فرد عليه الإمام عليه السلام برسالة؛ جاء فيها:

أما بعدُ! فطال ما دعوتَ ـ أنت وأولياؤك؛ أولياء الشيطان ـ الحقَّ أساطيرَ، ونبذتموه وراء ظهوركم، وحاولتم إطفاءه بأفواهكم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وهذه ـ الأساطير، والأوهام، والخرافات ـ التي تُرى في الأفراد والجماعات تنشأ عادةً؛ أو غالباً، من عاملين:

أ ـ المعارف الباطلة أو المنحرفة. ولا يخفى أنها ـ في جوهرها ـ جهالاتٌ لكنها توسَم ـ خطأً ـ بأنها (معارف)، وذلك بسبب الجهل، أو الجهالة، عند أصحابها، أو غيرهم، أو عند هؤلاء وأولئك معاً.

ب ـ المناهج التعليمية والتربوية المنحرفة؛ التي تشيع بين الناس؛ وهي ليست سوى أباطيل وأضاليل؛ يُزعم أنها (معارف).

ولا يخفى أن العاملَ الأولَ هو ثمرةٌ طبيعيةٌ للعامل الثاني؛ فالمناهج تنتج لنا عقلاً. لذلك (تختلف نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق باختلاف تطوره ونمو عقله)[2].

والوقوع في الخرافات وأخواتها ليس مختصاً بفرد دون فرد، ولا بقوم دون قوم؛ فـ(لم يزل الإنسان ـ منذ أقدم أعصار حياته ـ مبتلى بآراء خرافية حتى اليوم.

---

(١) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، باب كتبه عليه السلام إلى معاوية، برقم ٤٠١، ج٣٣، ص٨٦.

(٢) علي، د جواد (المتوفى ١٤٠٨ هـ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الفصل ٦١ ـ أديان العرب، ج١١، ص٢١.

وليس ـ كما يُظن ـ من أنها من خصائص الشرقيين؛ فهي موجودة بين الغربيين مثلهم؛ لو لم يكونوا أحرص عليها منهم)[١].

لذلك، كان لابد من (هادِين مهتَدين)؛ لا يُخشى عليهم الوقوعُ في وهم، ولا خرافةٍ، ولا أسطورةٍ؛ من أجل أن يكون تصديهم للإصلاح والتربية والنهضة مبنياً على أساسٍ علميٍّ صحيحٍ.

وهذا ما وجب على الحق تعالى أن يفعله بعد أن كتب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام/ ٥٤] وهو ما استهجنه على مَن أنكر ذلك عليه؛ مبيّناً أن هذا الإنكارَ إنما هو جهلٌ به تعالى؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام/ ٩١].

وقد تكفَّل الله سبحانه بذلك؛ من خلال مَن اصطفاهم من خلقه، وتولى العناية بهم؛ كيما يتولوا هذه المهمة المقدسة.

* فقال الله سبحانه في الموازنة بين هدايته وبين غيره ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس/ ٣٥].
* وقال في حق رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].
* وقال عمَّن حاد عن هداه سبحانه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾ [يونس/ ٣٦].

المهمة السادسة: التوحيد

ذكرنا ـ سابقاً ـ أنّ ثمة مهمةً رئيسةً لـ(النبوة)؛ تتمثل في إخراج الإنسان من الظلمات ـ بمختلف مظاهره ـ إلى النور؛ الذي هو الله سبحانه، وما يؤدي إليه.

وأحسب أننا لا نجانب الصوابَ إذا قلنا إن هذه المهمة هي أقدسُ دورٍ يؤديه الأنبياءُ عليهم السلام، ولم يُستثنَ من ذلك نبيٌّ أو رسولٌ. وفي ذلك قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل/ ٣٦].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٢٢.

وعبادةُ الله تعني: تحكيم الله في حياة العبد، فلا أمر لغيره ولا نهي ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠].



الفصل السادس

خصائصُ وسماتٌ محمديةٌ

ينتقل النبي ﷺ؛ في وصيته هذه لتلميذه وصاحبه أبي ذر (رضوان الله عليه)، بعد تبيين أن الأولوية لمعرفة الله تعالى، إلى تبيان ما يتفرع عنها؛ من: معرفة النبي ﷺ، والتصديق بنبوته، وأنه مرسَلٌ من عند الله عزّ وجلّ بقوله ﷺ:

(**ثم الإيمان بي، والإقرار بأن الله تعالى أرسلني إلى كافة الناس؛ بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً**) [الفقرة/ ٦].

ولنستعرض هذه الخصائص والسمات في مسائل:

المسألة الأولى: عالمية نبوة محمد ﷺ

أخذ النبي ﷺ ـ في هذه الفقرة ـ في التعريف ببعض خصوصياته؛ التي امتاز بها ممَّن سواه من الأنبياء والرسل عليهم السلام فيها، أو بزَّهم فيها. وهي الخصائص التي يجب على أتباعه ومخاطبيه التسليم بها.

فـ(النبي)؛ أيّ نبي، هو: المكلَّف من الله تعالى بتبيان أوامره ونواهيه، والمتولِّي تربيةَ الناس وتعليمَهم؛ على أساس الحق الضامن لمصالحهم العاجلة والآجلة.

والأنبياء عليهم السلام يتفاوتون؛ من حيث المساحة التربوية التي يتحركون فيها، إلى صنفين:

* **الصنف الأول**: الأنبياء المكلَّفون بالقيام بهذا الدور لجميع الناس، كما ثبت ذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وآله.

* **الصنف الثاني**: الأنبياء المكلَّفون بهذا الدور في دائرة أضيق.

وهذا ما لوّح إليه النصُّ القرآنيُّ، كما نبَّه إليه العالِمون بالقرآن آلُ محمد عليهم السلام. وإليك قارئي العزيز النص التالي:

عن هشام بن سالم، ودرست بن أبي منصور، عنه قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: الأنبياء المرسلون على أربع طبقات:

١ ـ فنبيٌّ مُنبّأً في نفسه، لا يعدو غيرها.

٢ ـ ونبيٌّ يَرى في النوم، ويسمع الصوت، ولا يعاينه في اليقظة، ولم يُبعث إلى أحدٍ، وعليه إمامٌ مثل ما كان إبراهيم على لوط عليهما السلام.

٣ ـ ونبيٌّ يَرى في منامه، ويسمع الصوت، ويعاين المَلَك، وقد أُرسل إلى طائفة؛ قلُّوا أو كثروا؛ كيونس، قال الله ليونس ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات/ ١٤٧]، **قال: يزيدون ثلاثين ألفاً، وعليه إمام.**

٤ ـ والذي يَرى في نومه، ويَسمع الصوت، ويُعاين في اليقظة؛ وهو إمامٌ، مثل أُولي العزم. وقد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمام؛ حتى قال الله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، **فقال الله** ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، **مَن عبد صنماً، أو وثناً، لا يكون إماماً**)[1].

والذي يلوح من قول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ/ ٢٨]، ومن تعبير النبي الأعظم صلى الله عليه وآله؛ في المقطع

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٧٥، كتاب الحجة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، الحديث الأول.

المذكور من الوصية، أن عمومية رسالته للناس أجمعين هي من خصائصه، وأنه مما يمتاز به من كافة الأنبياء عليهم السلام، كما أنه لم يثبت ـ بنحو الجزم والقطع ـ تلك العمومية في النبوة لغيره ﷺ. وإن كان المعروف عند الشيعة ـ على ما قيل ـ (أن أولى العزم من الأنبياء؛ وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد (صلى الله عليه وآله وعليهم)، كانوا مبعوثين إلى الناس كافةً)[١].

لكن يشهد لعمومية رسالته ﷺ؛ دون سائر الأنبياء عليهم السلام، ما روي عنه ﷺ من قوله: **أعطيت خمساً لم يعطهنَّ نبيٌّ كان قبلي:**

*** أُرسِلت إلى الأبيض والأسود والأحمر**

*** وجُعلت لي الأرض مسجداً**

*** ونُصِرتُ بالرعب.**

*** وأُحِلَّت لي الغنائمُ؛ ولم تُحلَّ لأحدٍ ـ أو قال: لنبيٍّ[٢] ـ قبلي.**

*** وأُعطِيتُ جوامعَ الكلم)[٣].**

المسألة الثانية: ختم النبوة

من خصائص النبي محمد ﷺ الرئيسة، والتي تُعد بنداً عقائدياً أصلياً اتفق عليه المسلمون كافةً، أنه خاتم النبيين والمرسلين؛ فلا نبيَّ ولا رسول بعده، قال تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) أقول: الترديد من الراوي.

(٣) أمالي الطوسي، وعنه: بحار الأنوار، كتاب تاريخ نبينا ﷺ، الباب ١١ ـ خصائصه وفضائله، الحديث ١٦.

وفي صحيح؛ كتاب التيمم، وصحيح مسلم؛ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، عنه ﷺ؛ واللفظ للثاني: **أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعث إلى قومِه خاصة وبعثتُ إلى كلِّ أحمر وأسود، وأحِلَّت لي الغنائم؛ ولم تحل لأحد قبلي، وجُعِلت لي الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً؛ فأيما رجلٍ أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونُصِرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة).**

عَلِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٤٠]. وقال ﷺ لعليّ عليه السلام في الحديث المتواتر: **أنت مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبيَّ بعدي)**[(١)]؛ فلا نبيَّ ولا رسولَ بعده إذاً.

---

(١) وقد تواترت روايته عند السنة والشيعة.
وخرَّجه محقق صحيح ابن حبان هكذا:
إسناده صحيح على شرط الشيخين. أبو الوليد الطيالسي: هو هشام بن عبد الملك، ويوسف بن الماجشون: هو يوسف بن يعقوب بن أبي سلمة الماجشون.
وأخرجه مسلم «٢٤٠٤» «٣٠» في فضائل الصحابة: باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو يعلى «٧٣٩»، وابن أبي عاصم في «السنة» «١٣٣٥»، والقطيعي في زوائده على «فضائل الصحابة» لأحمد «١٠٧٩» من طرق عن يوسف ابن الماجشون بهذا الإسناد.
وأخرجه أحمد ١/ ١٨٥، ومسلم «٢٤٠٤» «٣٢»، والترمذي «٣٧٢٤» في المناقب: باب رقم «٢١»، والنسائي في «الخصائص» «١١» و«٥٤»، وابن أبي عاصم «١٣٣٦» و«١٣٣٧»، والحاكم ٣/ ١٠٨ ـ ١٠٩ من طريق بكير بن سمار، والطبراني «٣٢٨» من طريق الزهري، كلاهما عن عامر بن سعد، به. وحديث بكير بن مسمار عندهم مطول، غير أحمد وابن أبي عاصم.
وأخرجه عبد الرزاق «٩٧٥٤»، وعنه أحمد في «المسند» ١/ ١٧٧، وفي «الفضائل» «٩٥٦» عن معمر، عن قتادة وعلي بن زيد عن سعيد بن المسيب، عن ابن لسعد بن أبي الوقاص ـ ولم يسمه ـ عن أبيه، بنحوه.
وأخرجه عبد الرزاق «٩٧٤٥»، وأحمد في «المسند» ١/ ١٧٣ و١٠٤١ وفي «فضائل الصحابة» «٩٥٧»، والقطيعي في زياداته عليه «١٠٤٥» و«١٠٤١»، والحميدي «٧١»، والنسائي في «الخصائص» «٤٤» و«٤٥» و«٤٦» و«٤٧» «٤٨»، وفي «الفضائل» «٣٥» و«٣٦» و«٣٧»، وأبو يعلى «٦٩٨» و«٧٠٩» و«٧٣٨»، وابن أبي عاصم «١٣٤٢» و«١٣٤٣» من طرق عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبي الوقاص، وليس فيه «عامر بن سعد» وبعضهم يزيد في الحديث على بعض.
وأخرجه من طرق عن سعد بن أبي الوقاص: أحمد في «المسند» ١/ ١٧٥، ١٨٤، وفي «الفضائل» «١٠٠٥» و«١٠٠٦». والبخاري «٣٧٠٦» في فضائل الصحابة: باب مناقب علي بن أبي طالب، ومسلم «٢٤٠٤»، والنسائي في «الخصائص» «٥٢»و«٥٣» و«٥٥» و«٥٧» و«٥٨» و«٥٩» و«٦٠» و«٦١»، وابن ماجة «١١٥» و«١٢١» في المقدمة: باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو يعلى «٧١٨».
وقد تقدم الحديث برقم «٦٦٤٣» من طريق المنهال بن عمرو، عن عامر بن سعد) انتهى.
ومن طريف ما يُروَى؛ في دلالة الحديث، ما أورده ابن كثير في تاريخه، بما نصه:
وقال كثير النواء: عن عبدالله بن بديل قال: دخل سعد على معاوية فقال له: ما لك لم تقاتل معنا؟! فقال: إني مرت بي ريح مظلمة فقلت: أخ أخ.
فأنخت راحلتي حتى انجلت عني ثم عرفت الطريق فسرت، فقال معاوية: ليس في كتاب الله: أخ أخ.=

وليس ذلك إلا لكمال هذا الدين وتمام نعمة الله على الإنسان بهذا الدين؛ كما قال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣]. وإن شئت قلت: الدين لا يزال يستكمل؛ حتى يستوعب قوانينُهُ جهاتِ الاحتياج في الحياة، فإذا استوعبها خُتِم ختماً؛ فلا دينَ بعده)[1].

وهاتان الخصوصيتان؛ أعني: عمومية الرسالة، وخاتمية النبوة، لم تنبعا من فراغ، وإنما اختُصَّ بهما الرسولُ ﷺ؛ بسبب اصطفاء الله إياه في جوانب عدة، فضُلَ بها على مَن عداه. ويترتب على الخصوصيتين العديدُ من الخصائص، ويلزمهما بعضٌ آخر، تنتهي جميعها إلى ما اتفق عليه المسلمون من أن نبينا محمداً ﷺ خير الخلق وسيدهم أجمعين، وأن الله خصه بمزايا لا توجد في غيره. ويعنينا ـ هنا ـ ما يرتبط بخاتمية الرسالة وعموميتها.

ويعزز هذا الأمرَ كثيرٌ من النصوص الواردة عنه ﷺ:

منها: قوله ﷺ في حديث: **حلالي حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامي حرامٌ إلى يوم القيامة)**[2]. ونحوه قول الإمام الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ: **حلالُ محمدٍ**

= ولكن قال الله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ﴾ [الحجرات/ ٩] فواللهِ ما كنت مع الباغية على العادلة، ولا مع العادلة على الباغية.

فقال سعدٌ: ما كنتُ لأقاتل رجلاً قال له رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): **أنت مني بمنزلة هارون من موسى؛ غير أنه لا نبيَّ بعدي).**

فقال معاوية: من سمع هذا معك؟ فقال: فلان وفلان وأم سلمة.

فقال معاوية: أما إني لو سمعتُهُ منه صلى الله عليه [وآله] وسلم لما قاتلتُ علياً!!

ثم قال ابن كثير: وفي رواية ـ من وجهٍ آخر ـ أن هذا الكلام كان بينهما وهما بالمدينة في حجةٍ حجَّها معاوية، وأنهما قاما إلى أم سلمة فسألاها فحدثتهما بما حدث به سعد، فقال معاوية: لو سمعتُ هذا قبل هذا اليوم لكنتُ خادماً لعلي حتى يموت أو أموت!!) انتهى.

لكن ابن كثير عقَّب على الخبر بقوله: وفي إسناد هذا ضعفٌ، والله أعلم) انتهى [البداية والنهاية، ط هجر، أحداث سنة ٥٥، ج١١، ص٣٠٠].

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص١٣٠.

(٢) كنز الفوائد للكراجكي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢٧، ص١٦٩، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي..، الباب ١٢ ـ وجوب التوقف والاحتياط...، الحديث ٥٢.

حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة، وحرامُهُ حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيرُهُ، ولا يجيء غيرُهُ...)[١].

ومنها: قول النبي ﷺ - في خطبة الوداع -: **أيها الناس! إنه لا نبيَّ بعدي، ولا أمةَ بعدكم)**[٢].

المسألة الثالثة: التبشير والإنذار

البشارة تعني: الخبر السار، وهو يساوي الترغيبَ. وأما الإنذار فيعني: التخويف مما ينبغي الحذرُ منه، وهو يساوي الترهيبَ.

وقد حُشِدت الأدبيات الدينية بوصف الأنبياء عليهم السلام بوصفين اثنين؛ هما أنهم (مبشِّرون، ومنذِرون)، كما نلحظه في قوله تعالى ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا﴾ [البقرة/ ٢١٣]، وقوله تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام/ ٤٨].

ولو تساءلنا عن السر في وصفهم - بهذين الوصفين - لَما ترددنا في الجواب أن ما يحرك الإنسانَ بشكلٍ رئيسٍ، إن لم نقل وحيدٍ، هو عاملان اثنان:

* الأول: رغبته في جلب المنفعة والخير لنفسه[٣].

* الثاني: رغبته في دفع المكروه والضرر عن نفسه[٤].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٥٨، كتاب العلم، باب البدع والرأي والمقائيس، الحديث ١٩.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٢٣، أبواب مقدمة العبادات، باب وجوب العبادات الخمس...، الحديث ٢٥.

(٣) قال الرازي: الإنسان ما لم يعتقد في أمر من الأمور كونه مشتملاً على خير راجح ونفع زائد فإنه لا يرغب فيه؛ ولذلك سمي الفاعل المختار مختاراً لكونه طالباً للخير والنفع) [التفسير الكبير، تفسير سورة الأنعام، الآية ١٢، ج١٣، ص١٢١].

(٤) قال الشيخ الطوسي:... دفع الضرر واجب عن النفس بحكم العقل) [المبسوط، ج٧، ص٢٧٩].
وقال الشيخ محمد حسن بن الشهيد الثاني:... ووجوب دفع الضرر مما لا ريب فيه) [استقصاء الاعتبار في شرح تهذيب الأخبار، ج١، ص٢٤٠].
=

ولما كان مَن زرع في هذين العاملين في الإنسان هو نفسَهُ مَن أرسل الرسلَ والأنبياءَ عليهم السلام؛ أي الله تعالى، وهو العالِمُ الخبيرُ بطبيعة هذا المخلوق واللطيفُ به، فإن المنطقَ يفرض أن ينطلق أولئك الرسلُ والأنبياءُ من طبيعة هذا الإنسان وما هو مجبولٌ عليه.

وما دام هذا الإنسان يحركه العاملان السابقان؛ أعني: حب المنفعة والخير من ناحية، ودفع الضرر من ناحية أخرى، فقد تحرك الأنبياءُ عليهم السلام بدورهم، وبتكليفٍ من الله تعالى، باستثمار هذين العاملين، عبر (التبشير)؛ وهو: ترغيب الإنسان في الخير وحضّه نحوه تارةً، وعبر (الإنذار)؛ الذي هو: تخويفه من مخاطر العاجل والآجل تارةً أخرى.

وسنمرُّ ـ بإذن الله تعالى ـ بنماذجَ عديدةٍ في ثنايا هذه الوصية للتبشير والإنذار معاً. لذلك، لن نخوض ـ الآن ـ في ذلك؛ حرصاً على الاختصار ما أمكن.

المسألة الرابعة: الدعوة إلى الله تعالى

من المهامِّ التي أشار النصّ النبويّ إلى أنها أُوكِلَت إلى عموم الأنبياء عليهم السلام، وإلى خاتمهم صلى الله عليه وآله خصوصاً؛ هي **الدعوة إلى الله تعالى.**

وهذا ما نجده في مواضع كثيرة في القرآن الكريم؛ من قبيل قول الله تعالى؛ في سياق تكليف الرسول صلى الله عليه وآله بالدعوة، وتأديبه بما ينبغي اعتماده فيها من أدوات وأساليب. ومن ذلك:

* قوله تعالى ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل/ ١٢٥]. ففيها تكليف له صلى الله عليه وآله بالدعوة إلى سبيل الله، مع بيان وسائل

= وهذه العبارة وأمثالها؛ وهو كثيرٌ جداً، تفيد دفع أصل الضرر وأنه مطلوب عقلاً، وبطبيعة الحال هو مطلوب شرعاً، غير أن هناك تفصيلاتٍ في وجوب دفعه في موارد، واستحبابه في موارد أخر.

وإجمال الواجب منه ما (لا يسهل تحمله عادةً) [الوافي، ج٦، ص٥٥٤]. وبعبارة أخرى هو (واجب إن عظم، وجائز إن خفَّ) [مفتاح الكرامة، ج١٩، ص٧٠].

ويُطلَب تفصيل ذلك في كتب الفقه.

ثلاث يحتاج الداعي إليها؛ تبعاً لظروف المدعوين ومستوياتهم ورغباتهم، ونحو ذلك مما له دخل في نجاح الدعوة والداعي.

* قوله تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف/ ٨]. وفيها تكليف للرسول ﷺ أن يبين تكليف الله تعالى له سبيله ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى على قاعدة البصيرة، وأن هذه هي سبيل مَن اتبعه أيضاً.

* ومن قبيل قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد/ ٣٦]، الذي يفيد أن المدعُوَّ إليه يجب أن لا يكون غيرَ الله سبحانه، وهو ما ينسجم ـ منطقياً ـ مع حقيقة أن الله تعالى هو ـ وحده ـ الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج/ ٦٢].

لذلك، سيكون قول الله سبحانه ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص/ ٨٨] منسجماً تمام الانسجام؛ في خلاصته ومآله، مع ما يقتضيه الواقع الموضوعي وعالم الحقيقة.

فالدعوة إلى الله تعالى هي دعوةٌ إلى النور والخروجِ من الظلمات، وهي ـ أيضاً ـ دعوةٌ إلى الحياة بعيداً عن الموت. وما أشرفها من مهمةٍ، وما أعظم القائمين بها، والمتحمِّلين لأعبائها؛ من رجالٍ يجب على التاريخ أن يخلِّدهم، وعلى الناس أن يقتدوا بهم!

داعي الله

بمناسبة الحديث عن الدعوة إلى الله تعالى يجدر بنا التعرضُ لعنوانٍ آخرَ؛ يصب في الباب نفسه؛ وهو عنوان (داعي الله)؛ الذي جاء في القرآن الكريم وصفاً لرسول الله ﷺ على لسان الجن. وذلك في قوله تعالى ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف/ ٣١، ٣٢].

وأمّا في السنَّة المطهّرة فقد كثُر استعماله في حقّ الأنبياء عليهم السلام وغيرهم؛ بما يرتبط بشؤون الخالق والخلق ولْنقِفْ عند شيء من ذلك:

١ ـ الأنبياء عليهم السلام

أطلق على الأنبياء أو بعضهم على الأقل عنوان (داعي الله).

ويشهد لذلك ما رُوي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام؛ من إطلاقه على نبي الله إبراهيم عليه السلام، قال:

لما أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء البيت، وتم بناؤه، قعد إبراهيم على ركن ثم نادى: هلمّ الحجّ، هلمّ الحجّ. فلو نادى هلموا إلى الحج لم يحج إلا مَن كان يومئذ إنسيّاً مخلوقاً، ولكنه نادى هلم الحج فلبّى الناسُ في أصلاب الرجال: (لبيك داعيَ الله)، لبيك (داعيَ الله) عزّ وجلّ. فمن لبى عشراً يحج عشراً، ومن لبى خمساً يحج خمساً، ومن لبى أكثر من ذلك فبعدد ذلك، ومن لبى واحداً حج واحداً، ومن لم يلب لم يحج)[١].

٢ ـ الأئمة من آل البيت عليهم السلام

أُطلق عنوان (داعي الله) على الأئمة عليهم السلام، أو بعضهم على الأقل.

أما إطلاقه على عموم الأئمة عليهم السلام فيشهد على ذلك ما ورد في الزيارة الجامعة للأئمة وفيها **(السلام على الدعاة إلى الله)**[٢].

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، ص١٠، كتاب الحج، الباب ١ ـ وجوبه على كل مكلف مستطيع، الحديث ٩.

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، كتاب الحج، الزيارة الجامعة؛ وانظر مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.
وقال الكربلائي في تبيين (معنى كونهم دعاة إليه):
أنهم عليهم السلام يدعون جميع الموجودات كلَّ فرد إليه تعالى بلسانه المختص به، فإن لكلِّ موجودٍ نطقاً يختص به؛ كما يعلم من قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [١٧: ٤٤] الآية. فالتوحيد الساري في الموجودات إنما هو منهم، وهم دعوهم إليه؛ سواء كان نبياً أو ملكاً أو فلكاً أو غير ذلك.
وإليه يشير ما في الأخبار؛ من أن ولايتهم عُرضت على جميع الموجودات...) [الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، قوله عليه السلام (السلام على الدعاة إلى الله)، ج٢، ص٤٠٣].

فقد أُطلِقَ على الإمام الحسين عليه السلام، كما الزيارة المروية عن الإمام الصادق عليه السلام: ... **لبيك داعي الله إن كان لم يجبك بدني فقد أجابك قلبي وشعري وبشري ورأيي وهواي؛ على التسليم لخلف النبي المرسل والسبط المنتجب...)**[١].

وأُطلِقَ ـ أيضاً ـ على الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه)، ويشهد على ذلك ما ورد في الزيارة المعروفة بزيارة (آل يس)؛ وجاء فيها: **السلام عليك يا داعي الله ورباني آياته)**[٢].

٣ ـ الملائكة عليهم السلام

وأُطلِقَ هذا العنوان على الملائكة. ويشهد على ذلك ما جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، في خبر الأربعمائة المعروف، وفيه: ... **من كانت له إلى ربه عزّ وجلّ حاجة فليطلبها في ثلاث ساعات:**

* **ساعة في يوم الجمعة.**
* **وساعة تزول الشمس حين تهب الرياح وتفتح أبواب السماء وتنزل الرحمة ويصوّت الطير.**
* **وساعة في آخر الليل عند طلوع الفجر؛ فإن ملكين يناديان: هل من تائب يُتاب عليه؟ هل من سائل يُعطى؟ هل من مستغفر فيُغفر له؟ هل من طالب حاجة فتُقضى له؟**

فأجيبوا (داعي الله)، واطلبوا الرزق في ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده...)[٣].

---

(١) كامل الزيارة، وعنه: بحار الأنوار، ج٩٨، ص١٦٩، الباب ١٨ ـ زياراته صلوات الله عليه المطلقة، برقم (٢٠).

(٢) الاحتجاج، ص٣١٥. ورواه المشهدي مسنداً في كتابه المزار، الباب (٩) زيارة مولانا الخلف الصالح صاحب الزمان عليه السلام، ص٥٦٩.

(٣) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج ١٠، أبواب احتجاجات أمير=

٤ ـ المؤذّنون

وأُطلِقَ على المؤذّنين. ويشهد على ذلك ما روي ـ مرسلاً ـ عن النبي ﷺ، أنه قال: **مَن لم يحب داعي الله فليس له في الإسلام نصيبٌ. ومن أجاب اشتاقت إليه الجنة)**[(١)].

٥ ـ الموت

ويشهد على ذلك ما روي بالإسناد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال في حديث:.. **المرء المسلم البريء من الخيانة والكذب، ينتظر إحدى الحسنيين إما داعي الله؛ فما عند الله خير له، وإما رزق الله؛ فإذا هو ذو أهلٍ ومالٍ)**[(٢)].

ولعلّ الجامع بين هؤلاء جميعاً؛ في استعمال وصف (داعي الله) في حقهم، هو أنهم مكلَّفون من الله تعالى بأداء مهمات لا يُتصوَّر أن يتخلَّفوا عنها، أو يبدِّلوا فيها، أو قل: ليس لهم ذلك.

هل تحتاج الدعوة إلى إذن؟

يستوقفنا ـ هنا ـ أن النصَّ النبويَّ في الوصية قيَّد الدعوةَ إلى الله أنها **(بإذنه)** تعالى، وهو تقييدٌ مستلهَم من القرآن؛ الذي وصف النبي ﷺ بذلك؛ في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب/ ٤٥ ـ ٤٦].

فما هو السر في ذلك؟

=المؤمنين عليه السلام، الباب ٧ ـ ما علمه صلوات الله عليه من أربعمائة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه.

(١) جامع الأخبار، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة، ج٤، ص٥٧، كتاب الصلاة، أبواب الأذان والإقامة، الباب ٣٤ ـ باب استحباب حكاية الأذان عند سماعه...، الحديث ١.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٥، ص٥٧، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ٦.

قلت: هذا إذا لم نحمل عنوان (داعي الله) على ملك الموت. أما إذا حملناه عليه فستكون العناوين أربعة وليس خمسة، فتدبر.

وهل تحتاج الدعوة إلى الله تعالى إلى إذنه؟

الجواب: إننا نحتمل أن قيدَ (الإذن) في الدعوة يُراد به واحدٌ من الاحتمالات التالية؛ أو جميعها:

الاحتمال الأول: أن النبي ﷺ ما دام يمارس الدعوة إلى الله (بإذنه) فهو مخوَّلٌ ومفوَّضٌ منه تعالى. فلا مجال ـ إذاً ـ لتوهم الاجتهاد الشخصي من النبي ﷺ في ما يدعو إليه؛ بمعنى أنه حاملٌ لأمانة، وأمينٌ عليها(١).

الاحتمال الثاني: أنّ النبيَّ ﷺ ما دام يمارس الدعوة إلى الله تعالى (بإذنه)

---

(١) اختلف العلماء في هذه المسألة، وعالجوها في بحوث علم أصول الفقه، وذهبوا فيها إلى رأيين أساسيين:
فذهب فريق إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله) ليس مجتهداً كما نصف الفقهاء والعلماء في اجتهاداتهم؛ والتي تعني احتمال موافقة اجتهاداتهم للواقع ومخالفتهم له. وهذا ما اختاره الشيعة الإمامية؛ حيث يرون أن النبي (صلى الله عليه وآله) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٣، ٤]، وهو ما نص عليه الله تعالى في القرآن الكريم.
ذهب آخرون إلى اجتهاده (صلى الله عليه وآله)؛ ولو في بعض الأحكام؛ غير أنهم ـ أو بعضهم ـ أصروا، على أن اجتهاده مصيبٌ دائماً.
وللتوسع انظر كلاً من مبحث السنة ومبحث الاجتهاد في كتب أصول الفقه للفريقين.
وكخلاصة لما قيل في ذلك نورد ما قاله العلامة الحلي معرِّفاً الاجتهادَ ومستدلاً على امتناعه على النبي (صلى الله عليه وآله)، قال ما نصه:
الاجتهاد: هو استفراغ الوسع في النظر، فيما هو من المسائل الظنية الشرعية، على وجه لا زيادة فيه.
ولا يصح في حق النبي ﷺ ـ وبه قال الجبائيان ـ.
لقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [٥٣/ ٤].
ولأن الاجتهاد أنما يفيد الظن، وهو ﷺ قادر على تلقيه من الوحي.
وأنه كان يتوقف في كثير من الاحكام حتى يرد الوحي، ولو ساغ له الاجتهاد لصار إليه، لأنه أكثر ثواباً.
ولأنه لو جاز له لجاز لجبريل ﷺ، وذلك يسد باب الجزم، بأن الشرع الذي جاء به محمد ﷺ من الله تعالى.
ولأن الاجتهاد قد يخطي وقد يصيب، فلا يجوز تعبده ﷺ به، لأنه يرفع الثقة بقوله) [مبادئ الوصول إلى علم الأصول، الفصل الثاني عشر ـ في الاجتهاد وتوابعه، البحث الأول: في تعريف الاجتهاد، ص٢٤٠].

فهو (مأمور) من قِبَله، وهذا ما تؤكده النصوص القرآنية كقوله تعالى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر/ ٢].

والاحتمالان ـ معاً ـ يستبطنان التأكيدَ على عصمته ﷺ في جهتين:

الجهة الأولى: مضمون الدعوة

انطلاقاً مما ذكرناه، قامت القاعدة التي تفيد أنه (لا اجتهاد في مقابل النص) المستقاة من قوله تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٢ ـ ٤]، وقوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن/ ١٢]، وقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء/ ٦٥]، وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية/ ١٨]، ونحوها.

ونعني بمضمون الدعوة: مجموع المعارف والتعاليم التي يبلغها النبي ﷺ لأمته ليؤمنوا بمضمونها، أو ليؤدوها إن كانت مطلوبة، أو يمتنعوا عنها إن كانت ممنوعة.

الجهة الثانية: آليات الدعوة

نعني بالآليات: الوسائل؛ الفعلية والقولية، التي يعبِّر النبي ﷺ ـ بوساطتها ـ عن مضمون دعوته.

وهي تنتظم في عددٍ من المصاديق:

* فالمصداق الأبرز، والأول، من آليات الدعوة هو (الأقوال) التي تصدر عن النبي ﷺ، بطريق اللفظ أو الكتابة.

* والمصداق الثاني هو (الأفعال) التي تصدر عنه ﷺ.

* والمصداق الثالث هو (الإمضاء)؛ الذي يعني صمت النبي ﷺ أمام ممارسة تحصل بين يديه، وبمرأى منه ومسمعٍ، ولا يردع عنها؛ بدون مانعٍ يحول بينه وبين الردع.

ولا يخفى أنّ النبي ﷺ في ما يصدر عنه؛ من مضمون الدعوة وآلياتها، لا يمارس اجتهاداً شخصياً، وإنما يفعل ذلك ـ كلَّه ـ بإذنٍ من الله تعالى وأمره.

الاحتمال الثالث: أن يُراد بالإذن (التيسير)؛ باعتبار أن دعوة الناس إلى الله عزّ اسمه ليست بالأمر الهيِّن؛ حتى يتصدى له كلُّ أحدٍ؛ وإنما يتولاها ـ على النحو المطلوب ـ من يحظى بتوفيق الله وتيسيره.

فكلنا يعلم أن الإنسانَ تحكم وجودَه مجموعةُ تعقيداتٍ؛ لها أول وليس لها آخر، يعجز معها عن توجيهِ نفسِهِ، وتغييرِ مسارِهِ ومسيرتِهِ؛ فضلاً عن فعل ذلك في حقِّ غيرِهِ، إلا من قِبَل الله تعالى، أو بإذنٍ منه.

وما دام الرسول ﷺ؛ وسائر الأنبياء عليهم السلام، مارسوا فعلَ الدعوة بإذن الله فهو ـ لا شكَّ ـ ناصرُهم ومؤيدُهم. قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٢١]، وقال تعالى ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل/ ١٠].

ومن ثمّ؛ فلا يسوغ ـ إطلاقاً ـ اعتمادُ وسائلَ غيرِ شرعيةٍ طلباً للنصر، وإن كانت في ظاهرها محقِّقةً للأهداف؛ لأنها ستضر بمضمونه؛ وإن حققت شكلَه[1]. فكيف سيكون الحال ـ إذاً ـ عندما لا يتحقق المضمون والشكل معاً؟!

وفي هذا الاحتمال، وسابقيه، إشارةٌ إلى أن النصرَ محتومٌ للنبي ﷺ، ولأتباعه؛ الذين هم ركب الصلاح الرباني؛ لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٥].

الاحتمال الرابع: أن يُراد التنبيهُ إلى ضرورة أن يربط الإنسانُ أفعالَهُ ـ كلَّها ـ

---

(١) ومن كلام للإمام علي عليه السلام؛ لمّا عوتب على التسوية في العطاء: **أتأمرونّي أن أطلب النصرَ بالجورِ في مَن وُلِّيتُ عليه؟!)** [نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦].

وفي رواية ابن حمدون أنه قال ذلك لما دخل عليه قوم؛ فقالوا: يا أمير المؤمنين! لو أعطيت هذه الأموال وفضَّلت بها هؤلاء الأشراف ومَن تخاف فراقه، حتى إذا استتب لك ما تريد عدت إلى أفضل ما عوّدك الله تعالى من العدل في الرعية والقسم بالسوية!) [التذكرة الحمدونية، ج١، ص١٠٠].

والجور هو: العدول عن سبيل الله؛ بالتفضيل؛ حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول ﷺ. [شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني، ج٣، ص١٣١].

بالله تعالى على مستوى الجزم برضا الله سبحانه فيها؛ حتى لو كانت أفعالاً حسنةً في ذاتها؛ كنايةً عن تمام التسليم لأمر الله عز اسمه.

وهو أدبٌ ربانيٌّ أُشِير إليه في القرآن الكريم في غير آيةٍ. وقد استوعب ذلك حتى بعض الأفعال الربانية مما يصعب حملُه على غير هذا الوجه.

ونجد هذا الاحتمال في طوائف من الظواهر والآيات، منها:

١ ـ إذن الله تعالى في فعله التكويني (عالم الخلق). قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج/ ٦٥].

٢ ـ إذن الله تعالى في فعله الربوبي (عالم الهداية). قال تعالى ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة/ ٢١٣]، وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [البقرة/ ٢٢١]، وقوله تعالى ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة/ ١٦].

٣ ـ إذن الله تعالى في فعل الملائكة لنقل الوحي. قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى/ ٥١].

٤ ـ إذن الله تعالى للأنبياء عليهم السلام في ممارسة الدعوة إليه تعالى. قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٤٥ ـ ٤٦].

٥ ـ إذن الله تعالى في فعل خلقه وما يصدر عنهم في الدنيا. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران/ ١٥٢].

٦ ـ إذن الله تعالى في فعل خلقه في الآخرة. قال تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود/ ١٠٥]، وقال تعالى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة/ ٢٥٥].

المسألة الخامسة: السراج المنير

هنا تبلغ بنا هذه الوصية الشريفة إلى صفةٍ أخرى من صفات الرسول الأعظم ﷺ؛ ذات الارتباط الوثيق بطبيعة دوره الرباني في صياغة الإنسان؛ بما ينسجم والغايةَ التي خُلِق من أجلها.

وهذه الصفة هي: كون النبي ﷺ **(سراجاً منيراً)**.

وهو وصف أطلقه الله عز اسمه على حبيبه ونبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم. وذلك في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب/ ٤٥ ـ ٤٦].

قال الشيخ الطريحي؛ في مجمع البحرين؛ وهو بصدد تفسيره لهذا الوصف: أي يُهتدى بك في الدين كما يُهتدى بالسراج في ظلام الليل، أو يُمدّ بنور نبوتك نورَ البصائر كما يُمدّ بنور السراج نورَ الأبصار)[1].

وقال الشيخ الجصاص: سُمي النبيُّ (صلى الله عليه [وآله] وسلم) سراجاً منيراً تشبيهاً له بالسراج الذي به يستنار الأشياء في الظلمة؛ لأنه بُعث (صلى الله عليه [وآله] وسلم وقد طبقت الأرض ظلمة الشرك، فكان كالسراج الذي يظهر في الظلمة، وكما سمي القرآن نوراً وهدى وروحاً، وسمي جبريل عليه السلام روحاً؛ لأن الروح بها يحيى الحيوان، وذلك ـ كله ـ مجازٌ، واستعارةٌ، وتشبيهٌ)[2].

ولعل وّصف النبي ﷺ بـ(السراج المنير) لا يحتاج ـ في إثباته ـ إلى بذل جهدٍ أو تكلُّفٍ؛ لأن النورَ يُطلق على الشيء بلحاظ دوره في طرد الظلمة أياً كان نوعها. ولا يخفى أن النبيَّ ﷺ كان مكلَّفاً بأن يُخرج من بُعث إليهم من الظلمات إلى النور، كما يفيده قول الله تعالى ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى﴾ [إبراهيم/ ١].

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، مادة (سرج).

(٢) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي (ت٣٧٠ هـ)، أحكام القرآن، ج٥، ص٢٣٢.

وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك؛ حتى وعده الله بأحسن المكافأة؛ فقال سبحانه ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى/ ٤، ٥].

والنبيُّ ﷺ؛ باعتباره المجاهد الأول والأفضل في طرد الظلمات عن الناس، سيكون وصفه بـ(السراج المنير) هو المنطقي والصحيح. وذلك لِما بذله ﷺ من جهودٍ جبارةٍ؛ في سبيل الرقي بالبشرية من وهدات الشرك والتخلف والعصبية... إلى آفاق العلم والسمو في العقل والوجدان والسلوك؛ من خلال العمل على المرتكزات التالية:

١ ـ الأفكار السليمة

٢ ـ المشاعر الراقية

٣ ـ السلوك السويّ

وهذه المرتكزات هي المجالات التي تشكل البيئة المناسبة التي يمكن ويكمن فيها رقيُّ الإنسان وسموُّهُ؛ إن هو عمل على ترشيدها وتنويرها، وتكون سبباً لانحطاطه؛ إن هو أهملها أو غضَّ الطرفَ عنها؛ قاصراً أو مقصِّراً.

والدين الذي بُعث به رسول الله محمد ﷺ إنما جاء ليُقوِّم:

١ ـ **العقل**، الذي به تُصحح الأفكار، وتشكَّل بسببه الرؤية الصحيحة عن الخالق والخلق.

٢ ـ **القلب**، الذي تُوجَّهُ به المشاعرُ والعواطفُ الإنسانيةُ نحو وجهتِها الصحيحةِ والنبيلةِ.

لينتُج من إصلاح هذين:

٣ ـ **صلاحُ السلوك ونبلُهُ**؛ لأن السلوكَ لا يعدو كونه نتاجاً طبيعياً للقناعات العقلية والميول القلبية. والدين إنما (يدعو إلى: حقائق المعارف، وفواضل الأخلاق، ومحاسن الأفعال؛ فصلاح العالم الإنساني مفروضٌ فيه)[1].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص١٣٢.

من معالم الحكمة:

بسبب الترابط المنطقي بين السلوك من جهةٍ، والمعقولات والميول من جهةٍ أخرى، نجد النصوص الواردة عن علماء الإسلام الربانيين؛ خريجي مدرسة النبي محمد ﷺ؛ أعني عترته الطاهرة عليهم السلام الذين ينهلون من منابع هذه المدرسة الأصيلة، نجدها تترى لتسقي البذور الطيبة والصالحة؛ لتنمو فتشكِّل (الإنسان الرشيد)؛ على أساس الصراط المستقيم.

وإليك هذا النص التنويري:

عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عن علي عليهم السلام قال: **المؤمنُ يتقلب في خمسةٍ من النور: مدخلُهُ نورٌ، ومخرجُهُ نورٌ، وعلمُهُ نورٌ، وكلامُهُ نورٌ، ومنظرُهُ يومَ القيامة إلى النورِ)**[١].

وإذا تأملنا في النص لتبين لنا أنه يشير إلى حرص المؤمن؛ الذي عمرت جوانبُهُ بالإيمان، على أن لا يدع فرصةَ خيرٍ إلا أمَّها، ولا جادةَ شرٍّ إلا تجنَّبها، وذلك بسبب حرصِهِ على سلوكياتٍ أساسيةٍ، منها:

أولاً: أن تكون خطواتُهُ محسوبةً ومدروسةً، فـ(**مدخله نور**).

ولهذا، فإنه يدرس ـ دائماً ـ خياراته واختياراته قبل الإقدام عليها؛ سواء في ذلك الأعمال الصغيرة أو الكبيرة، وسواء كانت دينية أو دنيوية...

ثانياً: أن تكون نهاياتُ أعمالِهِ حسنةً.

فليس كلُّ مَن أقدم على عملٍ بنيةٍ حسنةٍ، كان مدخلُهُ نوراً، وكان مخرجُهُ نوراً. فالصلاة ـ مثلاً ـ قد نتمكن من تخليصها من الرياء عند أدائها وأثنائه، ولكن قد ينتهي بنا الحال ـ والعياذ بالله ـ إلى العجب؛ الذي لا يقل خطراً وضرراً على الصلاة من الرياء[٢].

---

(١) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، باب الخمسة، الحديث ٢١، ص٢٧٧.

(٢) وإن كان الرياءُ مفسداً للصلاة فقهياً، والعجبُ مفسداً لها أخلاقياً.
وهنا تفصيلٌ يُطلَب من مطولات الفقه.

فالواجبُ على المؤمن ـ الحريص على إيمانه ـ أن يفكِّر في الخروج والفراغ من العمل بسلامٍ، كما دخل فيه بسلامٍ؛ لتكون دواعي إقدامه خيِّرةً من جهةٍ، ولئلا يفسد ما أحسنَ من عملٍ من جهةٍ أُخرى. وبهذا يحقق عنوان (**مخرجه نور**).

ثالثاً: لكي يتمكن الإنسان من فعل ذلك فهو بحاجة إلى أن يعرف طبائعَ الأمور. وهذا ما يفرض عليه النهَلُ من ينابيعَ صافيةٍ لا تشوبها شائبةٌ، ولا يكدرها شيءٌ. لذلك، فقد صحّ وصف المؤمن بأن (**علمه من نور**).

وهذا العلم هو الذي يجعل أناساً في الأعالي، وآخرين في أسفل سافلين؛ لأن الإنسان إنما يحلِّق في عالم التكامل الإنساني بجناحي (العلم، والإيمان)؛ فيحسن التصرفَ في الملأ والخلأ. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة/ ١١].

رابعاً: إذا حاز المؤمنُ (العلم) فقد مُلئ باطنُهُ بالحكمة ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة/ ٢٦٩]. لذلك، تتجلى هذه الحكمة في منطقه وكلامه؛ الذي يعبر بوساطته عن مواقفه في السراء والضراء. ومن هنا، فإن (**كلامه نور**).

خامساً: إذا وُفق الإنسان إلى أن يجمع إلى إيمانه: حسن الاختيار بمدخل النور، وحسن الانتهاء بمخرج النور، مستلهِماً في ذلك من العلم الذي هو نورٌ، متطبِّعاً بكل ذلك لاستقرار ذلك كلِّه في ذاته متجلياً في منطقه وكلامه، فإن مآلَهُ ـ بطبيعة الحال ـ هو أن يلقى اللهَ راضياً مرضياً، بأن يكون منظره إلى النور. وما أحسنها من عاقبة وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ونجد هذا المضمون؛ على اختلافٍ في التعابير، وتنوعٍ في الإجمال والتفصيل، في الكثير من النصوص. ولا بأس بأن نؤيد ما ذكرناه بروايةٍ نفيسةٍ عن صاحب هذه الوصية؛ حيث روى الشيخ الصدوق رحمه الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **أربعٌ مَن كنَّ فيه كان في نور الله الأعظم**:

١ ـ مَن كان عصمةُ أمره شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله.

٢ ـ ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

٣ ـ ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله (ربّ العالمين).

٤ ـ ومن إذا أصاب خطيئةً قال: استغفر الله وأتوب إليه)[١].

والروايةُ تبين معالم الحكمة النظرية والعملية التي ينبغي للمؤمن أن يتحلّى بها؛ فلا يُقدِم، ولا يُحجِم، إلا من خلالها، وأن عليه التحليَ بأربع خصال:

الخصلة الأولى: توضح منطلقات المؤمن وأسس أعماله، وهي ما تشكل عصمته من كلِّ خطرٍ، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان بأن محمداً رسول الله؛ لأن الإيمان بهما حقٌّ لا مريةَ فيه، ولا مجال للمكابرة معه.

الخصلة الثانية: موقفه من النعم التي لا تصل إلينا إلا من الله، ولا نصل إليها إلا بالله تعالى، فالشكر له وحده، والمنة علينا له دون سواه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣]. فعلى المؤمن أن يبذل الجهد في سبيل تحصيل الرزق ونيل المنافع، ولكن ليس له أن يعتقد ما وقع في خَلَد قارون؛ حيث اختلط عليه الحابل بالنابل؛ فنسب فعلَ الله الغني إلى نفسه الفقيرة؛ فقال ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص/ ٧٨]. وذلك مدعاةٌ لقلة الشكر والغفلة عن ولي النعمة.

الخصلة الثالثة: معالجة المؤمن لِما يمكن أن يبدر منه؛ من أخطاء وخطايا. وتمتاز معالجته هذه بأنه لا يكابر بل يتواضع للحق، فإذا بدر منه خطأٌ؛ في حق الله، أو في حق نفسه، أو في حق غيره، فإنه سرعان ما يعالج ذلك بـ(الندم) على ما اقترفه، وبـ(العزم) على عدم العود إليه. وهذان العنصران هما عماد ما نسميه في ثقافتنا وأدبياتنا بـ(التوبة).

بل إن المؤمنَ كثيرُ الانشغال والاهتمام بـ(النظر) في أعماله؛ من خلال محاسبته نفسَه؛ من أجل اللحاق بالركب النبوي السامي؛ المحلِّق إلى القمة في التكامل، والذي لا يرضى لنفسه سفاسفَ الأمور.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٣، ص٢٤٨، الباب ٧٣ ـ استحباب التحميد، والاسترجاع، وسؤال الخلف عند موت الولد، الحديث ٨.

لذلك، فإن المؤمن؛ السائر في الصراط المستقيم، إذا وقع في ما لا يرضاه له ربه (**استغفر الله**)، و(**تاب إليه**). وأسوته ـ في سعيه الحثيث نحو التكامل هذا ـ هو سيدُ الخلق رسول الله ﷺ؛ الذي وعده ربه بقوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى/ ٥]، مما يعني ضماناً للمستقبل، ووعدَ حقٍّ لا يتخلف في الرضا الإلهي، ومع ذلك كله فإنه ﷺ كان يستغفر في كل يوم سبعين مرة[١]. هذا وهو المعصوم؛ الذي لا يقع في خطأٍ، فضلاً عن خطيئةٍ.

الخصلة الرابعة: موقف المؤمن مما لا بد من وقوعه في عالم الدنيا ـ الذي هو عالم التزاحم والتضاد بين المصالح ـ فإذا تحققت له مصلحة فهي قد تكون على حساب آخرين فـ(**مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ**)[٢].

فكيف يقاوم المؤمنُ فجيعتَهُ بعزيزٍ، أو خسارةٍ ماليةٍ كبيرةٍ، أو فوات ربحٍ كبيرٍ، ونحو ذلك؟!

إنه يدرك أن اللهَ سبحانه امتحن الأغنياءَ بـ(الشكر)، وابتلى الفقراء بـ(الصبر)؛ فالوجدان لا يعني رضا الله على الواجد، كما أن الفقدان لا يعني سخطه تعالى على الفاقد، بل إن الأمرَ ـ برمته ـ ليس إلا امتحاناً وابتلاءً لهؤلاء وأولئك. قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة/ ١٥٥ ـ ١٥٦]. مضافاً إلى أن القادر على دفع الضر قبل حصوله، ورفعه بعد حصوله، إنما هو الله تعالى وحده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]،

---

(١) ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام، جاء فيه: **كان رسولُ الله ﷺ يتوب إلى اللهِ عزّ وجلّ في كل يوم سبعين مرةً...**) [أصول الكافي، ج٢، ص٤٣٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الاستغفار من الذنب، الحديث ٤].
وفي حديث آخر عنه عليه السلام أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك (من غير ذنب) [المصدر نفسه، ج٢، ص٤٥٠، باب نادر أيضاً، الحديث ١].
وفي سنن ابن ماجه؛ باب الاستغفار، أنه ﷺ قال: **إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرةً**.

(٢) شطر بيت للشاعر المتنبي، قال فيه:
بذا قضت الأيامُ ما بين أهلها — مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

وقـال تـعـالـى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء/ ٥٦].

***

من كل ما مرَّ، نستوعب كيف أن رسول الله ﷺ كان هو (**سراجاً منيراً**). ولعل المتتبع للكتاب والسنة والفكر الإسلامي الأصيل، وما أنتج ذلك من تراثٍ إنسانيٍّ؛ لا نزال نتفيأ ظلاله الوارفة، سيكون في غنى عن ذكر الشواهد على المسيرة التنويرية التي ابتدأها رسول الله ﷺ ولما تنتهِ به؛ لأن طبائع الأمور تفرض أن تتواصل المسيرة، باعتبار أن الإنسانَ هو الإنسانُ؛ لم يختلف في طبيعته وتكوينه بعدَ الرسول ﷺ عن ما كان عليه الإنسان معه وقبله.

ومن ثَمَّ، جاء هذا الوصفُ بعينه لخلفاء الرسول ﷺ والأئمة الطاهرين من بعده عليهم السلام؛ الذين ساروا على دربه من اصطفاهم الله لهداية خلقه. قال تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر/ ٣٢].

وقد عقد الشيخ الكليني رحمه الله؛ في كتابه (أصول الكافي)، باباً بعنوان (**أن الأئمة عليهم السلام نور الله عزّ وجلّ**)، ذكر فيه عدداً من الأحاديث تؤكد وتؤيد هذا المضمون، اخترنا منها ما رواه بسنده عن أبي خالد الكابلي، قال:

سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ **[التغابن/ ٨].**

فقال: يا أبا خالد! النور ـ والله ـ الأئمةُ من آل محمد صلى الله عليه وآله إلى يوم القيامة، وهم ـ والله ـ نور الله الذي أنزل، وهم ـ والله ـ نور الله في السماوات وفي الأرض.

والله! يا أبا خالد! لنورُ الإمام في قلوب المؤمنين أنورُ من الشمس المضيئة بالنهار، وهم ـ والله ـ ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب اللهُ عزّ وجلّ نورهم عمن يشاء فتضللهم قلوبهم.

والله! يا أبا خالد! لا يحبنا عبدٌ، ويتولانا، حتى يطهر اللهُ قلبَهُ، ولا يطهر الله

قلبَ عبدٍ حتى يسلِّم لنا، ويكون سلماً لنا، فإذا كان سِلماً لنا سلَّمه اللهُ من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر)(١).

ويشهد لهذا المعنى، ويصدِّقه، قولُ الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد/ ٧]. (وأخرج ابن جرير وابن مردَوَيه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار، قال: لَما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ وضع رسولُ الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يدَه على صدره، فقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ (رضي الله عنه)؛ فقال: أنت الهادي يا عليُّ! بك يهتدي المهتدون من بعدي)(٢).

ولتأصيل مبدأ الإمامة، وضرورته، بقيةٌ؛ نعالجها ـ باختصارٍ ـ في الفصل التالي؛ بعون الله وتوفيقه.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي كتاب الحجة، باب أن الأئمة عليهم السلام نور الله، الحديث ١.

(٢) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٤، ص٦٠٨، ذيل الآية الكريمة.



الفصل السابع

معرفة الأوصياء

(ثم حب أهل بيتي؛ الذين أذهب الله عنهم الرجسَ، وطهرهم تطهيراً.

واعلم ـ يا أبا ذر ـ أن الله عزّ وجلّ جعل أهل بيتي؛ في أمتي، كسفينةِ نوحٍ؛ مَن ركبها نجا، ومَن رغب عنها غرق، ومثلَ بابِ حطةٍ؛ في بني إسرائيل، من دخلها كان آمناً) [الفقرتان/ ٧ ـ ٨].

تمهيد: منزلة أهل البيت عليهم السلام

بعد مبدأِ (التوحيد) ومبدأِ (النبوة) يأتي مبدأُ (الإمامة)؛ لتكتمل به أضلاعُ مثلث الفكر الإسلامي؛ في ما يتعلق بالتلقي المعرفي والتفاعل السلوكي، وليشكل الأساسَ الذي يكفل لهذا الدين الديمومة من ناحيةٍ، والأصالة من ناحيةٍ ثانيةٍ.

لذلك، أوصى النبيُّ الأعظمُ صلى الله عليه وآله صاحبَه أبا ذر (رضوان الله عليه)؛ الذي هو من أوائل الصحابة، وأجلائهم، ومجاهديهم، والمشهود له بالثبات والاستقامة منهم...، أوصاه بـ(**حب أهل البيت**)؛ حرصاً منه صلى الله عليه وآله على تثبيته، وتأكيد استقامته، منوِّهاً ببعض خصائص (أهل البيت)؛ التي يمتازون بها دون من سواهم من الناس.

الأمر الذي جعل التقربَ من أهل البيت عليهم السلام تقرباً إلى الله تعالى، وجعل

محبتَهم محبةً لله ولرسوله؛ لتكون النتيجة المنطقية: أن معاداتهم؛ بأي مرتبة، معاداةٌ لله سبحانه ونبيه ﷺ. وقد جاء في الحديث عنه ﷺ التحذيرُ من العداء لأهل البيت عليهم السلام، والعدوان عليهم؛ ولو بأدنى مراتبه كالشتم. فروي أنه ﷺ قال: **لا تُعلِّموا أهلَ بيتي فهم أعلمُ منكم، ولا تَشتُموهم؛ فتَضلُّوا)**[1]. وفي رواية أخرى (**... ولا تشتموهم؛ فتهلكوا)**[2].

وقال الله تعالى ـ آمراً نبيَّه الكريمَ ـ ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى/ ٢٣].

وأخرج الطبراني بإسناده عن فاطمة عليها السلام، قالت: **خرج علينا رسولُ الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم)؛ عشيةَ عرفة؛ فقال: إن اللهَ باهى بكم، وغفر لكم عامةً، ولعليٍّ خاصةً. وإني رسولُ الله إليكم؛ غيرَ محابٍ لقرابتي، هذا جبريلُ يخبرني أن السعيدَ؛ حقَّ السعيد، مَن أحبَّ علياً في حياتِهِ وبعد موتِهِ، وإن الشقيَّ ـ كلَّ الشقي ـ مَن أبغض علياً في حياتِهِ وبعد موتِهِ)**[3].

ولابد من التنبيه والتنويه إلى أن هذه المنزلة الاصطفائية؛ على مستوى الذات، وعلى مستوى العلم والعمل، في شريحة المصطَفَين، لم يحظَ بها أهلُ البيت عليهم السلام اعتباطاً، ولا محاباةً؛ كما جاء في الحديث المذكور؛ لأن هذا وذاك لا يليقان بالحكمة التي هي من أخص صفات الله تعالى المتجلية في جميع أفعاله، ولا يناسب الأمانة التي تفرض أن يطابق الخُبر الخبرَ، بل إن هذه المنزلة إنما اختصهم اللهُ تعالى بها هي من أجلِّ تلكم السِّمات التي تحلَّوا بها؛ فجعلتهم مؤهَّلِين لتبوُّء هذه المنزلة السامية.

وليس لمسلمٍ؛ يؤمن بالله رباً، وبالقرآنِ كتاباً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً، أن يتحفَّظ

---

(١) الشجري الجرجاني، يحيى بن الحسن (ت٤٩٩ هـ)، ترتيب الأمالي الخميسية، ج١، ص٢٠٥. وعنه: الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء، ج٢، ص٥٤٦.

(٢) الكوفي، محمد بن سليمان (توفي حوالي ٣٠٠ هـ)، مناقب أمير المؤمنين، ص١٥٠.

(٣) الطبراني، سليمان بن أحمد (ت٣٦٠ هـ)، المعجم الكبير، باب ما رواه الحسين بن علي عن فاطمة، ج٢٢، ص٤١٥.

على مبدأ الاصطفاء ورصيفه الاجتباء؛ فإن ذلك مما نصَّ عليه اللهُ تعالى في غير آية:

* منها: قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية/ ٣٣].

* ومنها: قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران/ ١٧٩].

* ومنها: قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى/ ١٣].

وبطبيعة الحال، فإن الواجبَ شرعاً، واللازمَ عقلاً، أن يتثبَّت المسلمُ مما يُلقَى إليه ـ من أفكارٍ، ومعتقداتٍ ـ يُراد منه الإذعانُ لها والإيمان بها، وذلك عملاً بقول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ﴾ [الإسراء/ ٣٦].

فهو ـ إذاً ـ تحت طائلة المسؤولية، وهي كذلك في معرض المساءلة؛ فلا مجال للإيمان بما لم يقم دليلٌ على صحته، ولا برهانٌ على صوابه. قال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦].

وقد مرَّ بنا أنك قد تتساءل قائلاً[1]:

لِمَ كلُّ هذا التشدد في الإسلام؛ على: البحث، والنظر، والتثبت، والتبين، والمعرفة؟

والجواب: إن الإنسان لا يستطيع التفكيكَ بين ما يؤمن به وبين سلوكه وممارساته؛ لأن السلوك والممارسات إنما يندفع صاحبُها نحوها، ويلتزم بفعلها؛

(١) الباب الأول، الفصل الثاني ـ معرفة الله تعالى، المحطة الأولى ـ أهمية البحث والنظر.

تبعاً لإيمانه بها، وقناعته بصوابها، ويتركها ويهملها إذا اعتقد خطأها وقبحها، سواء في ذلك النتائج العاجلة والآجلة، على تفاوتٍ بين الناس في الإقدام والإحجام، كما أنه يقدِم أو يحجِم تبعاً لمحبته أو بغضه للشيء ونقيضه».

من كل ذلك، يتبين لنا وجهُ التأكيد النبوي على أن حبَّ أهل بيت النبي ﷺ يُعد من أولويات التعبد لله سبحانه؛ بعد معرفتِهِ تعالى، والإيمانِ بنبيِّهِ ﷺ.

وهنا مسألتان وخاتمة:

المسألة الأولى: مقدمات حب أهل البيت عليهم السلام

(حب أهل البيت) ليس مسألةً عاطفيةً ذات طابع إنسانيٍّ بحتٍ؛ ليكون الناس في حلٍّ منها ومن لوازمها لو أن أياً منهم لم يجد هذا الحب حاضراً بين جوانحه، وإنما هي بندٌ أساسيٌّ من بنود الفكر الإسلامي؛ بحيث يتصدع إسلامُ مَن يفقده، بالمستوى الذي يخرج به من دائرة الإسلام إلى الكفر والنفاق.

لذلك، لا بد من وضع حب أهل البيت عليهم السلام ومودتهم في إطارها الصحيح، من أجل الانتقال بعد ذلك إلى ما يترتب على هذا الحب وجوداً وعدماً.

ولنقدِّم بين يدي الحديث بعضَ النصوص القرآنية، والنبوية، في منزلة أهل البيت عليهم السلام؛ عبر الفقرات التالية:

الفقرة الأولى ـ الإيمان بالغيب، والتسليم للوحي

تضافرت النصوص الدينية الإسلامية على بيان أن من سمات المسلم:

١ ـ الإيمان بالغيب

فقال تعالى؛ في سياق وصف الكتاب الكريم، وبيان دوره الوظيفي ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة/ ٢ ـ ٣].

٢ ـ التسليم للوحي

فقال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء/ ٦٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٥٦].

ومنزلة الواحد من الناس؛ أياً كان، إنما تنبع من خصائصه الظاهرة والباطنة معاً، قال تعالى ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٨٤]، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات/ ١٣]، وقال تعالى ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ﴾ [الأنعام/ ١٢٠].

وإذا تيسر للناس أن يطلعوا على ظواهر الناس بما أوتوه من أدوات؛ تتمثل في السمع والبصر أولاً، وما يتلوهما من أدواتٍ معرفيةٍ للتواصل مع الآخرين ثانياً، والحكم لهم تارةً، وعليهم تارةً أخرى، إذا تيسر لهم ذلك، فإن ما يعرفه الناسُ؛ بعضُهم عن بعضٍ، لا يتعدى ظواهرَهم، ولا يلامس بواطنَهم ولا حقيقةَ أيٍّ منهم.

لذلك، لسنا في غنى عن مددٍ إلهيٍّ نتعرف ـ بوساطته ـ على الصالح من الناس للنبوة؛ عبر ما يظهر على أيديهم من معجزات وكرامات. وهذا هو السر في المعاجز والكرامات التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام تأكيداً على صدق مدَّعاهم في النبوة.

وما نحن بصدده؛ وهو (**الإمامة**)، هو من هذا القبيل.

فلسنا نتحدث عن سلطةٍ سياسيةٍ فحسب؛ كما ساد الجدلُ والنقاشُ ـ لقرونٍ طويلةٍ ولا يزال في كثير من الدوائر ـ في مَن هو الأجدرُ والأحقُّ بالإمامة!! ليقترح الناصحون للأمة! والمشفقون عليها! صرفَ النظر عن هذا الباب (التاريخي!!)، وطيَّ صفحته، ليُعنَى الطرفان بالبحث عمّا هو مفيد (للحاضر، والمستقبل)!!

أجل، لسنا نتحدث عن هذه السلطة السياسية؛ التي لا تساوي عند أولياء الله نعلاً باليةً[1]، بل نتحدث عمن يجب محبتُهُم، وموالاتُهُم، وأخذُ العلم والتوجيه

---

(١) قال عبدالله بن العباس: =

والرأي والأمر والنهي ونحو ذلك منهم، وبالتالي عمن نترسَّم مستقبلَنا الدنيوي والأخروي؛ من خلال ما يُلقونه إلينا من حكمة علميةٍ وعمليةٍ، نثبت بها على الصراط المستقيم.

وبعبارة موجزة: **إن البحث عن الإمامة ليس سوى بحث عن: المرجعية العلمية والفكرية والتربوية والروحية**(١).

ومَن كان هذا شأنهم فليس في قدرة الناس والجمهور أن يتعرفوا عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف/ ٣٢]، بل يجب التعرُّفُ عليهم بالطريقة نفسها التي نتعرَّف ـ من خلالها ـ على الصلاة والصوم ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٤٠].

لهذه العوامل المهمة، ولعوامل أخرى، نجد إجماعاً لدى المسلمين على الإذعان بوجوب محبة أهل البيت عليهم السلام. وإن اختلفوا في تفاصيل هذا المبدأ؛ من حيث تحديدِ مَن هم أهل البيت عليهم السلام؟ وما هي صلاحياتهم؟ وهل تخلَّى عنهم الواقعُ الإسلاميُّ تاريخياً؟ وهل إن واقعَ المسلمين ـ اليوم ـ بصدد إصلاحِ ما اعوجَّ من مسارهم في ضوء هذا المبدأ؟

وباعتبار أن شرحنا ـ هذا ـ ليس معقوداً لتفصيل هذه المسألة، فإن الإحالةَ على المصنفات المعدَّة لهذا الغرض أولى(٢).

= دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام؛ بذي قار؛ وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟!
فقلت: لا قيمة لها.
فقال عليه السلام: واللهِ! لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم؛ إلا أن أقيمَ حقاً، أو أدفعَ باطلاً) [نهج البلاغة، الخطبة ٣٣].

(١) وقد عالج هذا المحور ـ بالتحديد ـ الإمام السيد عبدالحسين شرف الدين في مواضع من كتبه، وأخص منها كتابه (الفصول المهمة في تأليف الأئمة) فليراجع.

(٢) نحيل قارئنا الكريم على مطولات ومختصرات دُوِّنت في مسألة (الإمامة)، بمختلف أبعادها. من قبيل: موسوعة (عبقات الأنوار) للعلامة السيد حامد حسين في ٢٠ مجلداً، وخلاصته للعلامة السيد علي الميلاني في ١٠ مجلدات، وموسوعة (الغدير) للعلامة الشيخ عبد الحسين الأميني في ١٢ مجلداً، وكتاب (المراجعات) للإمام السيد عبد الحسين شرف الدين في مجلد واحد، وموسوعة (إحقاق الحق)=

الفقرة الثانية: النص على محبة أهل البيت عليهم السلام

إذا كانت محبة أهل البيت عليهم السلام مبدأ إسلامياً أصيلاً وأساسياً؛ وهي كذلك، فليس مستغرباً أن تصدر النصوص الشرعية ـ وبتضافر ـ لتبيِّن هذا المبدأ ومحوريته.

فعن زيد بن أرقم: أن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) قال لفاطمة والحسن والحسين: **أنا حربٌ لمن حاربكم، وسلمٌ لمن سالمكم)**[1].

وعن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): **والذي نفسي بيده! لا يبغضنا ـ أهلَ البيت ـ رجلٌ إلا أدخله الله النار)**[2].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم، قال: **إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عزّ وجلّ، وعترتي. كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي: أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ، فانظروا (فانظروني) بم تخلفوني فيهما)**[3].

وقبل الأحاديث والآثار فإن المصدر الأصلي للفكر الإسلامي؛ أعني القرآن

=للعلامة الشهيد التستري وتعليقات المرجع السيد المرعشي عليها... في ٣٦ مجلداً، و(بحث في الولاية) للمرجع الشهيد محمد باقر الصدر، و(بحوث في الإمامة) للسيد كمال الحيدري، و(مدخل في الإمامة) له أيضاً، وموسوعة (الإمامة الإلهية) للشيخ محمد سند بأجزائها الخمسة، وكتاب (أهل البيت في القرآن) للسيد الشهيد محمد باقر الحكيم، وكتاب (مودة أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم في الكتاب والسنة) إصدار مركز الرسالة، وكذلك (فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة) للشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد.

فإن فيها بغيةَ المبتغي وطلبةَ الطالب.

(١) الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت٨٠٧ هـ)، موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، ج٧، ص٢٠١، كتاب المناقب، الباب ١٦ ـ فضل أهل البيت.

(٢) المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٣) ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ـ ت ٢٤١ هـ)، ج١٧، ص٢١١، مسند أبي سعيد الخدري، الحديث ١١١٣١.

الكريم، جاء مؤكِّداً على مودة آل البيت ﷺ. فقال تعالى ـ ملقناً نبيه الكريم أن يخاطب أمته ـ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى/ ٢٣]. وقد فسرها الرسول ﷺ ـ في ما رواه ابن عباس عنه ـ بقوله: **أن تحفظوني فِي أهل بيتي، وتودُّوهم بي)**[١].

ويبدو أن الصحابة ـ أو بعضهم ـ دار بينهم لغطٌ، أو تساؤلٌ، في مَن هم هؤلاء الذين تجب مودتهم؛ تحت عنوان (القربى). وحسماً للموقف تقدموا بين يدي الرسول ﷺ بسؤالٍ سيكون جوابه ـ أو هكذا يفترض ـ رافعاً للاشتباه، ومانعاً من اختلاط المقصودين بـ(القربى) بغيرهم؛ فتترتب على هذا الاختلاط ما لا يجوز؛ أو لا ينبغي، الوقوعُ فيه.

فقال السائلون ـ من الصحابة ـ: **يا رسولَ الله! مَن قرابتك هؤلاء؛ الذين وجبت مودَّتُهم؟!**

قال: عليٌّ، وفاطمةُ، وولداها)[٢].

والأحاديث بهذا المضمون متواترة، لا مجال للتشكيك في مفادها، وهي بين صحاحٍ أو حسانٍ، ولا يضر بعد ذلك ضعفُ بعضِها؛ سواء كان التضعيف وجيهاً أو غير وجيهٍ.

وعلى مستوى الاستنتاج؛ من ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، والآثار لمن يحتج بها، أو يستأنس بفهم السابقين من خلالها، نقول:

أولاً: اتفق فقهاء مدرسة الخلافة (على مودة آل البيت؛ لأن في مودتهم مودةَ النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم)[٣]، مستدلين بمثل هذه الأحاديث وآثار من الصحابة.

ثانياً: في ما يتعلق بمدرسة أهل البيت، ومن انتسب إليها، فالأمر في غنى

---

(١) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٧، ص٣٤٨، ذيل الآية الكريمة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٣٣، ص٧٢، مادة (قرابة)، البند ١٠.

عن الإيضاح؛ فضلا عن البسط، فموقفهم من التولي لأهل البيت يعد السمة الأساسية لهم؛ حتى عرفوا بـ(شيعة أهل البيت) أو (الشيعة)، وبـ(الإمامية)؛ لاعتقادهم بإمامتهم ﷺ ولتشيعهم لهم.

الفقرة الثالثة: المودة والولاية ـ الإمامة

لم يقف الأمر ـ في ما يتعلق بأهل البيت ﷺ ـ عند وجوب محبتهم ومودتهم، بل تجاوزه إلى توليهم على مستوى اتباعهم باعتبارهم أئمةً.

وَلْنَسُقْ على ذلك بعض الأمثلة:

١ ـ أهمية الإمامة

الكليني بسنده عن أبي حمزة، عن أبي جعفر ﷺ، قال:

بُني الإسلامُ على خمسٍ: على الصلاة، والزكاة، والصوم[١]، والحج، والولاية. ولم يُنادَ بشيءٍ كما نودي بالولاية)[٢].

٢ ـ الاعتقاد بها من لوازم الإيمان

روى الشيخ الكليني، بسنده عن عجلان أبي صالح، قال:

قلتُ لأبي عبدالله ﷺ: أوقفني على حدود الإيمان.

فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وصلوات [صلاة] الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين)[٣].

٣ ـ فلسفة الإمامة

روى الكليني بسنده عن زرارة، عن أبي جعفر ﷺ قال:

---

(١) في بعض النسخ: الصيام.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٨، باب دعائم الإسلام، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٢.

بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية.

قال زرارة: فقلت: وأيُّ شيءٍ من ذلك أفضلُ.

فقال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن.

قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟

فقال: الصلاة؛ إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: الصلاة عمود دينكم.

قال: قلت: ثم الذي يليها في الفضل؟

قال: الزكاة؛ لأنه قرنها بها، وبدأ بالصلاة قبلها، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الزكاةُ تذهِب الذنوبَ.

قلت: والذي يليها في الفضل؟

قال: الحج قال الله عزّ وجلّ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران/ ٩٧]. وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لحجةٌ مقبولةٌ خيرٌ من عشرين صلاةٍ نافلةً. ومن طاف بهذا البيت طوافاً أحصى فيه أسبوعه، وأحسن ركعتيه، غفر الله له. وقال؛ في يوم عرفة ويوم المزدلفة، ما قال.

قلت: فماذا يتبعه؟

قال: الصوم.

قلت: وما بال الصوم صار آخر ذلك أجمع؟

قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

الصوم جُنَّة من النار.

قال: ثم قال: إن أفضل الأشياء ما إذا فاتك لم تكن منه توبة دون أن ترجع إليه فتؤديه بعينه، إن الصلاة والزكاة والحج والولاية ليس يقع شيء مكانها دون أدائها، وإن الصوم إذا فاتك؛ أو قصرت، أو سافرت فيه، أديت مكانه أياماً

غيرها، وجزيت ذلك الذنب بصدقة، ولا قضاءَ عليك، وليس من تلك الأربعة شيء يجزيك مكانه غيره.

قال: ثم قال: ذروة الأمر، وسنامه، ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضا الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته، إن الله عزّ وجلّ يقول ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء/ ٨٠]. أما لو أن رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحج جميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله؛ فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله عزّ وجلّ حقٌّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان.

ثم قال: أولئك المحسن منهم يدخله اللهُ الجنةَ بفضل رحمته)(١).

هذه النصوص الشريفة؛ وغيرها كثيرٌ مستفيضٌ، تبين قضايا هامة، منها:

القضية الأولى: أن الولاية لأهل البيت عليهم السلام من تعاليم الإسلام؛ على غرار الصلاة والصيام...

القضية الثانية: أن للولاية تقدماً، وأفضليةً، وأولويةً، على جميع تلكم الأحكام.

القضية الثالثة: أن هذا التقدمَ، والأفضليةَ، مبنيٌّ على أساسِ أن طاعةَ اللهِ عزّ وجلّ تقوم على التسليمِ له بكلِّ ما أمر.

القضية الرابعة: أن الولاية هي وحدها الكفيلة بحفظ الأصالة الدينية عن التحريف؛ في تبيانها وتطبيقها.

القضية الخامسة: أن للولاية دوراً في قبول الأعمال؛ لأنها تكشف عن عمق التسليم لله تعالى(٢).

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٥.

(٢) للتوسع ـ في معرفة طبيعة وأبعاد الترابط الوثيق بين الولاية وقبول الأعمال ـ انظر: نهاية الإكمال في ما تقبل به الأعمال، للمحدث السيد هاشم البحراني.

المسألة الثانية: من خصائص أهل البيت عليهم السلام

ذكر النص النبوي؛ مورد البحث والشرح في هذا الكتاب، خصائصَ ثلاث لأهل بيت النبوة عليهم السلام من بين خصائص كثيرة جداً استعرضها أهل الفن، كلٌّ بحسبه، تتوزع هذه الخصائص على محورين اثنين يرتبطان بشكلٍ وثيقٍ بالغرض الذي جُعِل بسببه هذا المبدأُ من جهة، وبطبيعة الدينِ الإسلاميِّ من جهة أخرى، وهذان المحوران هما:

المحور الأول: البعد الذاتي

ويتمثل في اتصافهم بـ:

الخصيصة الأولى: الطهارة

قال صلى الله عليه وآله: ... **اللهم هؤلاء أهلُ بيتي، وخاصَّتي؛ أذهِب عنهم الرجسَ، وطهِّرهم تطهيراً**)[1]. ولما كان المبدأ الإسلام ينص على أن النبي صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم/ ٣، ٤]، فلا بد ـ إذاً ـ من التعامل مع جميع ما يقوله بمنتهى الجدية وحسن التلقي؛ من أجل أن نقطع الطريق على اجتهاد المجتهدين؛ إذ لا اجتهاد في مقابل النص[2].

بل إننا نجد أساس وصفه صلى الله عليه وآله هذا في قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

ولو تأمَّلنا في هذا النص الرباني الشريف لوجدناه يؤكد على أمورٍ، منها:

أولاً: أن ثمة إرادةً إلهيةً خاصةً تعلقت بأهل البيت عليهم السلام دون من عداهم من الناس.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل فاطمة رضي الله عنها.
وعلق عليه بقوله: هذا حديث حسن صحيح. وهو أحسنُ شيءٍ رُوي في هذا الباب).

(٢) جاء في جوابٍ من دار الإفتاء بالأزهر ما نصه: الاجتهاد لمعرفة الحكم ليس له محل ما دام النص موجوداً) [فتاوى دار الإفتاء المصرية، ج١٠، ص٣٠٦ ـ حسب برنامج المكتبة الشاملة].

ثانياً: أن أهل البيت ﷺ لا يدانيهم الرجسُ، بكل أشكاله: المادي، والمعنوي، العقلي، والنفسي[١].

ثالثاً: أن هذا التطهيرَ مؤكّدٌ ومضاعفٌ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، ويرتبط بالدور المناط بهم القيامُ به.

هذه الأمور؛ وغيرها، مجتمعةً تفيدُ ما نسميه بـ(العصمة). والذي يعني: تجسيدَهُم الكاملَ للتعاليم الإسلامية في القول والفعل والقصد، وفي الظاهر والباطن، وفي الصِّغر والكِبَر... فلا خطأً، ولا خطيئةَ، ولا نسيانَ[٢].

ونعم ما قيل من أن: العصمة تستلزم أموراً أربعةً:

الأول: صدق القول.

الثاني: حسن الفعل.

الثالث: حفظ الحقوق.

الرابع: حفظ نظم المعاش والمعاد عمّا يؤدِّي إلى الباطل الموجب لفساد المعاش والمعاد)[٣].

ونلفت النظر إلى: أن العصمة؛ التي نقول بها في عترة النبي ﷺ، ونقول بها قبل ذلك في جميع الأنبياء ﷺ، لا تعني أن الله تعالى أجبرهم على ترك المعاصي، بل (هي: عبارة عن لطف منه تعالى منحه لهم، فيه يتركون المعاصي اختياراً؛ مع قدرتهم عليها)[٤].

---

(١) قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: **لا يُقاس بآل محمدٍ ﷺ من هذه الأمة أحدٌ، ولا يُسوَّى بهم مَن جرت نعمتُهم عليه أبداً** نهج البلاغة، الخطبة ٢، ج١، ص٢٥، ط دار الكتب العلمية.

(٢) للتوسع انظر: العصمة بحث تحليلي للسيد كمال الحيدري، وكذلك: العصمة ـ حقيقته ـ أدلتها، إصدار مركز الرسالة.

(٣) الكربلائي، الشيخ جواد عباس (ت١٤٣٢ هـ)، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، ج٣، قوله ﷺ: عصمكم الله من الزلل، ص٤٦١.

(٤) المصدر السابق، شرح قوله ﷺ: عصمكم الله من الزلل)، ص٤٦٠.

لكل ذلك، وجبتْ محبتةُ آل النبي عليهم السلام دون قيدٍ أو شرطٍ، ووجبتْ طاعتُهُم دون تخصيصٍ، وحرُمتْ مخالفتُهُم في كل آنٍ[١].

وهذا يعني أنهم (**أولو الأمر**). والله عزّ وجلّ يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء/ ٥٩].

ثم إن وجوب محبتهم وموالاتهم؛ تمهيداً لطاعتهم، يكمن في ما يتحلَّون به من سماتٍ وخصائصَ توفِّر الأمنَ من الضلال لمن ارتبط بهم وتلقى منهم.

وهذا ما نجده في:

المحور الثاني: البعد الموضوعي

يتمثل هذا المحور في وصف النبي صلى الله عليه وآله، في هذه الوصية وغيرها، أهلَ بيته عليهم السلام بخصيصتين اثنتين؛ هما:

الخصيصة الثانية: تشبيههم بسفينة نوح عليه السلام

هنا مقامات ثلاثة ينبغي الوقوف عندها لمعرفة هذه الخصيصة.

المقام الأول: سفينة نوح في القرآن

وردَ ذكرُ سفينة نوح عليه السلام في القرآن الكريم في مواضع عدة، بعناوين أربعة:

أ ـ (**السفينة**) في العنكبوت.

ب ـ (**الفلك**) في كلٍّ من سور: الأعراف، والشعراء، ويونس، وهود، والمؤمنون، ويس.

جـ ـ (**الجارية**) في سورة الحاقة.

د ـ (**ذات ألواح ودسر**) في سورة القمر.

ومن أجمع تلكم المواضع تفصيلاً لحادثة السفينة قوله تعالى ـ في سورة هود ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(١) انظر للتوسع كتاب (أهل البيت في آية التطهير) للمحقق السيد جعفر مرتضى العاملي.

عذاب يوم أليم (٢٦) فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون (٢٨) ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون (٢٩) ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون (٣٠) ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣١) قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (٣٢) قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين (٣٣) ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون (٣٤) أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون (٣٥) وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون (٣٦) واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون (٣٧) ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون (٣٨) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٣٩) حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل (٤٠) وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم (٤١) وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين (٤٤) ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين (٤٥) قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين (٤٦) قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾.

وما يستفاد ـ بإيجازٍ ـ من هذه الآيات المباركات في هذه السورة وغيرها:

أ ـ أن نبيَّ اللهِ نوحاً عليه السلام كلَّفه اللهُ تعالى بدعوةِ قومِه إلى توحيد الله سبحانه وإلى طاعته، وإلى العمل بلوازم ذلك من أفعال وأقوال، وتجنب ما ينافيه.

ب ـ وأبان لهم؛ بما لا مزيد عليه، أن لكلِّ عملٍ نتيجةً تناسبه؛ صلاحاً وفساداً، وأن ذلك سنةُ الله الجاريةُ؛ وأنه لا معقِّبَ لحكمِهِ.

ج ـ وقد طال مكثُ نبي اللهِ نوحٍ عليه السلام بينهم داعياً وناصحاً؛ مستعيناً بكل وسائل النصح والإرشاد، مغتنِماً كلَّ فرصةٍ سانحةٍ؛ غير أنهم أصروا على ما هم عليه من انحراف، واستكبروا، وبالغوا في استكبارهم في أنفسهم، وتجاوزوا في عدوانهم على ربهم ونبيه ومن آمن به في أوساطهم؛ حتى استحقوا ـ بظلمهم، وقبيح فعلهم ـ حلول عذاب الله عليهم.

د ـ فتعلقت مشيئةُ الله تعالى بإهلاكهم بالطوفان، وإنجاء نوحٍ عليه السلام ومَن آمن معه؛ وهم قلةٌ قليلةٌ، فأمر الله عزّ وجلّ نبيه نوحاً عليه السلام ببناء سفينة تكون وسيلةَ نجاةٍ له ولمن كان معه.

هـ ـ وكان التكليفُ ببناء السفينة نفسُهُ امتحاناً لنبي الله نوح عليه السلام وللمؤمنين به، كما كان فتنةً لقومه الذين صاروا يهزأون به. وقد يمتحن اللهُ عبادَهُ بما يكون واضحاً وجهُ الابتلاء فيه وما لا يكون كذلك.

و ـ فصارت سفينةُ نوح رمزاً للحق ومَن ينجو به؛ فهي بحقٍّ (سفينة نجاة)، وصار التخلفُ عنها سبباً للهلاك؛ خصوصاً لمن يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

المقام الثاني: سفينة نوح في الحديث النبوي

القرآن الكريم إنما ساق قصص الماضين من الأنبياء والصالحين والكافرين من أجل أن ثمة سنناً تحكم الإنسانَ في سعادته وشقائه. لذلك، فإن ما جرى في الماضين هو جارٍ ـ لا محالةَ ـ في اللاحقين. قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف/ ١١١].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ كثيرٌ من الأحاديث؛ في تحذير المسلمين من المخاطر التي تعرض لها السابقون:

* فعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، قال: **لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبرٍ وذراعا بذراع». فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟! فقال: ومَن الناسُ إلا أولئك)**[1].

* وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، قال: **لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً شبراً، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ تبعتموهم!. قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟! قال: فمَن؟!)**[2].

* وروى الحاكم؛ في المستدرك، بإسناده عن أبي عبيدة بن الجراح، قال: قال رسول الله ﷺ: **إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أنذر أمته الدجال، وإني أنذركموه...)**[3].

وإننا نعتقد أن ما روي من تشبيه أهل البيت عليهم السلام بسفينة نوح عليه السلام يأتي في هذا السياق، وأن ما واجهته الأمم السابقة من فتن؛ قد تكون في مقدماتها تمرداً على الله واستكباراً بالغاً كما فعله قوم نوح، وأن المخاطر التي ستتبع ذلك ستكون بحجم أمواج عاتية ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود/ ٤٢]، وأنها ستواجه هذه الأمةَ، وأن سبيل النجاة منها يحتاج إلى سفينة كسفينة نوح عليه السلام في خصائصها ودورها.

وهناك نبويٌّ مرويٌّ بالتواتر؛ أو بالاستفاضة في الحد الأدنى، عن النبي ﷺ؛ وقد يُشار إليه بـ(حديث السفينة)؛ يُعد واحداً (من النصوص الصريحة المرشِدة إلى التمسك بأهل البيت، وحجيةِ مذاهبهم وأقوالهم، ووجوبِ التأسي بأعمالهم)[4].

---

(١) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، باب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: لتتبعن سنن من كان قبلكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) النيشابوري، أبو عبدالله الحاكم (ت٥٤٨ هـ)، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن، ج٤، ص٥٨٥.

(٤) الگلپايگاني، الشيخ لطف الله الصافي (معاصر)، مجموعة الرسائل، ج٢، ص٦٣.

وهو حديثٌ لا غبارَ على ثبوت صدوره عن النبي ﷺ فقد رواه (من أعلام السنة ما يربو على المائة)[(١)].

وقد أجاد السيد هاشم البحراني حيث خصص (الباب الثاني والثلاثون)؛ من كتابه (غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام)؛ لتتبع ما عثر عليه من نصوص الباب في مصادر إخواننا السنة؛ فأورد منها أحد عشر حديثاً[(٢)]، وخصص (الباب الثالث والثلاثون)؛ من كتابه المذكور، لِما عثر عليه في كتب الشيعة الإمامية فوجدها تسعة، فيكون مجموع ما عثر عليه عشرين حديثاً بعشرين طريقاً.

وكذلك أورد كثيراً من هذه الأحاديث الشيخُ المجلسيُّ في الباب ٧ ـ فضائل أهل البيت عليهم السلام والنص عليهم جملة من خبر الثقلين والسفينة وباب حطة وغيرها، من كتاب الإمامة في بحار الأنوار.

وقد تعددت الألفاظ والصياغات التي رويت عن رسول الله ﷺ. ولنستعرض بعض تلك الألفاظ والصيغ.

١ ـ ممن رواه؛ وصححه: الحاكم النيشابوري؛ بإسناده عن حنش الكناني، قال: سمعتُ أبا ذر، يقول؛ وهو آخذٌ بباب الكعبة: أيها الناس! من عرفني فأنا من عرفتم، ومن أنكرني فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يقول: **مثل أهل بيتي مثل سفينة نوحٍ؛ من ركبها نجى، ومن تخلف عنها غرق).**

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح؛ على شرط سلم)[(٣)].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بل قد تصل هذه الأحاديث إلى أربعين حديثاً.

(٣) النيشابوري، أبو عب الله الحاكم (ت٥٤٨ هـ)، المستدرك على الصحيحين، باب تفسير سورة هود، ج٢، ص٣٧٣، وباب مناقب أهل رسول الله ﷺ، ج٣، ص١٦٣.

أقول: يجب أن نلفت النظر إلى ما فعله بعض المتصدين للجرح والتعديل؛ كابن تيمية والألباني، من مبالغة تضعيف هذا الحديث وأمثاله مما تضمن مناقب لأهل البيت عليهم السلام. ولعلهما ـ ومن جاراهما ـ؛ إن أحسنا الظنَّ، غفلوا أو تغافلوا عن أن ما أودعه الحاكم في كتابه محكوم بالصحة عنده؛ وذلك لأسباب؛ منها: =

٢ ـ ممن رواه: البزار؛ بإسناده عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم): **مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تخلف عنها غرق)**[(١)].

٣ ـ ممن رواه الدولابي؛ بإسناده عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، قال: **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق)**[(٢)].

فهذه ثلاثة أحاديث بثلاث طرقٍ؛ فهو ـ إذاً ـ مستفيضٌ؛ فقد (قال شيخ الإسلام: المشهور ما له طرق محصورة بأكثر من اثنين، ولم يبلغ حد التواتر، سمي بذلك لوضوحه. وسماه جماعة من الفقهاء (المستفيض) لانتشاره، من فاض الماء يفيض فيضاً)[(٣)].

وأما الموسوعة الفقهية الكويتية فقد عرَّفته على النحو التالي:

الحديث المستفيض اسم من أسماء الحديث (المشهور)؛ وهو من الآحاد...

= **الأول**: أن كتابَه هذا هو استدراكٌ على الصحيحين؛ أي كتابي البخاري ومسلم. ولذلك، سماه (المستدرك على الصحيحين)، وهو ما فرض عليه مراعاة شروطهما، أو أحدهما في الحد الأدنى.

الثاني: ما نص عليه في مقدمة كتابه المستدرك من قوله (وأنا أستعين الله على إخراج أحاديث **رواتها ثقات، قد احتج بمثلها الشيخان** رضي الله عنهما **أو أحدهما**، وهذا شرط الصحيح عند كافة فقهاء أهل الإسلام أن الزيادة في الأسانيد والمتون من الثقات مقبولة) وقد وصف كتابه ـ أيضاً ـ بأنه (يشتمل على الأحاديث المروية بأسانيد يحتج محمد بن إسماعيل، ومسلم بن الحجاج بمثلها).

الثالث: أن الرجل متضلع في الجرح والتعديل وما كتبه في هذا العلم ـ كما قال المعلمي في التنكيل، ج٢، ص٦٩٣ ـ (لم يغمزه أحد بشيء... بل حاله في ذلك كحال غيره من الأئمة العارفين، إن وقع له خطأ فنادر كما يقع لغيره، والحكم في ذلك إطراح ما قام الدليل على أنه أخطأ فيه). هذا ما حكاه عنه الوادعي في كتابه (رجال الحاكم في المستدرك، ج١، ص٥ ـ ٦) مرتضياً إياه. ومن ثم، فإن كلامَ الحاكم حجةٌ ـ كغيره ـ في حكمه على الرجال جرحاً وتعديلاً.

ويعنينا ـ هنا ـ أن ما أورده صاحبُ المستدرك هو صحيحٌ عنده، وأما حكم غيرهُ عليه بالعلة القادحة على ما صح عند الحاكم فهو حجةٌ عند المعِل وليس على المصحِّح، فتدبر.

(١) البزار، أحمد بن عمرو (ت٢٩٢ هـ)، مسند البزار ـ البحر الزخار، برقم (٥١٤٢)، ج١١، ص٣٢٩.

(٢) الدولابي، محمد بن أحمد (ت٣١٠ هـ)، الكنى والأسماء، برقم (٤١٩)، ج١، ص٢٣٢.

(٣) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، ج٢، ص٦٢١.

وتعريفه عند الحنفية: أنه ما رواه عن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم واحد أو اثنان من الصحابة، أو يرويه عن الصحابي واحد أو اثنان، ثم ينتشر بعد ذلك، فيرويه قومٌ يؤمَن تواطؤهم على الكذب. ويفيد اليقين، ولكنه أضعف مما يفيده الخبر المتواتر.

وعند غير الحنفية: كل حديث لا يقل عدد رواته عن ثلاثة في أي طبقة من طبقات السند، ولم يبلغ مبلغَ التواتر)[1].

المقام الثالث: وجه الشبه بين أهل البيت عليهم السلام وسفينة نوح عليه السلام

لعلك تسأل؛ وتقول: ما هو الساحل الذي تأخذنا إليه هذه السفينة الربانية؟

وأجيبك بما قاله عالم محقق؛ ونِعم ما قال:

مَن تدبر حقَّ التدبر في أحاديث السفينة... يحصل له العلم بعدم خلو الزمان من إمام معصومٍ من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، يجب التمسك به في الأمور الدينية ومعرفته ومتابعته والتأسي به وأخذ العلم عنه، فهو خليفة الرسول في بيان الأحكام وتبليغ مسائل الحلال والحرام وتفسير القرآن. كما أن الكتاب العزيز أيضاً خليفتُهُ، وهما لا يفترقان عن الآخر...

وقد ظهر مما ذكر أن أحاديث السفينة صريحاً حصرت طريق النجاة بالتمسك بهم، فلا ينجو إلا مَن تمسك بهم، كما أنه لم ينجُ من قوم نوح إلا من ركب السفينة، فمن لم يركبها، وتخلف عنها، غرق)[2].

كما أن تمثيل أهل البيت عليهم السلام بسفينة نوح عليه السلام يستفاد منه (أنه كما كانت سفينةُ نوح مصنوعةً بيد نوح؛ بعين الله ووحيه ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون/ ٢٧]؛ فصارت وسيلةَ نجاة أمته، كذلك نجاةُ هذه الأمة بسفينةٍ مصنوعةٍ بيد التعليم والتربية الخاتمية؛ تحت إشراف عين الله ووحيه.

والسفينةُ؛ التي صانعها رسولُ الله، وناظرُها عين الله، واللطائفُ التي أعملت

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة (الحديث المستفيض)، ج٤، ص٤٦.

(٢) الصافي الگلپايگاني، الشيخ لطف الله (معاصر)، مجموعة الرسائل، ج٢، ص٦٧.

في صنعها، إنما هي بوحي الله، تدور النجاة والهلاك مدار التمسك بها والتخلف عنها)[١].

وقال المناوي ـ في شرحه للحديث ـ ما لفظه:

(**إن مثل أهل بيتي**)؛ فاطمة وعَلي وابنيهما وبنيهما، أهلِ الدّيانة والأمانة والعلم، (**فيكم مثل سفينة نوح؛ من ركبها، ومن تخلَّف عنها هلك**) وجه الشَّبَه أن النجَاة تثبت لأهل سفينة نوح؛ فأثبت لأمته؛ بالتمسك بأهل بيته، النجاةَ)[٢].

الخصيصة الثالثة: تشبيههم بباب حطة

من أجل فهم هذه الخصيصة لأهل البيت عليهم السلام لابد من معرفة بابِ حطةٍ هذا. ولنذكره في مقامين:

المقام الأول: باب حطة في القرآن

ورد ذكر هذا الباب في مواضع من القرآن، وهي:

أ ـ قوله تعالى ـ خطاباً لبني إسرائيل ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة/ ٥٨، ٥٩].

ب ـ قوله تعالى ـ عن بني إسرائيل أيضاً ـ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء/ ١٥٤].

جـ ـ قوله تعالى ـ على لسان موسى عليه السلام مخاطباً قومه ـ ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ

---

(١) الخراساني، الشيخ حسين الوحيد (معاصر)، منهاج الصالحين، ج١، ص٢٤١.

(٢) المناوي، عبد الرؤوف (ت١٠٣١ هـ)، التيسير بشرح الجامع الصغير، ج١، ص٣٤٣.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة/ ٢١ ـ ٢٣].

د ـ قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف/ ١٦١ ـ ١٦٢].

قال الطريحي: قوله ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة/ ٥٨]؛ أي: حُطَّ عنا أوزارنا. ويقال هي كلمةٌ أُمِر بها بنو إسرائيل؛ لو قالوها لَحُطت أوزارهم، ولكنهم قالوا (حنطة في شعير)؛ أي: قيل لهم قولوا حُطَّ عنا ذنوبنا؛ فبدلوه حنطة في شعير.

وفي الحديث (**من ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حطة**)؛ أي: يحط عنه خطاياه وذنوبه.

وهي فِعلة من حَطَّ الشيء يحطه؛ إذا أنزله وألقاه)[1].

وأما مكان هذا الباب فقد قيل إنه:

* أحد أبواب بيت المقدس، ويدعى ـ الآن ـ (باب حطة)، قاله ابن عباس.
* أو الثامن من أبواب بيت المقدس، ويدعى باب التوبة، قاله مجاهد والسدي.
* أو باب القرية التي أمروا بدخولها.
* أو باب القبة التي كان فيها موسى وهارون يتعبدان.
* أو باب في الجبل الذي كلم الله عليه موسى)[2].

وقال الطبرسي:

أجمع المفسرون على أن المراد بالقرية هاهنا بيت المقدس، ويؤيده قوله في موضع آخر ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾. وقال ابن زيد: إنها (أريحا)؛ قرية قرب بيت المقدس، وكان فيها بقايا من قوم عاد، وهم العمالقة، ورأسهم عوج بن عنق.

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، مادة حطط.

(٢) الأندلسي، أبو حيان (ت٧٤٥ هـ)، البحر المحيط في التفسير، ج١، ص٣٥٨.

يقول ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾ أي: أين شئتم ﴿رَغَدٗا﴾ أي: موسعاً عليكم، مستمتعين بما شئتم من طعام القرية، بعد المن والسلوى. وقد قيل: إن هذه إباحة لهم منه لغنائمها، وتملك أموالها إتماما للنعمة عليهم.

﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ يعني الباب الذي أمروا بدخوله. وقيل: هو باب حطة من بيت المقدس، وهو الباب الثامن، عن مجاهد. وقيل: باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل. وقال قوم: هو باب القرية التي أمروا بدخولها.

قال أبو علي الجبائي: والآية على قول من يزعم أنه باب القبة، أدل منها على قول من يزعم أنه باب القرية؛ لأنهم لم يدخلوا القرية في حياة موسى. وآخر الآية يدل على أنهم كانوا يدخلون هذا الباب على غير ما أمروا به في أيام موسى؛ لأنه قال ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ والعطف بالفاء التي هي للتعقيب من غير تراخ، يدل على أن هذا التبديل منهم كان في أثر الأمر، فدل ذلك على أنه كان في حياة موسى.

وقوله ﴿سُجَّدٗا﴾ قيل: معناه ركعاً، وهو شدة الانحناء عن ابن عباس. وقال غيره: إن معناه أدخلوا خاضعين متواضعين، يدل عليه قول الأعشى:

يراوح من صلوات المليك طورا سجودا، وطورا جوارا

وقيل: معناه ادخلوا الباب، فإذا دخلتموه فاسجدوا لله سبحانه ـ شكراً ـ، عن وهب.

وقوله ﴿حِطَّةٞ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأكثر أهل العلم: معناه حُطَّ عنا ذنوبنا، وهو أمر بالاستغفار. وقال ابن عباس: أُمِروا أن يقولوا هذا الأمر حقٌّ. وقال عكرمة: أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب. وكل واحد من هذه الأقوال مما يحط الذنوب، فيصح أن يترجم عنه بـ(حطة). وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: نحن باب حطتكم)[1].

فالمستفاد ـ من مجموع هذه الآيات ـ: أن بني إسرائيل كانوا قوماً متمردين؛

---

(١) الطبرسي، أبو علي (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ذيل قوله تعالى ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، ج١، ص٢٢٦.

لم يعملوا بما يجب على المتدين بدين الله أن يعمله؛ من التقيد التام بالأحكام الشرعية. وكأنهم أرادوا أن يكونوا هم المتحكِّمين والمطاعين، مع أن الحكم لله والطاعة له سبحانه. لذلك، امتحن الله تعالى هؤلاء القومَ؛ بأمره إياهم أن يدخلوا البابَ؛ ساجدين، خاشعين، متواضعين!

لكنهم بدَّلوا، وغيَّروا، وقد (خالفوا ما أُمِروا به من الفعل والقول؛ فإنهم أُمروا بالسجود عند انتهائهم شكراً لله تعالى، وبقولهم ﴿حِطَّةٌ﴾ فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا حنطة بدل حطة، أو قالوا حطة وزادوا فيها حبة في شعيرة)(١).

وبلاء المخالفة لأحكام الله تعالى ليس خاصاً ببني إسرائيل، بل قد يقع فيه غيرُهم، ومن هؤلاء هذه الأمة التي حذرها رسول الله ﷺ من ذلك؛ في مقولة تحذيرية اشتهرت روايتُها عنه، جاء فيها (**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ. فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟! فقال: ومن الناس إلا أولئك**)(٢).

ثم إن النبي ﷺ لم يكتف ببيان أن ذلك واقعٌ منهم في الدنيا، بل أضاف إليه أن عواقبه ستكون جليةً في الآخرة؛ حيث يُذاد عنه مَن كان النبي ﷺ يعدهم أصحاباً له، وذلك في ما ثبت عنه في نصوص كثيرة:

منها: ما رواه ابن عباس، قال: قام فينا النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم) يخطب، فقال:

إنكم محشورون حفاة عراة كما بدأنا أول خلق نعيده الآية. وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال! فأقول: يا رب! أصيحابي! فيقول الله: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!

---

(١) العسقلاني، ابن حجر (ت٨٥٢ هـ)، فتح الباري في شرح البخاري، ج٨، باب خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ص٢٢٩.

(٢) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم.

فأقول؛ كما قال العبد الصالح، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ... إلى قوله ٱلْحَكِيمُ﴾. قال: فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم)[1].

ومنها: ما رواه أنس، أن النبي ﷺ قال:

أنا فَرَطُكم على الحوض، وليُرفعَنَّ رجالٌ منكم، ثم ليختلجن دوني! فأقول: يا رب! أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[2].

ومنها: ما رواه أنس ـ أيضاً ـ، عن النبي ﷺ أنه قال:

إني فَرَطُكم على الحوض، مَن مرَّ عليَّ شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبداً. ليردنَّ علَيّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم.

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش، فقال: هكذا سمعتَ من سهل؟!

فقلت: نعم.

فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعتُهُ؛ وهو يزيد فيها:

فأقول إنهم مني!

فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!

فأقول: سحقاً!! سحقاً!! لمن غيَّر بعدي)[3].

فإذا أضفنا إلى هذه الأخبار؛ وأمثالها، ما جاء عنه ﷺ من بيان السر وراء هذه الانتكاسة؛ فسيتضح الأمر بجلاء.

وهذا السر هو: أن المسلمين بعده سيقعون في ما وقعت فيه الأمم السابقة؛ من انقلاب على الأعقاب.

وهذا ما جاء في عدد من الأحاديث؛ من قبيل ما رواه أبو هريرة عن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

والفَرَط ـ بفتحتين ـ: الذي يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض.

(٣) المصدر السابق.

النبي ﷺ أنه قال: **لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها؛ شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ.**

فقيل: يا رسول الله! كفارس والروم؟!

فقال: ومَن الناس إلا أولئك)(١).

وهذا كله يفرض ـ ويعززه منطق الحكمة واللطف ـ أن يجعل اللهُ تعالى؛ بعد نبيه ﷺ، أسبابَ النجاة متوفرةً لمن أرادها. وهذا ما تحقق بوجود آل البيت عليهم السلام؛ الذين جعلهم الله أماناً لمن اعتصم بهم من هذه الأمة، وبابَ حطة لمن دخله، وسفينةَ نجاة بمن ركبها.

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أن الشائع في مصطلح (الأصحاب) استعماله عرفاً في مَن لازم النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار؛ كما أقر بذلك المعدِّلون لجميع الصحابة، وإن سعوا إلى حمله ـ في مثل المقام ـ على (كل مَن تبعه مرة)(٢).

وأما الارتداد فسواء أريد به الكفر المصطلح(٣)؛ كما يظهر من لفظ الحديث، أو أريد به (إساءة السيرة)(٤)، فهو وافٍ بالغرض؛ الذي يعني الحاجةَ الماسَّةَ إلى مؤمِّن من الضلال، إذا استُمسِك واعتُصِم به، ويكون بمثابة سفينة نوح لنجاة من يركبها، أو بابِ حطة يُغفَر لمن دخله خاضعاً تائباً مستسلما لله تعالى.

الثانية: أن محاولة بعض الفئات تنزيهَ الجيل الأول من المسلمين تنزيهاً تاماً، مع ما شجر بينهم من فتنةٍ سُفكت فيها الدماء، واجتهادهم على الدعوةِ ـ لاحقاً ـ

---

(١) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه
وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم.

(٢) المباكفوري، محمد عبد الرحمن (ت١٣٥٣ هـ)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، كتاب سورة الأنبياء، ج٩، ص٦.

(٣) المصدر السابق، ص٧.

(٤) المصدر السابق، ص٦.

إلى الإمساك عن هذا الشجار، وعدم الحكم على أيٍّ من المتخاصمين بالحق؛ والتأسي به، على آخر بخصوصه بالباطل؛ لتجنبه، إن هذه المحاولة ـ بشقيها ـ هي ما جعلت واقعَ الأمة الثقافي والتربوي مشوَّهاً، وأنتج لنا أجيالاً تتناقض أحكامها؛ حتى من الفرد الواحد؛ لأنه يجد مستنداً لحقه إن وفقه الله إليه، ولباطله إن هو أراد أن يكون من أهله.

المقام الثاني: تشبيه أهل البيت عليهم السلام بباب حطة في السنة النبوية

رُوي تشبيهُ آل البيت عليهم السلام عموماً؛ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خصوصاً، بـ(**باب حطة**) بين المحدثين الشيعة والسنة؛ بنحوِ متواترٍ أو مستفيضٍ.

ولنكتفِ بما جاء عند أتباع مدرسة الخلفاء.

قال العلامة الميلاني:

إن من أسانيده المعتبرة ما أخرجه الطبراني في (الصغير) قال:

«حدثنا محمد بن عبد العزيز بن محمد بن ربيعة الكلابي أبو مليل الكوفي، حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن أبي حماد المقري، عن أبي سلمة الصائغ، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري، سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفر له**».

لم يروه عن أبي سلمة إلا ابن أبي حماد. تفرد به عبد العزيز بن محمد[1].

[ثم قال الميلاني]:

فهذا الإسناد لا يُتكلم فيه إلا من جهة «عطية»... وهو من رجال: البخاري في (الأدب المفرد)، وأبي داود في (سننه)، والترمذي في (سننه)، وابن ماجة في (سننه)، وأحمد في (مسنده)...

ووثقه ابن سعد، وقال الدوري ـ عن ابن معين ـ: صالح.

وقال البزار: يُعد في التشيع، روى عنه جلة الناس.

---

(١) الطبراني، سليمان بن أحمد (ت٣٦٠ هـ)، المعجم الصغير، ج٢، ص٢٢٢.

وقال أبو حاتم وابن عدي: يكتب حديثه.

وعلى الجملة، فهو من رجال غير واحد من الصحاح والمسانيد، والبخاري في (الأدب المفرد). وقد تكلم فيه بعضُ الرجاليين؛ لأجل تشيعه، وهو غير ضائر)[١].

وأما ما رُوي عن رسول الله ﷺ من تشبيهٍ بهذا الباب في حق الإمام علي عليه السلام خصوصاً، فمنه قوله ﷺ: **عليٌّ بابُ حطةٍ؛ من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً**)[٢].

وقال الصنعاني في شرحه:

(**عليٌّ بابُ حطةٍ**) شُبِّه به لأن من دخل منه حطت عنه الذنوب، كذلك من دخل قلبه حب علي يحط ذنوبه، (**مَن دخل منه**) ترشيحٌ للاستعارة على رأي أو للتشبيه البليغ علي آخر (**كان مؤمناً**).

والمرادُ من دخوله الامتثالُ لِما أمر به من حبه على الوجه المشروع؛ من غير غلو ولا تفريط .(**ومن خرج منه**) بأن أبغضه بغضَ الخوارج .(**كان كافراً**) قيل: والمرادُ مَن (**خرج منه**) خرج عليه وحاربه ونابذه كان كافراً آتياً بخصلة من خصال الكفار؛ وهو بغضهم لأهل الإيمان وقتالهم لهم) انتهى[٣].

وأما المناوي فقد قال في شرحه لهذا الحديث ما نصه:

(**عليٌّ بابُ حطةٍ**) أي طريق حط الخطايا (**مَن دخل منه**) على الوجه المأمور به؛ كما يشير إليه قوله سبحانه في قصة بني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

(**كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً**) يعني أنه سبحانه وتعالى كما جعل لبني إسرائيل؛ دخولهم الباب متواضعين خاشعين، سبباً للغفران، جعل لهذه الأمة

(١) الميلاني، السيد علي الحسيني (معاصر)، دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية، مدخل لشرح منهاج الكرامة، ص٣٠١.

(٢) الصنعاني، محمد بن إسماعيل (ت١١٨٢ هـ)، التنوير شرح الجامع الصغير، ج٧، ص٣٣٣؛ فيض القدير للمناوي، ج٤، ص٣٥٦.

(٣) المصدر السابق، ج٧، ص٣٣٣.

مودةَ عليٍّ، والاهتداءَ بهديه، وسلوكَ سبيله، وتوليَه، سبباً للغفران ودخولِ الجنان ونجاتِهم من النيران.

والمراد بـ(خرج منه) خرج عليه)[١].

(والوجه في تشبيههم عليهم السلام بباب حطة هو: أن الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والخضوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة. وقد جعل انقيادَ هذه الأمة لأهل بيت نبيها والاتباعَ لأئمتهم مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه، وبهذا كان سبباً للمغفرة)[٢].

ونحن نعرف؛ في ما حكاه الله في القرآن الكريم، أن الأممَ السابقةَ لنا ابتُليت بصنوف الامتحانات والابتلاءات، فسلِم مَن سلم، وهلك مَن هلك، وكان للسلامة شروطٌ كما أن للهلاك أسباباً ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود/ ١١٧]. والقانون الإلهي هو عرض الحق وتبيان معالمه وتمييز الباطل وطبيعته ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال/ ٤٢].

وباعتبار أن الدنيا هي دار بلاء وامتحان ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء/ ٣٥]. فلا مناص منهما؛ أعني الامتحان والابتلاء، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال/ ٣٧]، ومن أجل أن ننجو من ظلماتٍ بعضُها فوق بعض فلا بد لنا من هداية ربانية ومن منذرٍ أو هادٍ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد/ ٧].

وباعتبار أن الإنسان في الحاضر والمستقبل هو الإنسان نفسه الذي كان في الماضي، وذلك يؤسِّس للتسليم بالحاجة الذاتية فيه لربه تعالى. قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

فحاجة الإنسان ـ إذاً ـ للهداية الإلهية ستظل تلازمه دائماً وأبداً، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **لم يُخلِ سبحانه خلقَهُ من نبيٍّ مرسلٍ، أو كتابٍ**

---

(١) المناوي، عبد الرؤوف (ت١٠٣١ هـ)، فيض القدير، ج٤، ص٣٥٦.

(٢) الموسوي، السيد عبدالحسين شرف الدين (ت١٣٧٧ هـ)، المراجعات، المراجعة ٨.

منزَلٍ، أو حجةٍ لازمةٍ، أو محجةٍ قائمةٍ... على ذلك نسَلت القرونُ، ومضت الدهورُ، وسلَفت الآباء، وخلَّفت الأبناء)[١].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى، ط دار الكتب العلمية، ص٢١.
وقد أبان الميرزا الخوئي ﷺ هذا المقطع بما ينفع في المقام، وهذا نصه:
وهذا مما لا ريب فيه، ولا بدّ من بيان الحاجة إلى بعث الرّسل وإقامة البرهان على اضطرار النّاس إليه، وأنه لا بدَّ في كلِّ زمانٍ من حجةٍ معصومٍ عالمٍ بما يحتاج إليه الخلق. وقد دللوا على ذلك في الكتب الكلاميّة بالبراهين العقلية والنقلية ونحن نذكر منها هنا وجهاً واحداً لاقتضاء المقام. وذلك موقوف على رسم مقدمات:
الأولى: أن لنا خالقاً صانعاً قادراً على كلِّ شيءٍ.
الثانية: أنه سبحانه منزَّه عن التجسّم والتعلُّق بالموادِّ والأجسام، وعن أن يكون مبصَراً أو محسوساً بإحدى الحواس.
الثالثة: أنه تعالى حكيم عالم بوجوه الخير والمنفعة في النظام وسبيل المصلحة للخلايق في المعيشة والقوام والبقاء والدوام.
الرابعة: أنّ النّاس؛ على كثرتهم، محتاجون في معاشهم ومعادهم إلى مَن يدبّر أمورهم ويعلمهم طريق المعيشة في الدنيا والنجاة من العذاب في العقبى. وذلك: لأن من المعلوم أن نوع الانسان مدني بالطبع؛ بمعنى أنه لا بد في بقاء النوع إلى اجتماع كل واحدٍ من الأفراد مع الآخر يستغني به فيما يحتاج إليه من المآكل والمشارب والملابس والمساكن ونحوها، فيكون هذا يطحن لهذا، وذلك يبني لذلك، وذلك يخيط لآخر، وهكذا. فمن ذلك احتاجوا إلى بناء البلاد واجتماع الآحاد، واضطرّوا إلى عقد المعاملات. وبالجملة، لا بد في بقاء الإنسان من الاجتماع والمعاونة، والتعاونُ لا يتم إلا بالمعاملة، ولا بد في المعاملة من قانون عدل، إذ لو ترك الناس وآراءهم في ذلك لاختلفوا فيه، فيرى كلُّ أحدٍ منهم ما له عدلاً ما عليه ظلماً وجوراً؛ نظراً إلى أن كلَّ أحدٍ بالذّات والطبع طالبٌ لجلب المنفعة لنفسه ودفع المضرة عن نفسه؛ كما هو واضح. فعُلِم وجهُ الحاجة في المعاملات إلى القانون العدل.
ولا بدَّ لذلك القانون من مقنّن ومعدِّل، ولا يجوز أن يكون ذلك المعدِّل مَلَكاً، بل لا بدَّ وأن يكون بشراً؛ ضرورة أن المَلَك لا يمكن رؤية أكثر الناس له؛ لأن قواهم لا تقوى على رؤية الملك على صورته الأصلية، وإنّما رآهم الأفرادُ من الأنبياء بقوتهم القدسية، ولو فُرض أن يتشكَّل بحيث يراه جميع الخلق كان ملتبِساً عليهم كالبشر كجبرئيل في صورة دحية، ولذلك قال سبحانه ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام/ ٩]، ولا بدَّ أن يكون المعدِّل له خصوصيةٌ ليست لساير الناس حتى يستشعر الناس فيه أمراً لا يوجد لهم فيتميز به منهم؛ فيكون له المعجزات التي أخبرنا بها.
والحاجةُ إلى هذا الانسان في بقاء نوع البشر أشدُّ من كثير من المنافع التي لا ضرورة فيها للبقاء، كإنبات الشَّعر على الحاجبين، وتقعير الأخمص للقدمين، وما يجرى مجراهما من منافع الأعضاء التي بعضها للزينة وبعضها للسهولة في الأفعال والحركات، ووجود هذا الانسان الصالح لأن يشرع ويعدل ممكنٌ، =

ولا يُعقل أن يكون النصُّ النازلُ على النبي ﷺ؛ سواءٌ في ذلك القرآن والسنة، كافياً لتأمين هذه الهداية بمجرده، بل هو بحاجةٍ إلى شرحٍ وتبيينٍ.

وهذا ما قام به النبي ﷺ في زمن حياته؛ من تلاوة لآيات الله، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية المؤمنين، وبيان للذكر المنزَّل إليهم. قال تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة/ ١٢٩]، وقال تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل/ ٤٤].

فلما توفاه الله تعالى واختاره، احتاج الناسُ إلى مَن يقوم بأمر التبيين من جهةٍ، والتجسيد العملي من جهةٍ أخرى، وهو ما نعنيه بـ(الإمامة)؛ التي كان مصداقَها ـ أولاً ـ رسولُ الله، ومن بعده خلفاؤه بالحق من آل بيته عليهم السلام.

وذلك أن دورة الابتلاءات الربانية تنال المتأخرين كما نالت المتقدمين؛ سواءً بسواءٍ. وعليه، فإن الناس بأمسِّ الحاجة ـ دائماً ـ إلى مَن ينتشلهم من خضمِّ الصراعات وأمواج الفتن المتلاطمة. فكما كانت سفينة نوح عليه السلام سبباً لنجاة مَن ركب فيها، كذلك أهل البيت عليهم السلام يمثلون سفينةَ هذا الدين، ورحمة الله الموصولة، وحبله المتين، حيث تتعرض الأمة لشتى صنوف الغرق الفكري

=وتأييده بالمعجزات الموجبة لإذعان الخلق له أيضا ممكنٌ؛ فلا يجوز أن تكون العنايةُ الأولى تقتضي تلك المنافع ولا تقتضي هذه؛ التي هي أصلها وعمدتها.

فإذا تمهدت هذه المقدّمات فثبت، وتبين:

أنّه واجبٌ أن يوجد نبيٌّ، وأن يكون إنساناً، وأن يكون له خصوصيةٌ ليست لساير الناس؛ وهي الأمور الخارقة للعادات.

ويجب أن يَسنّ للناس سنناً بإذن الله وأمره ووحيه وإنزال الملك اليه، ويكون الأصل الأول في ما يسنّه تعريفَه إياهم أن لهم صانعاً قادراً واحداً لا شريك له، وأن النبيَّ عبدُهُ ورسولُهُ، وأنه [أي الله تعالى] عالم بالسر والعلانية، وأنّه من حقه أن يُطاع أمره، وأنّه قد أعدَّ للمطيعين الجنّة وللعاصين النّار؛ حتى يتلقى الجمهورُ أحكامَه المنزلةَ على لسانه من الله والملائكة بالسمع والطاعة) انتهى [الخوئي، ميرزا حبيب الله (ت١٣٢٤ هـ)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٤ ـ ١٥٦].

والنفسي، الظاهري والمعنوي، والتي لا نجاة للأمة بغير الركوب فيها. وما أحسنه من تشبيه ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ؛ كما وصف نفسه صادقاً[(١)].

وكذلك فإن الأمة بحاجة إلى الخضوع والتعبد لله؛ من حيث يريد الله لا حيث يريد الناس، فله عز اسمه أن يحدد طبيعةَ العبادة، ومكانَها، وزمانَها، وشروطَها، وكلَّ ما هو لازمٌ فيها، وما هو سببٌ لكمالها.

وهذا ما طُلب من بني إسرائيل أن ينفذوه ويلتزموا به؛ فأطاع من أطاع، وعصى من عصى. فقد أُمروا بأن يقولوا (حطة)، ويدخلوا من (باب حطة)، فقال تعالى ـ حاكياً أمره إياهم ـ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ١٦١]؛ ليجسِّدوا عملياً خضوعَهم لبارئهم، ويتجاوزوا حالةَ الشعار. وهذا ما يجب على أمة الإسلام أن تلتزمه؛ فلا أمرَ لهم مع أمرِ الله تعالى، ولا نهيَ لهم مع نهيه.

بهذا وذاك ـ فقط ـ ستنجو أمتُنا، وإلا فستُبتلى بالغرق كما غرق قومُ نوح عليه السلام، أو بـ (التيه)؛ كما ابتُلِي قومُ موسى عليه السلام، وما أشبه الليلة بالبارحة.

خاتمة: في آفاق حديثي السفينة وباب حطة

١ ـ من مظاهر الرحمة الإلهية أن مضمونَ الحديث؛ المشتمل على تشبيه أهل البيت عليهم السلام بسفينة نوح، مما اتفق على التسليم به أئمةُ الحديث من مختلف المذاهب الإسلامية؛ حتى إنّ عدداً من العلماء أفردوا له مؤلفاتٍ ورسائلَ؛ تناولته بالدراسة والبحث سنداً ودلالةً.

وكنموذج على ذلك نشير إلى كتاب (عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار)؛ لمؤلفه العلامة المحقق السيد حامد حسين النقوي رحمه الله؛ الذي خصص

---

(١) الخصال، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٣، ص٣٥١، أبواب التيمم، الباب ١ ـ وجوب طلب الماء مع الإمكان غلوة سهم في الحزنة، الحديث ٤؛ صحيح مسلم، باب المساجد ومواضع الصلاة، وباب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، وباب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام.

جزءاً مستقلاً لهذا الحديث؛ لخصه العلامة السيد علي الميلاني (حفظه الله)؛ في الجزء الرابع من كتاب (خلاصة عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار).

والأصل والتلخيص ـ معاً ـ مما ينبغي للباحث عن الحقيقة في هذه المسألة أن يقف عليهما؛ فقد عالجا الحديثَ بما لا مزيد عليه فلله تعالى درُّهما، وعليه أجرهما.

ومما يؤسف له أن يبلغ التعصب والعناد ببعضهم بحيث يجهر بما يضحك الثكلى؛ فيقول ـ كما حكاه صاحب العبقات ـ في الرد على العلامة الحلي؛ الذي أورد الحديث دليلاً على إمامة أهل البيت عليهم السلام:

وأما قوله [والضمير يرجع للعلامة الحلي]: «**مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح**» فهذا لا يُعرف له إسنادٌ لا[1] صحيح، ولا هو في شيء من كتب الحديث التي يُعتمد عليها. فإن كان قد رواه مثل مَن يروي أمثالَه من حُطاب الليل؛ الذين يروون الموضوعات، فهذا ما يزيده وهناً)[2].

مما حدا بصاحب العبقات أن يبذل جهداً مشكوراً ـ في رد هذه الدعوى الباطلة ـ بدأه بقوله:

لقد روى حديث السفينة وخرجه جماعة كبيرة من أئمة أهل السنة وحفاظهم، بطرق متكاثرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله[3].

ثم أورد ثبتاً بأسماء (**٩٢**) عالماً من علماء إخواننا السنة؛ بدأهم بالإمام

---

(١) ساقطة من (ب).

(٢) ابن تيمية، أحمد (ت٧٢٨ هـ)، منهاج السنة النبوية، ج٧، ٣٩٥.
وقد نقله صاحب نفحات الأزهار، ج ٤، ص١٩، وكذلك في خلاصة عبقات الأنوار، السيد حامد النقوي، ج٤، ص١٣، باختلافٍ يسيرٍ لا يخل بالمقصود، غير أننا حرصنا على نقله من المصدر مباشرة. ونص ما نقله السيد حامد هو: وأما قوله: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح. فهذا لا يُعرف له إسنادٌ أصلاً صحيحٌ ولا ضعيفٌ، ولا هو في شيء من كتب الحديث التي يُعتمد عليها، وإن كان قد رواه مَن يروي أمثاله من حُطَّاب الليل؛ الذين يروون الموضوعات، فهذا مما يزيده وهناً وضعفاً).

(٣) الميلاني، السيد علي الحسيني (معاصر)، خلاصة عبقات الأنوار، ج٤، ص١٥.

الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ، مختتماً إياهم بحسن الزمان التركماني من علماء القرن الثالث عشر الهجري في كتابه (القول المستحسن في فخر الحسن).

وقد استغرق نقلُ أقوالهم والتعريفُ بهم تخصيص (٩٩) صفحة، ابتداءً من صفحة (٢٣) وانتهاءً بالصفحة (١٢٢). وألحق الملخِّص ثبتاً بأسماء ستين شخصاً من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين إلى علماء القرن الرابع عشر، خلاف مَن ذكرهم صاحب العبقات، ليستغرق نقلُ أقوالهم وتعريفُ مَن عدا الصحابة والتابعين وتابعيهم (٧٤) صفحة، بدءاً بالصفحة (١٢٦) وانتهاء بالصفحة (١٩٥) من المجلد الرابع من خلاصة العبقات.

فالحديث ـ إذاً ـ من المتواترات، أو المستفيض؛ بلا ريبٍ.

ثم عقد فصلاً لإيراد شواهد ستة لمضمون الحديث توزعت بين دعوى أهل البيت عليهم السلام الصادقة بأنهم سفينة نجاة هذه الأمة، وتسليم أعدائهم بذلك كعمرو بن العاص، والمنحرفين عنهم كالحسن البصري.

لينتقل في فصل مستقل إلى الحديث عن دلالات الحديث مورد البحث ليضعها في نقاط[1]:

الدلالة الأولى: وجوب اتباعهم

الدلالة الثانية: إيجاب (استلزام) اتباعهم للنجاة

الدلالة الثالثة: تفضيلهم على من عداهم

الدلالة الرابعة: وجوب محبتهم

الدلالة الخامسة: عصمتهم

الدلالة السادسة: ضلالة من تخلف عنهم

الدلالة السابعة: أنهم عليهم السلام الميزان في معرفة المؤمن والكافر

الدلالة الثامنة: لزوم الإمام في كل عصر

مع التأكيد على أن هذه الدلالات؛ أو النتائج، لا يحتاج التسليم بها إلى

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠٧ ـ ٢١٠.

تكلف ولا إلى تمحل، بل إن الفهم العام لدى علماء الأمة؛ كما أورد نماذج له صاحبُ العبقات، يؤكد ذلك، بشرطٍ واحدٍ؛ هو: أن يتعامل القارئُ للنص بموضوعيةٍ وحيادٍ؛ بعيداً عن أي مواقف مسبقة، أو متحيزة لغير الحق.

٢ ـ أما حديث باب حطة فهو ـ أيضاً ـ من الأحاديث المشهورة، وقد رواه مشاهير أئمة الحديث؛ كما قدمنا.

وفيه ـ من الدلالات ـ الكثيرُ مما يؤكد محورية أهل البيت عليهم السلام في مسيرة الإسلام نظرياً وتطبيقياً.

ومن تلك الدلالات ما رواه الخزاز القمي في كتاب (كفاية الأثر) عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن: **الدعاء لا يزال محجوباً حتى يصلَّى عليَّ وعلى أهل بيتي)**[1].
فإذا كان أهل البيت عليهم السلام صنواً لرسول الله صلى الله عليه وآله في تجسيد رحمة الله للناس؛ حتى قُرن ذكرُهم بذكره في الصلاة عليه، وجُعِلوا وسيلة الإجابة للدعاء، فهل ثمة بابُ خيرٍ من هذا الباب وأهمُّ؟!

فلا يجوز للأمة ـ جماعاتٍ، وأفراداً ـ أن يفعلوا كما فعل بنو إسرائيل؛ من التخلف عمّا أمر به الله تعالى؛ إذ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٦٤]. فإن بني إسرائيل أُمروا بالدخول إلى الباب سجداً، لكنهم بدلوا، وغيَّروا؛ استهزاءً واستخفافاً!!

والمطلوب من المسلم أن يخضع لله تعالى، ويتعبد له؛ في كل ما يأمره به شكلاً ومضموناً؛ فـ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران/ ١٩].

ونصل ـ بمجمل ما قدمناه ـ إلى نتيجتين مهمتين:

---

(١) كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، وعنه: بحار الأنوار، ج٩١، ص٦٦، الباب ٢٩ ـ فضل الصلاة على النبي وآله صلى الله عليهم أجمعين، الحديث ٥٧.
وتجده لدى ابن كثير في تفسير سورة الأحزاب، في الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله؛ دون الصلاة على آل النبي (صلى الله عليه وعليهم).
وأخرج الهيثمي عن علي بن أبي طالب، قال: **كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم وآل محمد.** رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات) مجمع الزوائد، ج١٠، باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء وغيره، الحديث ١.

الأولى: لا يجوز للأمة أن تستبدل بأهل البيت عليهم السلام غيرهم أئمةً وقادةً، تأتم بهم، وتنصاع لهم؛ أمراً ونهياً. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **فلا تقدموهما** (الكتاب، والآل)؛ **فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما؛ فتهلكوا، ولا تعلّموهم** [أهل البيت]؛ **فإنهم أعلم منكم**)[1].

وبالتالي، لو دار الأمرُ بين طاعتهم وطاعة غيرهم؛ عند الاختلاف، لوجب طاعة أهل البيت عليهم السلام دون مَن خالفهم. وهذا ما يسوِّغ ما نقرأه في زيارتهم؛ حيث نقول (... **معكم معكم، لا مع عدوكم [أو غيركم]**)[2].

الثانية: لا يجوز لمن سلَّم لهم (نظرياً) أن يخالفهم (عملياً)، وإلا تحوَّلت الولايةُ لهم إلى شعارٍ خالٍ من المضمون. قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف/ ٢ - ٣]. وعن الإمام الباقر عليه السلام، قال: **لا تذهب بكم المذاهب! فواللهِ! ما شيعتُنا إلا مَن أطاع اللهَ عزّ وجلّ**)[3]. وعنه عليه السلام أنه قال - في حديثٍ -: **أيكتفي من ينتحل التشيعَ أن يقول بحبنا أهل البيت؟! فوالله! ما شيعتنا إلا مَن اتقى الله وأطاعه...**)[4].

لذلك نقول: إن التشيع ذو مراتب، والشيعة طبقات، فكلما كان المتشيعُ لهم

---

(١) ابن حجر الهيتمي، أحمد (ت٩٧٤ هـ)، الصواعق المحرقة، ص١٤٨، ص٢٢٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ج٥، أنس بن مالك عن زيد بن أرقم، ص١٦٧، مجمع الزوائد، ج٩، ص١٦٣، باب فضل أهل البيت رضي الله عنهم.
وقال الخطيب التبريزي؛ في الحكم على إسناده: إسناده حسن؛ لأجل حكيم بن جبير، وقد تابعه عليه حبيب بن أبي ثابت وفطر بن خليفة عن أبي الطفيل. فالحديث صحيح لغيره بهذا الإسناد، وقد صححه ابن حجر المكي) الإكمال في أسماء الرجال، ص٧٢.

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، كتاب الحج، باب الزيارات، الزيارة الجامعة؛ مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

(٣) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٢٣٣ - ٢٣٤، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١٨ - وجوب طاعة الله، الحديث ١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٣٤، الحديث ٣.

أطوعَ لله تعالى، وأشدَّ التزاماً بما طُلب منه، كان في مرتبةٍ أعلى مما لو كان أقلَّ طاعةً.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **مَن لم يأت قبرَ الحسين عليه السلام؛ وهو يزعم أنه لنا شيعةٌ، حتى يموتَ؛ فليس هو لنا بشيعةٍ. وإن كان من أهل الجنة فهو [من] ضِيفان أهل الجنة)**(١).

وننتهي ـ من كل ما تقدم ـ إلى أن قوماً هذا شأنُهُم:

١ ـ (طاهرون)

٢ ـ (أمننا الشامل بيدهم)

٣ ـ (نجاتنا في الدارين على أيديهم)

سيدفعنا ـ بالضرورة ـ إلى أن نتساءل بإلحاحٍ:

ألا يجب محبتهم؟!

لنبادر بالجواب:

إن العقلَ يدرك، والشرعَ يحكم، بوجوبِ: محبتِهِم، وموالاتِهِم، واتباعِ نهجِهِم، والسير على خطاهم.

وصدق رسولُ الله صلى الله عليه وآله حيث قال: **إني تارك فيكم أمرين، إن أخذتم بهما لن تضلوا، كتابَ الله عزّ وجلّ، وأهلَ بيتي عترتي)**(٢).

وروي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛

---

(١) كامل الزيارات، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٤، ص٤٣٢، كتاب الحج، أبواب المزار، الباب ٣٨ ـ كراهة ترك زيارة الحسين عليه السلام، الحديث ١١.
ما بين المعقوفتين [من] ليست في الوسائل، لكنها في المصدر الباب ٧٨، الحديث ٣، وفي بحار الأنوار، ج٩٨، ص٤. وفي جامع الأحاديث، ج١٢، ص٤٦٧.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٢٩٤، كتاب الحجة، باب ما نص الله عزّ وجلّ ورسوله على الأئمة واحداً فواحداً، الحديث ٧.

كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوضَ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

ثم قال الترمذي؛ في الحكم على هذا الحديث: هذا حديث حسن غريب)[١].

وعن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي: كتاب الله وعترتي، أهل بيتي. وإنهما لن يتفرقا؛ حتى يردا علي الحوض)**[٢].

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى (ت٢٧٩ هـ)، الجامع الصحيح؛ المعروف بـ(سنن الترمذي)، مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم.

(٢) الكوفي، ابن أبي شيبة (ت٢٣٥ هـ)، المصنف، ج٧، ص٣٠ ـ كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم، الحديث ٤١.



الفصل الثامن

التعامل بجدّية مع التعاليم الدينية

(يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به[1] تكن سعيداً في الدنيا والآخرة) [الفقرة/ ٩].

تواجه التعاليم التربوية؛ والدينية منها على وجه الخصوص، مشكلةً عويصةً، بل اثنتين:

الأولى: مشكلة الفهم

الثانية: مشكلة التطبيق

فكيف يجب التعامل معهما؟!

الجواب:

١ ـ أما المشكلة الأولى فيتم معالجتها عبر (التعليم والتبيين)؛ بمختلف الوسائل التي تُعتمَد عادةً فيهما، أو تُبتَكر لهما. وبالطبع، فإنه ينبغي، بل يجب، أن يُراعى في العلاج وضعُ المتعلِّم، واستعداده الفكري والنفسي؛ بل والجسدي أحياناً.

وقد اعتمد الإسلامُ وسائلَ عديدةً؛ تصب جميعها في رفع الجهل وجعل العلم محوراً من محاور الاهتمام الديني، فحدث ـ إثر ذلك ـ ما يشبه الانقلابَ في المجتمعات الإسلامية؛ بمجرد انتشار التعاليم الدينية في أوساطها.

(١) في الأمالي (ما أوصيتُك به).

وهذا العلاج يعتمد على جهدٍ يبذله شخص؛ أو أشخاص، في حق آخر؛ أو آخرين. ابتداءً من الأبوين في المنزل، مروراً بالأسرة الكبيرة والحي، وانتهاءً بالمدرسة والجامعة ووسائل الإعلام والكتب والأنترنت أخيراً، ونحو ذلك.

٢ ـ أما علاج المشكلة الثانية (التطبيق) فطريقُهُ ذاتيٌّ وداخليٌّ في الدرجة الأولى؛ لأنه إلى الاستقبالِ أقربُ منه إلى الإرسال. فلا يكفي أن نعلّم التلميذَ؛ لنضمن رفعَ جهله؛ لأننا بصدد معالجة التطبيق؛ الذي قد يتجاوز الجهلَ إلى ضعف الإرادة في التطبيق؛ بسبب ضعف الإيمان بالفكرة، أو الرغبة في التمرد عليها، أو إيلام الغير بمخالفتها، ونحو ذلك من موجبات ودواعي الإخفاق في هذا الباب.

لذلك، فإن طريقَ علاج المشكلة الثانية هو أشدُّ تعقيداً من علاج المشكلة الأولى. ولعل هذا هو السرُّ في التعبير عن تربية النفس، وجهادها، وتهذيبها، بـ**(الجهاد الأكبر)**[١].

والسبب فيه: أن الغالبية العظمى من الناس يفتقدون للدوافع نحو الإصلاح؛ من قبيل الكسل والخمول، أو أنهم مبتلَوْن بموانعَ داخليةٍ. وعمدةُ هذه الموانع تتمثل في الذنوب والمعاصي؛ التي تحول بينهم وبين السعي في طريق الإصلاح.

والعلاجان ـ معاً ـ يحتاجان إلى أن يتوفر الإنسان على (القوة)؛ التي تتجاوز البعدَ الماديَّ إلى البعدِ المعنويِّ.

وقد حفلت النصوص الإسلامية؛ كتاباً وسنةً، على أن (القوة) فضيلةٌ؛ ينبغي للمسلم والمؤمن أن يتحلى بها.

أ ـ فقال تعالى؛ حاكياً قول ابنة نبي الله شعيب عليه السلام؛ كشف عن ثقافةٍ تلقتها ـ

---

(١) في الخبر الذي رواه الشيخ الكليني بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام أن النبي (صلى الله عليه وآله) بعث بسريّة فلمّا رجعوا قال: **مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر! قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس**. [الكافي، وعنه: وسائل الشيعة، ج١٥، ص١٦١، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١ ـ وجوبه، الحديث ١.

وروي نحوُهُ في الفتح السماوي للمناوي، ج٢، ص٥١٣ ـ ٥١٤.

ولأهمية هذا الجهاد قال بعض العلماء (الجهاد جهاد النفس). انظر: الديباج على صحيح مسلم للسيوطي، ج٢، ص٣٥.

بطبيعة الحال ـ من أبيها الذي أحسن تربيتها؛ لتهديها قناعاتُها إلى القول ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص/ ٢٦].

ب ـ نقرأ خطابه تعالى إلى نبيه موسى عليه السلام ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف/ ١٤٥].

جـ ـ جاء في خطابه لبني إسرائيل ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف/ ١٧١].

د ـ خطابه تعالى لنبيه يحيى عليه السلام ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم/ ١٢].

هـ ـ جاء في الأمر الموجَّه إلى هذه الأمة ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال/ ٦٠].

و ـ وقبل هذا ـ كله ـ فإن القوة جاءت وصفاً لله تعالى؛ فهي ـ إذاً ـ كمالٌ، والزهدُ في الكمال مذمومٌ. قال تعالى ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب/ ٢٥].

فـ(القوة) ـ إذاً ـ ممدوحةٌ، وفي الوقت نفسه هي مطلوبةٌ، بل إنها لازمةٌ؛ إذ لا غنى للإنسان عن أن يكون قوياً، إذا ما أراد أن يشق طريق الحياة، ويتجاوز تعقيداتها؛ خصوصاً إذا لاحظنا ما يحيط به من عوامل مضادة اقتضتها الابتلاءات الإلهية.

وتأسيساً على هذا المبدأ؛ فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تُناط المهامُّ والواجباتُ؛ وهي ما يُعرف في أدبياتنا بـ(التكاليف الشرعية)، بالقادرين عليها، فـ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة/ ٢٨٧]. وهذا هو المناسب لعدلِ الله تعالى من جهةٍ، ولحكمتِه سبحانه من جهةٍ أخرى.

ومن ثَمّ لم يُكلَّف الإنسانُ العاجزُ إلا ما يستطيع أن يؤديه؛ فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: **رُفِع عن أمتي:... وما لا يطيقون...)**[1].

---

(١) التوحيد والخصال، وعنهما: وسائل الشيعة في تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٣٦٩، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٥٦ ـ باب جملة مما عفي عنه، الحديث ١.

القوة وسيلة لا غاية:

لا بد من التنبيه إلى أن القوةَ ليست مطلوبةً لذاتها، وإنما للتوصل بها؛ ومن خلالها، إلى إحقاق القسط والعدل وتجسيد الخلافة الربانية؛ التي خُلق الناس على أساسها؛ كما يفيده قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠]. وذلك ما يتوقف على التحلِّي بـ(القوة) الإيجابية، كيما تؤدي هذه القوة ـ بأشكالها المختلفة ـ عدداً من الأدوار، أشارت الآية؛ التي ذكرناها في البند (هـ)، إلى ثلاثة منها:

١ ـ إخافة العدو الخارجي ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

٢ ـ إخافة العدو الداخلي ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾

٣ ـ الاستعداد والحذر من الطوارئ، الجلي منها والخفي ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

وعلى كلِّ حالٍ، فإن الرسول ﷺ يوصي أباذر (رضوان الله عليه) ـ في هذه الوصية ـ بأن يتعامل مع ما سيلقيه إليه من وصايا بـ(**أن يحفظها**)، و(... حقيقة الحفظ هي: المراقبة، والضبط مطلقاً)(١). والحفظ هو: الصيانة والرعاية(٢)، وهو كذلك: الوعي والتعاهد(٣).

---

(١) قال السيد المصطفوي:
إنّ مفهوم الحفظ يختلف باختلاف الموارد والموضوعات، يقال: حفظ المال من التلف، وحفظ الأمانة من الخيانة، وحفظ الصلاة من الفوت، وحافظه أي راقبه، وتحفّظ أي تحرّز بحفظ نفسه عمّا لا يلائم، وحفظ يمينه وعهده أي عمل بتعهّده ووفى به، وحفظ القرآن على ظهر قلبه، وأحفظه أي جعله حافظاً، ومنه يقال للغضب الإحفاظ، فإنّه يجعل صاحبه حافظاً ومحفوظاً، فإنَّ الغضب هو دفع ما لا يلائم والدفاع عن الضرر.
فالحفظ في الأعيان: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾[يوسف/ ٦٥].
وفي الأعمال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام/ ٩٢].
وفي المعاني: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾[يوسف/ ٨١].
وفي العهود: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾[المائدة/ ٨٩].
وفي الإطلاق والعموم: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[سبأ/ ٢١]، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [ق/ ٤].
... فحقيقة الحفظ هي المراقبة والضبط مطلقاً) انتهى. [التحقيق في كلمات القرآن مادة (حفظ)].

(٢) عبدالمنعم، محمود عبدالرحمن (معاصر)، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، مادة (حفظ).

(٣) العين، الخليل بن أحمد (ت١٧٠ هـ)، مادة (وعى) ومادة (حفظ).

وهذه التعريفات لـ(الحفظ) تعني ـ بالنسبة للوصية التي ألقاها النبي ﷺ على أبي ذر (رضوان الله عليه) ـ أموراً:

* استظهارها في المرحلة الأولى، وهو أمر غير أساسي إلا بنحو التسهيل.

* فهمها وتدبرها في المرحلة الثانية، وهو أمرٌ مهمٌّ.

* تطبيقها وتجسيدها، في المرحلة الثالثة، وهو الأمر الأهم والمطلوب الأصلي. قال تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٦٤].

ثم نبَّه الرسول ﷺ إلى أن حفظ هذه الوصايا سينتهي بحافظها إلى نتيجةٍ لا تعدلها نتيجةٌ؛ وهي (السعادة في الدنيا والآخرة).

والسعادة تعني: رضا الله تعالى؛ من خلال النأي بالنفس عن النار، والحرص على دخول الجنة[1]. وختاماً فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد/ ١١].

ونخلص إلى القول: إن الإنسان ـ الراغب في الصلاح والإصلاح ـ بحاجة إلى أن يكون قوياً؛ في عقله، وفي روحه، وفي نفسه، وفي بدنه، وفي تماسكه الاجتماعي، وأوضاعه الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية...، وبذاك يكون باب السعادة قد فُتِح إن شاء الله تعالى.

***

السعادة ـ تعريف ومعادلة

لنختم هذا الفصلَ بمرورٍ سريعٍ على تعريف السعادة؛ ضمن المعادلة التي نص عليها النبي ﷺ في كلامه الشريف.

---

(١) قال الله تعالى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران/ ١٨٥]. وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة/ ٢٠].

١ ـ تعريف السعادة

قال السيد المصطفوي ـ في تعريف السعادة ـ أنها:

حالة تقتضي الخير والفضل والصلاح. وهذا المعنى إما في ذاتٍ من حيث هو، تكويناً واستعداداً، وإما في عملٍ من جهةِ توفيق الأعمال الصالحة.

ويقابل هذا المفهومَ: الشقاءُ والنحوسةُ؛ أي حالة شدَّةٍ وعناءٍ وكلفةٍ تمنع عن الخير والصلاح والفضل والسلوك إلى الكمال)[1].

وقال الملا صالح المازندراني عن السعادة:

السعادة والشقاوة حالتان متقابلتان للإنسان. ولهما: أثر، وسبب قريب، وسبب بعيد.

أما الأثر فهو: استحقاق الثواب والعقاب.

وأما السبب القريب فهو: الإتيان بالخيرات؛ التي أشرفها الإيمان، والإتيان بالشرور؛ التي أخسُّها الكفر.

وقد يطلق السعادة والشقاوة على نفس هذا السبب أيضاً.

ومقولة الإمام الصادق عليه السلام: **السعادة سبب خير، يمسك به السعيد فيجره إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلان يمسك به الشقي فيجره إلى الهلكة، وكلٌّ بعلم الله)**[2]، تحتمل الأمرين.

وأما السبب البعيد فهو: ما أشار إليه مولانا الباقر عليه السلام بقوله: **إن الله جل وعز قبل أن يخلق الخلق قال كن ماء عذباً، أخلق منك جنتي وأهل طاعتي، وكن ملحاً أجاجاً أخلق منك ناري وأهل معصيتي، ثم أمرهما فامتزجا. فمن ثَم صار يلد المؤمنُ الكافرَ والكافرُ المؤمنَ ـ الحديث)**، فإن هذين الماءين سببٌ لاقتدار الإنسان بالخير والشر وتكليفه وامتحانه بهما، ومبدأٌ لاستعداده لقبول السعادة

(١) المصطفوي، السيد حسن (معاصر)، التحقيق في كلمات القرآن، مادة (سعد).

(٢) المجلسي، محمد باقر (ت١١١١ هـ)، ج١٠، الباب ١٣ ـ احتجاجات الصادق صلوات الله عليه على الزنادقة والمخالفين ومناظراته معهم، الحديث ٢.

والشقاوة وميله إليهما، ولا يقتضي ذلك الجبر؛ لأن الجبر إنما يلزم لو خلقه من ماء أجاج وحده؛ فإن ذلك كان يوجب انتفاء القدرة على الخير.

والظاهر أنهما يطلقان على هذا السبب أيضاً.

وبالجملة، هما ـ في الحقيقة ـ الحالتان المذكورتان، وإطلاقهما على السببين المذكورين على سبيل التوسع من باب تسمية السبب باسم المسبب)[١].

وهذا الشرح للسعادة مستقى من النصوص الشريفة؛ المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ حيث أشاروا إلى المعنى الواسع للسعادة، وتطبيقاتها، ومستوياتها.

أ ـ فقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: **الكتمان طرف من السعادة)**[٢].

ب ـ روي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: **إن من سعادة المرء أن يكون متجره في بلده، ويكون خلطاؤه صالحين، ويكون له وِلدٌ يستعين بهم)**[٣].

جـ ـ روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: **من السعادة سعة المنزل)**[٤].

ولا تباين في كلماتهم؛ لأن كلَّ خبرٍ منها، وغيرها، بيَّن مصداقاً من مصاديق السعادة.

ويجب الإلماح إلى أن العبرة في السعادة الحقيقية والمصيرية إنما يكون بالخواتيم. ففي الخبر عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **حقيقةُ السعادة أن يختم الرجلُ عملَه بالسعادة، وحقيقة الشقاء أن يختم المرءُ عمله بالشقاء)**[٥].

---

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨١ هـ)، شرح أصول الكافي، ج٤، ص٢٨٣.

(٢) الحراني، ابن شعبة (ق ٤)، تحف العقول، باب ما روي عن علي عليه السلام، ما روي من قصار كلماته، ص٢٢٣.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، ج٥، ص٢٥٧، كتاب المعيشة، باب (أن من السعادة أن يكون معيشة الرجل في بلده)، الحديث ١.

(٤) البرقي، أحمد بن محمد (ت٢٧٤ هـ)، المحاسن، باب سعة المنزل، ح ٢٠، ج٢، ص٦١٠.

(٥) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، ص٥، باب الواحد، الحديث ١٤.

وما سيأتي في فصول وصيتنا هذه إنما هو وجوه للسعادة؛ من حيث أسبابها القريبة والبعيدة.

وللاستزادة في موارد السعادة وتطبيقاتها يمكن الرجوع إلى مادة (السعادة) في كتاب ميزان الحكمة.

٢ ـ معادلة السعادة

اللَّافت في التعبير النبوي هو صياغة الوصية كمعادلة وقانون. وذلك، أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

(يا أبا ذر! احفظ ما أوصيك به[١] تكن سعيداً في الدنيا والآخرة).

فثمة ـ إذاً ـ شرطٌ؛ هو (حفظ الوصية)، وثمة جزاءٌ؛ يمثل النتيجة المنطقية والمؤكدة لهذه المعادلة؛ هي (السعادة).

وهنا أمر آخر هو: أن النص بيَّن أن السعادة المنتظرة لحافظ هذه الوصية تستوعب الدنيا والآخرة معاً.

بقي أن ننبه إلى: أن السعادة في الدنيا لا تتنافى والابتلاء؛ لأن الدنيا قائمة على أساس الامتحان والابتلاء، قال تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت/ ١]. بل إن الابتلاء هو الذي يؤسس لمن يجتاز ـ بنجاحٍ ـ قواعدَ السعادة المرجوة عاجلاً أو آجلاً. و(**إن أشدَّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الذين يلونهم، ثم الأمثلُ فالأمثلُ**)؛ كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام[٢].

وفي هذا السياق يصح القولُ إن النبي نفسه (صلى الله عليه وآله)؛ وهو الموصي بهذه الوصية، والسابق للعمل بجميع مضامينها، كان هو المبتلَى الأول،

---

(١) في الأمالي (ما أوصيتُك به).

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، الحديث ١.

وسيرته شاهدة على ذلك، حتى روي عنه ﷺ قوله **(ما أوذيَ نبيٌّ مثلَ ما أوذيتُ)**[١]، أو **(ما أوذيَ أحدٌ ما أوذيت)**[٢].

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي (ت٥٨٨ هـ)، مناقب آل أبي طالب، ج٣، باب في النكت واللطائف، ج٣، ص٤٢؛ بحار الأنوار، ج٣٩، ص٥٦، الباب ٧٣ ـ أن فيه [علي] عليه السلام خصال الأنبياء عليهم السلام...، في مساواته عليه السلام يعقوب ويوسف عليهما السلام؛ الجامع الصغير برقم (٧٨٥٢).

(٢) السيوطي، جلال الدين (ت٩١١ هـ)، الجامع الصغير، ج٢، ص٤٨٨؛ كنز العمال ط. حلب، ج٣، ص١٢٠؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج٥، ص٥٥؛ كشف الخفاء، ج٢، ص١٨٠؛ تهذيب الكمال، ج٢٥، ص٣١٤، ؛كما في المصدر السابق.



الباب الثاني

الأدوات والآليّات للصراط المستقيم (الحكمة العمليّة)



الفصل الأول

فن التعامل مع النعم

● **[الفقرتان ١٠ ـ ١١]:**

> **(يا أبا ذر! نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة، والفراغ. يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك).**

المبحث الأول: جذور النعم

انطلاقاً من اتصاف الله تعالى بـ(الجود)، و(الإحسان)، و(اللطف)، وصفات ربانية أخرى، نؤكِّد على أن الله تباركت أسماؤه جادَ، وأحسنَ، ولطُف بمخلوقه؛ وهو الإنسان، بكل ما تتقوَّم به حياته وتتكامل؛ على مستوى حياته العاجلة (الدنيا)، والآجلة (الآخرة).

فإن من الحقائق التي لا تخفى على عاقلٍ منصفٍ أنَّ الناسَ؛ مهما اختلفت مستوياتُ معيشتِهم، ومعارفُهم، وانتماءاتُهم...، وفي مختلف مراحل حياتهم، أنهم يتقلبون في أصناف من العطايا والمنح؛ تتنوع إلى نوعين:

* النوع الأول: النعم المادية

* النوع الثاني: النعم المعنوية.

وكل منهما ينقسم إلى:

١ ـ ضروري.

٢ ـ كمالي.

وهذه الصنوف الأربعة يمكن تصنيفها إلى:

١ ـ نعم ترتبط بالوجود في الدنيا

٢ ـ نعم ترتبط بالوجود الأخروي

فمن النعم: ما هو ضروريٌّ تتقوَّم حياةُ كلٍّ منهم به، كالماء والهواء والغذاء...؛ حيث لا يُتصوَّر أن أحداً من الناس سيعيش لو حُرم من الماء أو الهواء أو الغذاء ونحوها مما تتوقف عليه حياة الإنسان.

ومنها: ما يكون سبباً في رغد العيش؛ كبعض مراتب الصحة، والقوة الجسمانية والاجتماعية والاقتصادية، والزمن.

ومنها: ما يتعلق بالوجود الإنساني غير المادي؛ من: علمٍ، ومشاعرَ، ومصيرٍ.

وقد يقال في تصنيف النعم وتنويعها ما ذكره أحد العلماء؛ بقوله:

إن المستفاد من الأحاديث أن النعيم الإلهي على قسمين:

* قسم منها عبارة عن الأصول والعقائد الدينيّة كالأصول الخمسة التي منها الإمامة؛ أي ولاية الأئمة عليهم السلام، ويلحق بها الضروريات الدينية...

* وقسم ثان منها سائر النعم الإلهية من المطاعم والمشارب والمناكح والمساكن والمنام وغيرها من نعمه تعالى التي لا تعدّ ولا تحصى...)[1].

وهذه العطايا والمنح ـ بقسميها ـ هي ما نسميه بالـ(**نِّعَم**).

---

(١) الكربلائي، الشيخ جواد عباس (ت١٤٣٢ هـ)، الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة، ج٥، قوله عليه السلام: فثبّتني الله أبداً ما حييت على موالاتكم ومحبتكم ودينكم، ووفّقني لطاعتكم)، ص٨٥، ٨٦.

المبحث الثاني: حقائق حول النعم

الحقيقة الأولى: النعم من الله تعالى

حول هذه النعم يجب أن نقرر حقيقةً لا ينبغي أن يغفل عنها عاقلٌ، وهي: أن هذه النعمَ ليست نابعةً ـ في مبادئها، وأصولها ـ من الإنسان، وإنما هي هباتٌ وهدايا من ولي النعمة لهذا الإنسان؛ وهو (خالقه)؛ الذي وهبه كلَّ نعمةٍ يتقلب فيها ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

الحقيقة الثانية: وفرة النعم وكثرتها

إن هذه النعمَ لا تُعد كثرةً ووفرةً ولا تحصى، قال الله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم/ ٣٤].

الحقيقة الثالثة: شمولية النعم

إن هذه النعمَ شاملةٌ لجميع مناحي الحياة الإنسانية؛ ماديةً ومعنويةً، لجهة تأمين ما يحتاجه الإنسانُ الفقيرُ ـ بطبعه وطبيعته ـ إلى ربه الغني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

وقد عبّر القرآن/ الخطاب الإلهي عن هذه الحقيقة بقول الله تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم/ ٣٤]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان/ ٢٠].

الحقيقة الرابعة: دوام الفيض الإلهي

يُضاف إلى تلكم الحقائق الثلاث حقيقةُ: أن تلك النعمَ تكشف عن الحاجة الذاتية في جوهر الإنسان؛ وهو الفقير، إلى مقام الربوبية الغني، فمنه تعالى النعمُ في المبدأ والمنتهى. والإنسان يدرك ذلك بوجدانه، ويعبر عنه؛ من حيث يشعر ولا يشعر، قال تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣].

الحقيقة الخامسة: التفاضل بين النعم

مما لا شك فيه أن النعمَ ليست سواءً في الفضل والأهمية.

* فمنها ما هو مقدَّمٌ لا بد منه.

* ومنها ما هو مؤخَّرٌ يمكن الاستغناء عنه.

* وبين هذين أنواعٌ من النعم.

قال الإمام علي عليه السلام: **إن من النعم سعةَ المال، وأفضلُ من سعة المال الصحةُ، وأفضلُ من صحة البدن تقوى القلب)**[1].

ولا يخفى على عاقلٍ التراتبيةُ بين:

١ ـ نِعمة الوجود، التي تأتي أولاً.

٢ ـ ويليها نعمة الإسلام.

٣ ـ ومن بعدها نعمة الإيمان.

٤ ـ ثم نعمة العلم.

٥ ـ ثم نعمة التوفيق.

٦ ـ ثم نعمة الصحة.

٧ ـ وأخيراً نعمة المال.

الحقيقة السادسة: ضرورة المحافظة على النعم

ما دامت النعمُ تحظى بهذه الأهمية في حياة الإنسان، على اختلافها وتفاوتها من حيث الأهمية، فإن الوجدان والعقل والنقل ـ كلٌّ ذلك ـ يفرض أن يكون الإنسانُ جاداً، في المحافظة على هاتيك النعم، واستثمارها على الوجه الأمثل.

وبطبيعة الحال، فإن للمشروع الديني؛ وأعني هنا الإسلام خاصة، أسلوبه ومنطقه وقواعده في تحقيق ذلك.

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٣٨٨.

فمثلاً: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ـ في التأكيد على مبدأ المحافظة على النعم ـ: **واستصلِح كلَّ نعمةٍ؛ أنعمها اللهُ عليك)**[١].

وقال ـ في بيان بعض الأدوات اللازمة في هذا المجال ـ:

واستتموا نعمة الله عليكم بـ:

*** الصبر على طاعة الله.**

*** والمحافظة على ما استحفظكم من كتابه)**[٢].

المبحث الثالث: الإنسان بين الربح والخسارة

بناءً على ما تقدم، نقول:

يتفاوت الناس في استثمار هذه النعم، كما يتفاوت التجارُ في استثمار أموالهم؛ حيث ينقسمون إلى: فريق خاسر، وآخر رابح.

فالناس على طبقات:

١ ـ طبقة مهملة جداً؛ حيث يكون دأبُها وديدنُها التضييعَ والتفويتَ والهدرَ لمختلف تلك النعم.

٣ ـ طبقة متوسطة؛ حريصة نوعاً ما على الاستثمار؛ تتقلب بين الاستثمار الجيد والتضييع للفرص.

٣ ـ طبقة شديدة الحرص على تحسين فرص الاستثمار؛ بالتعلم والتفهم أولاً، والتطبيق والتنفيذ ثانياً.

وفي كل طبقة من هذه الطبقات هناك عشراتٌ من أشكال التفاوت، تقوم على أساس اختلاف الناس؛ في توفرهم على هذه النعم من جهة، واغتنامهم لها من جهة أخرى.

ومن المناسب أن ننقل نصين شريفين يفيدان هذا المعنى:

---

(١) المصدر السابق، الكتاب ٦٩.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ١٧٣.

١ ـ روى ثقة الإسلام الكليني؛ بسنده عن عمار بن أبي الأحوص، عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

إن الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم، على: البر، والصدق، واليقين والرضا، والوفاء، والعلم، والحلم.

ثم قسم ذلك بين الناس.

فمن جُعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كاملٌ، محتمِل. وقُسِم لبعض الناس السهم، ولبعض السهمين، ولبعض الثلاثة، حتى انتهوا إلى [الـ] سبعة. ثم قال: لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم[1]. ثم قال: كذلك حتى ينتهي إلى [الـ] سبعة)[2].

٢ ـ بسنده عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبدالله عليه السلام:

يا عبد العزيز! إن الإيمانَ عشرُ درجات؛ بمنزلة السلَّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة. فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد لستَ علي شيءٍ؛ حتى ينتهي إلى العاشر. فلا تُسقِط مَن هو دونك فيسقطَك من هو فوقك. وإذا رأيت مَن هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفقٍ، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيق فتكسره؛ فإن مَن كسر مؤمناً فعليه جبرُهُ)[3].

ومن ثَمّ جاءت الوصية من أشد الناس حرصاً على مصلحة الإنسان؛ أعني رسول الله صلى الله عليه وآله، كما وصفه ربه تعالى ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/ ١٢٨]، جاءت بالتأكيد على توجيه (الإنسان) بحسن اغتنام الفرص التي هي بطبيعتها **(تمر مَرَّ السحاب)**[4]؛ فقال صلى الله عليه وآله:

---

(١) أي: تثقلوا عليهم.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٢، كتاب الإيمان والكفر، باب درجات الإيمان، الحديث ١.

(٣) المصدر السابق، (باب آخر منه)، الحديث ٢.

(٤) نهج البلاغة، الحكمة ٢١.

(يا أبا ذر! نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة، والفراغ) [الفقرة/ ١٠].

وفي رواية أخرى (مفتون) بدل (مغبون).

والتعبيران ـ كلاهما ـ يدلان على الإخفاق في التعامل مع هذه النعمة أو تلك؛ بسبب أن:

١ ـ (المغبون) هو: مَن يبيع سلعته بثمنٍ أقلَّ من قيمتها السوقية، أو يشتري سلعةً بثمنٍ أعلى من قيمتها السوقية[1].

٢ ـ (المفتون) هو: الفاشل في الامتحان الذي يواجهه، في: التجارة، أو الإجارة، أو الدراسة، أو غير ذلك.

فكيف يكون الإنسان (مغبوناً)، أو (مفتوناً)؛ في كلٍّ من نعمة (الصحة) ونعمة (الفراغ)؟

هذا ما نتناوله في السطور التالية؛ بتيسيرٍ من الله تعالى وتوفيقه.

يقرر القرآن الكريم سنةً إلهيةً في الوجود الإنساني؛ تتمثل في (الامتحان). فقد قال تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت/ ٢].

والامتحان يعني: تمكينَ عواملِ الصراعِ أن تعمل عملَها، فللعقلِ جنودُهُ، وللجهلِ جنودُهُ. ويعمل كلٌّ منهما على السيطرة على واقع الإنسان، في الوقت الذي يتحلَّى فيه الإنسانُ بكامل الحرية والاختيار في الانحياز لهذا الفريق أو ذاك.

قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ولكن على كلٍّ من الفريقين أن يتحمل نتائجَ عملِهِ واختيارِهِ. فمن أحسن الاختيارَ، وصار مؤمناً بما رآه من الحقِّ حسُنت عاقبتُهُ، ومن أساء الاختيارَ، وانحاز إلى الباطل، فقد ظلم نفسه وساء مصيرُهُ، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف/ ٢٩].

---

(١) هناك قيودٌ فنيةٌ قد تُلحَظ ـ فقهياً ـ في تعريف الغبن؛ لكن ليس من طبيعة هذا البحث ـ التربوي ـ التعرضُ لها. وما ذكرناه من تعريف للمغبون ـ بائعاً ومشترياً ـ كافٍ في تقريب الفكرة.

انسجاماً مع ما تقدم، ندرك كيف أن الإنسان ـ أي إنسان ـ يدور أمره بين النجاح والإخفاق، والفوز والخسران، والسعادة والشقاء. فإن هو أحسنَ استثمارَ نعمة الصحة ـ مثلاً ـ فهو فائزٌ ومفلِحٌ وناجحٌ، وإن هو أساء استعمالها فهو مخفِقٌ وخاسرٌ.

***

المبحث الرابع: أصناف النعم

أولاً: نعمة الصحة

يراد بـ(الصحة): أن يكون الإنسانُ معافى في بدنه، أو معافى في عقله، أو معافى فيهما معاً. وهي مسألةٌ نسبيةٌ؛ بمعنى أن في الناس مَن لا يعاني من أيِّ مرضٍ إطلاقاً؛ فيوصف بأنه (صحيح) أو (سليم) أو (معافى)... وفيهم مَن يعاني من بعض الأمراض الخفيفة ومع ذلك يقال إنه (صحيح)، وفيهم مَن يعاني من أمراضٍ مصحوبةٍ بآلام خفيفةٍ تحوجه إلى مراجعة الأطباء؛ فيقال إنه (مريض)، وفيهم مَن يعاني من أمراض تقعده ـ بشكلٍ أو بآخر ـ عن مباشرة مهامه وإدارة شؤون حياته؛ فيوصف بأنه (مريض)، وهكذا، فيكون معاقاً أو بحكمه.

والصحة ـ بهذا المعنى ـ تُعد من الحاجات الأساسية؛ التي أطبق العقلاءُ في العالم، على اختلاف مسالكهم الفكرية وانتماءاتهم العقدية، على ضرورة توفيرها، حتى عُدَّت من حقوق المواطن على الدولة التي هي الحافظ للمصالح العامة.

وعلى كلِّ حالٍ، فأن يكون الإنسان (معافى) فذاك يعني أنه في نعمةٍ؛ لأنه قادر ـ حينئذٍ ـ على (التفكير) و(العزم) و(العمل)...

فـ(الصحة) ـ إذاً ـ نعمةٌ، لا تُقدَّر بثمنٍ. بل إنها نقطة الصفر التي منها ينطلق العاملُ نحو الإنجاز؛ على المستويات العقلية والروحية والجسدية.

لذلك، فـ(الصحيح) إن أحسنَ استثمارَ نعمة (الصحة)، فهو فائزٌ ومفلحٌ،

سواء كان (تاجراً)، أو (أجيراً)، أو (عالماً)، أو (متعلماً)...، وذكراً كان أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، فقيراً أو غنياً...

وكلُّ عملٍ بحاجةٍ إلى أن يكون مباشِرُه بصحةٍ وعافيةٍ؛ قليلاً أو كثيراً، وإن لم يحسن استثمارَها فهو مخفقٌ وخاسرٌ بالضرورة؛ لأنه سيندم حيث لا ينفع الندم.

ولا يكفي ـ لأداء العمل، واستثمار العمر ـ أن يكون الإنسان (صحيحاً) في بدنه فحسب، بل هو بحاجةٍ إلى جناحٍ آخر يحقق به إنجازاته، وهو ما نسميه بـ(نعمة الفراغ).

ثانياً: نعمة الفراغ

نعمة (الفراغ) تعني: أن يكون الإنسانُ في فسحةٍ زمنيةٍ وشغليةٍ يمكنه معها إنجازُ ما يرغب إنجازَه.

وهذه النعمة ـ بدورها ـ مما يُصنَّف ضمن الحاجات الأساسية، وإن كانت أقلَّ أهميةً من سابقتها، ولكنها تليها في الأهمية إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لأننا إذا افتقدنا الفراغَ فإننا سنفتقد القدرة على القيام بما يهمنا القيام به.

لذلك، حرصت المدارس التربوية؛ الأرضية والسماوية، وفي مقدمتها الشريعة الإسلامية، على التأكيد على استثمار فترة الطفولة، ومن بعدها المراهقة والشباب، للتعلم واكتساب المهارات والعادات الحسنة، وتجنب الكسل وكل ما من شأنه التقليل من الإنجاز والإنتاج؛ الذي هو المعيار في إنسانية الإنسان. قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥].

والناس ـ بطبيعة الحال ـ ليسوا سواءً في استثمار نعمة (الفراغ)؛ بل إنهم يتفاوتون ـ في ذلك ـ تفاوتاً فاحشاً. فهناك مَن (يقتل) وقته بالعبث واللهو والباطل، وهناك مَن يستغله في الخير؛ ولكن بشكلٍ متواضعٍ جداً، وهناك مَن يُحسن استغلاله على أحسنِ وجهٍ.

وبسبب هذا التفاوت ـ في استثمار النعم ـ يختلف الناسُ؛ في مكاناتهم وإمكاناتهم ومن ثم في إنجازاتهم، على جميع الأصعدة والمستويات؛ العقلية

والروحية والجسدية على السواء، وعلى مستوى الأفراد والجماعات، وعند الخالق والخلق، وفي الدنيا والآخرة.

ومن الحكمة أن يكون الإنسانُ حصيفاً في استثمار نعمتي (الصحة والفراغ). فإذا سُلب الصحة في جانبٍ تيسَّر استثمارُ صحتِهِ في جانبٍ آخر. ونماذج المعاقين جسدياً؛ بل المعاقين عقلياً، المصنَّفين ضمن الناجحين والمتفوقين، ليسوا قلةً.

كما أن الفراغ إذا فُقد في جانبٍ قد يعني أنه وفَّر قاعدةً لاستثمارها في جانبٍ آخرَ.

ومثالاً على ذلك: أن يكون سقيماً؛ أو حتى معلولاً في يده، ولكنه صحيحٌ معافى في سائر أعضائه الأخرى، وهو قادرٌ على القيام بمهام وأدوارٍ لا يتوقف أداؤها على سلامة يده، فهو صحيحٌ ومعافى يمكنه القيامُ بأشياءَ كثيرةٍ، وليس من مصلحتِهِ الوقوفُ عند ما هو مبتلى به من السقم أو العلة في يده، بل إن عليه الالتفاتَ إلى صحةِ بدنِهِ، والانطلاقَ في جوانب أخرى.

ومثالاً آخر: أن يكون قد سُلِب من الفراغ بسببِ سجنٍ أو أسرٍ ونحوهما، بما لا يمكنه معه ممارسةُ التجارة أو الإجارة، ولكنه قادرٌ على التعلم؛ إن أمكن توفير أسبابه، وإن لم يمكنه ذلك فإنه قادرٌ بلا ريب على (التعبد)؛ كما فعل مولانا الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام؛ الذي حوَّل سجنه إلى محرابٍ يحلِّق فيه إلى ربه سبحانه ويناجيه؛ قائلاً: **اللهم إني كنت أسألك أن تفرِّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت؛ فلك الحمد)**[1].

ومع ما قدمناه فإن مطالعةً سريعةً في أحوال الناس وأنفسنا، ستكشف لنا مقدارَ التقصير الذي ابتلينا به؛ حتى صرنا قاصرين. وسنعرف السر ـ أيضاً ـ في التعبير النبوي الشريف:

(نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة، والفراغ).

---

(١) ابن شهر آشوب، محمد بن علي (ت٥٨٨ هـ)، مناقب آل أبي طالب، باب إمامة موسى بن جعفر عليه السلام، ج٣، ص٤٣٣.

فكم من شابٍّ يملك من الصحة ما يغبطه عليه المرضى والمعاقون، لكنه لا يحسن استثمارَ صحتِهِ، وإنما هو في غفلةٍ عمّا يصب في مصلحته. وكم من شابٍّ فارغٍ من الالتزامات، لكنه يبدد أنفَسَ ما يملكه؛ وهو فراغه؛ أي عمره، في ما لا ينفعه في دنياه وآخرته.

المبحث الخامس: تفصيل بعد إجمال

لأهمية هذه المسألة أعاد الرسول ﷺ الأمرَ بصيغةٍ أخرى، مع بعض التفصيل، فقال:

(يا أبا ذر! اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك) [الفقرة/ ١١].

إذا وضعنا بعين الاعتبار الغايةَ من خلقة الإنسان؛ وهي (العبودية)، التي يترتب عليها الفلاح والسعادة في الدارين، وهما اللذان يتوقفان على التعبد (العبادة) لله تعالى، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]، إذا وضعنا ذلك بعين الاعتبار فسنجد هذا الإنسان بحاجةٍ إلى عدد من العناصر تُعد ضروريةً، ذكرها النبي ﷺ في قوله (خمساً)؛ منبِّهاً إلى أن لها أضداداً وأعداءً؛ هي في تعدادها أيضاً (خمس).

وهذه النعم كالتالي:

١ ـ نعمة الشباب

تقدم بعض الحديث عن ذلك، ونضيف:

إن الإنسان يمر بمراحل في مسيرةِ حياتِهِ، حيث يبدأ وليداً يتدرج في صباه؛ لينتهي بالشيخوخة والهرم، وبين هذا وذاك مرحلتا الشباب والكهولة.

وفي ما يرتبط بـ(العمل والإنجاز) فإن مرحلة الشباب تعد الأخطر والأهم؛

لِما يمتاز به الشاب من خصائص القوة والنشاط والحيوية؛ في جسدِه وعقلِه وروحِه ونفسِه، بما يمكنه معها اقتحامُ الأهوال، ومجالدةُ الخطوب، وأداءُ المهام...

ومَن لم يستثمر فترةَ شبابِه فقد يتعذر عليه بذلُ الجهد والاجتهاد بعد ذلك؛ حيث الكهولة والهرم والشيخوخة؛ وهذه أحوال تقترن ـ دائماً، أو غالباً ـ بالضعف والخمول والكسل؛ وبالتالي الفشل.

٢ ـ نعمة الصحة

تقدم بعض الحديث عنها في أوائل هذا الفصل فلا نعيد.

٣ ـ نعمة الغنى

قد يتوفر الإنسان على نعمٍ تشكِّل عواملَ إضافيةً للنجاح والعمل والإنجاز. و(الغنى) هو من تلك النعم. ويراد به: أن يتوفر الإنسان على المال اللازم لتوفير ما يلزم توفيره؛ من مسكن ومأكل ومشرب ونحوه؛ مما يعد ضرورةً حيناً، وكمالاً حيناً آخر.

ونعرف جميعاً أن التوفر على ذلك يجعل من أداء العمل أيسرَ وأسهلَ، بينما تكون هذه الأعمالُ أشقَّ وأصعبَ عند عدمِ توفرِهِ.

ويقال لمن توفر على ذلك (غني)، ولمن افتقدها (فقير).

وواضحٌ أن (الغنى) نعمةٌ تعين على فعلِ الخير؛ إذا كان من الأمور التي تحتاج إلى مالٍ؛ من قبيل المساجد والملاجئ والمستشفيات والجسور وإعانة المحتاجين والملهوفين...

لذلك، ينبغي لـ(الغني) أن يحسن استثمارَ غناه في طي مراحل التكامل والسمو المعنوي والاجتماعي...

٤ ـ نعمة الفراغ

تقدم الحديث عنها في أوائل هذا الفصل ـ بإيجازٍ ـ؛ فلا نعيد.

٥ ـ نعمة الحياة

معنى (الحياة) معروف. وهذه النعمة بدورها تعتبر من الضروريات، بل هي الأهم؛ لأن الإنسان إنما يعمل إذا كان حياً فـ(**اليومَ عملٌ ولا حساب**)[1]. ونحن إنما نتعلم، ونعمل، إذا كنا أحياءَ. وأما إذا مِتنا فلا عملَ ولا إنجازَ، بل: كتابٌ، وحسابٌ، ثم: ثوابٌ، أو عتابٌ، أو عقابٌ.

هذه النعم الخمس ـ مجتمعةً ـ تعتبر الميدانَ الحقيقيَّ للعمل، وبقدر ما يوفق الإنسانُ في استثمارها فهو من المفلِحين والفائزين ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.



الفصل الثاني

التسويف والآمال الكاذبة

● [الفقرات/ ١٢ ـ ١٤]:

(يا أبا ذر! إياك والتسويفَ بأملك؛ فإنك بيومك ولست بما بعده، فإن يكن غدٌ لك فكن في الغد كما كنتَ في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندمْ على ما فرَّطتَ في اليوم[١].

يا أبا ذر! كم من مستقبلٍ يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه.

يا أبا ذر! لو نظرت إلى الأجلِ ومسيرِهِ لأبغضتَ الأملَ وغرورَه).

***

في هذا الفصل سنقف على واحدةٍ من الآفات الخطيرة جداً والمدمرة على الناس؛ بمن فيهم الراغبون في أن يكونوا من أهل الصراط المستقيم.

وهذه الآفة هي: التسويف، والركون إلى الآمال الكاذبة؛ وما يتولد منها. وقد عبر عنها العلماء السابقون عن ذلك بتعبيرات مختلفة؛ منها (طول الأمل).

---

(١) في الأمالي للشيخ الطوسي (تكن في الغد كما كنت في اليوم؛ وإن إن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرطت في اليوم).

وقد صدَّرنا الفصل بفقراتٍ من الوصية استُشهِد بها، أو يصح الاستشهاد بها على أمور، منها:

١ ـ فن التعامل مع النفس، من حيث تهذيبها، ومخاطرها، وتأديبها، ومحاسبتها[١].

٢ ـ النهي عن التسويف[٢].

٣ ـ التحذير من التقصير[٣].

٤ ـ النهي عن اتباع الهوى[٤].

٥ ـ النهي عن طول الأمل والتحذير منه[٥].

٦ ـ تعجيل فعل الخير، وكراهة تأخيره فيه[٦].

٧ ـ ضرورة استثمار النعم التي منَّ الله بها على عباده.

---

(١) البروجردي، السيد حسين (ت١٣٨٠ هـ)، جامع الأحاديث، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٢ ـ ما ورد في ذم النفس، وتأديبها، ومحاسبتها...

(٢) الريشهري، محمد المحمدي (معاصر)، ميزان الحكمة، مادة (التسويف)، النهي عن التسويف.

(٣) النوري، الميرزا حسين (ت١٣٢٠ هـ)، مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٤ ـ أنه يجب على الإنسان أن يتلافى في يومه ما فرط في أمسه، ولا يؤخر ذلك.

(٤) الخوئي، ميرزا حبيب الله (ت١٣٢٤ هـ)، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٤، المختار الثاني والأربعون في النهي عن اتباع الهوى والمنع عن طول الأمل.

(٥) النوري، الميرزا حسين (ت١٣٢٠ هـ)، مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب الاحتضار، الباب ١٨ ـ كراهة طول الامل، وعد غد من الأجل؛ جامع أحاديث الشيعة، أبواب جهاد النفس، الباب ٤٧ ـ كراهة طول الأمل، وعد غدٍ من الأجل، واستحباب كثرة ذكر الموت والاستعداد له؛ منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٤، المختار الثاني والأربعون في النهي عن اتباع الهوى والمنع عن طول الأمل.

(٦) الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب مقدمة العبادات، الباب ٢٧ ـ استحباب تعجيل فعل الخير وكراهة تأخيره؛ جامع أحاديث الشيعة، أبواب المقدمات وما يناسبها، الباب ١٨ ـ استحباب التعجيل في أفعال الخير وكراهة تسويفها واستحباب المداومة عليها وإن قلَّت.

ولو تأملنا في هذه العناوين لوجدناها تشكل محاور ثلاثة:

المحور الأول: تكفل ببيان طبيعة النفس البشرية من جهةٍ، وما تتحلَّى به من إيجابيات من جهةٍ ثانيةٍ، وما تستبطنه من مخاطر وقبائح يمكن أن تودي بالإنسان إلى المخاطر؛ إن لم تتم السيطرة عليها، والتحكم فيها، من جهةٍ ثالثةٍ، ومناهج التعامل الحسن معها للوصول إلى الصراط المستقيم والثبات عليه من جهةٍ رابعةٍ.

المحور الثاني: وفيه بيانٌ تفصيليٌّ بالمخاطر التي يجب الحذر منها والتخلص منها. ومثالاً على ذلك: طول الأمل، والتقصير، والتسويف.

المحور الثالث: وهو بيانٌ تفصيليٌّ بما يجب فعلُهُ من: وجوه الخير أولاً، والتعجيلِ به ثانياً، واستثمارِ النعم ثالثاً، واغتنامِ فرص الخير رابعاً.

***

ونقول في تفكيك فقرات البحث من هذه الوصية:

ليس في العقلاء مَن يعتقد أن له إحاطةً معرفيةً تامةً بالوجود؛ ماضيه وحاضره ومستقبله، وإنما هو يعرف بعضَها ويجهل بعضَها الآخرَ. لذلك، يضطر الإنسانُ ـ عادةً ـ إلى الاستعانة بعلوم الغير وخبراته. وتدخل هذه الاستعانة في ما دعانا إليه الباري في قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة/ ٢].

وهذه العلوم والخبرات؛ التي نحصل عليها جهودنا المباشرة، أو بتوجيه الآخرين وتعليمهم إيانا، تصيب تارةً وتخطئ أخرى. وذلك، أن الناس ـ في هذا الأمر ـ قاصرون بطبيعتهم، وصدق الله حيث يقول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء/ ٨٥].

العلم بالغيب

المجهول العلمي والمعرفي قد يتأتَّى لعموم الناس أن يصلوا إلى بعضه، لكنهم بالتأكيد لا يصلون إلى أكثره؛ لأنه من (الغيب)؛ الذي لا يتوفر الناسُ على أدوات معرفته؛ إلا إذا اقتضت مشيئة الله ذلك.

وقاعدةُ عدم إحاطة البشر الذاتية بعالم الغيب عامةٌ تشمل حتى الأنبياء؛ بما

فيهم سيدهم وأفضلهم وخاتمهم رسول الله محمد ﷺ، الذي أمره الله تعالى أن يبين للناس ما يجب أن يعلموه في هذا الصدد؛ حتى لا يطلبوا منه ما لا يستطيعه.

قال تعالى ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام / ٥٠].

وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ [آل عمران/ ١٧٩].

وقال تعالى ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن/ ٢٦ ـ ٢٧].

والآيات الكريمة ـ كما لا يخفى ـ تنفي العلم للناس الذاتي بالغيب؛ الذي هو: الوقوف على ما وراء الشهود والعيان؛ من حديث ما غبر أو ما هو آت)[(١)]، لكنها ـ في الوقت نفسه ـ لا تنفي أن ذلك قد يحصل بأمر الله تعالى. وقد أقيمت الأدلةُ على أن الأنبياء والأئمة يعلمون من الغيب (ما يحتاجون إليه)، وأنهم (إذا شاؤوا أن يعلموا شيئاً علموه)[(٢)].

---

(١) الأميني، عبد الحسين (ت١٣٩٢ هـ)، الغدير، الكلام حول العلم بالغيب، ج٥، ص٥٢.
قال العلامة الطباطبائي (ت١٤٠٢ هـ):
الآيات النافية للعلم بالغيب عنه [النبي محمد] وعن سائر الأنبياء ﷺ إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية؛ بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغيب؛ بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر؛ كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب.
وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي، كما أن إتيانهم بالمعجزات؛ في ما أتوا بها، ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم، بل بإذن من الله تعالى وأمر...) الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة الأحقاف، ذيل الآية ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف/ ٩].

(٢) الفوائد الطوسية، محمد بن الحسن، الحر العاملي (ت١١٠٤ هـ)، الفائدة (٩٨) تحقيق أقسام الشبهة، ص٥١٨.
قال العلامة الشعراني:
واعلم أن مسألة علم الأئمة والأنبياء بالغيب معضلة عند العوام واضحة عند الخواص... وقد تواتر عن النبي والأئمة ﷺ أخبار كثيرة بالغيب) شرح أصول الكافي للملا صالح المازندراني ج٦، ص٣٠ (الهامش).

وإذا بلغت الحصافةُ بالإنسان أن يتعرَّف على إمكاناته فقد نال قسطاً وافراً من الرحمة. وفي الحديث عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: **ما هلك امرؤٌ عرف قدر نفسه)**[١].

ولقد أجاد من شرحه بقوله:

إنّ من عرف ما قدِّر له وحُدَّ شرعاً، وعمل بمقتضاه، لم يجُز حدَّ الجواز، ولم يقع في حِمى المحارم؛ فلا جرم لا يجد الهلاك إليه سبيلاً. وكذا من عرف مقداره ومرتبته عرفاً ـ في كل أمرٍ ـ لم يجترئ على شيءٍ ليس هو بأهلٍ له ولا قادرٍ عليه.

مثلاً: مَن عرف أنه لم يكن أهل الشجاعة لم يلقِ نفسه إلى المهالك والمحارب. وكذا مَن عرف أنه ليس بأهل العلم لم يسم بسيماء العلماء. وكذا سائر الفضائل والكمالات.

ويدل على هذا الكلام بمفهومه أن مَن ساق نفسه إلى أمرٍ خارجٍ عن مقداره، متجاوزٍ عن حده ومرتبته، فقد عرَّض نفسه للهلاك حقيقةً؛ كالجبان الذي يتشجع ويدخل في الحرب، أو معنى كالجاهل الذي يتشبه بالعالم ويجلس في مجلس العلم والتدريس، أو خوف الهلاك كالفاسق؛ فإنه يخاف عليه من الهلاك عاجلاً أو آجلاً)[٢].

ولنستكمل حديثنا عن (التسويف والآمال الكاذبة)؛ باعتبار ذلك جامعاً لما ذكرناه من محاور بما تضمنته من مسائل، ضمن مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التسويف

التسويف بمعنى التأخير والمماطلة. مشتق من (سوف)، تقول: سوف أفعل كذا.

«قال سيبويه: (سوف) كلمة تنفيس في ما لم يكن بعدُ، ألا ترى أنك تقول:

---

(١) الطبري، أبو الفضل (ق ٧ هـ)، مشكاة الأنوار، الباب السادس ـ ذكر عيوب النفس، ص٤٣٠.

(٢) عبد الوهاب (ق ٦ هـ)، شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الحكمة ٤، ص٨.

سوَّفتُهُ إذا قلت له مرةً بعد مرةً سوف أفعل. ولا يفصل بينها وبين الفعل؛ لأنها بمنزلة السين في (سيفعل). وقولهم فلان يقتات (السَّوْف)؛ أي: يعيش بالأماني. والتسويف: المطل»[١].

المبحث الثاني: آفة التسويف

مما يجب على الإنسان أن يتنبه له هو أن لا يقع في شراك آفة (التسويف)؛ فهذه الآفةُ تعد واحدةً من أخطر موانع السير في الصراط المستقيم وبلوغ مقام الحكمة؛ علماً وعملاً.

ويمكننا تعريف هذه الآفة بأنها: **ترك ما يجب فعله، أو تأجيل ما يجب تعجيله**. وهو ابتلاء الإنسان بالتأخير والمماطلة في القيام بما يجب أو ينبغي فعلُه، أو تعجيلُ فعله؛ حتى يفوت أوانُ ذلك.

ويتحقق ذلك بأن يؤجِّل الإنسانُ إنجازَ أهدافه وأعماله بالمقدار الذي يفوت معه الوقت اللازم لأداء المطلوب، أو بالمقدار الذي يتغلَّب فيه الكسلُ على العامل، أو تحيط به الأشغالُ الوظيفيةُ والالتزاماتُ العائليةُ والاجتماعيةُ وغيرُها؛ فتضطره إلى المماطلة مرةً أخرى، وهكذا.

وقد يهون الأمر إذا أصاب التسويفُ والمماطلةُ أمراً ثانوياً؛ مما لا يترتب على تركه أو تأجيله ضررٌ كبيرٌ، لكن الطامة تتفاقم إذا كان المسوَّف والمؤجَّل أمراً خطيراً؛ وبعضُ الأمور لا تحتمل التأخير، كما إذا فات أوان إنجازه، وكان لازم الإنجاز؛ كحالةٍ جهاديةٍ معينةٍ، أو إنقاذِ روحٍ محترمةٍ بإجراء عمليةٍ طبيةٍ عاجلةٍ لها في وقتٍ محددٍ لا يحتمل التأخير...

لذلك، يوصي النبي الأعظم ﷺ أبا ذرٍّ رحمه الله، وكلَّ مؤمنٍ ينشد الصراطَ المستقيمَ، بأن يزرع ثقافة (المبادرة) في عقله ووجدانه ونفسه؛ فـ:

(إياك والتسويفَ بأملك [بعملك]).

---

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر (ت٧٢١هـ)، مختار الصحاح، مادة (سوف). وانظر ـ أيضاً ـ: مفردات غريب القرآن للراغب الإصفهاني، مادة (سوف).

ولا ينبغي للرشيد أن يقصر همته على الأهداف الصغيرة، ففي ما حكاه الله تعالى عن عباد الرحمن وطموحهم يقول عزّ وجلّ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان/ ٧٤].

وينبغي الالتفات إلى أهمية تحويل علو الهمة والطموح إلى عادةٍ، لأن للعادة أثرها في توجيه السلوك الإنسان؛ فـ(**العاداتُ قاهراتٌ**)[1]، كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ حتى لا يُبتلى بالمماطلة.

ومن لطائف ما جاء في وصية النبي ﷺ هذه أنه أشار إلى الأهداف والغايات والخطط، وذلك في سياق نهيه عن التسويف؛ بقوله (**إياك والتسويفَ بأملك [بعملك]**). معلِّلاً ذلك بأن عامل الزمن لا يسمح بالتسويف؛ لأن الزمن ـ في سيرورته، وقاهريته ـ يندرج ضمن السنن والقوانين الوجودية؛ التي لا تسمح لأحدٍ أن يتلاعب بها، وإنما يجب التكيفُ معها واستثمارُها بما يحقق للإنسان أهدافه.

وسواء كان نص الوصية ينهى عن التسويف بالعمل، أو ينهى عن التسويف بالأمل، فكلاهما مضِران بسير الإنسان على مستوى الأهداف؛ وهي الآمال، وعلى مستوى الخطط والبرامج؛ وهي الأعمال.

ومن المفيد الإشارة إلى أن النبي ﷺ اعتمد أسلوباً تربوياً مهماً في هذا المقطع؛ أعني به (التعليل). وذلك، أن التعليلَ مهمٌّ في تحفيز مَن نودُّ توجيهه وتربيته؛ حيث ننقل الحافز إلى نفسه، ونزرعه فيها، فيؤدي به ذلك إلى أن تستقل إرادته في الحركة، ولا يحتاج الموجِّه والمربي ـ بعد ذلك ـ إلا إلى التوجيه والتنبيه.

لذلك، قال النبي ﷺ:

(**فإنك بيومك، ولستَ بما بعده**).

وأضاف ﷺ؛ توضيحاً لهذا المبدأ التربوي، قوله:

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، الأخلاق (بحث قرآني)، ج١، ص٣٦٠.

(فإن يكن غدٌ لك فكن في الغدِ كما كنتَ في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرَّطتَ في اليوم).

وما أمتنه من كلامٍ جامعٍ للحكمة؛ حيث إن الإنسان، المستثمِر عمرَه، إذا أتيح له يومٌ آخرُ دفعته حكمتُهُ وفطنتُهُ إلى استثماره من جديدٍ؛ على الوجه الصحيح، كما فعل سابقاً. وإن لم يُتَح له ذلك فلا موجِب لندمه؛ لأنه لم يقصِّر ولم يفرِّط.

المبحث الثالث: جذور التسويف

لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن جذر التسويف هو واحدٌ من عاملين:

العامل الأول: الجهل بسنن الله في الكون

العامل الثاني: عدم مراعاة السنن الإلهية الحاكمة

ولعل حب الإنسان لذاته هو الذي يدفعه ـ على الدوام ـ لتحقيق مصالحه. لذلك، هو في لهث ودأب في طَرْق الأبواب من كلِّ جانبٍ؛ لنيل المطالب، وفي خضم ذلك يغفل عن (الواقعية)؛ التي تفرض عليه الانتباهَ إلى حقيقة أن الزمن حاكمٌ وليس محكوماً، ولكنه يتعامى ويتجاهل ويتناسى ذلك؛ فيخطط لما يمكن فعله وما لا يمكن، وما يحتمل وقوعه وما لا يحتمل، ويستعجل ما يجب تأجيله، ويؤجل ما يجب تعجيله.

ولما كان اللهُ تعالى هو:

٢ ـ الخالق لهذا الإنسان، وهو العالم بطبيعة هذا الإنسان وما يصلحه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك/ ١٤].

٢ ـ العالِم بحقيقة مفادها أن يؤكد أن ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق/ ٦ ـ ٧].

٣ ـ اللطيف بالإنسان فهو تعالى ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى/ ١٩].

لما كان الله تعالى يتصف بهذه الصفات فهو: يعطي عبده تارة، ويحرمه تارة

أخرى؛ فالله تعالى (**ولي الإعطاء والمنع**)[1]. وبالطبع، فإن الأمرين ـ معاً ـ لا يقعان اعتباطاً، وإنما وِفق معادلةٍ دقيقةٍ؛ قد يظهر للعبد سرُّها، وقد يخفى.

لذلك، فإنه تعالى ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى/ ١٩]؛ أخذاً بيد المرزوق نحو مصالحه الحقيقية؛ على المدى القصير والمتوسط والبعيد.

ومن ثم جاء التأكيد على حثِّ الإنسان وحضِّه على العمل والاجتهاد في إنجاز ما يكون سبباً لنجاته في العاجل والآجل؛ بدون الوقوع في فخ المطامح الدونية والدنيوية، والغايات الرخيصة، والشهوات الزائلة، على حساب جنةٍ عرضها السماوات والأرض ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف/ ٣٥]. مع مراعاة أن الموتَ محطةٌ حتميةٌ لجميع بني آدم، في وقتٍ غير معلومٍ، ومكانٍ غير معلومٍ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان/ ٣٤].

وفي هذا السياق جاء في الوصية الشريفة قوله ﷺ:

(يا أبا ذر! كم من مستقبِلٍ يوماً لا يستكمله، ومنتظرٍ غداً لا يبلغه).

وكلامه ﷺ ـ هذا ـ يلفت نظرَ الحصيف إلى: أن البناءَ والتخطيطَ لأمرٍ غيرِ مضمونٍ، وهو الزمنُ الآتي، وتأجيلَ ما لا يصح تأخيره، هو ضربٌ من السفه.

وواقعُ الناس يؤكد أن كثيراً من آمالهم إنما فاتت بسبب أنهم رجوا أن ينجزوها في زمنٍ آتٍ؛ لم يكن لهم الجزمُ بحصوله، فلم يفُتهم ـ فقط ـ الغدُ الذي لم يأت، بل فاتهم ـ أيضاً ـ يومُهم الذي لم يستكملوه بعدُ!

ولعل هذا المضمون هو ما أراد إيصاله إلى الناس؛ إيضاحاً لخطورة التسويف، والعيش في ظل آمالٍ كاذبةٍ، بقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ﴾ [المؤمنون/ ٩٩، ١٠٠]. وقال تعالى ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٥.

﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر/ ٥٥، ٥٦].

المبحث الرابع: كيف نقطع آفة التسويف؟

لا يكفي أن يكون لك هدفٌ ترجو تحقيقه؛ وإن كان بمستوى رضا الله ورضوانه والجنة بكل ما فيها من النعيم، بل يجب ـ مضافاً إلى ذلك ـ أن: تتعرفَ على كيفية تحقيق (الهدف)، وتسيرَ على (الصراط المستقيم).

لهذا، لم يكتفِ الأنبياء عليهم السلام؛ في ما جاؤوا به من وحيٍ إلهيٍّ، بتوضيح الرؤية الكونية؛ التي نعرف من خلالها الحقَّ من الباطل، والصوابَ من الخطأ...، بل أضافوا إلى ذلك تحديد المنهج العملي (الآليات).

ولكن هذه الآليات تختلف في ما بينها؛ حسب طبيعة ما نريد التعرف عليه، وحسب ما نحن بصدد فعله أو تركه. وعقوبة الآخرة من صنفها؛ أي إنها من عالم الغيب، والمؤمنون ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة/ ٣].

والرؤية الكونية الوحيانية تؤكد على أن العالم:

١ ـ فيه مُلك؛ وهو عالم الشهادة. وقد يعرَّف بأنه (عالم الخلق والتقدير)(١).

٢ ـ وفيه ملكوتٌ؛ وهو عالم الغيب. وقد يعرَّف بأنه (الوجه الباطن من وجهي هذا العالم)(٢). أو (وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به)(٣).

قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة/ ٨].

وقال تعالى ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس/ ٨٣].

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص٣١٦، ذيل قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء/ ١٩٢].

(٢) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٣، ذيل الآيات ١١٦ ـ ١٣٤ من سورة البقرة.

(٣) المصدر السابق، ج٧، ص١٧١، ذيل قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام/ ٧٥].

وقال تعالى ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات/ ٣٩].

لذلك، نحتاج في ذلك إلى المعلومة؛ التي نتعرف بها على طبائع الأشياء والأفعال، فنميِّز بها الطيبَ من الخبيثِ؛ فنقوم بفعلِ الحسنِ والنافعِ، وندع القبيحَ والضارَّ. ويجب أن تكون هذه المعلومةُ صادقةً من صادقٍ.

ومن ثم، فإننا نقرأ حشداً كبيراً من الآيات؛ فصَّلت أحداثَ يومِ القيامة، من قبيل:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ٤٩].

٢ـ قوله تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس/ ٦١].

٣ ـ قوله تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨].

وجميع هذه النصوص الشريفة؛ وغيرُها كثيرٌ، تؤكد أن رقابةَ الله تعالى تستوعب كلَّ فعلٍ من أفعال الإنسان؛ ظاهرةً وباطنةً، صغيرةً وكبيرةً، حسنةً وقبيحةً.

وذلك يفرض على الإنسانِ العملَ في اتجاهات ثلاثة:

أولاً: أن يحرص ـ كلَّ الحرص ـ على مبدأ العمل. قال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

ثانياً: أن يحرص ـ كلَّ الحرص أيضاً ـ على تجويد العمل وتحسينه. قال تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك/ ٢].

ثالثاً: أن يحرص ـ أيضاً ـ على الاستمرار في العمل. قال تعالى ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر/ ٩٩].

وسيهون ما عدا ذلك في وجدان الإنسان العاقل؛ والمؤمنُ هو العاقل

الكامل. وهو ـ بالتالي ـ في سباق مع الزمن، يأبى أن يموت إلا وهو على صهوة جواد السعي الحثيث، والجد، والاجتهاد في مضمار العمل الصالح، ولا مجال عنده للآمال الكاذبة.

لذلك، قال ﷺ:

(يا أبا ذر! لو نظرتَ إلى الأجل ومصيره، لأبغضتَ الأملَ وغرورَه).

والأجل هو: المدة المضروبة للشيء... ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإنسان (أجل)، فيقال: دنا أجلُه، عبارة عن دنوِّ الموت)[1].

والأجل؛ الذي يراد به ـ هنا ـ الموت، هو أمرٌ محتومٌ على الإنسان؛ لا يُستثنى منه سعيدٌ ولا شقيٌّ. ولا يقف الأمر عند زهوق الروح، بل إن ما بعد ذلك أدهى وأمر، فهو الحساب للمحسنين والمسيئين سواءً بسواءٍ. قال تعالى في وصف الحال عندها ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ٤٩].

ومن هنا، فإن النبي ﷺ ينبه إلى أن مَن نظر إلى الموت وسكراته، وإلى ما بعده؛ مما بينه لنا الوحي، فسيطرد الاغترار ومسبباته ونتائجه، وسيشمِّر عن ساقَي العمل المرْضي.

وباعتبار أن المسألةَ مصيريةٌ وحساسةٌ؛ لا يُسمح بالتهاون فيها؛ بأيِّ شكلٍ، فإننا نجد تكثيفاً في الوصية الشريفة لتجاوز عقبة (التسويف) وشُعَبه؛ دفعاً بالمؤمن إلى سوح العمل الصالح؛ الذي هو الزاد ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة/ ١٩٧]، من خلال منهج التعامل مع الدنيا والحياة فيها، فقال ﷺ:

(يا أبا ذر! كن كأنك في الدنيا غريبٌ، أو كعابر سبيلٍ. وعُدَّ نفسَك من أصحاب القبور).

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (أجل).

وفي هذه الفقرة اعتمد ثلاث صور نفسية، تصب جميعُها في إدارة الذات وتوجيهها نحو منابذة التسويف؛ بجميع مستوياته ومظاهره:

١ ـ استشعار الغربة في الدنيا

٢ ـ استشعار السفر

٣ ـ استشعار الموت

وتلتقي هذه الصور الثلاث في محوِ صورةٍ نفسيةٍ عنوانها: الشعور بـ(الديمومة) وبـ(الخلود). وهذا الشعور هو الذي يدفع بصاحبه ـ غالباً ـ إلى التحلل من الالتزامات تجاه الخالق أولاً، وتجاه الخلق ثانياً، بل وتجاه الذات ثالثاً، فيكون حرصه على نيل حقوقه ـ غالباً على ـ حساب حقوق الآخرين، في مخالفةٍ لمعادلة (الحقوق والواجبات)؛ التي يمكننا القول إن التعاليم الإسلامية تقوم عليها.

ففي الصورة الأولى؛ حيث استشعار الغربة: نعرف جميعاً أن الإنسان المستشعِر للغربة عن أيِّ مكانٍ يحط فيه؛ حيث يفتقد الشعور بـ(الملكية) من جهة، والشعور بـ(الدوام) من جهةٍ أخرى، يختلف عن الإنسان المقيم؛ إذ يسعى هذا الأخيرُ إلى الحيازة والبناء والتخطيط وجني الأرباح..

وفي الصورة الثانية؛ حيث استشعار السفر: فإن الشعور بـ(السفر) لا يُسمح للإنسان أن يتمادى في آماله وطموحاته المتعلقة بهذه المحطة؛ فهو يعرف أنه راحلٌ عنها عمّا قريبٍ. لذلك، فإن القناعة تكون صفته الأبرز، وسينعكس شعورُهُ بها على سلوكه، وقبل ذلك على مشاعره ورغباته.

وفي الصورة الثالثة؛ حيث استشعار الموت: فإن اعتداد نفسه ضمن أصحاب القبور يبعث في وجدانه شعوراً بـ(التوازن)، هو أحوج ما يكون إليه في ظل التجاذبات التي تلح عليه، والتي يسعى بعضُها إلى شده نحو مُتَع الحياة الرخيصة على حساب الآخرة، فيقع؛ إذا استجاب لها، في التعدي على الآخرين؛ بشكلٍ أو بآخر، وفي تكريس الأنانية والانتهازية والجشع والطمع... في حين أن أصحاب القبور يقفون بين يدي بارئهم ليحاسَبوا على أعمالهم إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ.

لذلك، سيتحفَّز المؤمنُ، وهو المستشعِرُ هذه الصور الثلاث، للمسؤولية، وهو ما يجعل منه كتلةَ نشاطٍ وفاعليةٍ في الاتجاه الإيجابي؛ عبر (العمل الصالح)؛ خدمةً لنفسه وللآخرين.



الفصل الثالث

العمل الصالح

مدخل:

١ ـ (العمل الصالح) مما جاء التأكيد عليه في هذه الوصية:

(يا أبا ذر! حرثُ الآخرة العملُ الصالحُ) [الفقرة/ ٦٧].

كما أنه جاء في القرآن الكريم عشرات الآيات؛ إن لم نقل المئات، تحض على العمل الصالح تارة، وتبين مصاديقه تارة أخرى، وتكشف عن ثوابه ثالثة، وهكذا.

ومن تلكم الآيات:

* قول الله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل/ ٩٧].

* وقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف/ ١٠٧، ١٠٨].

٢ ـ لـ(العمل الصالح)؛ في منظومة الرؤية الإسلامية، قيمةٌ مركزية؛ فهو ـ كما جاء في النصوص الشريفة ـ **(حرث الآخرة)**[1]، **(وإنما لك؛ من دنياك، ما**

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣.

أصلحتَ به مثواك)[(١)]؛ فلا يمكن ـ إذاً ـ تصورُ المسلمِ مسلماً والمؤمنِ مؤمناً بدون العمل الصالح.

٣ ـ إن (العمل الصالح) ليس مرتبةً واحدةً، ولا لوناً واحداً، بل هو (ذو مراتب ودرجات)[(٢)]. ولعل هذا هو السبب في استعمالِ مفردة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ وأشباهها، أو مفردة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وأمثالها، ليكون الأفق مفتوحاً أمام أيِّ عملٍ توفر فيه عناصرُ الحكم عليه بالصلاح. لذلك، يمكن أن يُراد بالعمل الصالح ما يشمل المعتقد والسلوك، أو خصوص المعتقد بدون السلوك.

٤ ـ وصف الشيء بالصلاح يقابله وصفه بالفساد، وصلاح كل شيء بسببه. وقد جاء في القرآن وصفاً للعامل وللعمل معاً.

فمن وصف القرآن الكريم للعمل بذلك قوله تعالى ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف/ ١١٠]. ومن وصفه للعامل بالصلاح ما جاء في قوله تعالى ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النور/ ٣٢].

٥ ـ ذُكر للعمل الصالح آثار:

فمنها: أنه صالح لوجه الله، قال تعالى ﴿صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ [الرعد/ ٢٢]، وقال تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة/ ٢٧٢].

ومنها: أنه صالح لأن يُثاب عليه، قال تعالى ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ [القصص/ ٨٠].

ومنها: أنه يرفع الكلم الطيب الصاعد إلى الله سبحانه قال تعالى ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر/ ١٠].

فيستفاد من هذه الآثار المنسوبة إليه:

أن صلاح العمل معناه تهيؤه ولياقته لأن يلبس لباس الكرامة، ويكون عوناً ومِمداً لصعود الكلام الطيب إليه تعالى، قال تعالى ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾

---

(١) المصدر السابق، الكتاب ٣١.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٠٣ ـ ٣٠٤.

[الحج/ ٣٧]، وقال تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء/ ٢٠]، فعطاؤه تعالى بمنزلة الصورة، وصلاح العمل بمنزله المادة)[١].

٦ ـ في مقام الموازنة بين أهمية العمل على العامل أو العكس؛ فإن من الواضح جداً (أن صلاحَ الذات أرفعُ قدراً من صلاح العمل)[٢].

بعد هذا التمهيد نقف والقراء الكرام على بنودٍ من الوصية الشريفة تضمنت عدداً من الأحكام، منها:

* استحباب إكرام الكريم والشريف[٣].
* آداب التعامل مع كبار السن[٤].
* آداب التعامل مع السلطة العادلة[٥].
* آداب التعامل مع الناس مع مراعاة منازلهم[٦].
* أدب التعامل مع القرآن[٧].
* إكرام العلماء واحترامهم[٨].

---

(١) المصدر السابق، ج١٥، ص٣٥٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) النوري، الميرزا حسين (ت١٣٢٠ هـ)، مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٨، أبواب أحكام العشرة، الباب ٥٧ ـ استحباب إكرام الكريم والشريف.

(٤) البخاري، إسماعيل (ت٢٥٦ هـ)، الأدب المفرد، يبدأ الكبير بالكلام والسؤال.

(٥) الكوفي، ابن أبي شيبة (ت٢٣٥ هـ)، المصنف، كتاب الجهاد، ما جاء في الامام العادل.

(٦) العظيم آبادي، محمد شمس الحق (ت١٣٢٩ هـ)، عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، ج١٣، باب في تنزيل الناس منازلهم؛ شعب الإيمان للبيهقي (ت٤٥٨ هـ)، الخامس والسبعون من شعب الإيمان: وهو باب في رحم الصغير وتوقير الكبير.

(٧) البيهقي، أحمد بن الحسين (ت٤٥٨ هـ)، شعب الإيمان، فصل في تنوير موضع القرآن. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٠، الخطبة ١٧٧، فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفضله.

(٨) المنذري، عبد العظيم (ت٦٥٦ هـ)، الترغيب والترهيب من الحيث الشريف، كتاب العلم، الترغيب في إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم؛ رياض الصالحين للنووي، الباب ٤٤ ـ توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم.

* الاهتمام بالتقوى في العمل.

* حسن إدارة النفس ومحاسبتها(١).

* فضل السعي إلى المساجد(٢).

* ما ينبغي تنزيه المساجد عنه(٣).

* الاهتمام بأداء الصلاة في أول وقتها(٤).

***

مؤشرات العمل الصالح

للعمل الصالح، ولعاملِ الصالحات الساعي نحو (الصراط المستقيم)، مؤشراتٌ؛ سالبةٌ وموجبةٌ، يُذكِّر النبي ﷺ أبا ذر رحمه الله ببعضها، من أجل استحضارها في مختلف جوانب حياته. وهي:

المؤشر الأول: حسن الأخلاق

نريد بـ(حسن الأخلاق): الممارسةَ السلوكيةَ التي نعتمدها في تعاملنا مع (الآخر)، خالقاً أو مخلوقاً، من: اللين، والرفق، والمحبة، والصدق، والوفاء...

---

(١) الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٩٦ ـ وجوب محاسبة النفس كل يوم؛ جامع أحاديث الشيعة، أبواب جهاد النفس، الباب ٢ ـ ما ورد في ذم النفس وتأديبها ومحاسبتها وحمد الله على الحسنات وترك السيئات وجبران ما فات وكثرة التحفظ عند زيادة العمر.

(٢) البحراني، الشيخ يوسف (ت١١٨٦ هـ) الحدائق الناضرة، ج٧، كتاب الصلاة، فضل السعي إلى المساجد.

(٣) الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، أبواب أحكام المساجد، البابان ٢٧، ٢٨؛ جامع أحاديث الشيعة، ج٤، الباب ٣٢؛ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ١٤، كراهة البيع والشراء، وإنفاذ الأحكام وتعرف الضوال وإقامة الحدود وإنشاد الشعر ورفع الصوت وعمل الصنائع في المساجد وتمكين الصبيان والمجانين منها.

(٤) النجفي، محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ)، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج٧، كتاب الصلاة، في المواقيت، فضيلة أول الوقت.

ونحو ذلك؛ بما يدور حول القيم الجمالية التي تهفو إليها النفوس السوية والضمائر الحية.

وهذا هو الإطار العامّ.

غير أن من الضروري ـ بعد ذلك ـ الدخول في التفاصيل.

لذلك، أخذ النبي ﷺ في ذكرها في بندين:

البند الأول: التحذير من سوء الأخلاق

لا يمكن للسالك نحو الصراط المستقيم أن يجمع بين حسن الأخلاق وسوئها؛ لأن من يفعل ذلك سيكون كمن يجمع النور والظلمة، والماء والنار، في مكانٍ واحدٍ، وهو جمعٌ بين المتضادات، وهو ما لا يكون، وإن أمكن وقوعه فسيكون أثره سلبياً، أو بدون أثرٍ نافعٍ.

وإلى ذلك، فإن اللهَ سبحانه طيبٌ لا يقبل إلا الطيب، ولا يقبل إلا المتقين، ولا يتقبل إلا منهم، قال تعالى على لسان الابن الصالح لآدم ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧].

وانطلاقاً من هذا، حذَّر النبي ﷺ من الوقوع في شَرَك سوء الأخلاق؛ لأنها مُبعِدةٌ عن النور مُوقِعةٌ في الظلم والظلمات، فقال:

(يا أبا ذر! لا يزال العبدُ يزداد من الله بعد ما ساء خلقه) [الفقرة/ ١١٢].

واللافت هنا أن النبي ﷺ ركّز على أن سوء الأخلاق مُبعِّدٌ عن الله تعالى، وكلما أوغل صاحبه فيه ازداد بعداً عن الله تعالى، في تأكيدٍ على أن كل شيء إنما يكون له قيمةٌ وأهميةٌ بقدر ما يكون سبباً في تقريب العبد من ربه، فـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص/ ٨٨]، وهذا هو الصراط المستقيم.

فـ(العمل الصالح) لا يجتمع مع سوء الأخلاق؛ الذي يحول بدوره بين صاحبه

وبين الصراط المستقيم، وعدم السير في هذا الصراط لا يؤدي بصاحبه إلى الله تعالى.

وفي النص تبيانٌ لفلسفة الأخلاق في الإسلام، فليست هي مجردَ الحصول على منافع دنيوية، كما ذهب إليه بعضهم، وليست هي طلب السعادة الدنيوية، كما ذهب إليه بعض آخر؛ لأن قيمتها وأهميتها، باختصار شديد، ليست سوى القرب من الله تعالى؛ وهو منهجٌ ومسلكٌ (مبني على التوحيد الخالص الكامل)[١].

وهنا ملاحظةٌ هامةٌ يجب التنبيهُ إليها؛ وهي أن:

الأخلاق لا تفي بإسعاد المجتمع، ولا تسوق الإنسان إلى صلاح العمل، إلا إذا اعتمدت على التوحيد؛ وهو الإيمان بأن للعالم؛ ومنه الإنسان، إلهاً واحداً سرمدياً، لا يعزب عن علمه شيءٌ، ولا يُغلب في قدرته من أحدٍ. خلق الأشياءَ على أكمل نظام لا لحاجة منه إليها، وسيعيدهم إليه فيحاسبهم؛ فيجزي المحسنَ بإحسانه، ويعاقب المسيءَ بإساءته، ثم يخلدون منعَّمِين أو معذَّبِين)[٢].

فسوءُ الأخلاق؛ مع الخلق والخالق، هو بالتأكيد مانعٌ من موانع السير في الصراط المستقيم، ولا يمكن الاستمرارُ في السير دون التخلص منه؛ عبر اليقظة والتوبة وما يتلوهما من خطوات.

البند الثاني: إجلال الله في مراعاة حقوق ذوي الحقوق

التفصيل الثاني الذي يحقق عنوان (العمل الصالح)؛ في مؤشره الأخلاقي، ويعتبر مقتضِياً له؛ وصولاً إلى الصراط المستقيم، هو ما ذكره النبي ﷺ، باعتباره من حقوق الله تعالى وإجلاله؛ هذا التفصيل هو السعي في أداء حقوق ذوي الحقوق في عدد من المواقع العامة، التي إذا حصل الإخلالُ بها فإنه لن يقف عند

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٣٦٠.
وللتوسع في هذه المسألة يُراجع ما أُلِّف من كتب ودراسات في فلسفة الأخلاق. وننصح ـ أيضاً ـ بكتاب (دستور الأخلاق في القرآن) للدكتور محمد عبدالله دراز، وكتاب (فلسفة الأخلاق) للشيخ محمد جواد مغنية.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١١، القانون والأخلاق الكريمة والتوحيد، ص١٥٧.

مَن أُسيء إليه، بل سيتجاوزه إلى التعدي على مَن يقوم المعنيون بتولي شأنه، فقال النبي ﷺ:

(يا أبا ذرّ! إن من إجلال الله تعالى:

إكرام ذي الشيبة المسلم وإكرام حملة القرآن العاملين وإكرام السلطان المقسط) [الفقرة/ ١٠٩].

والذي نقرأه في الأمر بالـ(إجلال)؛ وهو الاحترام والتقدير، لهذه الفئات الثلاث، هو الحرص على الاهتمام بآفاق ثلاثة؛ من شأنها حفظ ديمومة العمل الصالح، وهذه الآفاق هي:

الأول: الأفق الاجتماعي

هنا نؤكد أنه لا غنى للناس من المحافظة على الأفق الاجتماعي، ونعني به: الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

ولو كنا بصدد البحث عن رموز هذه الروابط فلن نجد أفضل من كبار السن في المجتمع، وهو المشار إليه بقوله ﷺ **(ذي الشيبة المسلم)**، باعتبارات عديدة، ومنها:

١ ـ يمثل الثبات التاريخي للقيم الإسلامية.

٢ ـ حامل أمانة الدين من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق.

٣ ـ المتحمِّل لتبعات التكاليف مع ما يعنيه من أهميتها وقداستها.

والمجتمع الذي لا يؤدي حق الإكرام والتقدير للشيبة المسلم سيكون أقلَّ اهتماماً بأداء حقوق مَن هم أصغر سناً منه، وعندها سيكون المجتمع قد تخلى عن عنوان العمل الصالح.

الثاني: الأفق الفكري والتربوي

هنا يأخذ بنا النبيُّ ﷺ نحو أفقٍ لا يقل أهميةً عن الأفق السابق، وهو الأفق الفكري والتربوي؛ لأن قيمة الإنسان بأفكاره وقيمه، ومَن لا يوليها الاهتمام الكافي؛ بإجلالها وتقديرها ودراستها وترويجها، فلن يكون من الصادقين في حملِها.

ولسنا نجانب الصواب إذا قلنا: إن القرآن الكريم هو المرجع الأول والرئيس لقيم الإسلام الفكرية والتربوية، لذلك يجب المحافظةُ عليه بمختلف الأشكال. ومن تلك الأشكال (إجلالُ حَمَلته)؛ وهم: حفظتُهُ، وقُراؤُهُ، ومفسِّروه، ومبلغُو أحكامِهِ.

ولعل السبب في لزوم هذا الإجلال هو: أن من شأن هؤلاء أن يصلوا بالإنسان إلى ربه؛ من خلال تجسيدهم الحي للقيم القرآنية التي تحكي واقع الصراط المستقيم.

ومن هذا المنطلق، أكَّد النبي ﷺ على:

(إكرام حَمَلَة القرآن العاملين).

وقد أضاف النبيُّ ﷺ قيداً مهماً، لحملة القرآن؛ الذين بيَّن أمرَ الله تعالى بإكرامهم، هذا القيد هو (العمل). فالقيمة ـ إذاً ـ إنما هي لحملة القرآن باعتبارهم مجسِّدين لمفاهيمه وقيمه، على مستوى الذات في أقوالهم وأفعالهم، وعلى مستوى الفعل في الدوائر القريبة والبعيدة، وقبل هذا وذاك في تحقيق العبودية الصالحة لله تعالى سيراً على الصراط المستقيم.

الثالث: الأفق السياسي

في هذا الأفق ينتقل بنا النصُّ إلى تحسين العلاقة بالله تعالى؛ بأداء حق الحاكم المقسِط؛ أي العادل، الذي يُعد حارساً للقيم الإسلامية الربانية، التي تتعرض للانتهاك بطريقة أو بأخرى، والتي لا يُحافَظ عليها ـ عادةً ـ من دون قوة السلطة العادلة.

ومن هنا كان أحدُ أشكال العمل الصالح؛ تأكيداً للسير على الصراط المستقيم، هو المواطنة الصالحة للدولة الصالحة، وذلك عبر (**إكرام السلطان المقسِط**)، الذي هو: الحاكم الصالح الذي يقف على قمة الهرم في تكوين الدولة الصالحة.

والتمرد على مثل هذا السلطان، أو التقصير في حقه، يُضعف ـ بالتأكيد ـ من أجواء العمل بالقانون الرباني. لذلك، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء/ ٥٩].

ولا نستعبد أن تكون هذه المصاديق المذكورة؛ في الوصية، إنما هي عناوين معبِّرة ومشيرة إلى جميع المصاديق في الآفاق المذكورة؛ لتغطي كلَّ فردٍ يسهم في نمو المجتمع وتطويره علمياً وعملياً؛ بما يثبت خطاه على الصراط المستقيم.

المؤشر الثاني: تصحيح الموازين

لَما كانت الرؤيةُ الإسلاميةُ متكاملةً، كان من الطبيعي أن تُعنى بالجوهر والمظهر معاً. وفي المؤشر السابق بيَّن لنا الرسولُ ﷺ أهميةَ حسن الأخلاق؛ لينتقل بنا ـ في هذا المؤشر ـ إلى أمرٍ لا يقل أهميةً عن ذلك؛ وهو (تصحيح الموازين).

ونريد بذلك أن للعمل الصالح جانبين:

الجانب الأول: الشكل، الذي يُترجم في العبادات؛ كالصلاة أو الصوم أو الحج...، أو في المعاملات من العِشرة والتجارات ونحوهما.

الجانب الثاني: المضمون، وهو ما يُترجم في الدوافع والغايات التي تحرك العاملَ نحو العمل.

وما من شك في أن الجانب الأول؛ الذي هو (الشكل)، إنما يكون له قيمةٌ ببركة الثاني؛ أعني (المضمون). فالصلاة؛ التي هي عمود الدين، أو عماده، إذا خلت من الدافع الصحيح؛ وهو التقرب إلى الله تعالى، ستكون خاليةً من المضمون القيمي والإسلامي؛ وتكاد تكون مجرد قيامٍ وقعودٍ...

وانطلاقاً من ذلك، يدفع بنا النبي ﷺ نحو (تصحيح الموازين)؛ على أساسها يكون للأعمال قيمةٌ، فيقول ـ في إحدى فقرات هذه الوصية ـ:

(يا أبا ذر! كن بالعملِ بالتقوى أشدَّ اهتماماً منك بالعملِ؛ فإنه لا يقلُّ عملٌ بالتقوى، وكيف يقلُّ عملٌ يُتقبَّل، يقول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧]) [الفقرة/ ١٢١].

فهو ﷺ يوجه أبا ذر (رضوان الله عليه)؛ وإيانا، إلى أن المهمّ ـ في الرؤية الإسلامية ـ هو العمل المبني على أساس التقوى؛ لأن ذلك هو الذي من شأنه أن يكون مقبولاً عند الله تعالى، بما يترتب عليه من الكرامة والتفاضل فيها؛ عملاً بقانون ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. وما كان مقبولاً فهو ـ في نتائجه وأجره ـ كثيرٌ وكبيرٌ.

قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال/ ٢ ـ ٤]. فرزق الله واسع، وأجره كريم، وذلك لا ينسجم أبداً مع القلة.

كما أن النبي ﷺ يحذِّر من الاهتمام بالعمل بعيداً عن أساسه؛ وهو التقوى. وما أكثر من يقع ـ من الناس ـ في أسْر الشكليات على حساب المضامين، فتكثر أعمالهم غير الخالصة، مع أن الله تعالى يؤكد على ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة/ ٥].

المؤشر الثالث: المحاسبة/ الجدية

يواصل النبي ﷺ توجيهه لنا؛ من خلال وصيته لأبي ذر (رضوان الله عليه)؛ بتبيان معالم الصراط المستقيم، ليضع اللمسات في هذا المؤشر على ما يجب التوفر عليه؛ من أجل أن نتمكن من تحقيق العمل الصالح بكل مؤشراته.

وهذا المؤشر هو (المحاسبة)، والتي هي تعبيرٌ آخر عن الجدِّية في الوصول بالعمل إلى أفضل أشكاله؛ لأن همَّ المسلم والمؤمن ليس أن يعمل فحسب، وإنما أن يعمل عملاً متقناً ومحكماً وسديداً ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود/ ٧]، وباختصار أن يكون عمله كله مصداقاً لـ(العمل الصالح).

وهذا لا يمكن تحقيقه بغير المحاسبة؛ التي تعني:

١ ـ التثبت من إخلاص النية

٢ ـ صحة العمل

٣ ـ شرعية الوسائل

٤ ـ نقاء البيئة

وقد تناول النبي ﷺ هذا المؤشر ضمن مسائل ثلاث:

المسألة الأولى: مبدأ المحاسبة

في هذه المسألة عالج النبي ﷺ مبدأ المحاسبة على أساس أنه القاعدة التي يقف عليها تقوى المتقي، فيقول:

(يا أبا ذر! لا يكون الرجلُ من المتقين حتى يحاسب نفسَهُ أشدَّ من محاسبةِ الشريكِ شريكَهُ).

فالنبي ﷺ؛ في سبيل تحقيق التقوى والتلبس بها في الواقع الإنساني، يضع المحاسبة مبدأً رئيساً وشرطاً أساسياً لا يُستغنى عنه، موظِّفاً ما يعرفه الناسُ جميعاً؛ من أن الشريك التجاري، الناجح أو الراغب في النجاح والربح، يلزمه محاسبةُ شريكِه؛ ليعرف كلٌّ منهما ما له وما عليه. فليس لأيٍّ من الشريكين، أو الشركاء، أن يصرف أزيد مما له، وليس له أن يقصِّر في أداء ما هو في عنقه من مهمات.

فهذه الفقرة تؤكد ـ إذاً ـ على شرطيَّة المحاسبة في تحقيق العمل الصالح. وبهذا يتضح أنها مقتضٍ من مقتضيات السير في الصراط المستقيم والثبات عليه.

المسألة الثانية: مجالات المحاسبة

لا يكفي التأكيد على مبدأ المحاسبة بدون التعرض للمجالات التي يتحرك فيها من يحاسب نفسه، ولهذا جاء التوجيه النبوي لتحديد هذه المجالات، بقوله ﷺ:

(فيعلم من أين مطعمه؟

ومن أين مشربه؟

ومن أين ملبسه؟

أمن حِلٍّ ذلك أم من حرام)

فهي ـ إذاً ـ مجالات ثلاثة:

الأول: المأكل

الثاني: المشرب

الثالث: الملبس

والجامع بين هذه المجالات الثلاثة أنها معترك الحياة اليومي؛ والتي لا غنى لأحد عنها، بنحو الضرورة في الأولين وشبه ذلك في الثالث. ومن ثم، فإنها تضغط على الإنسان ليحصل عليها، الأمر الذي قد يدعوه؛ إذا ضعفت نفسه، أن يهمل التعرفَ على شرعية مصدر هذا اللازم الحياتي أو ذاك، فيسعى إلى تحصيله بطرقٍ غيرِ مشروعةٍ أو بطرقٍ مشبوهةٍ.

وبالتالي، يجب عليه أن يعرف مصدرها.

وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله (**فيعلم**)؛ أي: يتعرف ـ كمحاسبٍ دقيقٍ ومتقٍ؛ يحرص على الصراط المستقيم اعتقاداً وعملاً ـ على وجوه تحصيل المأكل بنوعيه: الحرامِ؛ ليتجنبه، والحلالِ المباحِ؛ ليكون زاده، وهكذا في المشرب والملبس.

المسألة الثالثة: مصير المقصِّرين

يكمل النبي ﷺ توجيهاته ووصاياه، لأبي ذر (رضوان الله عليه) ولنا، من أجل الثبات على الصراط المستقيم، وذلك بالتأكيد على المخاطر التي سيقع فيها من لا يحاسب نفسه، بقوله ﷺ:

(يا أبا ذر! مَن لم يبال مِن أين اكتسب المال؟ لم يبالِ اللهُ عزّ وجلّ من أين أدخله النار) [الفقرة/ ١٢٣].

وهذا يعني أن علينا؛ مضافاً إلى التعرف على حلية المأكل والمشرب والملبس، أن نتعرَّف على مصادر تلك المجالات ونحوها. وإهمال ذلك سيكون؛ بطبيعة الحال، على حساب الاهتمام والمبالاة بـ(رضا الله)، ومدعاةً للحرمان من رضوانه تعالى، وهذا يعني الدخول إلى النار! وعند ذلك لا يهم أن يكون الدخول، أو الإدخال، من بابها الأول، أو الثاني، أو الثالث، وهكذا. وهذا ما عناه ﷺ بقوله:

(لم يبالِ اللهُ عزّ وجلّ من أين أدخله النار؟).

فاللامبالاة في مسألة الكسب واللبس والمعيشة؛ من حيث شرعية أثمانها ونحوها، تعد مانعاً من موانع الوصول إلى الصراط المستقيم، وهي ـ أيضاً ـ سببٌ من أسباب الحيد عنه إلى الضلال، ثم استحقاق الغضب الإلهي.

المؤشر الرابع: إجابة داعي الله

(يا أبا ذَرٍّ! مَن أجاب داعيَ الله...)

المقصود بـ(داعي الله) هنا هو المؤذن. وقد سبق منا؛ في المسألة الرابعة من الفصل السادس، الإشارة إلى أن أحد الموارد التي استعمل فيها هذا الوصف هو المؤذن.

ولَما كان سياق الحديث ـ هنا ـ عن المسجد فتفسير الداعي بالمؤذن سيكون هو الأنسب، بل الظاهر.

قال الفيومي: (دعوت) زيداً ناديته وطلبت إقباله. (دعا) المؤذن الناس إلى الصلاة فهو (داعي الله»[١]. وإنما وُصف المؤذنُ بذلك لأنه يدعو الناس إلى الصلاة التي هي امتثال لأمر الله تعالى بها.

فجعل النبي ﷺ من مؤشرات الصلاح وموجبات الجنة الاستجابة إلى المؤذن إذا صدح بالصلاة.

المؤشر الخامس: عمارة المساجد

يمثل المسجد ركناً أساسياً في التشكيلات الاجتماعية في المشروع الرباني لتربية الناس. ولذلك، استقر العقل الفقهي في الإسلام؛ وانطلاقاً من الأدلة الشرعية، على الدفع نحو بناء المساجد وعدم خلو المدن والقرى منها. فـ: بناء المسجد فيه فضل كبير وثواب جزيل)[٢].

قال السيد اليزدي: يُستحب بناءُ المسجد، وفيه أجرٌ عظيمٌ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **مَن بنى مسجداً في الدنيا أعطاه الله بكل شبر منه مسيرة أربعين ألف عام مدينة من ذهب وفضة ولؤلؤ وزبرجد)**. وعن الإمام الصادق عليه السلام: **مَن بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة)**[٣].

وقال العلامة المجلسي ـ بعد أن ساق حديثاً في الاستدلال على استحباب اتخاذ المساجد، ووجوب الإخلاص في العبادة فيها على بعض الوجوه ـ ما لفظه: أصل الرجحان والفضل في الجملة فهو إجماعيٌّ، بل يمكن أن يُعد من ضروريات الدين)[٤].

وقد تضافرت الأحاديث الشريفة على توجيه المسلمين والمؤمنين نحو

---

(١) الفيومي، أحمد بن محمد (ت٧٧٠ هـ)، المصباح المنير، ماد (دعا).

(٢) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، النهاية في مجرد الفقه والفتاوى، كتاب الصلاة، باب فضل المساجد والصلاة وما يتعلق بها من الأحكام، ص١٠٨؛ المهذب، القاضي ابن البراج، كتاب الصلاة، باب المساجد وما يتعلق بها، ص٧٧.

(٣) اليزدي، السيد كاظم (ت١٣٣٧ هـ)، العروة الوثقى،كتاب الصلاة، المساجد وأحكامها، المسألة ١٠.

(٤) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٨٠، في بناء المسجد وتخريبها، والبيع والكنايس، ص٣٤٩. وقال نحوه في مفتاح الكرامة، ج٦، ص٢٥٠، في استحباب بناء المساجد.

المساجد، وأن ذلك خلق الصفوة من الناس. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام؛ مخاطباً صاحباً له؛ يقال له الفضل بن عبد الملك:

يا فضل! لا يأتي المسجدَ من كل قبيلة إلا وافدُها، ومن كلِّ أهلِ بيتٍ إلا نجيبُها!

يا فضل! لا يرجع صاحبُ المسجد بأقل من إحدى ثلاث خصال: إما دعاء يدعو به؛ يدخله اللهُ به الجنة، وإما دعاء يدعو فيصرف اللهُ عنه به بلاء الدنيا، وإما أخ يستفيده في الله...)[1].

ومن أجل أهمية المسجد في ربط الخلق بالخالق فإن نشأة المسجد يمكن اعتدادها شجرة ذات جذورٍ ممتدةٍ في عمق التاريخ.

فقد روي ـ مسنداً ـ عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، قال: **سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الحرم وأعلامه كيف صار بعضها أقرب من بعض وبعضها أبعد من بعض؟ فقال إن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة أهبطه على أبي قبيس، فشكى إلى ربه عزّ وجلّ الوحشة، وأنه لا يسمع ما كان يسمع في الجنة! فأهبط الله تعالى عليه ياقوتة حمراء فوضعها في موضع البيت فكان يطوف بها آدم عليه السلام، وكان ضوؤها يبلغ موضع الأعلام فعلمت الأعلام على ضوئها فجعله الله عزّ وجلّ حرماً)**[2].

بل في الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام ما يفيد أن الأمرَ أسبقُ من ذلك بكثيرٍ، وأنه قبل خلق الأرض بوضعها الحالي، ولعل ذلك قبل خلق آدم عليه السلام. ونص الخبر هو: **لَما أراد اللهُ عزّ وجلّ أن يخلق الأرضَ أمر الرياحَ فضربن وجهَ الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت، ثم جعله**

---

(١) أمالي الطوسي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص١٩٥، أبواب أحكام المساجد، الباب ١ ـ تأكد استحباب الصلاة في المسجد وإتيانه حتى مساجد العامة، الحديث ٢.

(٢) علل الشرائع، الشيخ الصدوق (ت٣٨١ هـ)، الباب ١٥٩ ـ العلة التي من أجلها صار الحرم مقدار ما هو، الحديث ١، ص٤٢٠. ورواه أيضاً في عيون أخبار الرضا، ج١، تحت عنوان (في الحرم وأعلامه كيف صار بعضها أقرب من بعض) وذكر له ثلاثة طرق، ص٢٥٧. كما رواه الشيخ الطوسي (ت٤٦٠ هـ) في تهذيب الأخبار، كتاب الحج، باب من الزيادات في فقه الحج.

جبلاً من زبد، ثم دحى الأرضَ من تحته، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾)[١].

ولهذا المضمون الذي تضمنه الخبر أصلٌ قرآنيٌّ؛ هو قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات/ ٣٠]، والدحو هو: البسط. وقد جاء في الأخبار المفسِّرة عن أهل البيت عليهم السلام؛ كالخبر المذكور، أن مركز الدحو كان هو الكعبة[٢].

وليس مستبعداً أن يكون ذلك؛ والحديث عنه في الأخبار كثيرٌ؛ مع صعوبة إدراك مضامينه على البعض، بل التصديق بها عند آخرين، هو التأكيد على ربط الناس بالمساجد، وضرورة الارتباط بالله تعالى من خلالها، وأن خلافة الإنسان لله تعالى لا تتحقق بدون ذلك.

ويرشد إلى ذلك ما جاء به الخبر عن آل البيت عليهم السلام من مقولة تؤكد على أنه: **لا يزال الدينُ قائماً ما قامت الكعبة)**[٣]. ولذلك قال أوصى أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام ـ في أيامه الأخيرة ـ بنيه وشيعته بقوله: **الله الله في بيت ربكم لا تخلوه؛ فإنه إن تُرك لم تناظروا)**[٤].

ونخلص إلى أنه: لا إنسانَ صالحاً بغيرِ دينٍ، ولا دينَ غيرُ الإسلام، ولا إسلامَ بدون مسجدٍ، ولا مسجدَ بدون الكعبةِ.

* قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران/ ١٩].

* وقال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، ج٤، ص١٩٠، كتاب الحج، باب في حج آدم عليه السلام، الحديث ٧.

(٢) انظر: تفسير نور الثقلين، الشيخ عبد علي الحويزي (ت١١١٢ هـ)، ج٥، ص٥٠١ وما بعدها، تفسير سورة النبأ، قوله تعالى﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾.

(٣) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٢٤٣، باب (ابتداء الكعبة وفضلها وفضل الحرم).

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٤٧.

* وقال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران/ ٨٥].

* وقال تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة/ ١٥٠].

ويهمنا جداً التأكيد ـ هنا ـ على أن إنجاز العمل الصالح لا يتحقق من فراغ بل إن له بيئاتٍ تعين مَن يسجل الحضور فيها، ويوفرها لنفسه، على القيام به؛ ولما كانت البيئاتُ فيها ما هو صالح، وفيها ما ليس بصالح، فلا يُتوقع ممن يعتاد الحضور في الأجواء غير الصالحة أن يكون جديراً أو مهتماً بإنجاز عملٍ صالحٍ.

لذلك، كان من لطف الله عزّ وجلّ أن يأمر بتوفير هذه البيئات الصالحة (المساجد)، بل يكون هو البادئَ فيها والمؤسسَ لها، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران/ ٩٦].

ومن هذا المنطلق نجد أن تشييد المسجد كان من أوائل الخطوات التي قام بها النبي ﷺ؛ لَمَّا هاجر إلى المدينة المنورة، أنه وضع أسسَ بناء مسجد قباء، ثم وافى بني سالم وصلى في مسجدهم وخطب فيهم؛ وقد كانوا بنوه قبل هجرته ﷺ، ثم بنى مسجده بالمدينة الذي يحمل اسمه الشريف (المسجد النبوي)[1].

مساجد الخير ومساجد الضرار

أكَّد الوحي الإلهي على أن هناك نوعين من المساجد؛ من حيث الوظيفة:

النوع الأول: ما شُيِّد من أجل تكريس التقوى في نفوس الناس وتعبيدهم لله. قال تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن/ ١٨].

النوع الثاني: ما شُيِّد من أجل قطع الطريق إلى الله؛ من خلال الصد عن الصراط المستقيم. قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة/ ١١٤].

---

(١) راجع ـ في التعرف على تفصيل ذلك ـ كتب السيرة النبوية، أو ما خصص لذلك في غيرها، من قبيل بحار الأنوار، ج١٩، الباب ٧ ـ نزوله صلى الله عليه وآله المدينة وبناؤه المسجد والبيوت وجمل أحواله إلى شروعه في الجهاد.

وقال العلامة المجلسي؛ تعليقاً على الآية في ما تدل عليه ويستفاد منها، ما لفظه:

تدل الآية ـ بعمومها ـ على: عدم جواز منع ما يذكر الله به؛ من الصلوات، والدعوات، وتلاوة القرآن، ونشر العلوم الدينية، وأمثالها، في المساجد، وحرمة السعي في خرابها الصوري بهدمها، وإدخالها في الملك وغير ذلك، بل تعطيلها، وكل ما يوجب ذهاب رونقها، وإحداث البدع فيها، وكل ما ينافي وضعها وحصول الذكر فيها)[1].

ومثالاً على النوع الأول: مسجد قباء.

ومثالاً على النوع الثاني: مسجد ضرار الذي بناه المنافقون.

وقد أشير إلى المثالين في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة/ ١٠٧، ١٠٨].

وتأسيساً على هذا، جاءت الوصية النبوية، بوحيٍ من الله تعالى، أن المساجد[2] ينبغي عمارتها بالحضور فيها، لإسهامها الشديد في صنع الإنسان الصالح، وذلك في قوله ﷺ:

(وأحسِن عمارةَ مساجد الله).

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٨٠، ص٣٤١، الباب الثامن ـ فضل المساجد وأحكامها وآدابها.

(٢) قال الفقيه النجفي (ت١٢٦٦ هـ): المراد بالمسجد ـ شرعاً ـ: المكان الموقوف على كافة المسلمين للصلاة) [جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ١٤، ص٦٩، بيان المراد من المسجد].
وعرفه آخرون بالقول إنها (البيوت المبنية للصلاة فيها لله) [الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٣٧، ص١٩٤، مادة (مسجد)].
ويشترط (القربة في صحة وقف المساجد وفضلها) [بحار الأنوار، ج٨٠، ص٣٤٥، في بناء المسجد وتخريبها، والبيع والكنايس].

فالنبيُّ ﷺ يشير إلى أن ثمة دعوةً من الله تعالى؛ ودعوتُهُ دعوةٌ للحياة، كما جاء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال/ ٢٤]، تتمثل في أنه تعالى دعانا ليس إلى الحضور في المساجد؛ التي هي (**مساجد الله**)، فحسب، بل إلى حسن عمارة هذه المساجد، مع الوعد بأن جزاء من يفعل ذلك وثوابه هو (الجنة)، فقال:

(كان ثوابُهُ من الله الجنةَ).

والضمير في كلمة (**ثوابه**) هو لمن عمل بما تقدم؛ من الاستجابة لداعي الله؛ أي المؤذن، أولاً، وسعى في عمارة المسجد ثانياً.

والنبي ﷺ ـ بهذا القول ـ يمارس تحشيداً؛ يتوفر المستجيب له على الحافز والدافع نحو الانبعاث للعمل.

وبالتأكيد فإن من يفعل ذلك يستحق أن يكون ثوابه من الله تعالى (**الجنة**).

ثم إن النبي ﷺ يجمل الثواب العظيم والمكافأة الربانية الكبرى؛ المذخورة لرواد المساجد وعُمَّارها، بنحوٍ لا يتيسر معرفته بغير الوحي، كما لا يصدقه غير المؤمن بالوحي، والسائرون على الصراط المستقيم ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة/ ٣]. فقال ﷺ:

(يا أبا ذر! إن الله تعالى يعطيك؛ ما دمت جالساً في المسجد، بكل نَفَسٍ تنفَّستَ درجةً في الجنة. وتصلي عليك الملائكةُ، وتَكتب لك بكلِّ نفسٍ تنفست فيه عشرُ حسناتٍ، وتُمحى عنك عشرُ سيئات)[1].

---

(١) أورد هذه الفقرةَ من الوصية الشيخُ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٤، ص١١٧، كتاب الصلاة، أبواب المواقيت، الباب ٢ ـ استحباب الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة، الحديث ٨.

وكذلك أوردها الشيخ البحراني في سياق الاستدلال على فضل السعي إلى المساجد، الحدائق الناضرة، ج٧، ص٢٦٦، والشيخ النجفي في جواهر الكلام، ج٤، ص٧٤، في الاستدلال على فضل انتظار الصلاة حتى يؤديها في أول وقتها.

كيف نعمر مساجد الله؟

من الطبيعي لتلميذٍ نجيبٍ؛ كأبي ذر (رضوان الله عليه)، أن ينبري لسؤال الرسول ﷺ عن طبيعة هذه الـ(عمارة):

(فقلتُ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! كيف تُعمَر مساجدُ الله؟).

فما كان منه ﷺ إلا أن أجابه بتحديد ملامح عمارة مساجد الله تعالى؛ بما يتلاءم وطبيعة الدور المناط بالمساجد، التي يمكن اختصارها بـ: حفظ الارتباط وتوثيقه بين المخلوق والخالق.

وبطبيعة الحال، فإن هذه المهمة المقدسة ينافيها كثيرٌ من التصرفات التي يمارسها قطاعٌ واسع من الناس؛ وهي ما ينطبق عليه عنوان (الشأن الدنيوي الصرف). وإن أحد أشكال بيان المطلوب يتحقق ببيان أضداده؛ فالأشياء ـ كما يقال ـ تعرف بأضدادها.

وقد حدد النبي ﷺ هذه المنافيات بالتالي:

المنافي الأول: رفع الأصوات

ينبغي لمن يعمر المساجد أن يشتغل بذكر الله والتفكر والشكر، وهذا يستلزم التأمل والهدوء ولا يتحقق ذلك ـ عادةً ـ مع ارتفاع الأصوات، ومن هنا نصَّ النبي ﷺ على أن عمارة المساجد ينافيها ذلك، فقال:

(لا تُرفع فيها الأصواتُ)[1].

والأدب الإسلامي عموماً يحضنا على خفض الأصوات والغض منها، قال

---

(١) أورد هذه الفقرة الشيخ الحر العاملي في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، ص٢٣٤، أبواب أحكام المساجد، الباب ٢٧ ـ كراهة البيع والشراء في المسجد وتمكين الصبيان والمجانين منه وإنفاذ الأحكام، الحديث ٣.
كما استشهد بها الشيخ النجفي وغيره؛ في سياق الاستدلال على كراهة رفع الصوت في المساجد. انظر: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ١٤، ص١١١، كتاب الصلاة، كراهة البيع والشراء... ورفع الصوت...

تعالى ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان/ ١٩]؛ باعتبار أن (رفع الصوت) كان (علامة الجلافة والتكبُّر والتجبُّر)؛ ومن ثم كان مشركو العرب يتفاخرون بالأصوات المرتفعة[١].

فرفع الأصوات في المساجد يخرجها عمّا بُنيت له، ويجعلها أشبه بالأسواق والمحافل الاجتماعية التي يشتغل الناس فيها بشؤونهم اليومية والدنيوية، وليس هذا هو دور المسجد؛ فدوره ومهمته هما توفير الجو المناسب لمرتاد المسجد؛ من أجل أن يغوص في الباطن، وأن يجدَّ في سيره الداخلي بالهجرة إلى الله تعالى؛ عبر الصلاة والمناجاة والدعاء وتلاوة القرآن ونحو ذلك مما يستحب فعله في المسجد.

قال العلامة الحلي؛ معدِّداً ما يُكره فعلُهُ في المسجد:

... ويكره رفع الصوت فيها، لأنّه ينافي التذلّل والخضوع)[٢].

بقي شيء، وهو:

أن رفع الصوت؛ الذي يُكرَه عموماً، تشتد كراهتُه في المساجد خاصةً، وبالأخص إذا تعلق بشؤون الدنيا، وأما ما ارتبط بشأن عبادي ندبنا الشارع المقدس أن نؤديه بصوت مرتفع؛ كالأذان[٣]، وخطبة

---

(١) انظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٤، ص١٤٣، في بيان قوله ﷺ: **وكنتُ أخفضهم صوتاً)** المختار السابع والثلاثون من كلامه.

(٢) الحلي، الحسن بن يوسف (ت٧٢٦ هـ)، منتهى المطلب، ج٦، ص٣٢٢، ما يكره فعله في المسجد.

(٣) وقد نص على هذا الاستثناء الفقهاء في فتاواهم. قال العلامة الحلي:

مسألة ١٦٥: يستحب رفع الصوت بالأذان، وعليه إجماع العلماء، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يغفر للمؤذن مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس»**.

... ومن طريق الخاصة قول الصادق ﷺ: إذا أذنت فلا تخفين صوتك فإن الله يأجرك مدَّ صوتك فيه»،

ولأن القصد به الإعلام وهو يكثر برفع الصوت فيكون النفع به أتم.

... فإن أذن لعامة الناس جهر بجميع الأذان، ولا يجهر ببعض، ويخافت ببعض لئلا يفوت مقصود الأذان وهو الإعلام، وإن أذن لنفسه أو لجماعة حاضرين جاز أن يخافت ويجهر، ويخافت ببعض ويجهر ببعض) [تذكرة الفقهاء، كتاب الصلاة، استحباب رفع الصوت بالأذان، ج٣، ص٥٤ ـ ٥٥]. =

الجمعة[1]، وتكبيرات العيد[2]، فهو خارج من حكم الكراهة هذا كما لا يخفى.

= وقال أيضاً:

مسألة: ويستحب أن يكون [المؤذن] صيِّتاً؛ لأن القصد به الإعلام، والنفع بالصيت فيه أبلغ، ولا نعرف فيه خلافاً [ثم استدل بعد أسطر على ذلك بـ] ما رواه الشيخ، عن محمد بن مروان، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **المؤذن يغفر له مد صوته بشهادة كل شيء سمعه)** ولم يذكر العلامة أن ذلك مكروه في المسجد، بل سياق حديثه يشهد على استحبابه فيه. [منتهى المطلب، ج٤، ص٤٠٠، استحباب الأذان على مرتفع].

واما المحدث البحراني (ت١١٨٦ هـ) فقد قال: المشهور بين الأصحاب (رضوان الله عليهم) كراهة رفع الصوت في المسجد مطلقاً؛ وإن كان في القرآن؛ للأخبار المطلقة، واستثنى في هذا الخبر ذكر الله، وكذا فعله ابن الجنيد، ولعله المراد في سائر الأخبار؛ لحسن رفع الصوت بالأذان والتكبير والخطب والمواعظ فيها؛ وإن كان الأحوط عدمُ رفع الصوت في ما لم يتوقف الانتفاعُ به عليه. ومعه يُقتصر على ما تتأدى به الضرورة) [الحدائق الناضرة، ج٧، ص٢٨٦، كتاب الصلاة، كراهة البيع والشراء، وتمكين المجانين والصبيان، ورفع الصوت في المساجد].

(١) قال العلامة الحلي؛ في سياق تعداده لما يجب مراعاته في خطبة الجمعة:

ح: ارتفاع الصوت بهما بحيث يسمعه العدد.

وهو أظهر وجهي الشافعي؛ لأن مقصود الوعظ لا يحصل إلا بالإسماع، فلا يكفي أن يخطب سراً؛ لمنافاة الغرض. ولأن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا خطب رفع صوته؛ كأنه منذر جيش.

وعن أبي حنيفة: عدم الوجوب. وهو وجه للشافعي أيضاً) [تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي، ج٤، ص٧٤ـ ٧٥، كتاب الصلاة، أحكام صلاة الجمعة].

وقال الشيخ النجفي (ت١٢٦٦ هـ)؛ مستدلاً على مطلوبية رفع الصوت:

بل يمكن منع صدق الخطبة بدونه، بل هو كذلك في الوعظ منها؛ الذي هو أحد واجباتها، بل لا ينكر ظهور «خطبهم»، و«يخطب بهم» في النصوص السابقة فيه، ولإمكان دعوى دلالة وجوب الاستماع، على القول به عليه، ولغير ذلك) [جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج١١، ص٢٤٠، كتاب الصلاة، وجوب إسماع الخطيب العدد المعتبر فصاعداً].

وقال السيد السبزواري (ت١٤١٤ هـ):

وأما استثناء الأذان ونحوه، فللسيرة. وأما رفع الصوت بالصلوات، فللسيرة أيضاً، ولإطلاق دليل رفع الصوت به غير القابل للتقييد) مهذب الأحكام، ج٥، ص٥٢٩، كتاب الصلاة، يكره رفع الصوت فيه إلا للأذان...

ولتفصيل ما ذكره فقهاء السنة في المقام؛ من كراهية رفع الصوت ومستثنياته، راجع: الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٣٧، ص٢٠٧، فقرة (رفع الصوت في المسجد والجهر فيه).

(٢) قال العلامة الحلي (ت٧٢٦ هـ): =

وفي الخبر ـ كما في الكافي، والتهذيب ـ (عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **كان طولُ حائطِ مسجدِ رسولِ اللهِ (صلى الله عليه وآله) قامةً، فكان يقول (صلى الله عليه وآله) لبلال ـ إذا دخل الوقت ـ: يا بلالُ! اعلُ فوق الجدار، وارفع صوتك بالأذان؛ فإن اللهَ قد وكَّل بالأذان ريحاً ترفعه إلى السماء. وإن الملائكةَ إذا سمعوا الأذان من أهل الأرض قالوا: هذه أصواتُ أمةِ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) بتوحيد الله عزّ وجلّ، ويستغفرون لأمةِ محمدٍ (صلى الله عليه وآله) حتى يفرغوا من تلك الصلاة)**[1].

المنافي الثاني: الخوض بالباطل

المهمة المناطة بالمساجد هي استثمارها، وتوجيه مرتاديها إلى الله تعالى؛ الذي هو التوجه إلى الحق، وهذا يعني أن:

(لا يُخاض فيها بالباطل)[2].

لأن ذلك حرفٌ لمسار المسجد إلى غير ما ينبغي أن يكون عليه.

والخوض بالباطل عنوانٌ عريضٌ يشمل كلَّ كلامٍ محرمٍ، وكلَّ كلامٍ لهويٍّ، وكلَّ كلامٍ يشغل الإنسان عن ربه بطريقةٍ سلبيةٍ تعيق قيامه بالعمل الصالح، ويحول بينه وبين استقامته على الصراط المستقيم.

والكلام المحرم يكون فعله حراماً، لكن حرمته هذه تشتد في المسجد، كما

= يستحب رفع الصوت به، لأن فيه إظهاراً لشعائر الإسلام، وتذكيراً للغير) [تذكر الفقهاء، كتاب الصلاة، صلاة العيدين، المسألة ٣٥٧، بيان موضع التكبيرات، ج٤، ص١٥١.

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان والإقامة وفضلهما وثوابهما الحديث ٣١؛ وهو بعينه ـ باختلاف يسير جداً ـ تهذيب الأخبار، باب الأذان والإقامة، الحديث ٤٦. وعنهما: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، كتاب الصلاة، أبواب الأذان والإقامة، الباب ١٦ ـ استحباب قيام المؤذن على مرتفع، وكونه عدلاً صيتاً رافعاً صوته بالأذان، الحديث ٧.

(٢) أورد هذه الفقرةَ الحر العامليُّ في كتابه وسائل الشيعة: في أبواب أحكام المساجد، الباب ٢٧ ـ كراهة البيع والشراء في المسجد، وتمكين الصبيان والمجانين منه، وإنفاذ الأحكام، الحديث ٣.

أن الكلام المكروه يكون فعله محرماً، لكن كراهته تشتد في المسجد؛ وذلك لحرمة المسجد في الإسلام؛ (فإنَّ جميع أنحاء هتك المسجد محرَّم، فإنَّ هتك امرئ مسلم حرام، فكيف المسجد الذي هو من شعائر الله الذي وجب تعظيمها وحرم توهينها)[١].

بل لقد أفتى فقهاء الإمامية بلزوم حفظ حرمة مساجد المسلمين، من دون فرق بين انتماءاتهم المذهبية، بل استشكل كثيرٌ منهم في هتك حرمتها وإن كان المؤسس لها مخالفاً في الدين، وجعل مصداق المسجد بالنسبة لهم كنائس النصارى وبِيَع اليهود[٢].

المنافي الثالث: النشاط التجاري الدنيوي

إذا اختلطت الأولويات على روَّاد المسجد، ويحصل ذلك بتحويل المسجد إلى سوق تجارية تُعقد فيها الصفقات الدنيوية؛ فإن هذا يعني استثماراً سلبياً للمسجد.

لذلك، أوصى النبي ﷺ أبا ذر (رضوان الله عليه) وإيانا، بقوله:

(ولا يُشترى ـ فيها ـ، ولا يُباع)[٣].

وقد استفاد الفقهاء من هذه الفقرة من الوصية كراهة البيع والشراء في المسجد، وهو المشهور بينهم[٤].

---

(١) الأراكي، الشيخ محمد علي (ت١٤١٥ هـ)، كتاب الطهارة، ج١، ص٦٦٥، كتاب الطهارة، يجب إزالة النجاسة عن المساجد.

(٢) قال السيد اليزدي في العروة: في جواز تنجيس مساجد اليهود والنصارى إشكال. وأما مساجد المسلمين فلا فرق فيها بين فِرَقهم) [العروة الوثقى، كتاب الطهارة، فصل [في أحكام النجاسات]، المسألة ١٥].

(٣) أورد هذه الفقرةَ الشيخ الحر العاملي في كتابه وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٢٣٤، كتاب الطهارة، أبواب أحكام المساجد، الباب ٢٧ ـ كراهة البيع والشراء في المسجد، وتمكين الصبيان والمجانين منه، وإنفاذ الأحكام، الحديث ٣.

(٤) الحدائق الناضرة، ج٧، ص٢٨٦، قال: والمشهور كراهة البيع والشراء). ثم ألحقه بقوله: فإن زاحم المصلين، أو تضمن تغيير هيئة المسجد، فلا يبعد التحريم).

المنافي الرابع: اللغو

يكمل النبي ﷺ وصاياه بالتنبيه إلى شاغلٍ من شواغل المصلين في المساجد ومنافٍ لطبيعة دور المسجد؛ وأعني به (اللغو)؛ وهو: الحديث الذي لا طائل شرعياً من ورائه، ولا غايةَ أخرويةً له.

قال الراغب في تعريفه لهذه المفردة: اللَّغْوُ من الكلام: ما لا يعتدّ به، وهو الذي يورد لا عن رويّة وفكر)[1].

وأضاف الطريحي إلى ذلك قوله: اللغو: الباطل، واللغو: الفحش من الكلام، واللغو: الكذب، واللهو، والغناء. واللغو ـ أيضاً ـ المسقَط الملغَى)[2].

وهذه المصاديقُ للغو مذمومةٌ شرعاً؛ على مستوى الكراهة في بعضها، وعلى مستوى التحريم في بعضها الآخر.

لذلك، قال النبي ﷺ:

(واترك اللغوَ؛ ما دمت فيها)[3].

ثم إن هذا (اللغو) ـ المنهي عنه هنا ـ هو عنوانٌ عريضٌ يشمل الكثيرَ من كلام الناس، بل أكثره. وليس بالضرورة يكون اللغو بأجمعه محرَّماً، لكنه بمجموعه ـ بالتأكيد ـ ينافي كرامةَ المسجد وكرامةَ المؤمن وعلو شأنه وطموحه، وليس من طبيعة المؤمن ولا من طباعه أن يكون لاغياً، قال تعالى في سياق حديثه عن عباد الصالحين ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان/ ٧٢].

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة (لغا).

(٢) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، كتاب الألف، باب ما أوله اللام، مادة (لغا).

(٣) أورد هذه الفقرةَ الحرُّ العامليُّ في وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص٢٣٤، أبواب أحكام المسجد، الباب ٢٧ ـ كراهة البيع والشراء في المسجد، وتمكين الصبيان والمجانين منه، وإنفاذ الأحكام، وإقامة الحدود، ورفع الصوت فيه، واللغو، والخوض في الباطل، الحديث ٣.
كما استدل الفقهاء بهذه الفقرة؛ ضمن مجموعة أخبار، ومنهم الشيخ النجفي جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ١٤، ص١١٢، تحت عنوان (كراهة البيع والشراء، وإنفاذ الأحكام وتعرف الضوال وإقامة الحدود وإنشاد الشعر ورفع الصوت وعمل الصنائع في المساجد وتمكين الصبيان والمجانين منها).

ثم إن النبي ﷺ يؤكد على أن هذه الوصايا على درجةٍ عاليةٍ من الأهمية، بحيث إن إهمالها يترتب عليه ندمٌ شديدٌ، لا يمكن لصاحبه أن يرمي أسبابه، وبالتالي نتائجه، على أحد آخر، فيقول:

(فإن لم تفعل فلا تلومنَّ ـ يومَ القيامة ـ إلا نفسَك).

مهام رواد المساجد:

إتماماً للمشهد، وإيضاحاً للعمل الصالح الذي ينبغي أن نسعى إليه في المساجد خاصة، من أجل أن نحوله إلى عادة خارج المسجد؛ ويتمثل ـ كما قدمنا ـ في توثيق الارتباط بالله تعالى الخالق المعبود، لكل هذا ينبِّه النبي ﷺ على التالي:

المهمة الأولى: الأنس بالمسجد والطهارة

يُبتلَى كثيرٌ من الناس بأنهم لا يفقهون الدور الحقيقي للمسجد في الرؤية الإسلامية؛ حتى صيَّره بعضُهم إلى ما يشبه النادي الاجتماعي للتواصل بين الناس، وقد يحوِّله آخرون إلى ما يشبه المكتب التجاري لعقد الصفقات، وهكذا.

ولا نريد القول: إن من الممنوع شرعاً وعرفاً أن يتواصل الناس في أي شأن من شؤونهم عبر المسجد!

فالتواصل ـ عموماً ـ مما ندبنا إليه الشارعُ المقدسُ، ويؤمل من المسجد أن يسهم في ذلك، ولكن النص ـ مورد البحث ـ بصدد التأكيد على أن للمسجد دوراً أساسياً، وأدواراً فرعيةً، ويجب أن لا تُغَلَّب الفرعية على الأساسي؛ فضلاً عن الاشتغال فيه بما لا يكون دوراً أساسياً ولا فرعياً؛ فضلا عن ما يضاد ما أنشئت المساجد من أجله.

ومن هنا جاء النص على عددٍ من المهمات، منها (الأنس بالمسجد)، فقال ﷺ:

(يا أبا ذر! أتعلم في أي شيء أُنزِلت هذه الآية ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ٢٠٠].

قلت: لا [أدري] فداك أبي وأمي.

قال: في انتظار الصلاة؛ خلف الصلاة).

ومهمة الأنس بالمسجد هي أن نحوِّله إلى محرابِ عشقٍ؛ يناجي فيه العبدُ المحبُّ معبودَه المحبوبَ. وهذا ـ بالطبع ـ بحاجةٍ إلى الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله تعالى، إذا ما كنا بصدد (الفلاح).

وقد جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **وكن ـ نساء النبي (صلى الله عليه وآله) ـ لا يقضين الصلاة إذا حِضن، ولكن يتحشَّيْن حين يدخل وقت الصلاة، ويتوضَّين، ثم يجلسن قريباً من المسجد؛ فيذكرن الله عزّ وجلّ)**[١].

وهذا يعني ـ في ما يعني ـ أن على المؤمن والمؤمنة أن يكون لهما أنسٌ دائمٌ بالمسجد، ولا يدعانه قدر استطاعتهما؛ لأن ثمة بركات وعطايا إلهية لا تحصل إلا من خلال المسجد.

وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: **مَن أقام في مسجد بعد صلاته؛ انتظاراً للصلاة، فهو ضيفُ الله، وحقٌّ على الله أن يكرم ضيفه)**[٢].

كما أن الأنس بالمسجد يستلزم ـ أيضاً ـ العملَ الصالحَ؛ والذي تتفاوت مصاديقه؛ من حيث الأهمية والفائدة، وتُصنف الصلاةُ عنواناً لـ (خير العمل)، وتوصف بأنها عمود الدين وعماده. فقد جاء في الخبر أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال في وصيته: ... **الله الله في الصلاة؛ فإنها خير العمل. إنها عمودُ دينكم...)**[٣].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص٣٤٥، كتاب الطهارة، أبواب الحيض، الباب ٤٠ ـ تأكد استحباب وضوء الحائض عند كل صلاة...، الحديث ١.

(٢) المحاسن، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٤، ص١١٦، كتاب الصلاة، أبواب المواقيت، الباب ٣ ـ استحباب الصلاة في أول الوقت، الحديث ١٠.

(٣) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، فروع الكافي، ج٧، ص٥٢، كتاب الوصايا، باب صدقات النبي (صلى الله عليه وآله) وفاطمة والأئمة ووصاياهم، الحديث ٧؛ من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص١٩٠، وصية أمير المؤمنين عليه السلام لأولاده وغيرهم؛ التهذيب، كتاب الوصايا، باب الوصية ووجوبها، الحديث ١٤.

=

ولَما كان للصلاة مقدماتٌ؛ تعين على رسم المسار وتوجيه الدفة؛ من أجل تحقيق الغرض، فإن من الطبيعي أن تُولى أهميةً مناسبةً.

ومن تلك المقدمات:

أولاً: إسباغ الوضوء في المكاره

الوضوء هو: استعمال الماء؛ بوجهٍ مخصوصٍ؛ لتحصيل الطهارة من الحدث الأصغر. وهو ما بيَّنه الله تعالى في الكتاب؛ بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة/ ٦].

وهو مطلوب شرعاً على وجهين:

أ ـ بنحو الوجوب

وذلك في مثل الصلاة التي يشترط فيها الوضوء؛ واجبةً كانت أو مستحبة؛ فقد ورد عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: **لا صلاةَ إلا بطهور**[(١)]. أو لطواف واجب، أو لِمس المصحف إن وجب لعارضٍ[(٢)].

ب ـ بنحو الاستحباب تارةً أخرى

وذلك حيث يستحب أن يكون المكلف دائماً على طهارة؛ فقد ورد في الحديث عن أنس، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): **يا أنس! أكثِر من**

= وقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه، باب من كان يقول في أذانه حي على خير العمل، ج١، ص١٩٥، بسنده: أن علي بن حسين، كان يؤذن، فإذا بلغ حي على الفلاح، قال: حي على خير العمل. ويقول: هو الأذان الأول).

وفيه ـ أيضاً ـ ص١٩٦: كان ابن عمر، زاد في أذانه، حي على خير العمل).

(١) تهذيب الأخبار، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٣١٥، كتاب الطهارة، أبواب الوضوء، الباب ١ ـ وجوبه للصلاة ونحوها، الحديث ١.

(٢) النجفي، الشيخ محمد حسن (ت١٢٦٦ هـ)، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج٥، ص٨، كتاب الطهارة، الواجب من الوضوء.

الطهور يزيد اللهُ في عمرك، وإن استطعتَ أن تكون بالليل والنهار على طهارةٍ فافعل، فإنك تكون إذا مُتَّ على طهارة مُتَّ شهيداً)(١).

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يكتفِ؛ في وصيته، بالحضّ على الوضوء، وإنما اهتم بأدائه على الوجه الأحسن، وعطف على ذلك الظرفَ الذي يؤدَّى فيه لكي تترتب عليه الثمرة الجليلة.

ويراد بـ(إسباغ الوضوء): أداؤه بشكلٍ صحيحٍ ومتقنٍ.

قال الطريحي: وإسباغ الوضوء: إتمامه وإكماله. وذلك في وجهين: إتمامه على ما فرض الله تعالى، وإكماله على ما سنه رسول الله ﷺ. ومنه **(أسبغوا الوَضوء)**؛ بفتح الهمزة؛ أي: أبلغوه مواضعه، وأوفوا كلَّ عضوٍ حقَّه)(٢).

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: **هذه شرايع الدين لمن أراد أن يتمسك بها، وأراد الله هداه: إسباغ الوضوء كما أمر الله في كتابه الناطق...)**، ثم صار يبين كيفية الوضوء(٣).

وأما **(المكاره)**؛ جمع مكروه، فهي تعني: ما يشق على الإنسان بوجهٍ من الوجوه.

والمكروه ـ كما قيل ـ: أصلٌ صحيحٌ واحدٌ؛ يدل على خلاف الرضا والمحبة. يقال كرهتُ الشيءَ أكرهه كرهاً. والكُره الاسم. ويقال: بل الكره: المشقة)(٤).

---

(١) الأمالي للشيخ المفيد، وعنه: الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (ت١١٠٤ هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٣٨٣، أبواب الوضوء، الباب ١١ ـ استحباب الوضوء لنوم الجنب، وعقيب الحدث، والصلاة، وعقيب الوضوء والكون على طهارة، الحديث ٣.

(٢) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، كتاب الغين، باب ما أوله السين، مادة (سبغ).

(٣) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٣٩٧، كتاب الطهارة، أبواب الوضوء، الباب ١٥ ـ كيفية الوضوء، وجملة من أحكامه، الحديث ١٨.

(٤) ابن فارس، أحمد (ت٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، مادة (كره).

والذي يناسب ما نحن فيه هو أن يُحمل كلام النبي ﷺ على مطلوبية الوضوء في حالات الشدائد؛ أيا كانت طبيعتها.

ولعل السر في ذلك هو: أن الإنسان في حالات الشدائد والمكاره يكون أضعفَ منه في حالات الرخاء والرضا، وقد يكون ضعفه هذا مدخلاً للشيطان؛ فيوسوس له بفعل شيء ـ بجارحةٍ أو جانحةٍ ـ مما لا يرضاه الله تعالى؛ ويكون إذا استجاب لوسوسته تلك ممن ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف/ ٣٠].

أما إذا عمل بهذا التوجيه النبوي الكريم؛ من إسباغ للوضوء واختلاف إلى المساجد، فسينفتح له باب اللجوء إلى الله تعالى ليكون من أهل ولايته؛ وسيُصد الشيطانُ عنه ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية/ ١٩].

وأما **(الكفارة)** فهي: فعلٌ ماديٌّ أو معنويٌّ، يعتبره الشرع المقدس سبباً لتغطية، أو محو، ما علق بالإنسان؛ وهو المتوضئ هنا، من أدران روحية ومعنوية؛ بسبب تقصيره في أداء مرغوب أو تجنب محبوب.

قال الطريحي: «الكفَّارة» وهي فعَّالة من الكَفر، وهي التغطية؛ لأنها تكفِّر الذنب عن الإنسان، أي تمحوه وتستره وتغطيه)[1].

وقال ابن الأثير ـ في تعريفها ـ إنها: عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكَفِّر الخطيئة؛ أي تسترها وتمحوها. وهي فَعالة للمبالغة، كقتّالة وضرّابة)[2].

وتقصير الإنسان في حق نفسه؛ بمخالفته ربه، له تبعاتٌ قد يدرِك بعضَها، لكنه بالتأكيد لا يدرِك أكثرَها. وهو بحاجة إلى الرجوع عنها بالتوبة والاستغفار، وقد يضاف إلى ذلك ما يعرف بـ(الكفّارة).

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، كتاب الراء، باب ما أوله الكاف، مادة (كفر).

(٢) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، كتاب الكاف، باب الكاف مع الفاء، مادة (كفر).

وقد عدَّ النبيُّ ﷺ إسباغَ الوضوء في حالات المكاره من الكفارات الماحية للآثار السلبية للخطايا والأخطاء، فقال ﷺ:

(يا أبا ذرٍّ! إسباغ الوضوء في المكاره من الكفّارات).

ثانياً: التردد الدائم إلى المسجد

ثم ألحق بذلك مباشرةً قوله ﷺ:

(وكثرة الاختلاف إلى المساجد فذلكم الرباط).

وعلى مستوى تبين مدلول هذه المفردة يمكن القول: أصل الرباط الملازمةُ والمواظبةُ على الأمر)[١]. غير أن هذا المصطلح، وصنوه المرابطة، أخذ تحديداً أخص؛ ارتبط في الدرجة الأولى بمجاهدة العدو.

فعرفه الفقهاء ـ لذلك ـ بتعريفات مختلفة، منها:

١ ـ أنه: الإقامة عند الثغر لحفظ المسلمين)[٢].

٢ ـ أنه: الإقامة عند الثغر لحفظ بيضة الإسلام)[٣].

٣ ـ أنه: الحراسة بمحل خِيف هجوم العدو منه، أو المقام في الثغور؛ لإعزاز الدين، ودفع الشر عن المسلمين)[٤].

٤ ـ أنه: الإقامة في مكان ليس وراءه إسلام، ويتوقع هجوم العدو منه لقصد دفعه لله تعالى)[٥].

٥ ـ أنه: بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة، أو معاونة بمال، أو رأي، أو تكثير سواد أو غير ذلك)[٦].

---

(١) الطريحي، فخر الدين (ت١٠٨٥ هـ)، مجمع البحرين، كتاب الطاء، باب ما أوله الراء، مادة (ربط).

(٢) الحلي، الحسن بن يوسف (ت٧٢٦ هـ)، تحرير الأحكام، ج٢، ص١٣٥، كتاب الجهاد، الفصل الأول، البحث العشرون.

(٣) الحلي، الحسن بن يوسف (ت٧٢٦ هـ)، تذكرة الفقهاء، ج٩، ص٤٥١، كتاب الجهاد، الفصل الثامن في الرباط، في معنى الرباط.

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ج٥، ص٢٠٧، مادة (اعتكاف).

(٥) المصدر السابق، ج١٦، ص١١٥، مادة (جهاد).

(٦) المصدر السابق، ج٢٢، ص٧٧، مادة (رباط).

ويمكن تعريفه ـ في صياغةٍ حديثةٍ ـ بأنه: البقاء على الثغر؛ دفعاً لعدوان الأعداء المتوقَّع على الإسلام أو المسلمين، وحفظاً للجهوزية الجهادية.

والرباط ـ بعدُ ـ هو أحد مراتب الجهاد في سبيل الله، وله شروطه المحددة. وقد بيَّن الفقهاء تلك الشروط في كتب الفتوى والاستدلال، ومن أراد التفصيل فليراجعها في مظانها.

ولما كان الرباط ـ ككثيرٍ من المفاهيم الشرعية ـ له مراتب متعددة، ومصاديق متنوعة، وكان من الممكن أن يُساء فهمه تارةً، وأن يستغل تارةً أخرى، فقد ورد في النصوص الشرعية التحذيرُ من سوء الاستغلال من جهةٍ، ومن بيان أبعاده من جهةٍ أخرى.

ومن نماذج الثاني؛ أي بيان أبعاده وشروطه: ما رواه عن محمد بن مسلم وزرارة، عن أبي جعفر الباقر وأبي عبدالله الصادق عليهما السلام، أنهما قالا: **الرباط ثلاثة أيام، وأكثره أربعون يوماً، فإذا جاوز ذلك فهو جهاد)**[1].

ومن نماذج الثاني ـ أيضاً ـ: ما نحن بصدده؛ من فقرة الوصية مورد البحث، والتي وُسِّع فيها مفهومُ المرابطة إلى ما يشمل كثرةَ الاختلاف إلى المساجد؛ حيث قال النبي صلى الله عليه وآله:

(وكثرة الاختلاف إلى المساجد؛ فذلكم الرباط).

والمقصود منه ـ هنا ـ الترددُ إليها[2]؛ من أجل الصلاة لله، وذكره، وشكره، فيها.

قال ابن الأثير:

---

(١) تهذيب الأخبار، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٢٩، كتاب الجهاد، الباب ٦ ـ حكم المرابطة في سبيل الله...، الحديث ١.

(٢) يشهد لذلك ما روي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال ـ في حديثٍ ـ: **ألا أدلكم على شيء يكفِّر اللهُ به الخطايا، ويزيد في الحسنات؟ قيل: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى هذه المساجد...)** [علل الشرائع، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١، ص٣٨١، أبواب الوضوء، الباب ١٠ ـ استحباب الطهارة لدخول المساجد، الحديث ٣].

«**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» الرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها، فشبّه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة.

قال القتيبي: أصل المرابطة أن يربط الفريقان خيولهم في ثغر، كل منهما معد لصاحبه «فسمي المقام في الثغور رباطاً. ومنه قوله «فذلكم الرباط»؛ أي: أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة، كالجهاد في سبيل الله، فيكون الرباط مصدر رابطت: أي لازمت. وقيل: الرباط ـ هاهنا ـ اسم لما يربط به الشيء: أي يشد، يعني أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم»[(١)].

ومن نماذج الأول؛ أي سوء استغلاله: ما يقع فيه كثيرٌ من الخيرين من المرابطة الجهادية؛ بدافعٍ حسنٍ، غير أن مَن يستثمر مرابطتَهم هذه هم المتحكِّمون بغير حقٍّ في أمورِ الأمة.

وفي هذا ورد في الخبر عن الإمام الرضا عليه السلام؛ في حديثٍ أجاب فيه من سأله عن جواز المرابطة في تلك الظروف التي كان يتولى الأمرَ فيها حكام غير شرعيين، قال: ... **يرابط ولا يقاتل، وإن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل؛ فيكون قتاله لنفسه لا للسلطان؛ لأن في دروس الإسلام دروس ذكر محمد (صلى الله عليه وآله)**»[(٢)].

وهذان النموذجان ـ من المرابطة ـ يدعوان إلى التوجيه المستمر للمسلم والمؤمن نحو الغاية الأساسية؛ وهي أن تكون الأعمال كلها لله تعالى؛ بما فيها المرابطة التي لا غنى فيها عن المسجد؛ الذي يؤسس لها في نفس من يرتاده بوعي وإخلاص، ويعززها المرة تلو المرة.

---

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، حرف الراء، باب الراء مع الباء، مادة (ربط).

(٢) تهذيب الأخبار، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥، ص٣٠، كتاب الجهاد، الباب ٦ ـ حكم المرابطة في سبيل الله، ومن أخذ شيئاً ليرابط به، الحديث ٢.
والدروس ـ هنا ـ جمع (دَرَس)؛ بمعنى: خفي واندثر.

لذلك، كانت كثرة الاختلاف إلى المسجد، وإسباغ الوضوء والدوام عليه، سبباً ووسيلةً لتحقيق التولهِ والتعلقِ المستمِرَّين بالله تعالى.

وبطبيعة الحال، فإن هذا وذاك يستلزمان عزماً وإرادةً؛ لا يتوفر عليهما الجميعُ، وإنما يُوفَّق له الموفَّقون، ونذكِّر بما قاله الإمام الصادق عليه السلام أنه: **لا يأتي المسجدَ من كل قبيلة إلا وافدُها، ومن كلِّ أهلِ بيتٍ إلا نجيبُها)**[1]، جعلنا الله وإياكم منهم.

المهمة الثانية: حب الله والحب فيه

إن عنوان (تقوية البنية واللحمة الاجتماعية) مما ينشده المحبُّون لمجتمعاتهم، وهو في الوسط الإيماني مما ينبغي، بل يجب، أن يحرص عليه المؤمنون دائماً؛ فإن الله تعالى يقول ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠].

ومن الضروري التنبه والتنبيه إلى أن تحقيق عنوان (تقوية البنية واللحمة الاجتماعية) يتم بصورتين:

الأولى: على أساس الحق.

الثانية: على أساس الباطل.

ويعنينا ـ كمسلمين ومؤمنين ـ أن نقوم بذلك بالصورة الأولى، فما يليق بنا؛ ويناسب تديننا، هو ما يجعلنا مرضيين عند الله تعالى، وهذا يعني أن يكون محورُ محبة هذا الفريق لإقامة البناء الاجتماعي والمحافظة عليه هو القربَ من الله تعالى.

ولا نخطئ إذا قلنا: إن هذا لا يتحقق في الخارج إلا لعباد الله الصالحين؛ الذين هم ـ بدورهم ـ لم يحظوا بما حظوا به في غير المساجد، ومن غير التهجد لله والاستغفار في الأسحار.

---

(١) أمالي الطوسي، وعنه وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٥، ص١٩٥، أبواب أحكام المساجد، الباب ١ ـ تأكد استحباب الصلاة في المسجد، وإتيانه؛ حتى مساجد العامة، الحديث ٢.

ومن ثم فإن صانع اللحمة الاجتماعية الإيمانية؛ العميقة والحقيقية والباقية، إنما هو العبودية الصالحة؛ التي تزدهر بصلاة الصالحين واستغفارهم؛ خصوصاً في الأسحار.

وكل هذا إنما يحصل بفضل (المسجد العامر).

قال تعالى في بيان عاقبة المتلاحمين اجتماعياً على أساس التقوى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف/ ٦٧ ـ ٧٣].

ومن أجل هذا ندرك أهمية ما قاله النبي ﷺ؛ في هذا الصدد:

(يا أبا ذرٍّ! يقول الله تبارك وتعالى: إن أحبَّ العبادِ ـ إليَّ ـ المتحابُّون من أجلي، المتعلِّقة قلوبُهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار.

أولئك إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً ذكرتُهم فصرفتُ العقوبةَ عنهم).

فهؤلاء المتحابُّون في ما بينهم، عمَّارُ مساجد الله، وعشَّاقُهُ المتعبدون والمتهجدون له في الأسحار؛ حيث الإخلاص والنقاء، هؤلاء أصبحوا أحبَّ عبادِ اللهِ تعالى إليه، وهم مبارَكون في أنفسهم، وصاروا سبباً للبركة على الآخرين، فحِيل بين العصاة والعقوبة لأجلهم.

المهمة الثالثة: الدور الوظيفي للمسجد

كخلاصة لتبيين الدور الوظيفي للمسجد يؤكد النبي ﷺ على أداء هذه المهمة في اتجاهين:

الاتجاه الأول: التنمية الروحية

التنمية الروحية، وللمسجد العامر دورٌ مهمٌّ فيها، إنما هي شكل من أشكال القسط الملازم للسير على الصراط المستقيم؛ لأنها تؤكد أن للخالق حقوقاً، كما أن للمخلوق حقوقاً.

ولَما كان الخالقُ هو الكاملَ المطلقَ؛ الذي يعطي لكل ذي حقٍّ حقَّه؛ فينبغي للمخلوق أن يكون في مستوى روحيٍّ عالٍ؛ ليتأتى له القسط والعدل.

ومَن افتقد هذه التنمية الروحية فسيقع في مصيدة الانحراف والظلم.

وهذه التنمية الروحية تتحقق بالعمل على شعبتين اثنتين؛ هما:

الشعبة الأولى: الصلاة

الشعبة الثانية: الذكر

ويجمع الشعبتين معاً قول الله تعالى ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٥].

الاتجاه الثاني: طلب العلم

لا يمكن أن يُحصَر نشاطُ المسلم في علاقته بربه في الصلاة والذكر، بل يجب أن يُشفع ذلك بما يؤمِّن للمصلي والذاكر بناءَ قاعدةٍ متينةٍ تعينه على توجيه بوصلته في كل أفعاله إلى الله؛ المستحِق ـ وحده ـ للعبادة، والمرجو ـ وحده ـ لتحقيق الخير، والمأمول ـ دون من عداه ـ لدفع الضر.

وهذه القاعدة ليست سوى العلم والمعرفة، وفي ذلك قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر/ ٢٨]، وقال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩].

وفي تبيان كلا الاتجاهين قال النبي ﷺ:

(يا أبا ذر! كلُّ جلوسٍ في المسجد لغوٌ إلا ثلاثة[١]: قراءةُ مصلٍّ، أو ذكرُ اللهِ، أو سائلٌ عن علمٍ) [الفقرة/ ١٢٠].

ومن الأخطاء الشائعة الظنُّ بأن اللغو هو خصوصُ الكلام الباطل! مع أن ما يُستفاد من قواميس اللغة العربية؛ والاستعمال أيضاً، أن اللغوَ أعمُّ من ذلك. فقد عرَّفه ابن منظور بقوله: اللغو واللغا: السقطُ، وما لا يعتدُّ به؛ من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع)[٢].

وقد أحسن مَن قال؛ توضيحاً لهذا التعميم: واللغوُ أعمُّ من أن يكون في كلامٍ، أو عملٍ، أو موضوعٍ خارجيٍّ.

ومن مصاديقه: اليمينُ إذا وقعت من دون عقد قلب وتصميم؛ كما في صورة الخطأ أو الغضب أو اللجاج وغيرها. والكلام غير المفيد. والعمل إذا لم يترتّب عليه نفع. وكلّ باطل أو لهو فهو لغو)[٣].

وما ورد من فقرة الوصية ـ مورد البحث ـ شاهدٌ على هذا التعميم. فقد اعتبر النبيُّ ﷺ أن الجلوس في المسجد؛ إذا لم يكن مشفوعاً بذكر الله تعالى، أو الصلاة، أو قراءة قرآن، أو تداول العلم تعلماً وتعليماً وما أشبه ذلك، سيتحول إلى لغو؛ أي: عمل باطل لا فائدة فيه.

---

(١) في المكارم (ثلاث).

(٢) الأفريقي، ابن منظور (ت٧١١ هـ) لسان العرب، مادة (لغو).

(٣) المصطفوي، السيد حسن (معاصر)، التحقيق في كلمات القرآن، مادة (لغو).



الفصل الرابع

الطريق إلى الفاعلية

بعد أن استعرضنا في الفصل السابق ما يتعلق بالعمل الصالح؛ بما مر بيانه، سنتناول في هذا الفصل الطريق إلى الفاعلية؛ فلذلك شروطٌ ومستلزماتٌ. ونِعم ما قال الشاعر العربي المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

١ ـ الفاعلية تساوي الإنسانية

الإنسان؛ كما هو معلومٌ، ليس جسماً فقط، بل هو ـ مضافاً إلى ذلك ـ روح وعقل، ويلزمه أن يولي كلَّ ذلك عنايةً مناسبةً؛ إذا أراد أن يكون إنساناً بحقٍّ، وإذا أراد لإنسانيته هذه أن تكون محلَّ تقديرٍ من قِبَل الغير.

لهذا، فإن من المهم جداً للإنسان أن يكون فطِناً كيِّساً في عقله، حياً نبيهاً في وجدانه، فاعلاً في جوارحه وجوانحه، فإذا انعدم ذلك كان الموت خيراً له من الحياة، وباطن الأرض أفضل له من ظاهرها.

٢ ـ القرآن وثقافة العمل

لهذا نجد القرآن الكريم يؤكد؛ ضمن ما يؤكد عليه من تعاليم كثيرة، على (ثقافة العمل). كما نقرأه في قوله تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

مع التأكيد على أن العمل المطلوب؛ حسب الآية الشريفة، ليس أيَّ عملٍ،

بل العمل الذي يشكل رصيداً حقيقياً، ويضيف للعامل ثواباً وأجراً عند الله تعالى، وذكراً حسناً عنده تعالى وعند أوليائه. وهذا العمل هو الموصوف بأنه (صالح)، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل/ ٩٧].

ولن يتيسر للعامل ذلك إلا إذا عرف أن عمله؛ أو أعماله، ستُعرض على الله وعلى رسوله ﷺ والمؤمنين، وهم ـ هنا ـ خصوص المعصومين ﷺ. قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]، وقال تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠].

وبطبيعة الحال، لن يُستثنى من هذا العمل المطلوب عمل ظاهرٌ أو باطنٌ، فالآيةُ مطلقةٌ؛ على مستوى الأمر ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، وعلى مستوى النتيجة ﴿تَعْمَلُونَ﴾، ولا موجب لتخصيصها بهذا العمل أو ذاك، فالله تعالى وكذلك رسوله والمؤمنون ـ المشار إليهم في الآية ـ مطلعون على كل ما يصدر عن الناس من عمل.

وقد جاء في الخبر عن أبي بصير، عن أبي عبدالله الصادق ﷺ، أنه قال: **تُعرض الأعمالُ على رسول الله صلى الله عليه وآله؛ أعمال العباد، كل صباح أبرارها وفجارها؛ فاحذروها. وهو قول الله تعالى ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾**، وسكت)[1].

وأعمال الناس؛ أفراداً وجماعات، التي توصف بالصلاح حيناً، وبضده حيناً آخر، نوعان:

١ ـ (أعمال الجوارح)، وهي ما يُباشر بالجوارح؛ كالقيام، والقعود، ونحوهما.

٢ ـ (أعمال الجوانح)؛ وهي ما يُباشَر بالجوانح، كالحب، والبغض، ونحوهما.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٢١٦، كتاب الحجة، باب عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة ﷺ، الحديث ١.

وإذا كان الأمر كذلك فسيتبين أن المقصود بالمؤمنين ـ في الآية ـ هم فئةٌ خاصةٌ؛ يسَّر الله لهم القدرة على أن يطلعوا على كلا النوعين من الأعمال، وليس عمومَ المؤمنين؛ الذين قد يتيسر لهم أن يطلعوا على النوع الأول؛ وهي الأعمال الجوارحية؛ إذا توفرت لهم أسباب الاطلاع، أما النوع الثاني (الجوانحي) فليسوا قادرين ـ بقدراتهم الذاتية ـ على أن يطلعوا عليها؛ لأنها خفية بطبيعتها من جهة، وهؤلاء المؤمنين لا يمتلكون الأدوات اللازمة على الاطلاع عليها من جهة أخرى.

إن قلت: لمَ لا يُقال إن الآية تتحدث عن رؤية العمل في يوم القيامة، وهو اليوم الذي تتجلى فيه الحقائق، وتظهر فيه الوقائع للمؤمنين؟

قلت: إن ذلك لا يصح لوجوهٍ، منها:

أولاً: أن الآية مطلقة في إثبات الرؤية، ولا دليل ـ من عقل، أو نقل ـ على تقييد الرؤية بالدنيا.

ثانياً: أن في الآية ما يشكل قرينة على أن هذه الرؤية سابقة ليوم القيامة. وهذه القرينة هي قوله تعالى ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ فهي تدل على أن هناك رؤيةً لله ولرسوله وللمؤمنين بأعمال الناس، ثم إن هناك رداً للناس؛ بمعنى حشرهم بين يدي عالم الغيب والشهادة، وإنباءً ـ أي إخباراً ـ لهم بما كانوا يعملون. فهنا ـ إذاً ـ فعلان وليس فعلاً واحداً.

ثالثاً: أن يوم القيامة ستظهر فيه الحقائق والوقائع؛ للمؤمنين ولغيرهم، والآية خصت المؤمنين بالرؤية، فهي بصدد الحديث عن اطلاع خاص وليس هو ما يُتوقع لجميع الناس.

رابعاً: أن الرؤية؛ والمراد بها العلم والإحاطة، الثابتة لله تعالى وللرسول (صلى الله عليه وآله) وللمؤمنين، واحدة. فهذا العلم ـ إذاً ـ حضوري؛ لأن علم الله حضوري، ورؤية الرسول (صلى الله عليه وآله) لأعمال الناس؛ بمعنى علمه بها، هي كذلك ـ تبعاً لعلم الله تعالى ـ؛ لمكان وحدة الرؤية، فيجب أن يكون المؤمنون الذي يرون أعمال الناس؛ بمعنى علمهم بها من هذا السنخ أيضاً.

وغير خفي أن هذا العلم الحضوري لا يُتاح للجميع؛ بل لفئة خاصة، وهم الأئمة من آل البيت عليهم السلام[1].

---

(١) هذا المعنى هو ما نبهت له الروايات الشريفة، وهذه نماذج منها:
أ ـ ما رواه الشيخ الكليني بسنده يعقوب بن شعيب، قال: **سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾! قال: هم الأئمةُ).**
ب ـ ما رواه أيضاً بسنده عن سماعة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: ما لكم تسوؤون رسولَ الله (صلى الله عليه وآله)؟!
فقال رجلٌ: كيف نسوؤه؟!
فقال: أما تعلمون أن أعمالَكم تُعرض عليه، فإذا رأى فيها معصيةً ساءه ذلك. فلا تسوؤوا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسُرُّوه).
ج ـ ما رواه بسنده عن: عن عبدالله بن أبان الزيات؛ وكان مكيناً عند الرضا عليه السلام، قال: **قلتُ للرضا عليه السلام: ادع الله لي ولأهل بيتي.**
فقال: أو لستُ أفعل؟! والله إن أعمالكم لتُعرض عليّ في كل يوم وليلة.
قال: فاستعظمتُ ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عزّ وجلّ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، قال: هو واللهِ عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام.
د ـ عن يعقوب بن شعيب، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: هم الأئمة). انظر: أصول الكافي، ج١، ص٢١٩ وما بعدها، كتاب الحجة، باب عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.
وقد عقد المحدث الحر العاملي؛ في أبواب جهاد النفس من وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، لذلك باباً أورد فيه (٢٥) خبراً، وهو الباب (١٠١)، وجعل عنوانه (باب وجوب الحذر من عرض العمل على الله ورسوله والأئمة(عليهم السلام».
وأما المحدث المجلسي فقد عقد في بحار الأنوار، ج٢٣، باباً حمل الرقم (٢٠) بعنوان (باب عرض الأعمال عليهم السلام، وأنهم الشهداء على الخلق) ضمَّنه (٧٥) حديثاً، فراجعه.
وفي مجامع الحديث السني ـ أيضاً ـ ما يعزز أصل هذه المسألة. فقد أخرج الهيثمي؛ في مجمع الزوائد بإسناده عن عبدالله بن مسعود، عن النبي (صلى الله عليه [وآله] وسلم)، قال: **إن لله ملائكة سياحين، يبلغون عن أمتي السلام).**
قال: وقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم).
رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح) [مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٢٤، برقم (١٤٢٥٠)، باب ما يحصل لأمته صلى الله عليه وسلم من استغفاره بعد وفاته].

وعلى أي حال، فإن من الجدير والمنطقي أن يكون العمل المطلوب والحال هذه هو خصوصَ العمل الحسن والصالح، وأن يكون السعي باتجاه تحسينه وإصلاحه.

وهذا ما أشارت له الآيات القرآنية الكريمة. كما في:

* قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد/ ٢٨ ـ ٢٩].

* وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر/ ٢، ٣].

الفلسفة التربوية لعرض الأعمال:

قد يثار تساؤل عن ثمرة عرض الأعمال على النبي والأئمة (صلوات الله عليه وعليهم)، مع أن الله سبحانه سيرد الخلقَ إليه؛ لينبئهم بما عملوا؛ فيحاسب المحسن على إحسانه، والمسيءَ على إساءته ما لم يعفُ عنه؟!

وقد أجيب عنه بما حاصله:

أن الثمرةَ المترتبةَ على ذلك مهمةٌ وكبيرةٌ من الناحية التربوية؛ فإن الناس إذا علموا أن لهم شهداءَ ورقباءَ وكتَّاباً يكتبون ما يفعلون؛ لا يغادرون صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصوها، وأن النبيَّ ﷺ والأئمةَ عليهم السلام تُعرض عليهم الأعمال، ويطلعون على ما يعمل الناس، كان ذلك رادعاً للنفس الأمارة بالسوء عن الانهماك والانغماس في الشهوات، ومانعاً لها عن متابعة الأهواء واللذات، فلا بدَّ للعاقل البصير ـ بعد هذا ـ أن ينظر إلى عمله، وأن يحذر من عرض عمله القبيح على نبيِّه وأئمتِه ويستحي من ذلك، ولا يفعل ما يوجب مساءةَ حالهم واستحياءهم من الله سبحانه من قبائح أعمال شيعتهم[1].

ولذلك نظيرٌ في قوله تعالى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ

(١) انظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢١٢.

وَأَرَىٰ﴾ [طه/ ٤٣ ـ ٤٦]. فإنه عزّ وجلّ لما كلَّف نبييه موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى طاغيةٍ؛ هو فرعون، وديدنُهُ البطشُ والفتكُ، كان قلقُهما قلقاً منطقياً وتخوفاً طبيعياًّ ـ لا يخدش عصمتَهما، وكمالَ إيمانهما بربهما، ونصرَه لهما، فأجابهما الله تعالى بتبديد هذا القلق والتخوف.

وما نحن فيه؛ أي عرض الأعمال، هو من هذا القبيل.

فإن مَن عرف أن الله سبحانه ونبيه والمؤمنين يراقبونه، وكان يعنيه رضا هؤلاء المراقِبين؛ وهذا ما يُفترض بالمؤمن أن يتصف به، ستكون هذه المعرفة سبباً معِيناً على الثبات على خط الاستقامة، جعلنا الله وإياكم من أهلها.

٣ ـ حوافز العمل

في هذا السياق، قال صلى الله عليه وآله:

- **[الفقرة/ ١٦]:**

(يا أبا ذر! إذا أصبحتَ فلا تحدِّثْ نفسَك بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تحدِّثْ نفسَك بالصباح.
وخذْ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك؛ فإنك لا تدري ما اسمُك غداً).

وفي هذه الفقرة تنبيهٌ إلى عددٍ من الحوافز:

الحافز الأول: النهي عن إطالة الأمل

يراد بـ(طول الأمل): ظنُّ البقاء في الدنيا، وتوقعُ حصول المشتهيات فيها بالأماني الكاذبة الشيطانية)[1].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٦٧، ص٨٨، الباب ٤٦: ترك الشهوات والأهواء، اتباع الهوى وطول الأمل، وبيانه وشرحه، بيان الحديث ١٩.

وإنما ورد ذمُهُ لِما يترتب عليه من آثارٍ مدمرةٍ.

قال الله تعالى ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة/ ٥، ٦].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **ما أطال عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ**[(١)].

ويتحقق هذا الحافز (الانتهاء عن طول الأمل) بتقصير الأمل إلى حدوده الدنيا؛ حتى إنه إذا استيقظ في الصباح ينبغي أن لا يظن أنه سيبقى حتى المساء، وإذا أمسى ينبغي أن لا يظن أنه سيبقى حتى الصباح!

ولا شك أن هذا الشعور ـ إذا استقر في نفس الإنسان ـ سيحوله إلى كتلةِ نشاطٍ؛ لا تعرف كللاً ولا مللاً. وهذا ما يحتاجه الناس جميعاً؛ لأن من أهم الآفات ـ التي تقف عائقاً بينهم وبين تفجير طاقاتهم ـ هي (طول الأمل).

وهنا يجب التأكيد على شريحة الشباب؛ ذكوراً وإناثاً، بأن لا يفرِّطوا في مرحلة الشباب؛ فهي ذهبيةٌ بجميع المعايير؛ حيث يمكن للشاب أن يقوم بما لا يتاح للشيخ ـ عادةً ـ أن يقوم به.

موعظة لأمير المؤمنين عليه السلام:

لعل من أفضل ما ينبغي استحضاره ـ في ضرورة العمل الصالح والمبادرة إليه، وذم طول الأمل والتقصير ـ كلاماً لأمير المؤمنين علي عليه السلام وعظ به بعض أصحابه بقوله:

أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أشرفت باطلاع. ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار.

أفلا تائب من خطيئته قبل منيته؟!

ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟!

ألا وإنكم في أيام أملٍ؛ من ورائه أجلٌ. فمن عمل في أيام أمله ـ قبل حضور

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص٤٣٧، كتاب الطهارة، أبواب الاحتضار، الباب ٢٤ ـ كراهة طول الأمل، وعدِّ غد من الأجل، الحديث ١.

أجله ـ نفعه عمله، ولم يضرره أجله. ومن قصَّر في أيام أمله ـ قبل حضور أجله ـ فقد خسر عملَه، وضره أجلُه.

ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة.

ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها.

ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضرره الباطل. ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى.

ألا وإنكم قد أُمِرتم بالظعن، ودُلِلتم على الزاد. وإن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل.

تزودوا ـ من الدنيا ـ ما تحرزون أنفسكم به غداً)[١].

الحافز الثاني: استثمار العوامل

إننا إذا عرفنا أن النجاح؛ في أي حقل، يستلزم (العمل)، فإن التوقف عن العمل؛ أياً كان سببه، سيكون موجِباً لتراجعه عن تحقيق النتائج.

وثمة عاملان اثنان، يشير إليهما النص النبوي في هذه الوصية، ويجب استثمارهما خير استثمار؛ خصوصاً لمن كان بصدد التعرف على الصراط المستقيم وحرص على الثبات عليه. وهذان العاملان هما:

١ ـ الصحة

إن الصحيحَ ـ في بدنه، وفي عقله، وفي نفسه ـ قادرٌ على العمل، بينما يعاني المرضى ـ في الأبدان، والعقول، والنفوس ـ من قصورٍ أو تقصيرٍ في العمل؛ لِما يتطلبه العملُ من حيويةٍ ونشاطٍ يفتقدهما المريضُ عادةً.

لذلك، فإن المبادرةَ إلى اغتنام حالة الصحة يُعد أمراً حيوياً لا يُسمح بالتهاون فيه. والصحةُ نعمةٌ من أجلِّ النعم، ويجب أن يُحمد الله سبحانه ويشكر عليها.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

الصحة بين الفرد والمجتمع:

ثم إن الصحة على المستوى الفردي يجب أن لا يُنظر إليها على أنها مطلبٌ فرديٌّ، وإنما هي مطلبٌ اجتماعيٌّ أيضاً. فإن المريض سيتحول إلى عنصرٍ غير فاعلٍ أولاً، وسيكون عِبئاً على المجتمع ثانياً.

لذلك، فإن الاهتمام بالصحة الفردية يُعد ضمن المسؤوليات الاجتماعية.

٢ ـ الحياة

العامل الثاني الذي يجب استثماره يتمثل في ما لا عوض منه؛ وهو (الحياة)، التي هي المضمار الوحيد لـ(العمل).

قال الشاعر(١):

دقاتُ قلبِ المرء قائلةٌ له إن الحياةَ دقائقٌ وثواني

ومن فاته استثمارُها لن يُتاح له استبدال غيرِها بها (**اليوم عملٌ ولا حسابَ، وغداً حسابٌ ولا عملَ**)(٢). قال تعالى؛ على لسان الإنسان المقصر الذي لم يحسن استثمار الحياة في الأعمال الصالحات، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون/ ٩٩ ـ ١٠٠].

الحافز الثالث: أهوال يوم القيامة

تتسم القيامة ـ حسب آيات القرآن الكريم والروايات الشريفة ـ بأحداث وأهوال تشيب لها الولدان. قال تعالى ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج/ ٢]، وهو تصويرٌ بليغٌ لشدة أهوال يوم القيامة.

فالأم؛ أي أم، لا تذهل عادةً عن وليدها؛ خصوصاً إذا كان رضيعاً، ولكن

(١) هو أحمد شوقي من قصيدة يرثي بها مصطفى كامل.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

يوم القيامة ليس كغيره من الأيام. وسيكون الناس؛ كل الناس، في حالٍ أشبه ما يكونون بالسكارى؛ حيث يترنحون؛ لا رأي لهم، ولا إرادة، ولا قدرة حتى على المشي السويِّ، وهو تعبير بليغٌ آخرُ عمّا يواجهه الإنسانُ من صدمات؛ تسلبه لبَّه، وتؤثر في وجدانِه.

والتعبير ـ في الوصية ـ يضيف أن الإنسان سيكون في ذهولٍ حتى عن اسمه، ونحن نعرف أن الإنسان يستحضر أشياءَ لا ينساها عادةً؛ ومنها الاسم؛ لأنها التحمت بذاته حتى صارت جزءاً لا يتجزأ منها، فإذا بالرسول ﷺ يبين أن الإنسان سيكون في حالٍ من الذهول والصدمة يعجز معه حتى عن تذكُّر اسمه.

تنبيهات، وتوصيات:

١ ـ أهمية استشعار الرقابة الإلهية

ينبغي أن نتذكر ـ هنا ـ أن الإنسان إذا استشعر الرقابة الإلهية؛ بينه وبين نفسه، سيكون أقربَ إلى الصلاح والاستقامة، قال تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس/ ٦١].

٢ ـ دقة الحساب

إن ما علينا تذكرُهُ، ووضعُه نصب أعيننا دائماً، هو أننا وحدنا الذين نصنع مستقبلنا؛ ضمن سنن الله وقوانينه، وأن الحساب سيكون دقيقاً؛ بحيث لا يستثنى منه عمل.

* قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨].
* وقال أيضاً ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس/ ٥٤].
* وقال تعالى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ٤٩].

٣ ـ ما حك ظهرك غير ظفرك

يبتلى كثيرٌ من الناس بالاستغراق في العمل للدنيا؛ بدعوى تأمين احتياجات (الأهل والعيال)، وكأن الأهل والعيال هم مَن سيقف بين يدي الله تعالى للحساب!

وهذا ـ بالتأكيد ـ تصرفٌ خاطئٌ في نفسه، وهو ـ أيضاً ـ خطيرٌ على مستوى النتائج والعواقب.

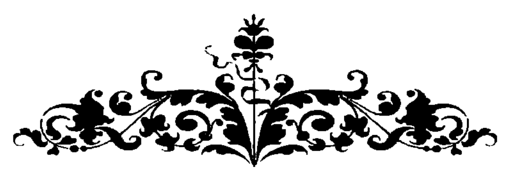
وبالطبع، فليس المطلوب هو إهمال الأهل والعيال ـ بذريعة الاستعداد للآخرة!! ـ.

فالأهل والعيال هم من ضمن مسؤولياتنا الشرعية والأخلاقية؛ التي يجب أن نتصدى لها ولا نقصِّر فيها. لكن يجب أن نقوم بها وفقاً للأولويات التي لا تتسبب لنا في الإخلال بواجب أو الوقوع في محرم.

وفي هذا الصدد قال تعالى ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة/ ٣].

٤ ـ الناس بين الإخفاق والفشل

يتفاوت الناسُ في التعامل مع القواعد والمبادئ، ففيهم الناجحون ـ على اختلاف درجات النجاح ـ، وفيهم الفاشلون. وفي ذلك قال تعالى ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران/ ١٦٢].



الفصل الخامس

العاقبة الحسنة

● [الفقرة/ ١٧]:

(يا أبا ذر! إياك أن تدركك الصرعة عند العثرة؛ فلا تقال العثرة، ولا تُمكَّن من الرجعة، ولا يحمدك مَن خلَّفت بما تركتَ، ولا يعذرك مَن تُقدِم عليه بما اشتغلتَ به)[١].

١ ـ **(الصِّرعة)**؛ بتشديد الصاد مع كسرها أو فتحها، على وزان فِعلة أو فَعلة، مشتقة من (صرع)؛ بمعنى الطرح على الأرض[٢]. وبهذه المناسبة سُميت الرياضة المعروفة بـ(المصارعة)[٣]؛ حيث يختبر كلٌّ لاعبٍ فيها قوته مهارته بصرع صاحبه؛ أي طرحه وإيقاعه، على الأرض.

---

(١) في الأمالي، ومجموعة ورام، جاءت الفقرة على هذا النحو: **يا أبا ذر! إياك أن تدركك الصَّرعةُ عند الغِرة، فلا تُمكن من الرجعة، ولا يحمدك مَن خلَّفت بما تركت، ولا يعذرك مَن تُقدم عليه بما به اشتغلتَ)** الأمالي للطوسي، ص٥٢٦؛ مجموعة ورام، ج٢، ص٣٧١.

(٢) القاموس المحيط، مادة (صرع).

قال: والصِّرْعَةُ ـ بالكسر ـ: للنوع. ومنه المثل «سوء الاستمساكِ خيرٌ من حُسنِ الصِّرْعة». ويُروى بالفتح؛ بمعنى المرة، وبالضم: من يصرعهُ الناسُ كثيراً. وكهُمَزةٍ: من يَصرعهم، كالصِّرِّيع والصُّرَّاعة، كسِكِّينٍ ودُرَّاعَةٍ).

(٣) وهي أنواع؛ ولكل منها اسمها وقوانينها كما هو معروف عند أهل الرياضة.

وتُستعمَل هذه المفردة في الدلالة على: الوقوع في بلية[١]. بلحاظ أن الإنسان والبلاء خصمان يصارع أحدُهما الآخرَ، فإذا غلب البلاء صُرع الإنسان؛ فحلَّت (الصرعة).

ويراد بها ـ هنا ـ خصوص بلية الموت؛ بقرائن ثلاث:

القرينة الأولى: قوله ﷺ في الجملة اللاحقة **(ولا تُمكَّن من الرجعة)**.

القرينة الثانية: قوله ﷺ **(مَن خلَّفتَ)**؛ وهو الوارث.

القرينة الثالثة: قوله ﷺ **(مَن تُقدِم عليه)**؛ وهو الله المحاسِب.

٢ ـ الإدراك هو: الوصول إلى المقصد، ونيل الشيء، وبلوغه. وإدراكُ الصرعة هو حلولُ البلاء؛ الذي هو ـ هنا ـ الموت.

وعلى كل حال، فهذا المقطع ـ مضافاً إلى ما تقدم، وما سيأتي ـ هو أحد مصاديق الأدب الإسلامي التي تهتم بتوجيه المؤمن، وحثه على استثمار عمره في ما ينتهي به إلى تَبَوُّءُ أعلى مراتب الكمال ومدارجه؛ عبر تحقيق الإيمان في فكره ووجدانه، وتقويم سلوكه بعمل الصالحات التي هي خير وأبقى.

وفي الفقرة استعارةٌ جميلةٌ؛ حيث شبّه الإنسان بالسائر مسرعاً نحو مقصده، ووراءه مَن يلحقه؛ بقصد الحيلولة بينه وبين بلوغ مقصده، فإن هو (الإنسان) عثر في شيءٍ تسبب ذلك في عرقلته عن السير، وتمكن ملاحقه (الموت) من الوصول إليه وإعاقته عن سيره.

لذلك، يحذر النبي الأعظم ﷺ مستوصيه أبا ذر (رضوان الله عليه) بأن لا يفجأه الموت؛ الذي يأتي بغتةً، وهو على غير ما يرضاه الله له ولا يرضاه هو لنفسه، فإنه لا سبيل إلى الاستدراك والتعويض. وكما قال الله تعالى ـ حكايةً لحال المقصّرين؛ الذين يماطلون في وقت العمل، ويبحثون عن الأعذار في موقع المساءلة، ويجهدون في استعادة الفرص الضائعة استدراكاً لما فات ـ ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) البهائي العاملي، بهاء الدين محمد (ت١٠٣١ هـ)، مفتاح الفلاح، ص١٠٧.

ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون/ ١٠]. وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون/ ٩٩].

أما (**العَثْرَة**)[١]؛ وجمعها (عثرات)، فهي: الزلة والخطيئة. وإن شئت قلت: الفعل أو القول غير المرضي؛ المستتبع للعقاب أو العتاب من الله تعالى.

وإقالتُها تكون بـ: العفو عنها، ومحو أثرها.

وقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: **احذروا عواقبَ العثرات**)[٢]. وعلق عليه المحقق الفيض بقوله: يعني كل ما تقولونه، أو تفعلونه، فانظروا ـ أولاً ـ في عاقبته، وما له، ثم قولوه، أو افعلوه؛ فإن العثرة قلما تفارق القولَ والفعلَ، ولا سيما إذا كثرا. أو المراد: أنه كلما عثرتم عثرةً؛ في قول أو فعل، فاشتغلوا بإصلاحها وتداركها؛ كيلا تؤدي في العاقبة إلى فسادٍ لا يقبل الإصلاح)[٣].

وأما (**الرَّجعة**) فهي: العود إلى الحياة مرةً أخرى.

وإذا وقع العبدُ في عثرةٍ؛ في حق الله، أو في حق نفسه، أو ذوي الحقوق من عباده، ولم يتب منها، فسيكون مستحقاً ـ بذلك ـ عقوبةً من الله تعالى. فإذا وقع به الموت انقطع مجال الإقالة، إلا أن تتداركه رحمة الله بنحوٍ من أنحاء الشفاعة.

لذلك، يحث الرسولُ صلى الله عليه وآله، ويحض، على المسارعة إلى الخيرات؛ فعلاً واستدراكاً؛ لأن العاثر بين جهتين:

---

(١) على رواية (الغرة) فإن المقصود هو الغفلة.
ولا يخفى أن للغفلة أثراً خطيراً في فوات الخير عن الإنسان، ووقوع الغافل في المفاسد والمخاطر.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٢٠٥، أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب ٢٤ ـ وجوب التقية مع الخوف إلى خروج صاحب الزمان عليه السلام، الحديث ٦.

(٣) الكاشاني، محسن الفيض (ت١٠٩٠هـ)، الوافي، ج٥، ٦٩٥، باب التقية، الحديث ٢٢. ويبدو أنه أخذه من شيخه المجلسي في تعليقه على الحديث نفسه، انظر: مرآة العقول، ج٩، ص١٨٥؛ بحار الأنوار، ج٧٢، ص٤٣٧.

١ ـ جهة تودعه

وهذه الجهة هي (أهله)؛ الذين يرِثون ما تركه من منقول وغير منقول. وهؤلاء الوارثون ليسوا ـ بالضرورة ـ من البارّين بمورِّثهم، ليعملوا له الصالحات آناء الليل وأطراف النهار، وإنما قد يكونون ممن لا همَّ لهم غير نيل ما ورثوه من الميت.

وإذا لم يكن (**مَن خلَّفتَ**) من هؤلاء الورّاث؛ ممن يحفظ الجميل، فسيكونون ممن (**لا يحمدك بما تركتَ**)، فيكون للوارثين الغُنم وعلى الميت الغُرم.

٢ ـ جهة تستقبله

وهذه الجهة هي (خالقه)؛ الذي هو المحاسب والرقيب على ما قدَّم وأخَّر. وهو سبحانه (**لا يَعذرك**) إذا قدِمت عليه خالي الوفاض صفر اليدين؛ لأنه لم يخلقك لتكون من العابثين واللاعبين، وإنما جعلك خليفةً له؛ تسبح بحمده فيكافئك، وتذكره فيذكرك، كما قال تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة/ ١٥٢]، ولتشكره فيزيدك، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم/ ٧].

لهذا، فلا عذر ـ في ساحته تعالى ـ لـ (**ما اشتغلتَ بهِ**) عنه أيها العبد، أياً كان هذا العذر والشاغل؛ لأن هذا الشاغلَ باطلٌ على كلِّ حالٍ، فمنطق الله الحق يقول ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص/ ٨٨].

العمر ثم العمر:

وهذه جولةٌ أخرى من جولات خاتم النبيين ﷺ؛ الرؤوف بالمؤمنين والحريص عليهم، في سياق سعيه الدؤوب لإنتاج الإنسان الكامل، تمثلت في الحث الأكيد على التنبيه والتنويه بأهمية (العمر)؛ في تحقق الوصول إلى الله، وتحقيق الإنسانية الكاملة، فقال:

● **[الفقرة/ ١٨]:**

(يا أبا ذر! كن على عمرك أشحَّ منك على درهمك ودينارك).

والشحُّ؛ بمعنى البخل، رذيلةٌ في عُرف الأسوياء من الناس، إلا أنه يتحوَّل إلى فضيلةٍ محمودةٍ جداً إذا تعلق بأمرٍ لا نستغني عنه، أو بنفيسٍ نملكه ولا نجد منه عوضاً ولا بدلاً.

والعمر يأتي في قمة الأشياء النفيسة التي إذا ضاعت فلا عوض منها. قال تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل/ ٦١].

الإنسانُ؛ بطبعه، حريصٌ على دراهمه ودنانيره، التي بها يؤمِّن الضرورياتِ والكمالياتِ، له ولمن يعوله، والتي يبذل ما يستطيع من الجهد والوقت والصحة... في سبيل تحصيلها؛ في ما يعلم، أو يظن أو يحتمل، حصولها من خلاله. ويجد نفسه ـ في الغالب ـ مقصِّراً ومحتاجاً...

ولا عيبَ ـ إسلامياً ـ في السعي للحصول على المال، وإنما العيب في أن يتحوَّل ذلك إلى همٍّ على حساب سائر الهموم، وأن يكون مدعاةً إلى التقصير في أداء حقوق الخالق والخلق.

وإذا كان الإنسان حريصاً على المال فهو بالحرص على استثمار عمره أولى وأجدر؛ لسببٍ رئيسٍ هو: أن المال يمكن أن ينمو ويزيد بالتجارة والإجارة ونحوهما. أما العمر فهو في تناقصٍ دائمٍ، فكلُّ نَفَسٍ يخرج من الإنسان لا يُعوَّض، وكلُّ ثانيةٍ تتصرَّم لا يمكن تعويضها.

ومن ثَمَّ، فإن الواجب شرعاً، واللازم عقلاً، أن يكون الإنسان ـ الساعي في مصلحته، والساعي في الصراط المستقيم، أو الراغب أن يكون من أهله ـ في دأبٍ وشغلٍ دائمين، بتوظيف عمره توظيفاً حسناً؛ بل أحسن.

وصدق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ حيث يقول: ... **الفرصة تمر مرَّ السحاب؛ فانتهزوا فرص الخير)**[١].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢١.



الفصل السادس

مخاطر محدقة

● [الفقرة/ ١٩]:

(يا أبا ذر! هل ينتظرُ أحدٌ إلا غِنى مطغِياً، أو فقراً منسِياً، أو هرماً مفنِداً، أو موتا مجهِزاً، أو الدجال؛ فإنه شرٌّ غائبٌ ينتظر، أو الساعة؛ فالساعةُ أدهى، وأمرُّ).

لا ينبغي أن يفوت الحصيفَ من الناس؛ وبالخصوص أهل الصراط المستقيم منهم، أن يضعوا في حسبانهم ـ دائماً ـ:

١ ـ أن الدنيا دارُ بلاءٍ وامتحانٍ.

٢ ـ أن الإنسان لم يخلق ليُخلَّد فيها أبد الآبدين.

٣ ـ أن الدنيا ليست سوى محطةٍ قصيرةٍ في مسيرةٍ طويلةٍ؛ يجب على الإنسان أن يحسن الإقامةَ فيها؛ بحمل ما خفَّ وزنُهُ وغلا ثمنُهُ، وأن لا يثقل كاهلَه بما ثقل وزنُهُ ورخص ثمنُهُ؛ فيكون من الخاسرين.

ويستعرض النبي الأعظم ﷺ ـ في هذا المقطع من وصيته القيمة هذه ـ بعضَ هذه المخاطر، بعد تكراره كلمة **(يا أبا ذر)**؛ في تهيئةٍ مستمرةٍ لنفسية المتلقي والمستوصي؛ ليكون أكثر استعداداً لتفعيل بنود الوصية، ضمن ما يلي:

الخطر الأول: الغنى

لكي نتعرف على طبيعة هذا الخطر ومعالمه، فلا بد أن نتعرف على الغنى أولاً، فنقول:

الغِنى ـ كما تفيده معاجم اللغة والاستعمالات العربية ـ يقابل الفقرَ، فالغنى وِجدان الشيء، والفقر فقدانه. والواجد يقال له (الغني)، والفاقد يقال له (الفقير).

فالغنى هو: وجود كل ما يحتاج إليه من الأموال، وهذا أقل مراتبه. وفوق ذلك مراتب لا تحصى، حتى ينتهي إلى جمع أكثر أموال الدنيا)(١).

وبهذا يتضح أن الغنى مراتب؛ فهو وصفٌ إضافيٌّ، أو قل: نسبيٌّ. لذلك، فهو يقبل التفاضل؛ ليكون هناك غني، ومَن يفوقه غنى، كما أن الفقر كذلك؛ أي أن هناك فقيراً، ومَن هو أشدُّ منه فقراً.

والرؤية الفلسفية القرآنية في ما يتعلق بتشخيص مَن هو الفقير في ذاته؟ ومن هو الغني في ذاته؟ واضحةٌ وجليةٌ.

فلا يخفى ـ في هذه الرؤية ـ أن الغني المطلق ليس إلا الله تعالى؛ فله ـ وحده

---

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، مبحث الغنى، ج٢، ص٥٩.
وقال الراغب في المفردات؛ مادة (غنى):
الغِنَى يقال على ضروب:
أحدها: عدم الحاجات، وليس ذلك إلا لله تعالى، وهو المذكور في قوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الحج/ ٦٤]، ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر/ ١٥].
الثاني: قلّة الحاجات، وهو المشار إليه بقوله ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى/ ٨]، وذلك هو المذكور في قوله ﷺ: الغِنَى غِنَى النّفس).
والثالث: كثرة القنيات بحسب ضروب الناس كقوله ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء/ ٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة/ ٩٣]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران/ ١٨١]، قالوا ذلك حيث سمعوا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وقوله ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة/ ٢٧٣]، أي: لهم غنى النّفس، ويحسبهم الجاهل أن لهم القنيات لما يرون فيهم من التعفف والتلطف...).

ـ (القهارية؛ التي تقتضي الغنى الذاتي؛ الذي هو أعلى مراتب الغنى)[١]، قال تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [القمان/ ٢٦].

وما عداه تعالى ـ بدون استثناءٍ ـ فهو فقير بالمطلق، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

وشعور الإنسان بالفقر في ذاته ليس شيئاً طارئاً، بل إن الفطرة فيه هي أنه (في بادي تكونه، وشعوره، يرى نفسه محتاجة إلى الخارج منه)[٢]، ثم يطرأ له الوهم بالغنى.

وإذا كان لدى الإنسان شيءٌ؛ يصح معه وصفه بمرتبةٍ من مراتب الغنى، فإن المتسبب في ذلك هو الله سبحانه. قال تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

والسر في ذلك يمكن صوغه في معادلة مفادها: أن الغنى وجدانٌ فهو كمالٌ، وقد تقرر في العقول السوية (أن كل كمال مفروض فهو لله سبحانه بالأصالة)[٣].

وأما مقدار ما أنعم به الله تعالى على الإنسان فهو كثيرٌ جداً؛ يفوق قدر المخلوقين على الإحصاء العدِّ. قال تعالى ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم/ ٣٤].

وقد تعارف الفقهاءُ، على إطلاق عنوان (الغنيِّ) وصفاً لحال مَن كان ـ من الناس ـ يملك ما يزيد عن قوت نفسه وعياله؛ إن كان له عيالٌ[٤].

وقد ملأ اللهُ تعالى الدنيا بخيراتٍ **(جلَّ عن الإحصاء عددُها)**[٥]، قال تعالى

---

(١) الألوسي، شهاب الدين (ت١٢٧٠ هـ)، تفسير الألوسي، ج٢٣، ص٢٣٧. ذيل قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ سورة الزمر، الآية ٤.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٨٩، ذيل الآيات ١٠ ـ ١٨ من سورة آل عمران.

(٣) المصدر السابق، ج٦، ص٨٩، كلام في معنى التوحيد في القرآن (بحث قرآني).

(٤) للتوسع راجع كتب الفقه، كتاب الزكاة، مصرف الزكاة.

(٥) من خطبة لسيدتنا الصديقة الزهراء عليها السلام. انظرها في الدر النظيم فاطمة الزهراء عليها السلام/ كلامها من أجل فدك، ص٤٦٤. والمشهور في الكتب (جمَّ عن الإحصاءِ)، وجمَّ مشتقة من (جمم)؛ بمعنى الكثرة=

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم/ ٣٤]. وهذه الخيرات والنِّعم، كما تفيده هذه الآية وآيات أخر، تؤكد أنها خُلقت من أجل هذا الإنسان المكرم ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة/ ٢٩].

وقد وضع اللهُ قوانينَ وتشريعاتٍ للتعامل مع هذه النِّعَم، فأحلَّ الله تعالى بعضَها من أجل الأكل، وبعضَها من أجل اللبس، وبعضَها لأغراض أخرى.

كما أنه تعالى حرم بعضَها؛ لِما يترتب عليها من مفاسد عاجلة؛ أو آجلة، أو الاثنين معاً، على استعمالها...

وتشترك جميعُ هذه النعم؛ المحلَّل والمحرَّم منها على السواء، في أن لكلٍّ منها فائدةً وثمرةً، أو فوائدَ وثمراتٍ، نعرف بعضها ونجهل أكثرها.

والناس ـ في ما يتعلق بالحصول على هذه النعم ـ صنفان أيضاً:

* أغنياء

* فقراء

كما أن الناس ـ بعد الحصول على النعم ـ يتوزعون؛ في التعامل معها، على فئتين:

* محسنين

* مسيئين

وإذا كان الإحسانُ فضيلةً بالمطلق، فليس الغنى فضيلةً كذلك، وإنما يُعد فضيلةً بقدر ما يكون سبباً في القرب من الله تعالى، والبعد عن سخطه. فـ(الغِنى الحاصل من الحلال، مع بذل ما يفضل عن أقل مرتبته في المصارف اللائقة ومساواة وجوده وعدمه عند صاحبه، سالم من الآفات والأخطار)[1].

=والاجتماع، وأستصوب ما ذكرته في المتن؛ فهو أوفق بالمعنى وأقرب؛ لأن (جلَّ) تعني بعُد ونأى الإحصاء عن تعداد نعم الله تعالى.

(١) النراقي، الشيخ محمد مهدي (ت١٢٠٩ هـ)، جامع السعادات، مبحث الغنى، ج٢، ص٥٩.

ثم إن الغنى قد يكون وسيلةً من وسائل الوصول إلى الصراط المستقيم والثبات عليه. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **نعم العون على تقوى الله الغنى)**[١]. وعن الصادق عليه السلام أنه قال: **نعم العون على الآخرة الدنيا)**[٢]. وفي خبر آخر: قال رسول الله ﷺ: **ملعونٌ من ألقى كَلَّه على الناس)**[٣].

لكن يجب أن نلتفت ـ أيضاً ـ إلى أن الغالب على الواقع الإنساني؛ كما يشهد به تاريخه، أن الإنسان إذا امتُحِن بـ(الغنى) أنه يفشل، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق/ ٦].

وبالطبع، فإننا إذا تكلمنا عن الغنى فإنما نتكلم عن الغِنى النسبي، أما الغنى المطلق، الذي هو التملك الحقيقي والتام للأشياء، فإنما هو لله وحده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

الغنى بين الحقيقة والوهم

إذا لحظنا الغنى الإنساني، وأردنا التعرف على الأساس الذي يقوم عليه، لوجدناه نوعين:

النوع الأول: ما يحصل على أساسٍ حقيقيٍّ؛ بأن يملك الإنسانُ ما يزيد عن حاجته السنوية، قوةً أو فعلاً. وهذا هو التعريف الشرعي للغنى في مقابل الفقر؛ الذي هو: من لا يملك ذلك[٤]. بغضِّ النظر عن وسائل الحصول عليه، والتي على أساسها تتحدد مشروعيةُ التملك والغنى من عدمه[٥].

النوع الثاني: ما يحصل على أساسٍ وهميٍّ. وذلك بأن يقع في وهم الإنسان أنه يملك؛ فيقيم حياته على أساسه.

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٢٩، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، باب استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٢.

(٣) المصدر السابق، ص٣٢، الحديث ١٠.

(٤) للتوسع يراجع كتب الفقه المطولة والمختصرة في بابي الخمس والزكاة.

(٥) وللتعرف على هذه الوسائل يراجع مبحث المعاملات في الفقه.

وجه الخطر في الغنى

نتساءل عن وجه الخطر في الغنى، أين يكمن؟

الجواب: إن الغنى المطغِي؛ الوارد في الفقرة مورد البحث؛ باعتباره خطراً محدقاً بالإنسان، يجتمع مع النوعين الأول والثاني معاً.

وذلك إذا شغل الإنسانَ (غناه)؛ أي أملاكه المنقولة وغير المنقولة، عن ربه تعالى؛ بالمقدار الذي يؤدي به إلى التقصير في أداء الواجبات والفرائض؛ اشتغالاً بالاستزادة في المال.... فيتغوّل شعوره بـ(الملك)، ويقع في وهم الاعتقاد أن (جهوده الذاتية)؛ من علاقات وحسن إدارة وقدرات قيادية...، هي التي جعلت منه ثرياً، وصيَّرت منه (غنياً)؛ ليكون مصداقاً لظاهرة قارون.

وظاهرة قارون هي التي سيقت ـ في القرآن الكريم ـ مثالاً للإنسان الغافل عن ربه تعالى، والناكر الجَحود، وبالتالي (الطاغي).

وهذا ما كشفه قول قارون نفسه؛ والذي حكاه الله بقوله عنه ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص/ ٧٨].

وهذا (التغوّل الشعوري) يدفع بصاحبه إلى الابتعاد عن ربه، على المستوى النفسيّ أولاً، ثم السلوكي ثانياً، فلا يكون شاكراً في عقله، ولا قلبه، ولا سلوكه.

لذلك، نقول: إن الشعور بـ(الغنى) يؤدي ـ غالباً ـ إلى الطغيان، (وكل مجاوز الحد في العصيان: طاغ)[1]؛ إلا من رحم الله.

ومن هنا، حرص الإسلامُ على زرع الشعور بالحاجة إلى الله في كل شيء، بالتأكيد على حقيقةٍ مفادُها ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]، والتأكيدِ ـ تبعاً لذلك ـ على أهمية أن يشكر العبدُ ربَّه تعالى على كلِّ نعمةٍ، مهما صغُرت، وأن يذكر الله على كل لقمةٍ[2]؛ تعويداً له على ما لو نسيه لكان من الهالكين.

---

(١) ابن فارس، أحمد (ت٣٩٥ هـ)، مجمل اللغة لابن فارس، باب الطاء والغين وما يثلثهما، مادة (طغى).

(٢) انظر: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢٤، ص٣٦١ وما بعدها، أبواب الذبائح، أبواب=

ودعا الإسلام ـ أيضاً ـ إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى، ليس احتياجاً إلى إنفاق المنفِق، وإنما تربيةً له على التحرر والانعتاق من كلِّ ما من شأنه إبعادُهُ عن مولاه، والمالُ هو الخطر الأول في هذا الباب.

خلاصة واستنتاج

نخلص ـ بعد كل ما مر ـ إلى النتائج التالية:

١ ـ أن الغنيَّ الحقيقيَّ إنما هو الله تعالى، والإنسان يستغني بالله.

٢ ـ أن الغِنى ليس معِيباً في ذاته، ولا مرفوضاً في حدِّ نفسِهِ، بل قد يكون مطلوباً، وخلافه منبوذاً. وإنما يكون الغِنى معِيباً إذا أوقع الإنسانَ في ما هو معيبٌ.

٣ ـ أن الغِنى يؤدي بصاحبه إلى الطغيان ـ غالباً ـ إلا مَن عصمه الله تعالى.

الخطر الثاني: الفقر

ثمة خطرٌ آخرُ؛ لا يقل أثراً على الإنسان في تنظيم علاقته بربه عن الخطر الأول (الغنى)، وهو (الفقر) الذي يمكن تعريفه بـ: فقدان الإنسان ما يقيم أَوَدَه.

والفقر ـ كما لا يخفى ـ هو مسألةٌ نسبيةٌ؛ تزيد وتنقص؛ كما هو الحال في الغنى؛ الذي بيَّنا حالَه.

ولقد أكد الإسلام؛ وهو الأطروحة الربانية لصنع الإنسان الكامل، على محاربة الفقر بأساليب كثيرة، من أبرزها: الزكاة، والخمس، والأوقاف...؛ التي

=آداب المائدة، الباب ٦١ ـ استحباب التسمية على كل إناء وعلى كل لون وكلما عاد إلى الطعام وعلى كل لقمة.

وقال ابن حزم: وحمد الله تعالى عند الفراغ من الأكل حسن؛ ولو بعد كل لقمة؛ لأنه فعل خير وبر، وفي كل حال) المحلى لابن حزم، كتاب الأطعمة، ج٧، ص٤٣٦، المسألة ١٠٣٨.

وعن أنس، قال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه [وآله] وسلم) وهو يأكل طعاماً، يسمى عند ثلاث لقم، عند كل لقمة مرة، ثم يمضي فيه حتى يأتي عليه) سبيل الرشاد، ج٧، ص١٧٠، جماع أبواب سيرته صلى الله عليه وسلم في أكله وذكر مأكولاته، الباب الأول: في آداب جامعة.

جعلها الله تعالى حقاً واجباً للفقراء في أعناق الأغنياء، فقال ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ [المعارج/ ٢٤].

وإنما حارب الإسلامُ ظاهرةَ الفقر؛ لأن الله تعالى؛ وهو خالق الإنسان، جعل من خصوصيات الإنسان الجسمية أنه يأكل ويشرب ويتزوج...، وهذه حاجاتٌ أساسيةٌ لا غنى له عنها؛ على اختلافٍ في حاجة الناس إليها على مستوى بقاء الفرد منهم وعلى مستوى تناسل الأمم منهم.

ومن ثم، ألزم اللهُ الإنسانَ بتحصيل الدنيا، وألزم القادرين على إعانة العاجز عليها.

وفي الخبر عن عمرو بن جميع قال: **سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال...)**[١].

وروى سليمان بن معلى بن خنيس، عن أبيه، قال: **سأل أبو عبدالله عليه السلام عن رجل وأنا عنده، فقيل: أصابته الحاجة، قال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال أبو عبدالله عليه السلام: واللهِ! للَّذي يقوته أشدُّ عبادةً منه)**[٢].

وللحديث تتمة نتعرض لها في الفصل ٢٦ من هذا الكتاب فانتظر.

الفقر ابتلاء

لابد من التنبيه إلى: أن الفقر ليس عيباً في ذاته؛ يُعيَّر به مَن ابتُلِي به، ولكن العيب أن يستسلم الفقير إلى موجبات الفقر وأسبابه.

لذلك، أوجب المشرّع الإسلامي على المسلم أن يكد ويكدح طلباً لمؤونته، وحرّم عليه الاستجداءَ الذي يوجب هتكه والإزراء به[٣].

---

(١) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٣٣، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ٧ ـ استحباب جمع المال من حلال لأجل النفقة، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ٥ ـ كراهة ترك طلب الرزق، وتحريمه مع الضرورة، الحديث ٣.

(٣) قال السيد السبزواري: يكره كراهة شديدة السؤال من غير احتياج؛ بل مع الحاجة أيضاً. وربما يقال=

وفي الخبر عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: **مَن سأل الناسَ وعنده قوت ثلاثة أيام لقي اللهَ عزّ وجلّ؛ يومَ يلقاه، وليس على وجهه لحمٌ)**[1].

وفي الوقت نفسه؛ وانطلاقاً من واقعية الامتحان والابتلاء، سعت تعاليمُ الإسلام إلى تقويم النفس الإنسانية؛ حتى لا يؤثر الفقرُ فيها سلبياً؛ لِما يلقيه الفقرُ من ظلالٍ قاتمةٍ على حياة الفقير، حيث الحرمان وشظف العيش، من ثياب رثة وبيوت متهالكة وطعام خشن وازدراء اجتماعي...

وجاء ذاك السعيُ عبر ربط وعي المسلم بربه وبحقائق الوجود؛ بما يؤكد أن الصبر على أيام قليلة يعقب راحةً طويلةً؛ في نصرٍ دنيويٍّ محققٍ، ووعدٍ أخرويٍّ غيرِ مكذوبٍ. فقال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور/ ٥٥].

الخطر الثالث: المرض

نعني بـ(خطر المرض): حرمان الإنسان من الصحة.

وهي مسألةٌ نسبيةٌ؛ كما نعرف. فقد يحتمل المريضُ مرضَه؛ إذا كان لا يعيق حركتَه اليوميةَ؛ من قبيل الزكام الخفيف، والصداع اليسير، ونحو ذلك. لكن الإنسان قد يبتلى بمرضٍ يُقعده فيفسد عليه حياتَه؛ حيث لا يتمكن ـ بسببه ـ من مباشرة شؤونه؛ التي اعتاد مباشرتها، والتي يحافظ على كرامته بوساطتها.

أما إذا كان المرضُ يضطره إلى الاستعانة بالآخرين، بما يسكب معه بعض ماء الوجه؛ فإن حياته ستتحول إلى جحيمٍ لا يطاق، قد يتمنى الكريمُ معها أن يكون في بطن الأرض عوضاً من ظهرها.

=بحرمة الأول، ولا يخلو من قوة) مهذب الأحكام، ج٢٢، ص١٢٩، كتاب الوقف، خاتمة في الصدقة، المسألة ١٥.

(١) ثواب الأعمال للصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص١٥٤، كتاب الزكاة، الباب ١٦ ـ ذم السؤال؛ خصوصاً بالكف، ومن المخالفين، وما يجوز فيه السؤال، الحديث ٢٠.

وهذا الخطر لا ينبغي للإنسان أن يحسب أنه سيكون دائماً بمنأى عنه؛ لأن طبيعة العيش في الدنيا، وطبيعة المعرفة الإنسانية القاصرة، وطبيعة القصور الإنساني الشامل، كل ذلك يفرض أن نضع في حسباننا أننا سنبتلى ـ عاجلاً أو آجلاً ـ بنحو من أنحاء المرض.

وفي الخبر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: **إذا أحب الله عبدًا نظر إليه، فإذا نظر إليه أتحفه بواحدةٍ من ثلاث**[1]: **إما صداع، وإما حُمَّى، وإما رَمَد)**[2].

وعن سر ابتلاء المؤمن بالمرض روى يونس بن يعقوب، قال: سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام يقول: **المؤمنُ أكرمُ على اللهِ من أن يمر به أربعون يوماً لا يمحصه اللهُ فيه**[3] **من ذنوبه، وإن الخدشَ، والعثرةَ، وانقطاعَ الشسع، واختلاجَ العين، وأشباهَ ذلك، ليُمحَّص به وليُّنا**[4]**، وأن يغتمَّ؛ لا يدري ما وجهه)**[5].

فالمرضُ ـ إذاً ـ هو لازمٌ طبيعيٌّ من لوازم الحياة الإنسانية، لا يسلم منه كبيرٌ ولا صغيرٌ، ولا يستثنى منه سعيدٌ ولا شقيٌّ.

والمرض ـ بطبيعته ـ (مفسِدٌ) للإنسان بنسبة من النسب، فهو قد يشله عن الحركة؛ كلياً أو جزئياً، أو يعطل حركته؛ دائماً أو مؤقتاً، أو يقلِّص من قدرته على الفعل؛ قليلاً أو كثيراً...، وكل ذلك تعبيرٌ عن مستوى من الفساد؛ بمعنى فقدان الشيء صلاحيتَه وكمالَه وتمامَه.

وشعورنا ـ نحن البشر ـ بخطر المرض، وأنه يداهمنا؛ بطريقةٍ أو بأخرى،

---

(١) في المصدر: من ثلاثة بواحدة.

(٢) الخصال، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص٤٠٠، كتاب الطهارة، أبواب الاحتضار وما يناسبه، الباب ١ ـ استحباب المرض والصبر عليه، الحديث ١٢.

(٣) في النسخة: بذنب، منه قدس سره.

(٤) أي: ليس في المصدر.

(٥) أمالي الطوسي، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٢، ص٥٥، كتاب الطهارة، أبواب الاحتضار وما يناسبه، الباب ١ ـ استحباب احتساب المرض والصبر عليه، الحديث ١٥.

يجعلنا في يقظةٍ دائمةٍ، وانتباهٍ مستمرٍّ، ويحرك في دواخلنا دواعيَ المثابرة بالتمهيد لغدٍ آتٍ حتماً، نقف فيه بين يدي مَن لا تخفى عليه خافيةٌ، وبكتابٍ لا مجال معه لتسويغ التقصير أو الكسل؛ فهو ـ باختصارٍ شديدٍ ـ كتابٌ ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف/ ٤٩].

الخطر الرابع: الشيخوخة

ينتهي بنا المطاف إلى خطرٍ يمثل قدراً حتمياً لكل مَن امتد به العمرُ؛ وهو (الهرم). وهو: تلك المرحلة العمرية التي تتهالك فيها القوى؛ من سمعٍ وبصرٍ، وجوارحَ وجوانحَ...؛ حتى لا يكاد يحتمل فيها صراخَ أبنائه الصغار؛ الذين كان هو أسعدَ أهلِ الدنيا إذا علت أصواتهم إبان شبابه؛ حيث يشعره ذلك بالتكاثر وتجاوزه مرحلة القلق على المستقبل.

فإذا بالأحوال تتبدل؛ ليتحول بيتُهُ إلى أشبه ما يكون بالمقبرة، لا يُسمح فيه لطفلٍ بالصراخ، ولا لشابٍّ بالحركة؛ وهكذا؛ خوفاً على أعصاب هذا الشيخ الهرِم من التوتر! بل إنه يصبح عالةً على مَن بذل الغاليَ والنفيسَ من أجلهم، ينأى هذا وذاك عنه بدواعٍ كثيرةٍ؛ ليقع في شَرَك الوحدة التي كان يخشاها حينما فرح بقدوم أولئك الولدان، وسبحان من هو الدائم.

والشيخوخة ـ بطبيعتها ـ لا تتيح للإنسان كثيراً من القوة لعمل الصالحات. لذلك، أكّد النبي ﷺ على التنبه إلى استغلال العمر فترة الشباب وما قبله؛ لأن (الهرم) ـ بطبيعته ـ يفند؛ أي يبدد ويزيل، ما نحتاج إليه للعمل؛ وهي القوى.

قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل/ ٧٠].

والأشد خطراً على الإنسان ـ بسبب الشيخوخة ـ ليس هو الضعفَ الجسديَّ، بل الضعف الفكري؛ الذي قد يتسبب في: انحراف الإنسان عن الصراط المستقيم، أو بطء سيره فيه وعليه.

ولعل هذا السبب هو ما دعا النبيَّ ﷺ أن يختار مفردة (الفند)؛ في وصف الهرم والشيخوخة؛ التي تعني وقوع صاحبها بهذا الوصف في الخرف والهذيان.

قال الزمخشري: الفند ـ في الأصل ـ: الكذب. كأنهم استعظموه فاشتقوا له الاسم من فند الجبل. وأفند: تكلم بالفند، ثم قالوا للشيخ إذا أنكر عقله من الهرم: قد أفند؛ لأنه يتكلم بالمحرَّف من الكلام عن سنن الصحة؛ فشُبِّه بالكاذب في تحريفه)[١].

وقال ابن الأثير: وأفند: تكلم بالفند.

ثم قالوا للشيخ إذا هرم: قد أفند؛ لأنه يتكلم بالمحرف من الكلام عن سنن الصحة. وأفنده الكِبَر)[٢].

وهذه المادة هي التي استعملها النبي يعقوب عليه السلام؛ لما اتهمه أبناؤه بعدم السلامة في عقله والصواب في كلامه، فقال ـ في ما حكاه الله تعالى عنه ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف/ ٩٤].

قال الشيخ الطوسي؛ في بيان هذه المفردة، حاكياً أقوال أوائل المفسرين: وقوله ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس: معناه لولا أن تسفهون. وقال الحسن، ومجاهد: لولا أن تهرمون. وقال ابن إسحاق: معناه تضعفون. وقال الضحاك: معناه تكذِّبونِ)[٣].

وقال الشيخ الطبرسي؛ في تفسيرها: أي: تقولون إنه شيخ قد هرم وخرف، وذهب عقله)[٤].

الخطر الخامس: الموت

آخرُ الأخطارِ المحدقةِ بالإنسانِ؛ في مجالِ عملِ الصالحاتِ؛ والتي نبَّه إليها

---

(١) الزمخشري، جار الله (ت٥٣٨ هـ)، الفائق في غريب الحديث، حرف الفاء، حرف الفاء مع النون، مادة (فند).

(٢) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، حرف السين، باب السين مع الباء، مادة (سبح).

(٣) الطوسي، الشيخ أبو جعفر (ت٤٦٠ هـ)، التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص١٩٢، ذيل الآية الكريمة.

(٤) الطبرسي، الشيخ أبو علي (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٥، ص٤٥٤، ذيل الآية الكريمة.

الرسولُ ﷺ في هذه الفقرة من الوصية، يتمثَّل في أن يموتَ قبل أن يؤديَ ما طُلِب منه أن يؤديَه، أو ما كان قد عزم هو على أدائه.

فإن الموتَ يعني أن تصيح الصافرةُ إيذاناً بنهاية السباق الامتحاني، فهو (يُجهِز) على ما بقي من فرصةٍ، وأن على كلِّ متسابقٍ أن يضعَ القلمَ؛ فليس له أن يضيف حرفاً إلى ما سطَّره في ما مضى.

وهذا الخطر واقعٌ بنحو الجزم واليقين ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر/ ٣٠]، فإذا احتمل أن يكون الإنسانُ غنياً بغيرِ طغيانٍ، أو فقيراً بلا نسيانٍ، أو صحيحاً بغير مرضٍ، أو شاباً لم يبلغ بعدُ حدَّ الشيخوخة؛ فهو ـ لا محالة ـ ميتٌ؛ اليومَ أو غداً.

فليس لأحدٍ ـ إذاً ـ أن يحدِّث نفسَه بالخلدِ. قال الله تعالى ـ مخاطباً أشرف خلقه محمداً ﷺ ـ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء/ ٣٤].

الخطر السادس: الفتنة

ثم ينوِّه النبيُّ المربي ﷺ إلى خطرٍ يواجه الناسَ أجمعين؛ وهو (الفتنة). التي تعني: أن يتعثر الإنسانُ في مسيرته إلى الله تعالى؛ فيتنكب الصراط المستقيم؛ بأن يتشاغل ـ جزئياً، أو كلياً ـ بغير مولاه وما يرضيه.

ومبدأ الفتنة والامتحان والابتلاء ـ هذا ـ يُعد سنةً إلهيةً؛ لا تنفك عن وجودِ الإنسان في الدنيا، وهي (سنةٌ جاريةٌ؛ لا مناصَ عنها في كافرٍ ولا مؤمنٍ)[1]، والحياة الدنيا أصلاً (مبنية على الفتنة والامتحان)[2].

وبالطبع، فإن سنة الابتلاء والامتحان؛ هذه، لم تُكتب على الناس عبثاً، وإنما وُضِعت في سياق (عملية التربية الربانية لبني آدم، والتي تعتبر رمزاً للتكامل

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٤، ص٧٨، ذيل الآيات ١٧٦ ـ ١٨٠ من سورة آل عمران.

(٢) المصدر السابق، ج١٤، ص٢٨٥، ذيل الآيات ٣٤ ـ ٤٧ من سورة الأنبياء.

الإنساني، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للابتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فإما النعيم الدائم، وإما العقاب الخالد)[١].

قال تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت/ ١ ـ ٣].

وفي هذا السياق أشار موصينا النبيُّ ﷺ إلى ما بيِّن في المعارف والعقائد الإسلامية؛ من أن آخر الزمان؛ الذي هو نهاية محطات الامتحان، ستشتدُّ فيه المحنُ على الناس. ولعله بهذا الاعتبار وُصِف على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه بالسلام) بأنه **(شر الأزمنة)**[٢]؛ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال/ ٤٢]، و﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران/ ١٧٩]، ولئلا يقع الناسُ في حبالة الشعار الديني على حساب المضمون الرباني.

وسيكون قمةُ هذا الامتحان؛ أو في سياقه، فتنةَ الدجال؛ الذي يدعو الناسَ إلى باطلِهِ وضلالاتِهِ؛ القوليةِ والفعليةِ؛ بالترغيب والترهيب. ولن ينجوَ من الاستجابةِ لدعوتِه ـ الضالة، والإضلالية ـ إلا مَن عمل من الناس على تنقيةِ جوهرِهِ من الشوائبِ؛ التي تشكل بذرةَ الاستجابة لدعوةِ هذا الخبيثِ.

وقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: **ما بين خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة أمرٌ أكبرُ من الدجال)**[٣].

وعلاج هذا الضعف لا يكون إلا بالتثبيت المستمر، والجهد المثابر؛ بحثاً عن الصراط المستقيم، والتزاماً بلوازمِهِ؛ على أساسِ التقربِ إلى الله، والعملِ

---

(١) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢، ص١٨٨، موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها!

(٢) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٩٣، الحديث ٣٤٧٤.

(٣) راوي الحديث هو هشام بن عامر.

انظر تخريج هذا الحديث النبوي في معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، للشيخ علي الكوراني العاملي، ج٢، ص١٦ ـ ١٧، برقم (٣٨٦).

وللاستزادة راجع بحار الأنوار، ج٥٢، الباب ٢٥ ـ علامات ظهوره صلوات الله عليه من السفياني والدجال وغير ذلك وفيه ذكر بعض أشراط الساعة، ص١٨١ وما بعدها.

بما يريد كما يريد؛ فعلاً وتركاً. قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام/ ١٦٢].

وقد روى الشيخ الصدوق؛ بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: **من قرأ وأكثر من قراءة القارعة آمنه الله عزّ وجلّ من فتنة الدجال؛ أن يؤمن به، ومن قيحِ جهنمَ يومَ القيامة؛ إن شاء اللهُ**[1].

الخطر السابع: الحساب

ثم يكثِّف النبيُّ صلى الله عليه وآله تحذيرَه من المخاطر؛ سعياً منه لضمان أقصى مراحل اليقظة والتنبه إلى ما يحدق بنا من مخاطر تتجاوز الدنيا إلى الآخرة؛ حيث يقف العبدُ بين يدي ربه؛ ليجازيه على أفعاله، خيرها بالخير، وشرها بالشر، كما قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨].

لذلك كله، قال النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر رحمه الله:

(أو الساعةُ، فالساعةُ أدهى، وأمرُّ).

ووصف الساعة؛ أي يوم الحشر والحساب، بهذا الوصف مأخوذٌ مما جاء في القرآن الكريم؛ حيث يقول الله تعالى ـ عن مجرمي قريش، وما سينالهم من الكرب في الدنيا أولاً والآخرة ثانياً ـ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [الطور / ٤٥ ـ ٤٦].

ومفردتا ﴿أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ صيغتا أفعل تفضيل؛ من الداهية بمعنى البلية، والمرارة وهو الطعم المعروف المضاد للحلاوة.

وفي الآية لطيفةٌ بلاغيةٌ؛ ترتبط بكونِ العذابِ الأخرويِّ ليس من المذوقات باللسان؛ حتى يكون مراً فضلاً عن كونه أمرَّ، تنبه لها الشريف الرضيُّ رحمه الله، فقال:

وهذه استعارة؛ لأن المرارة لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعَّمات، ولكنّ

---

(١) ثواب الأعمال، وعنه: نور الثقلين، ج٥، ص٦٥٨، تفسير سورة القارعة، الحديث ١.

الساعة لما كانت مكروهةً عند مستحقي العقاب، حسُن وصفها بما يوصف به الشيء المكروه المذاق.

ومن عادة من يلاقي ما يكرهه، ويرى ما لا يحبّه، أن يحدث ذلك تهيُّجاً في وجهه، يدل على نفور جأشه، وشدة استيحاشه، فكذلك هؤلاء إذا شاهدوا أمارات العذاب، ونوازل العقاب، ظهر في وجوههم ما يُستدل به على فظاعة الحال عندهم، وبلوغ مكروهها من قلوبهم، فكانوا كلائكِ المضغة المقرة[1]، وذائق الكأس الصَّبِرة؛ في فرط التقطيب، وشدة التهيج)[2].

فهل بيننا ـ نحن البشر ـ مَن يظن أن حياته ستنتهي بموته؟!

الجواب: كلا، بل إن حياة الإنسان الحقيقية إنما تبدأ بالموت؛ لأن ما بعده نعيمٌ مقيمٌ، أو نارٌ في جحيم، أما حياة الإنسان في عالم الدنيا فهي محطةٌ عابرةٌ، وهي ليست سوى متاع قليلٍ. قال الله تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٤].

فالنبي ﷺ ـ في قوله هذا ـ ينبه الإنسانَ إلى أنه إن أمكن أن يفر من بعض المخاطر في دار الدنيا، أو احتمل بعضَ مآسيها، فهيهات هيهات أن يحتمل شيئاً من ذلك في الآخرة.

* قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨].

* وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف/ ٧٤ ـ ٧٧].

والإنسانُ ـ وفقاً لمنطق القرآن، وقواعد الصراط المستقيم ـ مرهونٌ بعمله، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ. وفي بيان ذلك قال النبي ﷺ: **أيها الناس! إن أنفسَكم**

(١) المَقْرة على وزن فَرْحة: المرة الطعم، يقال: مَقَر الشيء مَقَرا إذا صار مراً.

(٢) الرضي، الشريف (ت٤٠٦ هـ)، البيان في تلخيص مجازات القرآن، ص٣١٩.

مرهونةٌ بأعمالكم، ففكُّوها باستغفاركم، وظهورَكم ثقيلةٌ من أوزاركم، فخفِّفوا عنها بطول سجودكم)[١].

دقة الحساب:

إن من أهم ما ينبغي ـ لمن كان من أهل الصراط المستقيم ـ أن يهتمَّ به بشكلٍ فائقٍ هو نتائجُ عملِهِ، ولن يتحقق ذلك من دون محاسبتِهِ نفسَه على عملِهِ. فالإنسانُ ـ كما قدَّمنا ـ محكومٌ للهِ الحاكم، وهو مسؤولٌ واللهُ سائلُهُ؛ فـ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة/ ٢٨٤].

فهذه المساءلة ـ إذاً ـ لا يُستثنى منها شيءٌ من الأعمال؛ حتى حديث النفس وخواطر الضمير.

ولنورد نصَّين اثنين؛ للتعرف على بعض ما سيحدث يوم القيامة:

النص الأول: عن يونس بن عمار، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

إن الدواوينَ ـ يوم القيامة ـ ثلاثةٌ:

*** ديوانٌ فيه النِّعم.**

*** وديوانٌ فيه الحسنات.**

*** وديوانٌ فيه السيئات.**

فيُقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات؛ فتستغرق النعمُ عامةَ الحسنات، ويبقى ديوانُ السيئات؛ فيُدعى بابن آدم المؤمن للحساب. فيتقدم القرآنُ أمامه في أحسن صورة فيقول: يا رب! أنا القرآن، وهذا عبدك المؤمن، قد كان يتعب نفسه بتلاوتي، ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجد؛ فأرضِهِ كما أرضاني.

قال: فيقول العزيز الجبار: عبدي ابسُط يمينَك. فيملأها من رضوان الله

(١) من خطبة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في استقبال شهر رمضان. رواها الشيخ الصدوق في كتابيه: الأمالي، وفضائل شهر رمضان. وعنهما: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٠، ص٣٠٣، باب تأكد استحباب الاجتهاد في العبادة سيما الدعاء والاستغفار، الحديث ٢٠.

العزيز الجبار، ويملأ شماله من رحمة الله. ثم يقال: هذه الجنةُ مباحةٌ لك؛ فاقرأ واصعد. فإذا قرأ آية، صعد درجةً)(١).

النص الثاني: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال:

قال النبي (صلى الله عليه وآله): أخبرني الروح الأمين أن الله؛ لا إله غيره، إذا وقف الخلائقَ وجمع الأولين والآخرين أتِي بجهنم؛ تُقاد بألف زمام، أخذ بكل زمام مائة ألف ملك؛ من الغلاظ الشداد، ولها هدةٌ وتحطمٌ وزفيرٌ وشهيقٌ، وإنها لتزفر الزفرةَ فلولا أن الله عزّ وجلّ أخّرها إلى الحساب لأهلكت الجميعَ، ثم يخرج منها عنقٌ يحيط بالخلائق؛ البر منهم والفاجر، فما خلق اللهُ عبداً من عباده؛ ملك ولا نبي، إلا وينادي يا رب! نفسي نفسي! وأنت تقول: يا رب!

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٦٠٢، كتاب القرآن، باب في تمثل القرآن وشفاعته، الحديث ١٢.

وقال المازندراني في شرحه لهذا الحديث:

قوله **(إن الدواوين يوم القيامة ثلاثة)** في مصباح اللغة: الديوان جريدة الحساب، ثمّ أطلق على موضع الحساب. وهو معرب، والأصل دوان فأُبدل من أحد المضعفين ياء للتخفيف، ولهذا يرد في الجمع إلى أصله دواوين وبالتصغير دويوين؛ لأن التصغير وجمع التكسير يردان الأسماء إلى أصولها، ودونت الديوان أي وضعته وجمعته.

(فتستغرق النعمُ عامةَ الحسنات) أي جميعها، وفي لفظ الاستغراق إيماء إلى أنّه يبقى بعض النعم، بل أكثرها بلا مقابل له من الحسنات أي جميعها.

(ويطيل ليله بترتيلي) في الصحاح: الترتيل في القراءة الترسل والتبيين بغير بغي. وكلام رتل بالتحريك أي مرتل. وفي القاموس: الرتل ـ محركة ـ: حسن تناسق الشيء، والحسن من الكلام، والطيب من كل شيء. ورتل الكلام ترتيلاً أحسن تأليفه، وترتل فيه ترسل. وفي النهاية: الترتيل: الجودة، وتبيين الحروف بحيث يتمكن السامع عندها. وقال بعض الأصحاب: هو حفظ الوقوف وأداء الحروف أي كمال أدائها. والإطالة كناية عن السهر وترك النوم؛ لأن الليل عند الساهر طويل.

(وتفيض عيناه إذا تهجد) التهجد النوم في الليل، والاستيقاظ فيه ضدٌّ. والمراد ـ هنا ـ هو الثاني.

(فأرضه كما أرضاني..) إلى آخره، تلاوته وترتيله من جملة الحسنات التي قوبلت بالنعماء، لكن شفاعته المقبولة سبب للنجاة وعلو الدرجات ورفع السيئات، ولعل بسط اليمين وملؤها من الرضوان، وملء الشمال من الرحمة من باب التمثيل؛ لأن كلَّ مَن أخذ شيئاً من غيره أخذه بيمينه وشماله) شرح أصول الكافي، ج١١، ص٢٠ ـ ٢١.

أمتي أمتي! ثم يوضع عليها صراط أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه ثلاث قناطر:

الأولى: عليها الأمانة والرحمة.

والثانية: عليها الصلاة.

والثالثة: عليها ربّ العالمين؛ لا إله غيره، فيكفلون الممرَّ عليها؛ فتحبسهم الرحمة والأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين؛ جل ذكره، وهو قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر/ ١٤]، والناس على الصراط فمتعلقٌ تزل قدمه وتثبت قدمه، والملائكة حولها ينادون: يا كريم! يا حليم! اعفُ واصفحْ وعدْ بفضلك وسلِّمْ، والناس يتهافتون فيها كالفراش.

فإذا نجا ناجٍ برحمة الله تبارك وتعالى نظر إليها فقال: الحمد لله الذي نجاني منكِ بعد يأسٍ بفضله ومنِّه؛ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر/ ٣٤])[1].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، الكافي، ج٨، ص٣١٣، الحديث ٤٨٦.
قال المازندراني في شرحه لهذا الحديث:
... والزمام بالكسر: ما يزم به من زمه إذا شدّه. والهدة: صوت ما يقع من السماء مثل الرعد. والتحطم: التلظي والتلهب. والزفير: إخراج النفس بعد مدة. والشهيق: رده. والعنق من الشيء: قطعة منه.
و (نفسي) منصوب بفعل مقدر؛ أي: أحفظ، أو أخلص، أو أنج نفسي. والتكرير للمبالغة. والصراط لغة: الطريق، وعرفاً: جسر يضرب على ظهر جهنم يمر الناس عليه إلى الجنة فينجو المؤمنون؛ على كيفيات مختلفة وهيئات متفاوتة، ويسقط المنافقون والكافرون. واتفقوا على حمله على ظاهره بدون تأويل.
وظاهر قوله (**ثم وضع**) أنه يخلق الوقت الموعود. وقيل: يحتمل أنه خلق مع جهنم. والوضع كناية عن الإذن على المرور. والرحمة والأمانة معروفتان. وقيل: الأولى: الرسالة، والثانية: الولاية؛ لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧]، وقوله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحزاب/ ٧٢].
وتخصيص الصلاة بالذكر لأنها عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها، أو لأن سائر الفرائض الضرورية مندرجة فيها. والمرصاد: الطريق والمكان الذي ترصد فيه عدوك. والتهافت: التساقط. والفَراش بالفتح: ما يسقط على السراج) شرح أصول الكافي، ج١٢، ص٤٣٨ ـ ٤٣٩.

الإنسان بين عاقبتين:

يدور أمرُ الإنسان ـ في ما يتعلق بعاقبته ومصيره ـ بين أن يختار رضا الله، أو يختار سخطه. ولكلٍّ من الاختيارين مساراتٌ ونتائجُ؛ يتحكم فيها الإنسانُ نفسه؛ فـ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

والمطلوب منه أن يعمل أولاً، وأن يجوّد عملَه ثانياً، قال الله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة/ ١٠٥]. والسبب في ذلك أن الله طيبٌ لا يقبل إلا الطيب ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر/ ١٠].

ومن ثَم، فإن الواجب ـ عقلاً، وعقلائياً ـ يفرض على ذوي الحصافة، وأولي الألباب، وأهل الصراط المستقيم، أن يكونوا مصداقاً ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾؛ لأنهم الموعودون بـ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد/ ١٨].

وأما أولئك الذين انحازوا إلى الفئة الأخرى؛ أعني ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ فعليهم أن يواجهوا واقعاً مراً؛ حتى ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾؛ فراراً من أعمالهم التي لم تكن تؤدي بهم إلا إلى هذا المصير؛ الذي هو شرٌّ لابد منه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وسوء الحساب هو: المداقة في المساءلة؛ فلا يبقى صغيرٌ ولا كبيرٌ من نِعم الله إلا سُئِلوا عنه، ولا خطأٌ أو خطيئةٌ إلا حوسبوا عليه، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ التي لم يصنعها لهم سوى أنفسهم الأمَّارة بالسوء؛ هؤلاء ليس لهم غير ما مهدوه وهيَّأوه لأنفسهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد/ ١٨].

وقد تسأل وتقول:

كيف نتجنب سوء الحساب؟

الجواب: لقد صاغ القرآن الكريم؛ وهو الكتاب الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت/ ٤٢]، البرنامجَ العمليَّ لتجنب سوء الحساب؛ لمن أراد ذلك من طلاب الصراط المستقيم.

وقد بيَّن الله تعالى في ـ كتابه الكريم ـ ملامحَ هذا البرنامج؛ في قوله تعالى

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد/ ١٩ ـ ٢١].

فهنا خطوات أربع:

الخطوة الأولى: العلم

وقد أشير إليها ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾.

الخطوة الثانية: المضمون المعرفي

وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾.

الخطوة الثالثة: التذكر.

وقد أشار إليه في الآية قوله تعالى﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الخطوة الرابعة: التعقل

وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الخطوة الخامسة: الثبات على المبدأ:

١ ـ **مع الله.** وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾.

٢ ـ **مع الناس.** وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾.

ولا بد من هذا الثبات المبدئي في مسارين:

المسار الأول: الشعور النفسي

وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾.

المسار الثاني: الالتزام السلوكي

وقد أشير إليه ـ في الآية ـ بقوله تعالى ﴿يُوفُونَ﴾، وقوله ﴿يُوصَلَ﴾.

وقد تسأل ثانياً، وتقول:

ماذا يعني سوء الحساب، ونحن نعلم أن الله تعالى عادلٌ لا ظلم في ساحته؟!

الجواب: لا ريب أن الله عزّ وجلّ لا ظلم، ولا حيف، ولا جور، في ساحته؛ فليس في ساحته إلا العدل المطلق، والمقصود بـ(سوء الحساب): المداقة فيه، والاستقصاء.

وهذا المقدار كافٍ لإهلاك الخلق؛ لأن الناس لا يخلون من تقصيرٍ يدعو إلى محاسبتهم ومجازاتهم عليه، ونعوذ بالله من ذلك.

ويشهد، بل يدل على هذا التفسير، ما جاء في الخبر، عن حماد بن عثمان، قال: **دخل رجلٌ على أبي عبدالله عليه السلام فشكا إليه رجلاً من أصحابه، فلم يلبث أن جاء المشكوُّ، فقال له أبو عبدالله عليه السلام: ما لفلان يشكوك؟ فقال له: يشكوني أني استقضيتُ**[1] **منه حقي، قال: فجلس أبو عبدالله عليه السلام مغضباً، ثم قال: كأنك إذا استقضيتَ حقَّك لم تسئ؟! أرأيتَ ما حكى الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، أترى أنهم خافوا الله أن يجورَ عليهم؟! لا والله! ما خافوا إلا الاستقضاء؛ فسماه الله عزّ وجلّ سوءَ الحساب، فمن استقضى به فقد أساء)**[2].

وعلى مستوى علم التفسير فقد ذكر المفسرون لـ(سوء الحساب) عدةَ معانٍ؛ أوردها الشيخ الطبرسي على النحو التالي:

أحدها: أن سوءَ الحساب أخذُهُم بذنوبهم كلها من دون أن يغفر لهم شيءٌ منها، عن إبراهيم النخعي، ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث (**ومَن نوقش الحساب عُذِّب**)، فيكون سوء الحساب المناقشة.

والثاني: هو أن يُحاسبوا للتقريع، والتوبيخ، فإن الكافر يُحاسب على هذا الوجه، والمؤمن يحاسب ليُسَر بما أعد الله تعالى له. عن الجبائي.

---

(١) في معاني الأخبار للشيخ الصدوق، باب معنى سوء الحساب، ص٢٤٦، (فاستقصيت). وفيه اختلاف يسير عمّا في الكافي.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٨، ص٣٤٨، أبواب الدين، الباب ١٦ ـ أنه يكره لمن يتقاضى الدين المبالغة في الاستقضاء، الحديث ١.

والثالث: هو أن لا يُقبل لهم حسنةٌ، ولا يُغفر لهم سيئةٌ. عن الزجاج، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام.

والرابع: أن سوء الحساب هو سوءُ الجزاء، فسمي الجزاء حساباً؛ لأن فيه إعطاء المستحق حقه)[١].

---

(١) الطبرسي، أبو علي (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٣١، ذيل قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من سورة الرعد.



الفصل السابع

العلم بين النعمة والنقمة

● [الفقرات/ ٢٠ ـ ٢٢]:

(يا أبا ذر! إن شر الناس عند الله (تعالى) يوم القيامة عالِمٌ لا يُنتفع بعلمه، ومن طلب علماً ليصرف به وجوه الناس إليه لم يجد ريحَ الجنة.
يا أبا ذر! إذا سُئلت عن علمٍ لا تعلمه فقل (لا أعلمه) تنج من تبعته، ولا تُفت الناسَ بما لا علَمَ لك به تنجُ من عذاب يوم القيامة).

***

لـ(العلم) ـ في الرؤية الإسلامية ـ دورٌ محوريٌّ ورئيسٌ، ولا يُتصور أن يكون المسلمُ مسلماً حقيقياً، ومتكاملاً، بدونه.

لذلك، جاء التشديد في القرآن والسنة ـ معاً ـ على الحضّ عليه من جهةٍ، والنهي عن التقصير فيه من جهةٍ أخرى؛ لِما يترتب على كسبه من فوائد لا يليق بالمسلم أن يهملها، وما يترتب على التقصير فيه من خسائر مهلكة لا يجوز للمسلم أن يعرِّض نفسَه لها.

ودون مراعاة آداب العلم تفاعلاً وتفعيلاً فإن ثمة مخاطرَ كثيرةً تحدق بالإنسان. وقد استعرض النبي ﷺ أربعةً من تلك المخاطر هنا.

ولنتأمل تلكم المخاطر؛ تبعاً لما استعرضته الفقرات الشريفة مورد الشرح؛ ضمن مسائل أربع:

المسألة الأولى: الدور الوظيفي للعلم

مما ينبغي التأكيد عليه أن (العلم) إنما حظي ـ في الإسلام ـ بهذا الاهتمام لسببٍ وجيهٍ؛ يتمثل في ما يُرجى من العلم من منافع تعود على حامله ومتلقيه على المستوى العملي.

ولنقف على بعض ذلك في ما يلي:

١ ـ قال تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر/ ٩].

والآية الشريفة تبين أن العلمَ ليس مطلوباً لذاته، بل باعتباره أحد عوامل صنع الإنسان الكامل؛ أو العبد الصالح، الذي أنيط به خلافة الله في أرضه لإعمارها.

وهذا الاستخلاف يتوقف على السير في الصراط المستقيم؛ الذي هو ـ بعينه ـ طريق العبودية لله تعالى. والذي يعني ـ في صياغةٍ أخرى ـ: وعيَ الإنسان بربوبية الله وحاكميته، وعبودية ما سواه ومحكوميته.

ولن يتحقق الاستخلاف ـ بكل ما يعنيه ويستلزمه ـ بغير العلم؛ الذي يعيد إنتاج الإنسانية السوية في (العالِم)؛ حيث يجعل قيادةَ مملكته الداخلية بين يدي (عقله)؛ والذي يملي عليه:

١ ـ أن لا يصرف النظرَ عن مولاه هذا، ولا ينساه طرفةَ عينٍ.

٢ ـ أن يترجم ذلك عبر وقوفه بين يديه آناء الليل وأطراف النهار؛ متضرعاً، وسائلاً، ومستهدياً، ومستعيناً ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/ ٥].

ونخلص ـ من هذا الإيجاز، والتكثيف ـ إلى:

أن العلمَ مطلوبٌ لغايةٍ أسمى؛ صاغها الرسولُ ﷺ بمقولةٍ جميلةٍ تروى عنه

نصها: **أفضلُكم إيماناً أفضلُكم معرفةً**)[١]، بل يترقى الخطاب إلى تعليق الصلاح على المعرفة كما قال الإمام الصادق عليه السلام - في حديث - (**إنكم لا تكونون صالحين حتى تعرِفوا**)[٢]، وأما أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال: **العملُ بغيرِ علمٍ ضلالٌ**)[٣].

ولَما كان للعلم هذه المنزلةُ وهذا الدورُ؛ في: تربيةِ الإنسانِ، وتوجيههِ الوجهةَ الصحيحةَ نحو الله تعالى، فقد أشاد سبحانه بالعلماء، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة/ ١١].

ومرةً أخرى نجد أن العلم، كما تبيِّنه الآية الكريمة، إنما يكون له قيمةٌ باعتباره العاملَ الأساسَ في تحويل صاحبه إلى إنسانٍ مرهَف الحس، يشعر بالآخرين، ويفسح لهم في المجالس؛ لأن لهم من الاحترام مثل ما ينشده لنفسه.

وأما غير العالم فنتعرَّف عليه من خلال غياب هذا الإحساس عنده.

ولما كان للعلم كلُّ هذا التأثير فقد نهت التعاليم الإسلامية المسلمَ عن العمل بغير علم[٤]، فقال عز من قائل ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ

---

(١) جامع الأخبار، وعنه: بحار الأنوار، كتاب التوحيد، ج١، ص١٤، الباب ١ - ثواب الموحدين والعارفين، وبيان وجوب المعرفة وعلته، وبيان ما هو حق معرفته تعالى، الحديث ٣٧.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص١٨١ - ١٨٢، كتاب الإيمان والكفر، باب خصال المؤمن، الحديث ٣.

(٣) الواسطي، علي بن محمد الليثي (ق ٦)، عيون الحكم والمواعظ، ص٤٩، الباب ١ - الفصل ١ - ما أوله الألف واللام.

(٤) قال الإمام الخميني (ت١٤٠٩ هـ): لا إشكال في أن الأصل حرمة العمل بما وراء العلم عقلاً ونقلاً) [الاجتهاد والتقليد، ص٥٨].

وقد عقد العلامة المجلسي في البحار باباً جعل عنوانه (باب العمل بغير علم)، ضمنه اثني عشر حديثاً [بحار الأنوار، ج١، كتاب العلم، الباب ٥].

أقول: يجب التوضيح - إجمالاً - أن العمل بغير علم إنما يحرم - شرعاً - إذا ترتب عليه: تركُ واجبٍ، أو فعلُ محرَّم. وما عدا ذلك لا يكون محرماً، لكنه بالتأكيد محكومٌ بالقبح لِما يجره على العامل من فوات منافع يطلبها العقلاء.

أُوْلَتِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء/ ٣٦]، محذراً من الانسياق وراء كل ما هب ودب من الأفكار والآراء والنظريات والسلوكيات؛ التي يتبناها هذا الفريق أو ذاك، ويروِّج لها بمختلف فنون الإغراء والإغواء؛ ليتنافس الجميع على مخاطبة غريزة الإنسان، ناسين ومتناسين جوهر إنسانيته؛ أعني قدرته العلمية.

ويزداد الخطر حينما يستجيب الإنسان إلى جهودهم الحثيثة ويقع في براثن الجهل، ويخرج عن زمام العلم والعقل معاً، فتكون صورته (**صورة إنسان والقلب قلب حيوان**)[1].

والتحذير الرباني يتركز على أن سلوك الإنسان، سيُحدِّد رضا الله عنك أو سخطه عليك، فإنك ستُسأل لا ريب، فاحذر من العمل بغير علم، ولتكن اختياراتك مبنيةً على أساس العلم والمعرفة، وإياك ثم إياك من اتباع الجهل والانسياق وراء الرغبات غير المشروعة.

لهذا كله، يأتي التوجيه النبوي في هذه الوصية بالقول:

(يا أبا ذر! إن شرَّ الناس منزلةً عند الله (تعالى) يوم القيامة عالم لا يُنتفع بعلمه)

فلأنك ـ يا أباذر، ويا من تريد أن تكون كأبي ذر ـ لا تريد أن تكون شرَّ الناس، ولأنك تريد أن تكون ذا منزلةٍ عاليةٍ ورفيعةٍ عند الله؛ من أجل أن تحظى بجنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، فلا بد أن تكون من أهل التقوى. فإن الجنة ليست متاحةً لكل أحد، وإنما ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٣].

والتقوى تعني: العمل وِفق ما أراد الله أمراً ونهياً. فهي: عمل، وعبادة، وإخلاص، وحياء... وكل هذه ثمرات ونتائج للعلم[2]، وقد قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر/ ٢٨].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٧.

(٢) للتعرف على بعض هذه الثمرات انظر: كتاب ميزان الحكمة، مادة (العلم).

فلابد للإنسانُ؛ الراغب في الالتحاق بركب الصراط المستقيم، أن يكون عالماً؛ أو متعلماً في أسوأ الأحوال.

وقد روي في الحديث الشريف، عن كميل بن زياد، قال: خرج إلي علي بن أبي طالب عليه السلام فأخذ بيدي وأخرجني إلى الجُبَّان، وجلس وجلست، ثم رفع رأسه إلي فقال: **يا كميل احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم**(١) **ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيقٍ...)**(٢).

وروى أبو حمزة الثمالي، قال: قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: **اغدُ عالماً، أو متعلِّماً، أو أحبَّ أهلَ العلم، ولا تكن رابعاً فتهلك ببغضهم)**(٣).

هذا إذا لاحظنا فوائد العلم على المستوى الذاتي والشخصي، وقرأنا قوله صلى الله عليه وآله (يَنتفع) مبيناً للمعلوم.

وأما إذا قرأناه مبنياً للمجهول (يُنتفع)، فسيكون لدينا نتيجة أخرى؛ تصب في الاتجاه نفسه، ولكن خارج نطاق الذات، إلى خدمة الغير.

وذلك، أن من تعاليم الإسلام: (إرشاد الضال)، و(تعليم الجاهل)(٤). فكما

---

(١) وفي نسخة: لم يستضيئوا بنور العلم فيهتدون.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج ١، ص١٨٨، كتاب العلم، الباب ٢ ـ أصناف الناس في العلم، وفضل حب العلماء، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق، الحديث ١١، عن المحاسن للبرقي.

(٤) قال الشيخ المجلسي: ظاهر أكثر الآيات والاخبار وجوب التعليم والهداية وإرشاد الضال) [بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٣٩].
أقول: التعليم الواجب إنما هو في الجملة وليس بالجملة، بمعنى أن الواجب تعليمه هو ما أوجب الشارع المقدس تعلمه؛ مما يتوقف عليه ما فرض الله عزّ وجلّ حفظه، من قبيل المسائل الشرعية الابتلائية؛ كأمهات مسائل الصلاة، ونحو ذلك.
وقد أجاد الشيخ يوسف البحراني تحقيق المسألة في الفائدة الخامسة: وجوب تعليم الجاهل على العالم ابتداء، من الدرة الثانية بعنوان (في معذورية الجاهل)، في كتابه الدرر النجفية، ج١، ص١١٤ وما بعدها؛ فراجع.

كلَّفنا الله تعالى بالتعليم، فقد أوجب علينا تحملَ مسؤولية الآخرين بتعليمهم، كلٌّ حسب موقعه، وبمقدار ما آتاه الله من العلم والقدرة.

والسبب يكمن في أن الإسلام لا يريد أي أتباع، وإنما يريد أتباعاً آمنوا بمعارفه؛ عن معرفةٍ وقناعةٍ، معرفةً يحملها المتدين، ليتولى ـ بدوره ـ الدعوة إلى الله سبحانه ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف/١٠٨].

فنحن ـ كمسلمين ـ إنما نختلف عن غيرنا بالوعي والعلم، أو هكذا يجب أن نكون، عارفين بجوهر اختلافنا وآفاقه وأسبابه ونتائجه، ونكون معه على (بصيرة) بما نحن عليه.

ولا نقف عند هذا الحد، بل إننا ـ كأتباع لرسول الله ﷺ ومتأسِّين به ـ نملك المستوى العلمي اللازم لحمل مشعل (الدعوة) إلى الله، وليس مجرد الإذعان.

ولنتلمس بعضَ آثار العلم؛ إذا حمله الإنسان بين جوانبه؛ لنتعرف على ما يمكن أن يحظى به من الامتيازات على مستوى ذاته، وإمكانيات التأثر على غيره، في ما روي عن رسول الله ﷺ من قوله:

أما العلم فيتشعب منه:

*** الغنى؛ وإن كان فقيراً.**

*** والجود؛ وإن كان بخيلاً.**

*** والمهابة؛ وإن كان هيّناً.**

*** والسلامة؛ وإن كان سقيماً.**

*** والقرب؛ وإن كان قصياً.**

*** والحياء؛ وإن كان صلفاً.**

*** والرفعة؛ وإن كان وضيعاً.**

*** والشرف؛ وإن كان رذلاً.**

* والحكمة.

* والحظوة)[١].

ولعل المراد من هذه الفقرات النبوية الشريفة ـ والله العالم ـ:

أن العلم من شأنه تفجير الطاقات الكامنة في الإنسان؛ وإن كانت بذرات النقص والقصور موجودةً في الذات البشرية؛ بل وإن كانت طاغيةً على كيانه في ما يبدو.

والسبب في ذلك أن كثيراً من وجوه النقص في الناس إنما تظهر فيهم، وتسيطر عليهم، بسبب جهلهم بما أودعه اللهُ في ذوات كلٍّ منهم من طاقات وقوى، فإذا علموا بها، واختاروا أن ينتقلوا بأنفسهم من القصور إلى الكمال، سهل عليهم ذلك بعون الله وتوفيقه[٢].

---

(١) الحراني، ابن شعبة (ق ٤)، تحف العقول، باب ما روي عن رسول الله ﷺ. وعنه: بحار الأنوار، ج١، ص١١٨، كتاب العقل والعلم والجهل، باب ٤ علامات العقل وجنوده، الحديث ١١.

(٢) قال الشيخ المجلسي في بيان هذه الفقرة:

(وأما ما يتشعب من العلم: فالغنى). أي: غنى النفس؛ وإن كان فقيراً بلا مال. ويحتمل ـ أيضاً ـ الغنى بالمال؛ وإن كان قبل العلم فقيراً.

(والجود) أي: يجود بالحقائق على الخلق؛ وإن كان بخيلاً في المال؛ إما لعدمه، أو لبخله. أو المراد: أن العلم يصير سبباً لجودِهِ بالمال والعلم وغيرهما؛ وإن كان قبل اتصافه بالعلم بخيلاً. وتحصل له **(المهابة)**، وإن كان بحسب ما يصير بحسب الدنيا سبباً لها هيناً؛ لعدمِ شرفٍ دنيويٍّ وحسبٍ ونسبٍ ومالٍ، لكن بالعلم يلقي اللهُ مهابته في قلوب العباد، وإن كان قبل العلم هيناً حقيراً.

(والسلامة) من العيوب؛ وإن كان في بدنه سقيماً، أو العلم يصير سبباً لشفائه عن الأسقام الجسمانية والروحانية.

(والقرب من الله؛ وإن كان قصياً) أي: بعيداً عن كرام الخلق، أو القرب من الله ومن الخلق؛ وإن كان بعيداً عنهما قبل العلم.

(والحياء وإن كان صلفاً)، في القاموس: الصَّلَف ـ بالتحريك ـ: التكلم بما يكرهه صاحبك، والتمدح بما ليس عندك، أو مجاوزة قدر الظرف، والادعاء فوق ذلك تكبراً. وهو صلِف؛ ككَتِف) انتهى. أي: يحصل من العلم الحياء في ما يحب ويحمد؛ وإن عده الناسُ صلَفا لترك المداهنة، أو وإن كان قبله صلفاً، والأخير ـ هنا ـ أظهر. =

المسألة الثانية: التوظيف السيئ للعلم

بعد أن تبين لنا في المسألة السابقة ـ بإيجازٍ شديدٍ ـ أن العلمَ ليس مطلوباً لذاته، وإنما هو مطلوبٌ لغيره. وهذا الـ(غير) ليس شيئاً غير التقوى في ذواتنا ومحيطنا عبر التعليم، فقد عطف النبيُّ ﷺ الحديثَ إلى خطرٍ داهمٍ؛ يمكن أن يتعرض له كلُّ حاملٍ للعلم.

وذلك، أننا أشرنا أن للعلم ثمراتٍ كثيرةً في نفس العالم، فهو ـ بشكلٍ أو بآخر ـ سيحظى بإعجاب الناس، وسيملك القدرةَ على التأثير فيهم، لِما يملكه العالم ويفقدونه من معارف وخبرات؛ تؤثر في حياتهم قليلاً أو كثيراً.

فإذا كان (العالم) ـ أو (طالب العلم) ـ قد وضع في حسابه غرضاً سيئاً؛ يسعى إلى تحقيقه عبر خداع الناس، بإبراز محاسن في ذاته ليس موجودةً فيه، لتكون له الحظوةُ فيهم دونما استحقاقٍ وجدارةٍ يرضاها الله تعالى، فإنه سيكون مصداقاً لـ(المستأكل) بالعلم، وهو ما نصطلح عليه في عرفنا الآن بـ(المرتزق)، إذا كان دافعُهُ المكاسبَ الشخصيةَ فحسب. أما إذا كان يسعى وراءها من خلال التصاقه بالظالمين والطغاة فهو ما يسمى في عرفنا اليوم بـ(فقهاء السلطة)، أو (وعاظ السلاطين). وهؤلاء أسوأ حالاً من طلاب المكاسب الشخصية؛ لأنهم باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

وقد عقد الشيخ الكليني رحمه الله؛ في كتاب (أصول الكافي)، باباً لمعالجة هذا الصنف من الناس، ضمَّنه عدداً من الأحاديث.

* ومنها: ما عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: **مَن أراد الحديث** [أي

= **(والرفعة، والشرف)** أيضاً يحتملان المعنيين على قياس ما مر. والفرق بينهما بأن الرفعة ما كان له نفسه، والشرافة ما يتعدى إلى غيره بأن يتشرف من ينسب إليه بسببه، والأول بحسب الجاه الدنيوي، والثاني بالرفعة المعنوية بسبب الأخلاق الشريفة.

(والحكمة): العلوم الفائضة بعد العمل بما يعلم، أو العمل بالعلم كما سيأتي.

(والحظوة): المنزلة والقرب عند الله) انتهى

العلم] لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيبٌ، ومَن أراد به خير الآخرة أعطاه الله خيرَ الدنيا والآخرة)[١].

* ومنها: ما روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: مَن طلب العلمَ ليباهي به العلماءَ، أو يماريَ به السفهاءَ، أو يصرفَ به وجوهَ الناس إليه، فلْيتبوَّأ مقعدَه من النار. إن الرئاسةَ لا تصلح إلا لأهلها)[٢].

أنواع السلطة:

إننا حينما نعيب ـ تبعاً للأدلة الشرعية ـ فقهاءَ السلطة؛ وهم الذين تحركهم بعض القوى؛ مستغلةً حرصَهم على مصالحهم الذاتية، أو صغار أنفسهم، ونحو ذلك، لا نعني بذلك السلطة السياسية وحدها؛ فإن السلطة أنواع، فمنها:

أولاً: السلطة السياسية

ثانياً: السلطة الاجتماعية

ثالثاً: السلطة الإعلامية

رابعاً: السلطة الاقتصادية

فتارة: يتحكم في (العالم) ـ أو (طالب العلم) ـ حاكمٌ غشومٌ يحتاج إلى مَن يضفي الشرعية على سلوكياته، ويسوِّغ ظلمه وتعدياته، فيلجأ إلى البحث عن (عالم) يفتي له؛ محلِّلاً ما يرغب في تحليله، ومحرِّماً ما يحتاج إلى تحريمه؛ رغبةً منه في توسعة سلطانه وتثبيته، ومحاصرة معارضيه.

فإذا استجاب (العالم!) لمثل هذه الرغبة، كان واقعاً تحت سلطة سياسية أملت نفسها عليها، فأصبح فقيهاً من فقهاء السلطة السياسية.

وأخرى: يتحكم في (العالم) مجتمعٌ تحكمه سلسلة من العادات والتقاليد البالية، تصطدم مع منطق الشرع والحق، ومع ذلك يراد تسويغُها وتسويقها، بالغةً

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٤٦، كتاب العلم، باب المستأكل بعلمه والمباهي به، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤٧، الحديث ٦.

ما بلغت مضاعفاتها السلبية، ومهما كانت المظالم التي تقع على الضعفاء من الرجال والنساء والأطفال...؛ فيصبح (العالم) ـ بانسياقه مع ذلك ـ من فقهاء السلطة الاجتماعية.

وثالثةً: يتحكَّم في العالم ـ وفي طالب العلم ـ سلطةٌ إعلاميةٌ ـ مرئيةً، أو مسموعةً، أو مقروءةً ـ تفرض عليه السير باتجاهٍ لا يلتقي مع قناعاته الحقيقية، ولا تستند إلى أدلةٍ شرعيةٍ، وليس بالضرورة تكون المواقفُ المطلوبةُ لازمةً أو مفيدةً، لكنها قد تكون من متطلبات الحضور الإعلامي؛ فيصنف عندها من فقهاء سلطة الإعلام.

ورابعةً: يتحكم فيهما رجال أعمال متنفذون يلهثون وراء زيادة أرباحهم، الأمر الذي يتطلب استحضار أي وسيلة تؤدي إلى ذلك.

وبطبيعة الحال، ينبغي أن يكون أحد هذه الوسائل (عالم!) يروج للبعض من جهة، ويسوق لرجل الأعمال هذا في الوسط الاجتماعي؛ فيصبح هذا العالم عندها من فقهاء المال.

ويلتقي هؤلاء (الفقهاء!!) في أن ما حرَّكهم ليس هو الحق، وإنما هي الرغبات غير المشروعة في تسجيل حضورٍ اجتماعيٍّ، بطرقٍ ملتويةٍ، تكشف ـ على الأقل ـ عن مدى (الدونية) التي ابتلي هذا (العالم)، الذي ضحى بنصاعة العلم في سبيل قتامة الوجاهة والمال والارتزاق.

ومصطلح المستأكل بعلمه يشمل هؤلاء جميعاً.

والتعليم النبوي؛ في وصيتنا مورد الشرح، يؤكد أن المطلوب من (العالم)؛ وكذلك من (طالب العلم)، أن يكونا نزيهين في تعلم العلم أولاً، وفي تعليمه ثانياً، لا يبتغيان بهذا وذاك إلا الله عز اسمه؛ لأن (العلم) ـ الذي يفترض أنه يطلبه ـ يؤكد معادلةً علميةً؛ مفادها: أن الخير كله من الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل/ ٥٣].

لذلك، فالثواب والسمعة والشهرة الحقيقية إنما تكون هبةً ومنّةً من الله، وأما

من غيره فهي سرابٌ ﴿بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور/ ٣٩].

وعليه، فإن الجنة ـ التي هي نتيجةُ أعمالنا ـ لن تكون من نصيب هذا المخادع؛ الذي لم يحسن التعامل مع ربه، وإن صُنِّف ـ عند الناس ـ ضمن العلماء أو المتعلمين، فـ:

(مَن طلب علماً ليصرف به وجوهَ الناسِ إليه لم يجدْ ريحَ الجنةِ) [الفقرة/ ٢٠].

وطالب العلم؛ المشار إليه في هذا المقطع، لم يُرد سوى أن يستميل الناس إليه (ذاتياًّ)، فهو ـ إذاً ـ دنيء في غايته، لا ينطلق في نشاطه من مشروعيةٍ يحسبها الناسُ متوفرةً فيه.

وقد يتطور خبثُه إلى حضيضٍ يفوق ذلك دناءةً؛ بأن يمارس فعلَ الانحطاط وغشَّ الناس والتمويهَ عليهم، بما يسمى بـ(الخداع) مع كل ما يستلزمه بين الحين والآخر، من توجيه الأقوال والأفعال وخلق المسوِّغات له ولغيره. وإذا كان الأمرُ كذلك فإن من الطبيعي أن يجعل النبيُّ الشفيقُ ﷺ على أمته ومستنصحيه أحدَ بنود وصيته قولَه:

(يا أبا ذر! مَن ابتغى العلمَ ليخدعَ به الناسَ لم يجد ريحَ الجنة) [الفقرة/ ٢١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث ـ محذراً من هذا الصنف من الناس: **إياكم... والفجار من العلماء، فإنهم فتنةُ كلِّ مفتونٍ)**[1].

ولعلنا في غنى عن ضرب الأمثال للمنحرفين من الناس ممن لم ينتفع بعلمه، ويكفينا ما ذكره الله عزّ وجلّ عن واحد منهم. وذلك في قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

---

(١) قرب الإسناد، وعنه: بحار الأنوار، ج١، ص٢٠٧، كتاب العلم، الباب ٥ ـ العمل بغير علم، الحديث ٣.

ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ١٧٥، ١٧٦].

فهذا النموذج كان يحمل بين جوانحه علماً لكنه لم يحسن توظيفه، بل عمل بخلافه إلى درجة الانسلاخ ـ كنايةً عن التملص التام والنبذ الكامل لمقتضيات العلم ـ، واستسلم لمغريات الدنيا وأحكام الهوى، فباء بالخسران(١).

المسألة الثالثة: خطورة تعالُم الجاهل

نقصد بـ (التعالم): التظاهر بالعلم. يقال: تفاقه: إذا تعاطى ليُرى أنه فقيه، وليس هو كذلك. ومثله تعالَمَ(٢). وهو من المخاطر الكبيرة التي قد يُبتلى بها العالم وطالب العلم؛ على حد سواء.

وهذه الآفة تنبع من تضخم (الأنا)؛ بحيث يدَّعِي العلمَ بالمطلق؛ حتى إنه يدعيه، بالقول أو بالفعل، في ما لا يعرفه.

والتعالم يُعد شكلاً آخر من الخداع يمارسه المتعالمون في حق الناس، بينما كان ينبغي أن يكون الشفيق الناصح فلا يتصدى للحديث عن شيءٍ لا يفقهه كما ينبغي.

---

(١) ذكر الشيخ الطبرسي في المجمع ـ ذيل الآية الكريمة ـ أن المعنيَّ بها: بلعم بن باعوراء من بني إسرائيل حينما كانوا في مصر وبعث الله موسى لإنقاذهم من براثن فرعون. وقيل: إنه رجل من قوم لوط. وقيل: إنه أمية بن الصلت. وقيل: إنه أبو عامر الراهب الفاسق. وقيل: إنهم جماعة من المنافقين.
وهو ـ على كل حال ـ نموذج للعالم المنحرف عن لوازم العلم. وقد قال بهذا جماعةٌ من المفسرين؛ كما حكاه الرازي في ذيل الآية، فراجع.

(٢) انظر: التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي، ج٣، ص٢٦٤، ذيل قوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء/ ٧٨].

من قواعد التعامل في الإسلام:

ثمة قواعد تحكم سلوكَ المسلم وتعاملاتِهِ، ولا يليق بمسلمٍ أن يهملها، وإلا وقع في محذورٍ أو محظورٍ.

القاعدة الإسلامية الأولى؛ في هذا الباب: تقرر مبدأً من أسمى المبادئ؛ مفاده (**من غشنا فليس منا**)[1].

والغش نقيض النصح. وهو: أن تُعْرَضَ البضاعةَ على صورةٍ ليست هي عليه، بأن تُخفى عيوبها، أو يُخفى الجزءُ الرديءُ منها. وقد يراد به التدليس بأن نبرز محاسن ليست موجودة[2]. وقد يطلق ويراد به: الخديعة، والكذب، والإيهام، والتغرير، وغير ذلك من مفردات؛ تساويه، أو تقاربه في المعنى.

القاعدة الثانية: مفادها (الإحسان والمبدئية).

وهذه القاعدة تؤكد أن الدين وتعاليمه ليست شعاراً أجوف، وإنما هو/وهي، مضامين استقرت في نفس المتدين، وانعكست بوضوحٍ على سلوكه، قولاً وفعلاً.

* قال الله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة/ ١٩٥].

* وقال تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف/ ٢، ٣].

---

(١) انظر: جامع أحاديث الشيعة، ج١٧، ٣٥٩، أبواب ما يكتسب به وما لا يكتسب، باب تحريم الغش في المعاملة، الحديث ٣؛ مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٣، ص٢٠١، كتاب التجارة، الباب ٦٩ ـ تحريم الغش بما يخفى، كشوب اللبن، الحديث ٣؛ سنن الدارمي، باب النهي عن الاحتكار.
وانظر أيضاً: صحيح مسلم، ج١، ص٩٩، كتاب الإيمان، الباب ٤٣ ـ باب قول النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم: من غشنا فليس منا.

(٢) انظر: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٢٧٩، كتاب التجارة، الباب ٨٦ ـ تحريم الغش بما يخفى كشوب اللبن بالماء.

القاعدة الثالثة: (الدين النصيحة)[١].

وهي تعني أن يكون المتدينُ حاملاً لهموم إخوانه؛ لأنه يحب لهم ما يحب لنفسه، وهذا وذاك يعنيان الإخلاصَ والصدقَ في استشعار المشاكل، والإخلاصَ والصدقَ في تلمس الحلول.

* قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/١٠].

* عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **لينصح الرجل منكم أخاه؛ كنصيحته لنفسه)**[٢].

* وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: **يجب ـ للمؤمن ـ على المؤمن النصيحةُ له؛ في المشهد والمغيب)**[٣].

والتعالم؛ بالادعاء الكاذب للمعرفة، هو شكلٌ من أشكال الجهل من جهةٍ، والتغرير بالناس من جهةٍ أخرى، وهو ضربٌ خفيٌّ من ضروب الغش والخداع من جهةٍ ثالثةٍ، وهو سيرٌ في الاتجاه المخالف والمعاكس، للمسيرة الدينية من جهةٍ رابعةٍ، كما أنه ليس من الإخلاص في شيء من جهةٍ خامسةٍ.

والحل: الذي يطرحه الرسول صلى الله عليه وآله لمثل هذه الحالة، هو المبادرة إلى الاعتراف بالحقيقة، وأن يملك المسؤولُ الشجاعةَ الأدبيةَ اللازمةَ، ليجيب قائلاً ـ بملء الفم ـ (لا أدري)؛ إذا سُئل عمّا لا يعرفه.

---

(١) انظر: جامع الأحاديث، ج١٨، ص٢٢، أبواب أحكام العيوب، باب جواز خلط المتاع الجيد بغيره، الحديث ٥.
ورواه مسلم وغيره.
وانظر ـ أيضاً ـ: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، كتاب الحج، ج١٢، ص٤٩، أبواب العشرة، الباب ٢٣ ـ وجوب نصح المستشير.

(٢) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٣٨١، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الباب ٣٥ ـ وجوب نصيحة المؤمن، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٢.

وما أجمل ما قاله؛ خريجُ هذه المدرسة التربوية، الإمام علي عليه السلام: **مَن ترك قولَ لا أدري أصيبت مقاتلُهُ)**[(١)].

لذلك، يقول صلى الله عليه وآله:

(يا أبا ذر! إذا سُئلتَ عن علمٍ لا تعلمه فقل: لا أعلمه، تنجُ من تبعتِهِ. ولا تفتِ الناسَ بما لا علمَ لك به؛ تنجُ من عذاب يوم القيامة) [الفقرة/ ٢٢].

مؤكِّداً أن تبعات التعالم لا تقف عند حدود الدنيا، بل تجعل المتعالم خصماً مع الله؛ الذي هو شديد العقوبة؛ بما لا تحتمله السماوات والأرض فكيف بالإنسان العبد الضعيف[(٢)].

وقد تضافرت الأخبار؛ إن لم نقل تواترت، بالنهي عن القول بغير علمٍ؛ خصوصاً في ما يتعلق بالفتوى والقضاء.

وقد عقد المحدثون أبواباً وفصولاً في مجامع الحديث؛ ضمَّنوها ما يدلّ على ذلك.

ومثالاً على ذلك ما فعله المحدث المجلسي رحمه الله؛ الذي خصص فصلاً بعنوان (النهي عن القول بغير علم، والإفتاء بالرأي، وبيان شرائطه) وأورد فيه اثنتين وأربعين (٤٢) آية وخمسين (٥٠) حديثاً عن النبي وعن آله (صلى الله عليه وعليهم)، وذلك في كتاب العلم من موسوعة بحار الأنوار، فراجع الجزء ٢.

وقد يُظن أن ذاك النهيَ محدودٌ بدائرة الفتيا في المسائل الدينية؛ كما يمكن

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ٨٥.

(٢) مستلهم من دعاء كميل، انظر مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.

وجاء فيه: ... **فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وحلول [وجليل] وقوع المكاره فيها؛ وهو بلاء تطول مدته، ويدوم مقامه، ولا يُخفف عن أهله؛ لأنه لا يكون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك. وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض ـ يا سيدي ـ فكيف بي؛ وأنا عبدك، الضعيف، الذليل، الحقير، المسكين، المستكين...)**.

أن يوحيَ به عنوانُ الفصل الذي وضعه المحدث المجلسي، غير أن المدقق في الأحاديث يلحظ أن لسانها أعمُّ وأشملُ، وإن كان القولُ بغير علم في المسائل الدينية أشدَّ حرمةً.

ومما يشهد للشمولية ما رواه زرارة بن أعين، قال: سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام: **ما حق الله على العباد؟ قال أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عندما لا يعلمون)**(١). فلسانُهُ عامٌّ لجميع المسائل، وليس خاصاً بالمسائل الشرعية.

وقد أجاد وأفاد الشيخ الشيرازي بقوله: ولو أننا أمعنا النظرَ ودققنا جيداً في أوضاع المجتمعات البشرية، والمصائب والمتاعب التي تعاني منها تلكم المجتمعات، لعرفنا أن القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشئٌ من بث الشائعات، والقول بغير علم، والشهادة بغير الحق، وإبداء وجهات نظر؛ لا تستند إلى برهان، أو دليل)(٢).

المسألة الرابعة: التطبيق العملي لمضمون العلم

هناك خطر رابع؛ يتعلق بالعلم، يستعرضه الرسول صلى الله عليه وآله؛ ويتمثل في الازدواجية بين العلم والعمل.

ومصادر المعرفة الإسلامية تؤكد أن العلم؛ كما أشرنا إليه قبلُ، ليس مطلوباً ذاتياً، وإنما يُطلب لِما يحققه من نتائج في نفس العالِم، وإلا تحول إلى مفاهيم ونظريات عقيمة لا تقدم ولا تؤخر.

والأنكى من ذلك أن يتحول العالِم إلى حمارٍ يحمل أسفاراً من العلم لا يفيد منها، بل تكون وبالاً عليه، قد تؤدي به إلى أن يقع في الكفر بالله تعالى. قال الله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة/ ٥].

---

(١) أمالي الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ١١٣، كتاب العلم، الباب ١٦ ـ النهي عن القول بغير علم، والإفتاء بالرأي، وبيان شرائطه، الحديث ٢.

(٢) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم (معاصر)، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٥، ص٢٩، ذيل الآية ٣٣ من سورة الأعراف.

وذلك يتحقق إذا حصلت المواجهة بين فريقين يوم القيامة، ونال أحدهما رضا الله ورضوانه، وباء الآخرُ بسخط الله وغضبه، ليتساءل صاحب الجنة من صاحب النار، عن سبب الذهاب به إلى النار، وهو الذي يفترض ويتباهى ـ واهماً ـ أن يكون السابق والسباق إلى الجنة؛ لأنكم أساتذتنا ومؤدبونا!

فيأتيه الجواب: لم نكن نعمل بما نعلم! وكنا نأمر بالخير فيطيعنا الناس، بينما لا نفعل نحن ذلك!

هذا الحوار؛ الذي سيقع يوماً ما، يبينه الرسول ﷺ بقوله:

● **[الفقرة/ ٢٣]:**

(يا أبا ذر! يطلع قومٌ من أهل الجنة إلى قومٍ من أهل النار؛ فيقولون: ما أدخلكم النار؟! وإنما دخلنا الجنةَ بفضل تأديبكم وتعليمكم! فيقولون: إنا كنا نأمركم بالخير ولا نفعله).



الفصل الثامن

التعامل الحكيم مع المشروع بدايةً وانتهاءً

إذا كنا واقعيين، وابتعدنا عن الغرور والمكابرة، فسيُقر كلُّ فردٍ منا:

أولاً: بـ(القصور).

ثانياً: بـ(التقصير).

وذاك يعني وقوعنا في (الخطأ)، وليس ذلك عيباً في حد نفسه. ولكن العيبَ ـ كل العيب ـ في (الإصرار) على الخطأ، وفي المكابرة في الإقرار بحصوله؛ لأنهما سيحُولان بيننا وبين مواصلة السعي في طريق الكمال الحقيقي.

وإن من أخطر ما يصيب الإنسانَ ـ في سيره التربوي ـ هو أن يفتقد الحكمةَ والبصيرةَ في التعامل مع (أخطائه).

والحكمةُ والبصيرةُ تقضيان:

ـ أن يتحلى الإنسانُ ـ الساعي نحو الكمال، والسائر في الصراط المستقيم ـ بالتحفظ والتحرز عن كل ما من شأنه النأي به عن ربه عز اسمه، فيفتقد التقوى؛ في قوله أو في فعله.

ـ أن يملك البصيرةَ بما ينبغي أن يفعل، وبكيفية التخلص من تبعات الخطأ؛ إذا وقع فيه.

وإن من المهم؛ لمعالجة أي مشكلة؛ صغرت أو كبرت، أن نعرف أعراضها للبحث عن أسبابها وجذورها؛ فالعَرَض غير المرض.

لذلك، ينتقل النصُّ النبويُّ ـ بعد الحديث عن العلم ـ إلى الحديث عن تبيين المبدأ الفكري الأساس؛ الذي ينبغي للمسلم أن يجعله قاعدةً ينطلق منها في القبول والرفض، والحب والكره.

وهذا الأساس يتمثل في (التوحيد)، كما بيَّناه في البحوث الأولى لهذا الكتاب. وهذا الأساس يعني أن ثمة حاكماً هو الله، ومحكوماً هو العبد.

إن في عنق العبد سلسلةً من الحقوق والالتزامات تجاه خالقه ومولاه، وعلى العبد أن يعرفها أولاً، ويراعيها في سلوكياته ثانياً ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام/ ١٦٢].

والعبد إذا لم يتعرف على تلك الحقوق، أو لم يراعِها، فقد يقع في مطبٍّ، أو مطباتٍ، تكون خسائرُهُ فيها كبيرةً؛ حيث يكون مسؤولاً أمام الله تعالى.

وهنا يُثار سؤال مفاده:

هل من الممكن أن يقوم العبدُ بجميع حقوق الله؟

الجواب: بالتأكيد لا.

والسبب في ذلك أن حقوق الله؛ حسب ما يبينه هذا المقطع من الوصية الشريفة ﷺ، تنبع من نعمه على العباد، ولَما كانت هذه النعمُ تفوق حدَّ الإحصاء؛ كما يفيده قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل/ ١٨].

ولما كانت هذه النعمُ تغطي جميعَ احتياجات الإنسان؛ التي يعرفها والتي لا يعرفها، كما يفيده قوله تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم/ ٣٤]. وإذا عرفنا ـ مضافاً إلى ذلك ـ أن كلَّ ما نرفل فيه من نعم، وما نتوقاه من الشرور، إنما هي عطايا من الله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣]. إذا عرفنا كلَّ ذلك تبين لنا حجمُ حقوق الله علينا، وأن لا حقَّ لأحدٍ غيره في أعناقنا.

ولعل هذا ـ وأشياء أخرى ـ هي السرُّ وراء قوله ﷺ لأبي ذر (رضوان الله عليه):

● **[الفقرة/ ٢٤]:**

(يا أبا ذر، إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله (عز وجل) أكثر من أن يحصيها العباد).

وعليه، فليس متاحاً لأيٍّ أحدٍ من الخلق أن يؤدي جميعَ حقوق الله تعالى.

ولنا نتساءل ـ هنا ـ بالقول:

هل يعني ذلك أن لا نقوم بشيءٍ أداء لبعض تلك الحقوق على أقل تقدير؟

فيأتينا الجواب النبوي، بالقول:

(ولكن أمسُوا تائبين، وأصبِحوا تائبين).

ويمكن أن نضيف: إن هذا التأكيد على التوبة ناشئٌ من أن التوبة، التي تعني ـ هنا ـ: الرجوع إلى الله، تفيد تراجعَ الخاطئ؛ وجميعنا خطّاؤون إلا مَن عصم الله، إلى بارئه وولي نعمته. في عمليةٍ مفادها تصحيح المسار المرة تلو المرة، على أن يستوعب ذلك النهار والمساء.

وبعبارة أخرى: أن يكون الإنسان على ذُكر دائم من ربه؛ لئلا يكون من الغافلين.

فالواجب علينا ـ إذاً ـ أن نسعى قدر استطاعتنا في معرفة حقوق الخالق؛ والتي ـ بدورها ـ تكشف لنا ملامحَ الصراط المستقيم، وأن نسعى ـ ثانياً ـ في مراعاتها على مستوى العزم والسلوك معاً، وأن نسعى ـ ثالثاً ـ في تدارك ما نقع فيه من تقصير في هذا السبيل بالندم على التقصير والعزم على التصحيح.

وهذا هو معنى: أن نصبح تائبين، ونمسي تائبين.

وبطبيعة الحال، فإن هذا مقامٌ رفيعٌ؛ له متطلباته ومستلزماته، وله أيضاً نتائجه وثمراته، ولا يُوفَّق له إلا الموفَّقون؛ ممن جاهد في الله وهداه.

ويناسب المقامَ أن ننقل روايةً جليلةً؛ ترتبط بما نحن فيه، بيِّن فيها بعضُ الشروط واللوازم؛ التي لا بد منها في مثل ما نحن بصدد بيانه:

قال كميل بن زياد (رضوان الله عليه): سألتُ أميرَ المؤمنين عليه السلام عن قواعد الإسلام ما هي؟ فقال:

قواعد الإسلام سبعة:

فأولها: العقل، وعليه بني الصبر.

والثاني: صون العرض، وصدق اللهجة.

والثالثة: تلاوة القرآن على جهته.

والرابعة: الحب في الله، والبغض في الله.

والخامسة: حق آل محمد صلى الله عليه وآله، ومعرفة ولايتهم.

والسادسة: حق الإخوان، والمحاماة عليهم.

والسابعة: مجاورة الناس بالحسنى.

قلت: يا أمير المؤمنين! العبدُ يصيب الذنبَ؛ فيستغفر الله منه، فما حدُّ الاستغفار؟

قال: يا ابن زياد التوبة.

قلت: بس؟

قال: لا.

قلت: فكيف؟

قال: إن العبد إذا أصاب ذنباً، يقول: استغفر الله بالتحريك.

قلت: وما التحريك؟

قال: الشفتان واللسان، يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة.

قلت: وما الحقيقة؟

قال: تصديق في القلب، وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه.

قال كميل: فإذا فعلت ذلك فأنا من المستغفرين؟

قال: لا.

قال كميل: فكيف ذاك؟

قال: لأنك لم تبلغ إلى الأصل بعد.

قال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟

قال: الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه، وهي أول درجة العابدين.

وترك الذنب والاستغفار اسم واقع لمعان ست[ة]:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود أبداً.

والثالث: أن تؤدي حقوق المخلوقين التي بينك وبينهم.

والرابع: أن تؤدي حق الله في كل فرض.

والخامس: أن تذيب اللحم الذي نبت على السحت والحرام، حتى يرجع الجلد إلى عظمه، ثم تنشئ فيما بينهما لحماً جديداً.

والسادس: أن تذيق البدن ألم الطاعات كما أذقته لذات المعاصي)[١].

---

(١) الحراني، ابن شعبة (ق ٤)، تحف العقول، باب ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام.



الفصل التاسع

عواقب الأعمال

من التعاليم ـ التي اشتملت عليها هذه الوصيةُ ـ هو التأكيدُ على (بعد النظر). ومن تحلى بهذه الخصلة لزمه مراعاة عاقبة العمل قبل تنفيذه، فإن كان خيراً اختاره، وإن كان شراً بعُد عنه، ولزمه ـ مضافاً إلى ذلك ـ توفيرُ ما يلزمه للنجاح، واستثمارُ ما هو متاحٌ بأفضل صورةٍ.

فلا يصح للمؤمن ـ وهو الساعي دائماً نحو الكمال ـ أن يقصُر همَّته على التخطيط لمدى قصيرٍ. فالناجحون؛ في أي مجال علمي أو عملي، إنما حظوا بالنجاح لأنهم خططوا بشكلٍ جيدٍ، ونفذوا خططهم بشكلٍ جيدٍ أيضاً.

قواعد التخطيط:

للتخطيط السليم قواعد يجب مراعاتها، ومنها:

١ ـ أن نكون على علمٍ بما نملكه من خياراتٍ. ففرقٌ كبيرٌ: بين مَن تتعدد خياراته، وبين مَن لا يملك سوى خيارٍ واحدٍ.

٢ ـ أن نكون على علم بالفترة الزمنية التي نحتاجها أو كُلِّفنا بأداء ما طُلب منا فيها. فإنها إذا كانت قصيرةً فسيناسبها خططٌ معينةٌ، تختلف عنها إذا كانت الفترةُ طويلةً.

٣ ـ أن نضع في حسباننا حجمَ أرصدتنا المطلوبة، أو المتاحة. ففرقٌ كبيرٌ بين أن تكون الأرصدةُ كبيرةً، وبين أن تكون متواضعةً؛ لأن ما هو متاحٌ لصاحب

رأس المال الكبير ـ من فرص ـ ليس مماثلاً لِما هو متاحٌ لصاحب رأس المال القليل.

٤ ـ أن نتنبه إلى أن ثمة بوناً شاسعاً بين أن تكون أنت المتحكمَ في عملك، وبين أن تكون تحت مسؤول يراقبك. فقد تختار أن تنجز عملك، أو لا تنجزه، إذا كنت أنتَ المسؤول، وليس الحالُ كذلك لو كان فوقك مسؤولٌ حريصٌ على متابعة ما تقوم به.

٥ ـ إن من الضروري أن تُلاحَظ المهلة الزمنية المتاحة لنا كعاملين؛ ننتظر أن نُكافأ على أعمالنا؛ حسنةً كانت أو مسيئةً، تحكمنا ولا نحكمها، بل ولا نعلم متى تُسلب منا.

٦ ـ لا يساوي المنصفون بين مَن ينجز عمله ومَن لا ينجز، وبين مَن يحسن عمله ومَن لا يحسن.

وقد جمع كلَّ ذلك قولُ الرسول ﷺ في هذا المقطع من الوصية التربوية الرائعة، فقال:

● [الفقرة/ ٢٥]:

(يا أبا ذر! إنكم ـ في ممر الليل والنهار ـ:
أ ـ في آجال منقوصة
ب ـ وأعمال محفوظة
جـ ـ والموت يأتي بغتة
فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبةً، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارعٍ مثل ما زرع).

فالنبي ﷺ يضع أمامنا: ثلاثة تحديات، ونتيجةً حتميةً. فمن أحسن التخطيط، والتنفيذ، حسنت نتيجتُه وعاقبتُه، ومن أساء في ذلك حصد ما يناسب ذلك.

أما التحديات الثلاثة فهي: الأجل المنقوص، والعمل المحفوظ، وفجاءة الموت.

١ ـ تحدي الأجل المنقوص

الآجال جمع (الأجل). وهي مفردة إذا أطلقت:

أ ـ قد يراد بها مطلق المدة.

ب ـ قد يراد بها عمر الإنسان.

ج ـ قد يراد بها الموت.

والمقصود منها ـ هنا ـ الأول.

ومعنى الجملة ـ في الوصية ـ أن على الإنسان أن يتنبَّه إلى أن أجله؛ أي عمره، يتناقص فهو مع كلِّ نفسٍ يتنفسه يفقد جزءاً من هذا الأجل. وبذلك تكون فرصُهُ وحظوظُهُ أقلَّ كلما تقدَّم به العمر.

وعليه، فإن الإنسان ـ السائر على الصراط المستقيم ـ يشعر بأنه في سباقٍ مع الزمن، يبذل جهدَه في حسنِ استثمارِهِ؛ حتى لا يُبتلى بمقولة ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون/ ٩٩، ١٠٠]، فيكون الجواب الحاسم هو ﴿كَلَّآۚ﴾ [المؤمنون/ ١٠٠].

٢ ـ تحدي العمل المحفوظ

العمل هو جميع ما يصدر من الإنسان؛ من: قول، أو فعل، أو مشاعر ـ حسنةً، أو قبيحةً ـ.

وهذه الأعمالُ ـ بأجمعها ـ مسجلةٌ محفوظةٌ عند الله تعالى في ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف/ ٤٩]. يتولى القيامَ بهذا التسجيل والحفظ؛ وبأمرٍ من الله سبحانه، ملائكةٌ جاء وصفهم بقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار/ ١٠ ـ ١٢]. وقال تعالى ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ٥٣﴾ [القمر/ ٥٢، ٥٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **فاتقوا الله؛ الذي أنتم بعينه،**

ونواصيكم بيده، وتقلُّبُكم في قبضته. وإن أسررتم علِمَه، وإن أعلنتُم كَتَبه. قد وكَّل بذلك حفظةً كراماً؛ لا يُسقِطون حقاً، ولا يُثبِتون باطلاً)[١].

ومن كان هذا حاله، والله مراقبه، والملائكة الشهود عليه، فهو في تحدٍّ أن يكون من المحسنين؛ إن هو أراد أن يكون منهم، ولن يكون كذلك دون السير على الصراط المستقيم والثبات عليه.

٣ ـ تحدي فجاءة الموت

الموت هو: الحد الفاصل بين الحياة الدنيوية والآخرة. وذلك أن الله تعالى خلق الإنسانَ من أجل أن يبقى على هذه الأرضِ لأجلٍ مسمى، وكُلِّف بأن يكون من المهتدين؛ عبر التزامه بأوامر الله وتجنب نواهيه.

ومن حكمة الله تعالى ـ ولطفه أيضاً ـ أنه أخفى هذا الحدَّ الفاصلَ؛ أي الموت. فلا يعلم أحدٌ متى يموت؟ ولا أين يموت؟ كما لا يختار متى يخلق؟ وأين يخلق؟ وممن يخلق؟

وإن من نافلة القول: التأكيدَ على أن هذا الموتَ مجهولٌ توقيتُهُ بالنسبة للناس، لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى الله تعالى.

* قال عز اسمه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٥].

* وقال تعالى ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح/ ٤].

ومن خفي عليه أوانُ موته فهو في تحدٍّ؛ لا يسوغ معه التراخي في التزام الصراط المستقيم؛ لأنه إن تراخى فقد يحين أجله وهو في حالٍ غير مرْضيٍّ.

هذه هي التحديات الثلاثة التي مَن وُفق في اجتيازها ـ بنجاح ـ فسيحصد سروراً وخيراً، ومن أخفق فيها فسيحصد ندماً وأسى **(ولكل زارع ما زرع)**.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.



الفصل العاشر

التناغم وسنن الكون

بَنَى الله كوننا ـ الذي نعيش فيه ـ على سلسلةٍ من قوانين صارمةٍ؛ تتحكم في حركته، ولا يشذ منها شاذٌ. والمطلوب منا أمران:

١ ـ أن نستوعب هذه القوانين ـ بما هو مقدورٌ لنا ـ.

٢ ـ أن نكيِّف نشاطنا على وِفقها، على الوجه المرْضِيِّ عند الله.

فنجنِّب ـ بذلك ـ أنفسَنا التخبطَ في التعامل مع ما نريد وما ينفعنا؛ بأن نسعى نحو أوهامٍ وسرابٍ، فنقدِم حيث ينبغي أن نحجِم، ونحجِم حيث ينبغي أن نقدِم، أو نقدِّم ماً يجب تأخيرُهُ، ونؤخر ما يجب تقديمُهُ، ونحو ذلك من وجوه التخبط.

وفي بيان هذه الحقيقة قال النبي ﷺ:

● **[الفقرة/ ٢٦]:**

(يا أبا ذر! لا يسبق بطيءٌ بحظِّهِ، ولا يدرك حريصٌ ما لم يُقدَّر له، ومَن أُعطي خيراً فالله (عز وجل) أعطاه، ومن وُقِي شراً فإن الله وقاه).

ولنقف عند بعض القوانين والسنن؛ كما جاءت في الفقرة:

أولاً: قانون الرزق

الرزق ـ على ما في الصحاح ـ: ما ينتفَع به، والعطاء. وقد يقيد بوقت ـ كما في مقاييس اللغة ـ.

ويجمع على (أرزاق). ويمكن تقسيمها باعتبارات متعددة.

فبعض الاعتبارات تقسَّم إلى:

١ ـ ظاهرة للأبدان؛ كالأقوات.

٢ ـ وباطنة للقلوب والنفوس؛ كالمعارف والعلوم[(١)].

وباعتبار آخر يمكن تقسيمها إلى نوعين:

أ ـ رزقٌ في الحد الأدنى؛ وهو ما يسمى بالرزق المحتوم.

وهذا رزقٌ مقسومٌ ومحتومٌ للجميع؛ أعني: كل كائن حيٍّ. فلا فرق في هذا الرزق بين ذكي ولا غبي، ولا بين كسول ونشيط، ولا بين صغير ولا كبير...؛ لأن هذا الرزق مرتبط بـ(الحياة). فما دام الكائنُ حياً فله رزقه؛ من: هواء، وأكل، وشرب، وسائر ما تتقوم به حياته.

قال تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود/ ٦].

ب ـ رزق في ما هو فوق الحد الأدنى

وهنا يتفاوت الناس؛ فالنشاطُ سببٌ يوفر لصاحبه رزقاً إضافياً؛ لا يناله بغير النشاط. وحسنُ التدبير سببٌ آخر؛ يوفر لصاحبه رزقاً يفوق ما هو مقدَّر له من رزق في الحد الأدنى.

ولمزيد التوضيح والبرهنة نقف على النصوص التالية:

الأول: الشيخ المفيد في المقنعة، قال: قال الصادق عليه السلام: **الرزق مقسوم على ضربين**:

أحدهما: واصلٌ إلى صاحبه؛ وإن لم يطلبه.

والآخر: معلَّق بطلبه.

فالذي قُسِم للعبد ـ على كلِّ حالٍ ـ آتيه؛ وإن لم يسعَ له، والذي قُسِم له ـ

(١) ابن الأثير، مجد الدين (ت٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، ص٢١٩، مادة (رزق).

بالسعي ـ فينبغي له أن يلتمسه من وجوهه؛ وهو ما أحله الله له دون غيره. فإنْ طَلَبَه من جهة الحرام فوجده حسب عليه برزقه وحوسب به)[١].

الثاني: عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، أنه قال: **إن من اليقين أن لا تُرضُوا الناسَ بسخط الله، ولا تَلوموهم على ما لم يُؤتِكم الله من فضله، فإن الرزقَ لا يسوقه حرصُ حريصٍ، ولا يرده كرهُ كارهٍ، ولو أن أحدَكم فرَّ من رزقِهِ كما يفِر من الموتِ لأدركه كما يدركه الموتُ)**[٢].

الثالث: عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **لو كان العبدُ في جحر لأتاه رزقه؛ فأجمِلوا في الطلب)**[٣].

الرابع: قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: **لا تجاهد الطلبَ جهاد الغالب، ولا تتكِل على القدر اتكالَ المستسلِم؛ فإن ابتغاءَ الفضل من السُّنة، والإجمالَ في الطلب من العفة، وليست العفةُ بدافعةٍ رزقاً، ولا الحرصُ بجالبٍ فضلاً؛ فإن الرزقَ مقسومٌ، واستعمالَ الحرص استعمالُ المآثم)**[٤].

الخامس: قال الإمام الحسن عليه السلام: **من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد حرصاً على الدنيا لم يزدد منها إلا بعداً وازداد هو من الله بغضاً.**

والحريص الجاهد، والزاهد القانع، كلاهما مستوفٍ أكلَهُ، غير منقوصٍ من رزقه شيئاً. فعلامَ التهافتُ في النار؟ والخيرُ كلُّه في صبرِ ساعةٍ واحدةٍ؛ تورِث راحةً طويلةً، وسعادةً كثيرةً.

---

(١) المقنعة للمفيد، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٧، ص٤٧، كتاب التجارة، الباب ١٢ ـ استحباب الإجمال في طلب الرزق...، الحديث ٩.

(٢) مجالس المفيد، وعنه: بحار الأنوار، ج٦٧، ص١٧٢، الباب ٥٢ ـ اليقين والصبر على الشدايد في الدين، الحديث ٢٢.

(٣) الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٤، ص٤٦، كتاب التجارة، أبواب مقدماتها، الباب ١٢ ـ استحباب الإجمال في طلب الرزق..، الحديث ٥.

(٤) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٠٦، (باب مواعظ الحسن بن علي عليهما السلام)، كلمات قصار منه عليه السلام، الحديث ٤.

والناس طالبان: طالب يطلب الدنيا حتى إذا أدركها هلك وطالب يطلب الآخرة حتى إذا أدركها فهو ناجٍ فائزٌ)[1].

فالمعرفة بهذه القوانين؛ وأشباهها، إذا ترسخت في النفس انعكست على السلوك، فتتلاشى عوامل الحرص والجشع...، وتتآكل أسباب العدوان والظلم...، وتتأكد في الروح مشاعر الاطمئنان والراحة.

ثانياً: قانون الخير والشر

قانون الخير والشر هذا هو ـ كسابقه ـ محكومٌ بمعادلة صارمة مفادها ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل/ ٥٣].

ونعني بـ(الخير): العطاء المفيد. ويقابله (الشر) الذي هو: كل نفعٍ فات؛ سواء صُحب بضرر، أو وقف عند حدود فوت المنافع.

ويجب أن يضاف إلى ما ألمحنا إليه من قوانين الإشارةُ إلى أن طرفي هذه المعادلة هما:

١ ـ (الله)

٢ ـ (المخلوق)

وعند الموازنة بينهما نجد أن (الله) هو الغني المطلق؛ الذي لا يحتاج إلى شيءٍ، ولا يعجز عن شيءٍ. في حين أن الطرف الآخر؛ أعني (المخلوق)، هو الفقير إلى الله الغني في كل شيء؛ فهو لا يدفع عن نفسه ضراً، ولا يجلب لها نفعاً.

* قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر/ ١٥].

* وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر/ ٤٤].

---

(١) إرشاد القلوب للديلمي. وعنه: موسوعة كلمات الإمام الحسن عليه السلام، لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.

والنتيجة المنطقية للتبصُّر في هذه المعادلة وتلكم القوانين، أن يكون العبدُ حذراً ـ أشد الحذر ـ من مخالفة القوانين؛ لئلا يسخط عليه الخالق تعالى.

ومن ثَمَّ، فإن النبي ﷺ؛ وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، يوصي بما ينبغي أن يوضع بعين الاعتبار من جهةٍ، ويكشف عن واقع السنن من جهةٍ أخرى، بقوله:

(يا أبا ذر! لا يسبق بطيءٌ بحظِّهِ، ولا يدرك حريصٌ ما لم يُقدَّر له، ومَن أُعطي خيراً فالله (عز وجل) أعطاه، ومن وُقِي شراً فإن الله وقاه).

ولعل من أهم ثمرات العمل بهذه القناعات هو: أن يكون الإنسان على درجةٍ عاليةٍ من الوعي بنفسه وبواقعه وبالكون الذي هو فيه؛ مما سيدفعه إلى التناغم مع الكون والحياة لا التصادم مع السنن والقوانين.

والعملُ بواقعية تحول بينه وبين (الظلم والعدوان)، وسيكون في أمنٍ وسلامٍ؛ مع القريب والبعيد، ومع الصديق والعدو.



الفصل الحادي عشر

التفقه والثبات

● [الفقرة/ ٢٧]:

(يا أبا ذر! المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة).

إن من أخطر ما يصيب الإنسان ـ في سيره التربوي ـ أن يفتقد الحكمةَ والبصيرةَ في التعامل مع (أخطائه).

والحكمة والبصيرة تقضيان بأمورٍ، منها:

١ ـ أن يتحلى الإنسان ـ الساعي نحو الكمال والسائر على الصراط المستقيم ـ بالتحفظ والتحرز عن كلِّ ما من شأنه النأيُ به عن ربه عز اسمه، فيفتقد ـ بسبب نأيه وبُعده ـ التقوى؛ في قوله أو في فعله، أو فيهما معاً.

٢ ـ أن يتحلى ـ قبل ذلك ـ بالقاعدة التي على أساسها يمكنه أن يتحرز ويتقي؛ أعني: العلم، والفقه.

ومؤدى هذا وذاك: أن يملك البصيرة بما ينبغي أن يفعل، وما لا ينبغي أن يفعل، من جهةٍ، وبكيفية التخلص من تبعات الخطأ إذا وقع؛ بفعل ما لا ينبغي تركه، أو ترك ما ينبغي فعله، أو بالإخلال بهذا أو ذاك، أو بهما معاً، من جهةٍ أخرى.

والإنسان ـ إذا كان من أهل التقوى ـ سيحظى بالفوز على دواعي التخلف في نفسه، وسيكون حريصاً على تفجير طاقاته دائماً؛ ليكون مثلُهُ الأعلى في سعيه

التكاملي هو (الله)؛ الذي يتمثل فيه الجمالُ والجلالُ؛ فـ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل/ ٦٠].

لذلك، فإن هذا الإنسانَ الصالحَ سيدٌ على نفسه، وساعٍ على الدوام بأن يحكِّم عقله ويستضيءَ بنوره.

ومتى وُفِّق الإنسانُ إلى التغلب على نفسه بتقواه، فسيتبعه نجاحٌ آخر هو صنوه وتوأمه؛ أعني: احترام الآخرين له بالمستوى الذي يكون فيه المستشار والآمر والناهي...؛ لِما لمسوه فيه من: عقلانية، وحكمة، وبصيرة، ونزاهة، وموضوعية...

ومن ثم، قال النبي ﷺ:

(يا أبا ذر! المتقون سادةٌ).

ويضيف لفئةٍ من الناس امتيازاً آخر، وهذه الفئة هي مَن يحملون عنوان (الفقهاء).

مصطلح الفقيه في الأحاديث

ليس المراد من (الفقهاء) ـ هنا ـ ما اصطلحنا عليه؛ عبر تاريخنا العلمي الإسلامي، بـ(المجتهدين)؛ الذين يستنبطون الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية[1]. بل المراد من (الفقهاء) ـ هنا ـ خصوص أهل البصيرة والمعرفة؛ العاملين بما علموا.

---

(١) الفقه ـ بالمعنى المذكور في المتن ـ مصطلحٌ حادثٌ بعد عصر النص، ولا تلازمَ بينه وبين ما نحن بصدده؛ فإن حملة الفقه ـ بالمعنى المستحدث، والمتداول في الحواضر العلمية ـ فيهم صالحون سائرون على الصراط المستقيم، وفيهم دون ذلك بكثيرٍ، بل فيهم منحرفون.

وقد أشرنا إلى هذا ـ سابقاً ـ في فقرة أنواع السلطة من الفصل السابع من هذا الكتاب؛ فراجع.

وتتميماً للفائدة نضيف هنا ما يلي:

قال المازندراني: الفقه ـ في اللغة ـ الفهم، ثم خصَّ بعلم الشريعة مطلقاً، وقيل: ثم خُصَّ بعلم الفروع) شرح أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٦.

وحكى عن الشيخ البهائي قوله ـ في مثل المقام ـ: =

وفي حديثٍ نبويٍّ دقيقٍ دلالةٌ على ما قلناه؛ من أن مصطلح (الفقيه) في الاستعمال النبوي يختلف عمّا درجنا على استعماله. جاء فيه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ ليعلمه القرآن فانتهى إلى قوله ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة/ ٧ ـ ٨]، فقال [أي الرجل]: يكفيني هذا، وانصرف .فقال رسول الله ﷺ: **انصرف الرجل وهو فقيه**)[1].

فما الذي فقِهَهُ هذا الرجل؟

الجواب: إنه ـ والله تعالى العالم ـ معرفته بالمساءلة الربانية من جهةٍ، وضرورة استعداده لتنظيم حياته على أساس ذلك من جهةٍ أخرى.

وقد أطلق النبي ﷺ ـ في حديثٍ آخر ـ مصطلح (الفقهاء) على جماعةٍ ليسوا مجتهدين؛ بالمعنى المتداول عندنا اليوم. وإنما صح وصفُهم بالفقهاء بلحاظ السلوك العملي الذي كانوا عليه؛ من تقوى وورع؛ أي: إنهم (علموا) حق العلم طبيعة التعاليم النبوية وأهدافها القريبة والبعيدة، و(عملوا) بمقتضى ما علموا، ونظَّموا أقوالهم وأفعالهم على أساس ذلك.

وروى هذا الخبرَ الإمامُ الرضا عن آبائه عليهم السلام، وفيه أنه: **رُفِع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوم في بعض غزواته فقال: مَن القوم؟ فقالوا: مؤمنون يا رسول الله! قال: وما بلغ من إيمانكم؟ قالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضاء. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) حلماء، علماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء...**)[2].

= ليس المراد بالفقه الفهم، ولا العلم بالأحكام الشرعية العملية عن أدلّتها التفصيلية؛ فإنه معنى مستحدثٌ، بل المراد به البصيرة في أمر الدين. والفقه أكثر ما يأتي ـ في الحديث ـ بهذا المعنى، والفقيه ـ فيه أيضاً ـ هو صاحب هذه البصيرة، وإليها أشار النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله: **لا يفقه العبدُ كلَّ الفقه حتى يمقت الناسَ في ذات الله، ويرى للقرآن وجوهاً كثيرة، ثم يقبِل على نفسه فيكون لها أشدَّ مقتاً** [شرح أصول الكافي، ج٢، ص٢٩].

وسيأتي ـ لاحقاً ـ مزيدُ توضيحٍ لمصطلح الفقه والفقيه؛ في الفصل ٢٧ من الكتاب، فانتظر.

(١) البحراني، الشيخ ميثم (ت٦٧٩ هـ)، شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢١٦.

(٢) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٨، كتاب الإيمان والكفر، باب خصال المؤمن، الحديث ٤.

وفي حديثٍ ثالثٍ قال رسول الله ﷺ: **من فقه الرجل قلة كلامه في ما لا يعنيه)**[١]. بما يتأكد معه أن (الفقاهة) في المصطلح الشرعي؛ في بعض مراتبها على الأقل، ليست مجرد العلم، وإنما هي البصيرة المؤثرة في السلوك. فقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام: **من علامات الفقه: الحلم، والصمت)**[٢].

وإذا كان الإنسان فقيهاً ـ بهذا المعنى ـ فسيحظى باحترام الناس إلى درجة إعلائهم لشأنه، وتقديمهم إياه دائماً؛ وبخاصة في الشدائد. وهو ـ بهذا ـ سيتبوأ موقع (القيادة)؛ التي تجعله الأكثر تميزاً بينهم، وصاحب الرأي فيهم، والمقدَّم بينهم.

ولا عجب؛ فهو: الخائف من ربه، المراعِي حقوقَه، وهو العادل بين الناس، وهو المحب لهم، والصابر في نفسه، والشاكر على ما يُسدَى إليه من معروف....

ومَن كان هذا شأنَه فلن يكون ـ بطبيعة الحال ـ في المؤخرة، بل في المقدمة، وهذا هو معنى القيادة. فقال ﷺ:

(والفقهاءُ قادةٌ).

فكيف يجب أن تكون علاقتنا بـ(الفقهاء)؟

إذا وضعنا بعين الاعتبار أن (الفقيه)؛ بالمصطلح الذي قدمناه، هو العامل على بصيرةٍ من جهةٍ، والمحسنُ في عمله من جهةٍ ثانيةٍ، والمؤسِّس أعمالَه على (العلم) من جهةٍ ثالثةٍ؛ فإن المنطق يفرض أن تكون علاقتنا بهم علاقةَ استثمار وتوظيف، لا علاقة تفريط وتضييع.

واستثمار وجود (الفقيه) يكون عبر: الاحتكاك به، والعيش معه؛ للتزود من وصاياه وتعاليمه التي ينقلها إلى الآخر (المتعلم)؛ بقوله تارةً، وبفعله تارةً أخرى.

فهذا المؤمن الفقيه قد يكون عاملاً عالماً؛ يرتقي منبراً، أو يؤلف كتاباً، أو

(١) أمالي الطوسي، وعنه: بحار الأنوار، ج٢، ص٥٥، كتاب العلم، الباب ١١ ـ صفات العلماء وأصنافهم، الحديث ٢٨.

(٢) أصول الكافي، ج١، ص٣٦، كتاب فضل العلم، باب صفة العلماء، الحديث ٤.

يكتب مقالةً... وعلينا في هذه الصورة أن نتزود منه، وننهل من علمه؛ بالاستماع والقراءة.

وقد يكون عاملاً؛ يترجم فقهه باستقامته في سلوكه، مع ربه ومع الناس ومع نفسه. وعلينا حينئذٍ أن نكتسب الاستقامة عبر التأسي بأفعاله وأقواله.

ولذلك، يقول الرسول ﷺ:

(ومجالستهم زيادةٌ).

وما أحوج المتربين؛ من أهل الصراط المستقيم، إلى مَن يجسد المبادئ التربوية في نفسه. وقد يكون ذلك أكثر تأثيراً من دفع مَن نسعى إلى تربيته نحو القراءة للمواد التربوية.

فقد روي أن نبيّنا محمداً ﷺ، قال ـ في حديثٍ ـ:

قال الحواريون لعيسى عليه السلام: يا روح الله! مَن نجالس؟ قال: مَن يذكركم الله رؤيتُهُ، ويزيد في عملكم منطقُهُ، ويُرغِّبكم في الآخرة عملُهُ)[1].

وروي أن لقمان قال لابنه:

يا بني! اخترِ المجالسَ على عينك؛ فإن رأيت قوما يذكرون الله عزّ وجلّ فاجلس معهم فإن تكن عالماً نفعك علمك، وإن تكن جاهلا علموك، ولعل الله أن يظلهم برحمته فيعمك معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإن تكن عالماً لم ينفعك علمك، وإن كنت جاهلاً يزيدوك جهلاً، ولعل الله أن يظلهم بعقوبةٍ فيعمك معهم)[2].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج١، ص٣٩، كتاب فضل العلم، باب مجالسة العلماء وصحبتهم، الحديث ٣.
وراوه البيهقي في شعب الإيمان، ج١٢، ص٤٨، برقم (٨٩٩٩).

(٢) المصدر السابق، الحديث ١.
ورواه ـ أيضاً ـ كلٌّ من: الدارمي في سننه، باب التوبيخ لمن طلب العلم لغير الله، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب ما روي عن لقمان الحكيم.

فالمطلوب ـ إذاً ـ مجالسة الفقهاء، وتوظيف ذلك في بناء الذات؛ بالتعرف على الخطأ، والسعي الحثيث في تجنبه، والتعرف على الحق، والاجتهاد في تطبيقه، واكتساب الفضائل، والتخلي عن الرذائل، وجعل ذلك كله طريقاً للوصول إلى الله تعالى.



الفصل الثاني عشر

المؤمن والإحساس المرهف

● [الفقرة/ ٢٨]:

(إن المؤمنَ ليرى ذنبه كأنه تحت صخرةٍ يخاف أن تقع عليه. وإن الكافر ليرى ذنبه كأنه ذباب مرَّ على أنفه).

يتفاوت الناس في أفعالهم وردود أفعالهم تجاه كل شيء. ومن ذلك تفاوتهم في (الإحساس)؛ ونعني به: الشعور بـ(تبعات الأفعال).

وما يفعله الناسُ؛ الصالحون منهم وغير الصالحين، ينبع من مبادئهم وأحاسيسهم، ويتحكم فيه ما يتحكم في أفعالهم عادةً.

فالمؤمنُ؛ وهو المنظِّم أعمالَه ـ جميعها ـ على أساس: إيمانه بـ(الله)، وحاكميته، ورقابته، ومساءلته، ومجازاته...، سيكون حريصاً ـ أشدَّ الحرص ـ على كسب رضا مولاه، من خلال:

أولاً: التعرف على ما يرضاه الله تعالى وما لا يرضاه.

ثانياً: العمل على تنفيذ ما أراد تعالى، وتجنب ما لا يرضاه.

ثالثاً: تجويد ذاك العمل؛ عبر التوفر على ما يجب التوفرُ عليه لنيل رضا الخالق، وأهم تلك الواجبات (الإخلاص).

هذا حال المؤمن أما غير المؤمن فهو في وادٍ آخرَ؛ حيث لا يعنيه ـ من قريبٍ ولا بعيدٍ ـ رضا الله سبحانه، ولا التعرفُ على ما هو حلالٌ أو حرامٌ في شرع الله.

وسيُبتلى؛ على مستوى الالتزام بأحكام الله تعالى، بالرخاوة. فهو بين الامتناع حيناً والعمل حيناً آخر، لكن في حدود ما تمليه عليه مبادئُهُ الشخصيةُ ومصالحه المادية أو العاجلة. وهذه المبادئ قد يختار معها غيرُ المؤمن ما يراه المؤمنُ حراماً يوجب سخطَ الله تعالى.

وحرصُ المؤمن على تحسين العمل لا يعني بالضرورة أن يكون ـ دائماً ـ مطيعاً لله سبحانه، بل قد يملي عليه ضعفُه وقلةُ وعيِه... أن يقع في (المحظور).

وهذا المحظور هو ما يُطلق عليه في العرف الشرعي: الذنب، والمعصية، والخطيئة، والسيئة. إلا أنه يسارع ـ بدافع إيمانه وتدينه ـ إلى الرجوع إلى الله تعالى بـ(التوبة). وسيعمل على عودته ـ بالطبع ـ إذا كان ممن يحرص على العمل بالآداب الشرعية من (المحاسبة) ونحوها.

قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠١]. وهو في تلك الحال يعيش ـ بطبيعة الحال ـ قلقاً لا يستقر معه؛ خجلاً من ربه، وخوفاً من أن يُرد من قِبَل الله فلا يُغفر له.

لذلك، قال رسول الله ﷺ:

(إن المؤمنَ ليرى ذنبه كأنه تحت صخرةٍ؛ يخاف أن تقع عليه).

والمؤمن ـ في ذلك ـ يطبق كياستَه، وفطنتَه، ونبلَه، وهذه خصالٌ وخلالٌ لا تسمح له أن يتراخى في (التوبة)، وإلا انهار السقفُ على رأسه؛ في مجازفة لا يرتضيها عاقلٌ لنفسه.

أما الكافر فعلى النقيض تماماً؛ إذ إن علاقته بربه قد تآكلت؛ حتى صار (جَحوداً) لكل ما أنعم عليه ربه؛ فلا هو معترفٌ بها، ولا هو حريصٌ على الاستزادة منها، ولا هو يعمل شكراً للمنعِم عليه بها.

والكافر ـ أيضاً ـ مستهترٌ وقحٌ؛ لا يراعي غيرَه؛ خالقاً كان الغير أو مخلوقاً. وقد جاء في الحديث **(إذا لم تستحِ فافعل ما شئت)**[1]. ويصف رسول الله ﷺ هذا الصنف من الناس؛ في هذه الوصية، بالقول:

---

(١) عوالي اللئالئ، وعنه: مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج٨، ص٤٦٦، الباب ٩٣ ـ=

(وإن الكافرَ ليرى ذنبَه كأنه ذبابٌ مرَّ على أنفه).

لذلك، يشكل الخوفُ من الله تعالى مفردةً من مفردات التمايز بين المؤمن وغيره. فالمؤمنُ ـ بسبب عمقِ معرفتِهِ بربِّهِ، وشدةِ خضوعِهِ له، وتذلُّلِه بين يديه ـ يسارع إلى الأوبة والتوبة؛ كلما وقع في خطأ أو خطيئة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠١].

وقد جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ـ في بيان قول الله عزّ وجلّ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن/ ٤٦] ـ أنه قال: **مَن علم أن الله يراه، ويسمع ما يقول، ويعلم ما يعمله[(١)]؛ من خيرٍ أو شرٍّ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقامَ ربِّهِ، ونهى النفسَ عن الهوى)**[(٢)].

وورد عنه عليه السلام: **إن من العبادة شدة الخوف من الله عزّ وجلّ. يقول الله عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾** [فاطر/ ٢٨]، **وقال جل ثناؤه ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾** [المائدة/ ٤٤]، **وقال تبارك وتعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾** [الطلاق/ ٢]. **قال** [الراوي]: **وقال أبو عبد الله عليه السلام: إن حبَّ الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب)**[(٣)].

معادلة الخوف:

لعلك تسأل ـ قارئي الكريم ـ عن السر في هذا القلق من المؤمن تجاه ذنوبه التي وقعت، وخشيته من الوقوع في مثلها.

وأجيبك بالقول: إن المؤمنَ يعلم أموراً؛ يترتب عليها نتيجةٌ يضعها دائماً بين ناظريه. وهذه الأمور يمكن تلخيصها ـ كما يلي ـ:

=استحباب الحياء، الحديث ٢٢؛ مصنف ابن أبي شيبة، باب ما ذكر في الحياء وما جاء فيه برقم (٢٥٣٤٨)؛ سنن أبي داوود، باب الحياء برقم (٤٧٩٧).

(١) في نسخة: ما يقوله ويفعله (هامش المخطوط).

(٢) أصول الكافي، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٥ ص٢١٩، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ١٤ ـ وجوب الخوف من الله، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٨.

الأمر الأول: أن لله تعالى قوانينَ حكمت هذا الكون ـ بذراته ومجراته ـ، فـ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف/ ٢١].

الأمر الثاني: أن إخلالَ الإنسان بهذه القوانين سيرجع عليه بالوبال. وهذا ما يؤكده القرآن في قول الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم/ ٤١].

الأمر الثالث: أن المخلوقَ عاجزٌ عن تغيير سنن الله تعالى. والتي منها أن فعلَ الخير يجر خيراً، وفعلَ الشر يجر شراً.

ومثالاً ـ على هذا الترابط ـ: ما جاء في وصف عباد الرحمن ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان/ ٦٨]، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون/ ٩].

الأمر الرابع: أن المؤمنَ حريصٌ على مصلحته العاجلة والآجلة، والناس جميعاً كذلك. قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات/ ٨].

الأمر الخامس: أنه كيِّسٌ، فطنٌ، حكيمٌ. قال تعالى ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة/ ٢٦٩].

النتيجة: عزمُ المؤمن على التناغم التام بين فعله وتلكم القوانين؛ عبر تكييف أفعاله وأقواله على وِفْقها، وسعيُهُ الجادُّ في ذلك، وخوفُهُ الشديدُ من تقصيره ومعاصيه؛ التي لا يدري ـ حين يُحاسَب عليها ـ هل يُعفَى عنه من تبعاتها أو لا يعفى؟

كل ذلك يفرض على المؤمن أن يسير على الصراط المستقيم، وفي ظله؛ يعمر قلبُهُ بالرجاء في رحمة الله، وبالقلق من سخطه.

* قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة/ ٢١٨].

* وقال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال/ ٢].

* وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد/ ٢٨].



الفصل الثالث عشر

اليقظة والغفلة

● [الفقرة/ ٢٩]:

(يا أبا ذر! إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلةً، والإثمَ عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبد شراً أنساه ذنوبه).

يتقلب الناس؛ بل الإنسان الواحد، بين حالتين متضادتين، تتواردان عليهم؛ والحالتان هما: (اليقظة)، و(الغفلة).

ونعني بـ(اليقظة): أن يكون الإنسان واعياً لِما يدور حوله، ولِما هو فيه، ولِما ينبغي أن يكون عليه[1].

ونعني بـ(الغفلة): أن يكون غيرَ واعٍ لذلك؛ كلِّه أو بعضِه[2].

وللحالتين المشار إليهما مراتبُ، كما أن لهما عواملَ وأسباباً، قد يكون صنعها ـ كلها أو بعضها ـ، أو تسبب فيها، الإنسانُ نفسُه. وقد تكون فرضت نفسَها عليه، بدون أن تخرجه من حد الاختيار؛ وإلا سقط تكليفه.

---

(١) قال في الصحاح، مادة (يقظ): رجلٌ يَقِظ ويَقُظ، أي متيقِّظ حذرٌ. وأيقظتُه من نومه، أي نبَّهته فَتَيَقَّظَ واستيقظ). وفي المعجم الوسيط (مادة (يقظ): رجل يقظ ذكي فطن نبيه).

(٢) قال في جمهرة اللغة، مادة (غفل): غَفَلَ الرجلُ عَن الشَّيْء يغفُل غُفولاً فَهُوَ غافل. وَرجل مغفَّل: لا فطنةَ لَهُ). وفي مجمل اللغة ومقاييس اللغة لابن فارس، مادة (غفل): ورجل غفل: لم يجرب الأمور).

ولكلٍّ من اليقظة والغفلة آثار ونتائج؛ تلقي بظلالها ـ الإيجابية أو السلبية ـ على حياة الإنسان.

المبحث الأول: عوامل اليقظة

إن من عوامل اليقظة: وعي المذنب بذنبه. حيث يتشاغل ـ إن كان تقياً ـ بالتخلص منه ومن آثاره. فيكون أصابه خيرٌ كثيرٌ.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ ـ في وصيته هذه ـ:

(يا أبا ذر! إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلةً، والإثمَ عليه ثقيلاً وبيلاً) [الفقرة/ ٢٩].

ولنا أن نتساءل: هل يريد الله الخيرَ لبعض العباد دون بعضٍ؟

والجواب ـ على ذلك ـ أن يقال:

إن الله أراد الخيرَ لجميع العباد، ولكن العباد ـ حيث إنهم يتفاوتون في الاستجابة لأسباب الخير ـ نجد بعضهم يحظى بخيرٍ، بينما يُحرَم منه آخرون! قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت/ ٦٩]. فهو عز اسمه (الرحمن الرحيم)؛ فعطاؤه واسعٌ وفضله عميمٌ، وهو الجواد الكريم، ولكن المشكلة تكمن في أن العباد الذين ﴿جَٰهَدُواْ﴾ لنيل الهداية هم بعضهم فقط، كما أنهم ليسوا ـ جميعاً ـ من ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ حتى يحظوا بمعيّة الله تعالى لهم.

وهذه المعيَّة، التي تعني ـ في بعض وجوهها ـ (التوفيق)، تتجلى في التفات العاصي إلى ذنوبه، ومدى خطورتها على مستقبله مع ربه، فنجده يبادر ـ بدون تلكؤ ـ إلى تنقية روحه ونفسه من شوائب المعاصي والذنوب؛ لعلمه أن الله طيب لا يقبل إلا الطيب.

فإذا أراد العبدُ لنفسه الخيرَ أناله الله الخيرَ؛ بأن يحسِّسه ثقلَ المعصية؛ التي تشده ـ بطبيعتها ـ إلى الأرض.

وأما إذا لم يُرد العبدُ لنفسه الخير فمآل ذلك أنه يريد لها الشرَّ؛ من حيث

يشعر أو لا يشعر، وسيحرم نفسه من توفيق الله ومعيته؛ بأن ينسى الله فينسيه الله نفسَه.

(وإذا أراد بعبد شراً أنساه ذنوبه) [الفقرة / ٢٩].

والمذنبُ إذا نسي ذنوبَه أهملها، وإذا أهملها عشعشت في باطن روحه، وإذا عشعشت فيها أفسدت جمالها الفطري، وستتشوه الروحُ برغبتها في القبيح، وسيندفع صاحبُها إلى عالم السوء والرذيلة، فإذا به يتقلَّب بين ذنبٍ وآخرَ، ومن إثمٍ إلى إثمٍ.

المبحث الثاني: كيف نستعظم المعصية؟

من أهم ما يجب استحضاره؛ في العملية التربوية، وفي العلاقة بالله تعالى، هو (النقاء والطهارة). وذلك عبر: ترك المعاصي، والتوبة منها، بل بتجنبها بالاستعانة بالله تعالى.

ولا يندفع الإنسانُ إلى ترك المعصية، والتوبة منها؛ إلا إذا وقف على أمرين اثنين:

الأول: طبيعة المعصية، وما يترتب عليها من مضاعفاتٍ سلبيةٍ.

الثاني: مقام الذات الإلهية، فالله تعالى هو وليُّ النعمة على الإنسان والمحسنُ إليه، وهو ـ أيضاً ـ شديدُ العقوبة على مَن عصاه.

ولو أردنا الموازنة بين الأمرين ـ من حيث تأثيرهما التربوي على الإنسان، والحؤول بينه وبين المعصية ـ لَما ترددنا في القول بأن الأمرَ الثانيَ؛ إذا تغلغل في النفس البشرية، هو أشدُّ تأثيراً من الأمر الأول.

والسبب في ذلك: أن إحاطتنا بالأمر الأول ـ أعني طبيعة المعصية ـ قد تُصنَّفُ عاملاً خارجياً، بينما يُصنف الأمر الثاني كعاملٍ داخليٍّ، وهذا ـ بطبيعته ـ أبلغُ تأثيراً من العامل الخارجي.

ومن هذا المنطلق، ننصت لمربينا رسول الله ﷺ؛ وهو يلقي على مسامعنا؛ من خلال وصيته لأبي ذر (رضوان الله عليه)، هذا المبدأ التربوي العظيم بقوله:

- [الفقرة/ ٣٠]:

(يا أبا ذر! لا تنظرْ إلى صِغَرِ الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عصيتَ)(١).

فقد تكون المعصية في ذاتها؛ ومن الزاوية التي نحيط بها، صغيرةً، ولكن المعصيَّ - وهو الله تعالى - كبيرٌ وليس صغيراً؛ بأي مقياسٍ. لذلك، فإن كلَّ مخالفةٍ لله تعالى تُحتسب تعدياً عليه، والعدوانُ على الله هو عدوانٌ أياً كان سببه، والعدوان على الله لا يكون إلا كبيراً(٢).

ولما كان المؤمنُ عميقَ الصلة بربه، شديدَ الملاحظة له، وشديد الخشية منه، فإنه يكون على أعلى درجات الاضطراب إذا وقع منه ذنب، أو خطيئة تطاول فيها على مولاه.

وفي ذلك يقول ﷺ:

---

(١) أورد هذه الفقرةَ الميرزا حسين النوري؛ في مستدرك وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١١، ص٣٣٠، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٤٠ - وجوب اجتناب الخطايا والذنوب، الحديث ١٦، وفي ج١١، ص٣٤٩، الباب ٤٣ - وجوب اجتناب المحقرات من الذنوب، الحديث ٨.

(٢) اختلف العلماء في تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى؛ ليس من غرض هذا الكتاب الخوض فيها، ولا تفصيلها، وإن كان مهماً الوقوف عليها، والتعرف إليها.
ونكتفي - هنا - بما جاء في الوصية المباركة؛ مورد الشرح، من أن ما يجدر بالسائر على الصراط المستقيم أن يضعه في حسبانه هو أن المعصية تُقاس بمدلولها تجاه الخالق عزّ وجلّ، وليس بما تمثله في ذاتها.
وبناءً على هذا، فكل معصية ينبغي عدها كبيرةً، وهذا الاعتداد بالغ التأثير في التربية الروحية؛ حتى لا نبتلى بما يقع فيه كثيرون حينما يسألون:
هل هذه المعصية من الكبائر أم من الصغائر؟!
وذلك للتهوين من شأن الصغائر! ولتسويغ الإقدام عليها!

● [الفقرة/ ٣١]:

(يا أبا ذر! إن المؤمنَ أشدُّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور؛ حين يُقذف به في شركه).

وهو ﷺ يقيس المؤمنَ بالعصفور يقع في شبكةِ مَن يصطاده فيرتكض؛ أي يضطرب، خوفاً مما ينتظره من مصيرٍ. والمؤمن يضطرب من الخطيئة أشدَّ من اضطراب العصفور في الشبكة.

المبحث الثالث: خشية الخيبة والهيبة

يلزمنا أن نختم هذا الفصل بالتنبيه إلى: أن الخشية التي نعهدها في أنفسنا تؤدي بنا ـ في الغالب ـ إلى الخيبة. والخيبةُ عاملٌ سلبيٌّ؛ قد يؤدي بصاحبه إلى العزلة النفسية، وقد يتطور إلى عزلةٍ فعليةٍ ينقطع فيها الخائب عن الناس؛ لسوء ظنه بهم، وفقدانه الثقةَ بنفسه.

أما خشية المؤمن ـ التي تعتمر في نفسه ـ فليست عاملاً سلبياً، بل إنها تتحول ـ عنده ـ إلى عاملٍ إيجابيٍّ كبيرٍ يدفعه نحو العمل الصالح؛ قولاً وفعلاً.

ولعل خيرَ ما يعطي مثالاً على ذلك هو قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون/ ٥٧ ـ ٦١]. و(من بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق؛ وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً، ومن عقابه آجلاً، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي)[1].

---

(١) الرازي، فخر الدين (ت٦٠٦ هـ)، التفسير الكبير، ج٢٣، ص٢٨٣، ذيل الآية المباركة.



الفصل الرابع عشر

آفة الازدواجية

● [الفقرة/ ٣٢]:

(يا أبا ذر! مَن وافق قولُه فعلَه فذاك الذي أصاب حظَّه، ومَن خالف قولُه فعلَه فإنما يوبخ نفسه).

هناك قاعدتان يجب ملاحظتهما؛ في ما يتعلق بتحليل النفس البشرية، والتخطيط لها، وهما:

القاعدة الأولى: أنه ليس في الناس ـ بدون استثناءٍ ـ مَن لا يبحث عن تحقيق مصالحه، مهما كانت صغيرةً.

القاعدة الثانية: أنه ليس في الناس ـ بدون استثناءٍ أيضاً ـ مَن لا يهمه أن يجنِّب نفسَه المخاطرَ؛ الماديةَ والمعنويةَ.

لهاتين القاعدتين نجد أنفسنا، وعمومَ الناس، في شغلٍ شاغلٍ يستوعب حياتنا جميعاً؛ بحثاً عن المصالح، وإبعاداً للمخاطر.

وعلى مستوى النتائج: فقد يوفَّق إنسانٌ ويخفِق آخر، كما قد يحالِف التوفيقُ صاحبَه في أعلى مستوى، بينما يكون نصيبُ الآخر منه متوسطاً أو متواضعاً. ولا يخفى أن ثمة تناسباً عكسياً بين التوفيق والإخفاق، فبنسبة ما نحصل على التوفيق نكون قد تجنبنا الإخفاقَ، وبقدر ما نخفق نكون قد فوَّتنا على أنفسنا التوفيقَ بتفويت أسبابه.

ولا بد من التنبيه إلى:

أن للتوفيق معادلتَه، كما أن للإخفاق أسبابَه ومسوِّغاتِه، فالمسألةُ ليست اعتباطيةً في أي منهما؛ كما قد يُتوهم.

***

ومن معالم التوفيق ومكوناته التطابقُ بين (القول والفعل).

ونعني بـ(القول) واحداً من أمرين:

١ ـ المبادئ التي نؤمن بها.

٢ ـ الشعارات التي نرفعها تعبيراً عن المبادئ.

ونعني بـ(الفعل): السلوك العملي في حياتنا. الذي يفترض أن يكون نابعاً من مبادئنا التي نؤمن بها، ونعبر عنها بشعاراتنا.

وما أيسر أن نرفع الشعارات؛ فنكون صالحين في آرائنا وأقوالنا. ولكن: هل نوفق إلى أن نطابق ـ دائماً ـ بين أقوالنا وأفعالنا؛ فنفعل ما نقول، ونقول ما نفعل؟!

الجواب: إننا حينما نستقرئ التعاليمَ الإسلاميةَ نجد أنها تطفح بالتأكيد على ذم (الازدواجية)، ونعني بها: أن يخالف القولُ الفعلَ؛ بأن تنطلق ألسنتنا بالإشادة بالفضيلة، بدون أن تتحرك الجوارح والجوانح إلى تجسيدها.

وبالطبع، فإن هذا خلق مذموم، وسلوك مرفوض. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف/ ٢ ـ ٣].

فهو سبحانه ـ إذاً ـ يذم أشد الذمِّ؛ وهو ما يفيده قوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾[1]، أن لا يكون المؤمنُ صادقاً مع الله ومع الناس؛ بأن يطلق شعار الحق والفضيلة ولا يجسدهما في أقواله وأفعاله ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

(١) قال الزمخشري: واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه.... ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً، حتى جعل أشده وأفحشه، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلغ من ذلك؛ لأنه إذا ثبت كبرُ مقته عند الله فقد تم كبره وشدته) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٤، ص٥٢٣ ذيل الآية الكريمة.

وتأصيلاً لهذا المبدأ، يرجع بنا النص القرآني إلى زمنٍ غابرٍ؛ ليستعرض قصة الكائن البشري، ومقدار تنكبه عن الصراط؛ بقول الله عزّ وجلّ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف/ ١٦٨].

وفي موردٍ آخر يستعرض قصةَ جيلٍ من أبناء الصالحين، تغنَّى بأمجاد أسلافه، بدون أن يسير بسيرتهم في الصلاح مع الله والنفس والناس؛ مكتفياً بالمادة وشؤونها، وهو يعلم أنه يخطئ في ممارساته؛ لأنه اتبع هواه وظنَّ أن الطريق الأقصر هو أن يتلاعب بشؤون الدين وسنن الله، ليمارس دور المهيمن على الدين، ويتقوَّل على الله ما لم يقله.

والإنسان ـ المستقيم في تفكيره ـ يعي تماماً أن الدين يعني التسليم لله قولاً وفعلاً، فـ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران/ ١٩]، وأن من الدين أن لا ننسب لله عزّ وجلّ أمراً دون أن يكون قد صدر عنه. قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف/ ١٦٩].

فما أشدَّ بؤسَ هؤلاء؛ حيث جعلوا الدينَ أشبه بالشعارات والممارسات الحزبية والفئوية، توزَّع فيها الامتيازاتُ على أهل الثقة والمحسوبية بعيداً عن الكفاءة والجدارة.

وفي مقابل هذا الفريق المخادع نجد فريقاً آخر على النقيض تماماً منه؛ حيث الانضباط الصارم بتعاليم الدين؛ ساعياً بكلِّ جدٍّ أن يكون صالحاً في ما يقول وفي ما يفعل. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف/ ١٧٠]. هذا على المستوى الاجتماعي، حينما تسود ثقافةُ الشعار على حساب المضمون عند فريق، ويقابله فريقٌ صادقُ الانتماء للفضيلة.

وأما على المستوى الفردي، فلن نُعدَم المثال ـ بل الأمثلة ـ على المخادعين. ففي ما ساقه القرآن الكريم نجد مثالاً بارزاً؛ هو ذاك (العالم)؛ الذي حظي بنصيب وافر من العطاء الإلهي، تمثل في علومٍ حُرِم منها الآخرون. لكنه أخفق في

استثمار هذا التوفيق، فلم يعمل بعلمه، فهيمن عليه الشيطان وتسلط عليه فأغواه، فوقع في ما وقع فيه.

وكان السبب الرئيس في انحراف هذا العالم المخادع هو (حب الدنيا)، وإن شئت قلت (اتباع الهوى)؛ الذي هو: ميل النفس الأمارة بالسوء إلى مقتضاها من اللذات الدنيوية خصوصاً؛ إذا كانت خارجةً عن القوانين الشرعية)[١]. قال تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف/ ١٧٥].

ثم يضيف النص القرآني إضاءةً على المشهد؛ كيما تكتمل الصورة التربوية المراد تعريف قراء القرآن بها، بالقول ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف/ ١٧٦].

فهو، إذاً، مَثلٌ سِيق للمتربّين من أجل أن يُعملوا عقولهم بالتفكر والتدبر في العواقب الوخيمة لمن وفَّر الله له كلَّ أسباب التوفيق والصلاح، فإذا به يُبتلَى بالخيبة والخسران، مع تبيان أسباب هذا وذاك.

مع الإشارة إلى أن علم هذا العالم لم يغير من واقعه شيئاً، فحاله كحال الكلب اللاهث دائماً؛ في حركته وسكونه، وكذلك في ركضه ومشيه ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[٢].

---

(١) المازندراني، المولى صالح (ت١٠٨٢ هـ)، شرح أصول الكافي، ج١١، ص٣٩٥.

(٢) قال الزمخشري؛ في الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ذيل الآية الكريمة، ج٢، ص١٧٨، ما لفظه: هو عالم من علماء بنى إسرائيل. وقيل: من الكنعانيين، اسمه بلعم بن باعوراء؛ أوتى علم بعض كتب الله ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريناً له. أو فأتبعه خطواته. وقرئ ﴿فَٱتَّبَعَهَا﴾، بمعنى فتبعه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾؛ فصار من الضالين الكافرين.

روي أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه؛ فأبى، وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة؟! فألحوا عليه، ولم يزالوا به؛ حتى فعل ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ لعظمناه ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها. وقيل: مال إلى السفالة) انتهى.

ولكي نضيف نوراً إلى نورٍ، نقرأ ـ في القرآن أيضاً ـ مثالاً آخر للإنسان؛ الفرد والمجتمع، حينما يكون بين يديه وتحت اختياره كل أسباب الرفعة والعزة فيأبى إلا الذلة والهوان؛ بسبب إصراره على نبذ دواعي الكرامة وأسبابها. قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة/ ٥].

ولنتأمل بعد كل هذا قول النبي ﷺ:

(يا أبا ذر! مَن وافق قولُه فعلَه فذاك الذي أصاب حظَّه، ومَن خالف قولُه فعلَه فإنما يوبخ نفسَه) [الفقرة/ ٣٢].

فالساعي نحو إصابةِ حظِّه؛ مما قسمه الله تعالى له؛ من الخير والرحمة والرضا والرضوان، فليس عليه إلا أن يكون فعلُهُ مطابقاً لقوله؛ الذي هو مبادئه الإيمانية، فـ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر/ ١٠].

ومَن فعل ذلك استوجب محبةَ الله وثوابَه، ونال رحمتَه وخيرَه فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٤٠].

وأما الساعي على غير هذا الطريق فإنما يعرِّض نفسَه للخيبةِ أولاً، واللومِ من الناس ثانياً، وأخيراً ـ وهو الأهم ـ العتابِ أو العقابِ من الله، أجارنا الله وإياك قارئي الكريم من ذلك.

تنبيه:

جرينا في تفسير هذا المقطع من الوصية بناءً على أن كلمة (فعله) في هذه الفقرة من الوصية، هو الفاعل لفعل (خالف)، ولفعل (وافق)؛ وهو الأنسب؛ لكون القول هو الميزان الذي على أساسه يجب أن يُنظَّم الفعلُ؛ بملاحظة أمرين:

الأول: أن الرسول ﷺ في هذه الوصية بصدد تقويم سلوك (المؤمن)، وليس المطلوبُ من (المؤمن) التطابقَ بين (الأقوال والأفعال) أياً كانت الأقوال.

الثاني: أن النبي ﷺ ـ في هذه الوصية ـ ليس بصدد تبيان قواعد عامة في النجاح؛ يمارسها المؤمن وغير المؤمن. ولو كان بهذا الصدد لأمكن أن يُعالَج النصُّ بأن نقرأ كلمة (قولُه) فاعلاً، وكلمة (فعلَه) مفعولاً به، تارة، وكلمة (فعله) فاعلاً وكلمة (قوله) مفعولاً به تارة أخرى.



الفصل الخامس عشر

الذنوب تُذهب الأرزاق

إن من المسلَّمات في الفكر الإسلامي أن للذنوب تأثيراً سلبياً في مرتكبها، بل قد تتجاوزه لتطال حركة الكون عموماً، وقد نتعرف على بعض هذه الآثار، ويخفى عنا أكثرها. قال تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء/ ٨٥].

ولو تساءلنا: ما هو مجال هذا التأثير؟

لكان الجواب: إنه الرزق.

معنى الرزق:

ولنا أن تساءل مرةً أخرى: ما هو الرزق؟

الجواب: إن للرزق معنى أوسع من ما هو سائد لدى الكثيرين من أنه: خصوص العطاء المادي. من: نقود، ومنازل، وأثاث، وسيارات... ليشمل كل عطاء؛ مادياً كان أو معنوياً.

قال الراغب الإصفهاني؛ في تفسير الرزق: الرزق يقال للعطاء الجاري تارة، دنيوياً كان أم أخروياً. وللنصيب تارةً. ولما يصل إلى الجوف ويُتغذّى به تارةً)[(١)].

وقال المصطفوي؛ في هذا السياق: ورزقُ كلّ موجودٍ بحسب اقتضاء مقامِهِ وحالِهِ. إما من المشتهيات النفسانية أو الروحانية)[(٢)].

---

(١) الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢ هـ) مفردات ألفاظ القرآن، مادة (رزق).

(٢) المصطفوي، السيد حسن (معاصر)، التحقيق في كلمات القرآن، ج٤، ص١٠٥، مادة (رزق).

وأما العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) فقال ـ في تحديد معنى الرزق ومدلوله ـ ما لفظه:

الذي يتحصل من موارد استعماله [الرزق]: أن فيه شوباً من معنى العطاء، كرزق الملك للجنديّ. ويقال لما قرره الملكُ لجنديِّهِ؛ مما يؤتاه جملة، رزقُهُ.

وكان يختص بما يتغذى به، لا غير، كما قال تعالى ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/ ٢٣٣]، فلم يعدَّ الكسوة رزقاً.

ثم تُوُسِّع في معناه فعُدّ كل ما يصل الإنسان من الغذاء رزقاً، كأنه عطية بحسب الحظ والجَدّ، وإن لم يعلم معطيه.

ثم عُمّم فسمي كل ما يصل إلى الشيء، مما ينتفع به، رزقاً، وإن لم يكن غذاءً، كسائر مزايا الحياة؛ من مال وجاه وعشيرة وأعضاد وجمال وعلم وغير ذلك. قال تعالى ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون/ ٧٢]. وقال؛ فيما يحكى عن شعيب ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود/ ٨٨]. والمراد به: النبوة، والعلم)[١].

الذنوب في رحاب النصوص:

١ ـ القاعدة القرآنية تؤكد على قاعدة مفادها ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى/ ٣٠]؛ بمعنى أن المكروه إذا وقع على الإنسان؛ أي إنسان، إنما تسبب فيه هو نفسه. وذلك لأن هذا الكون؛ كما مرّ بنا[٢]، أقيم على أساس النظام الصارم. وفي تفسيرها روى هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أما إنه ليس من عِرق يضرب، ولا نكبةٍ، ولا صداعٍ، ولا مرضٍ، إلا بذنبٍ. وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص١٣٧، (بحث قرآني) في معنى الرزق في القرآن، ذيل الآيتين (٢٦ ـ ٢٧) من سورة آل عمران.

(٢) راجع الفصل العاشر من هذا الكتاب.

كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ . قال [الراوي]: ثم قال [الإمام]: **وما يعفو الله أكثرُ مما يؤاخذ به)**[١].

والشواهد على هذه القاعدة القرآنية كثيرة، نشير إلى بعضها ضمن الروايات الآتية:

٢ ـ عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: **كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا تبدينَّ عن واضحةٍ وقد عملت الأعمال الفاضحة. ولا يأمن البيات من عمل السيئات)**[٢]. أي إن على من ارتكب المعاصي التي تؤدي به إلى أن يفتضح على الأشهاد، لا ينبغي له أن يضحك فتبدو أسنانه؛ والواضحة هي الأسنان. كما أن على من وقع في الذنوب أن لا يأمن من وقوع آثارها التدميرية. والبيات هو العذاب يحل بأهله ليلاً أو نهاراً وهم نائمون أو غافلون.

٣ ـ عن إبراهيم بن عبد الحميد، عن أبي أسامة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: **تعوذوا بالله من سطوات الله بالليل والنهار. قال: قلت له: وما سطوات الله؟ قال: الأخذ على المعاصي)**[٣].

٤ ـ عن الفضيل بن يسار، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق)**[٤]. وهذا الحديث يفيد أن الذنب يشكل مانعاً عن الرزق، ويزوى يعني: يُمنع ويُصرف.

٥ ـ عن الفضيل، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: **إن الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق.** وتلا هذه الآية ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [القلم/ ١٨ ـ ١٩])[٥].

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٢٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٥.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٦.

(٤) المصدر السابق، ص٢٧٠، الحديث ٨.

(٥) المصدر السابق، ص٢٧١، الحديث ١٢.

٦ ـ عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً)**[1]. وفيها ما لا يخفى من بيان حقيقة مفادها أن للذنوب أثراً سلبياً في الرقي المعنوي.

٧ ـ عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **إن العبدَ يسأل الله الحاجةَ، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجلٍ قريبٍ أو إلى وقتٍ بطيءٍ. فيذنب العبدُ ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للمَلَك: لا تقضِ حاجتَهُ، واحرِمه إياها؛ فإنه تعرَّض لسخطي، واستوجب الحرمانَ مني)**[2].

٨ ـ عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: **سمعته يقول: إنه ما من سنة أقل مطراً من سنة، ولكن الله يضعه حيث يشاء. إن الله عزّ وجلّ إذا عمل قومٌ بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدَّر لهم من المطر في تلك السنة إلى غيرهم، وإلى الفيافي والبحار والجبال. وإن الله ليعذب الجُعلَ في جُحرها بحبس المطر عن الأرض التي هي بمحلها، بخطايا من بِحضرتها، وقد جعل الله لها السبيل في مسلك سوى محلة أهل المعاصي. قال: ثم قال أبو جعفر عليه السلام: فاعتبروا يا أولي الأبصار)**[3].

٩ ـ عن ابن بكير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل. وإن العمل السيئ أسرع في صاحبه من السكين في اللحم)**[4].

١٠ ـ عن ابن بكير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **من هم بسيئة فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبدُ السيئةَ فيراه الرب تبارك وتعالى، فيقول: وعزتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً)**[5].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ١٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث ١٤.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧٢، الحديث ١٥.

(٤) المصدر السابق، الحديث ١٦.

(٥) المصدر السابق، الحديث ١٧.

ولنكتفِ بما نقلناه فقد بان الصبح لذي عينين، وقد أبصر من استبصر. وتبين لنا أن ثمة ترابطاً تكوينياً بين أفعال العباد وبين أرزاق الله تعالى لعباده وعطاياه.

وفي هذا السياق يؤكد الرسول ﷺ في هذه الوصية هذا القانون ويوصي أباذر وكل مستوصٍ بأن يتجنب الذنوب والمعاصي، إن كان حريصاً على أن تفتح له أبواب رحمته وأرزاقه، فقال ﷺ:

- **[الفقرة/ ٣٣]:**

(يا أبا ذر! إن الرجل ليُحرم رزقه بالذنب يصيبه).

وبسبب هذه المخاطر الكبيرة للذنب والمعصية جاء التحذيرُ منه ـ بكل أشكاله ـ بالنص الصريح. فقال عزّ وجلّ ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ [الأنعام/ ١٢٠]. فلا استثناءات إذاً، فالإثم ـ وهو الذنب ـ مرفوضٌ إسلامياً، ظاهرُه وباطنُه، خفيُّه وجليُّه.

بل إن الإسلامَ يرفض أجواءَ المعصية؛ التي يشكل العصاة ـ كأفراد وجماعات ـ أحد عوامل رواجها وشيوعها، فقال عز من قائل وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ [الأعراف/ ١٨٠].

كما أن أيَّ عاملٍ يؤدي بالإنسان إلى أن يقصِّر في طاعةٍ واجبةٍ عليه، هو ـ أيضاً ـ مرفوضٌ. قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة/ ٩].

كما يرفض الإسلام ـ أيضاً ـ التمسكَ ببقايا الإثم، مهما كانت خضِرةً ونضِرةً، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة/ ٢٧٨].



الفصل السادس عشر

اهتمامات الإنسان ومخاطر اللسان

- [الفقرة/ ٣٤]:

(يا أبا ذر! دع ما لستَ منه في شيءٍ، ولا تنطق في ما لا يعنيك، واخزِن لسانَك كما تخزِن وَرِقَك).

من أفضل نعم الله على الإنسان نعمة (اللسان). ولهذه القطعة الصغيرة من اللحم فوائدُ كثيرةٌ، ينبغي للإنسان أن يتأمل فيها؛ ولو قليلاً. فلو أنه حُرِم اللسان لحرِم القدرةَ على الأكل؛ كلياً أو جزئياً، ولحُرِم الالتذاذَ بكثيرٍ من الأطعمة، ولحُرِم الكلام، ولحُرِم ـ تبعاً لذلك ـ نقل معارفه للآخرين، وحرم ـ مضافاً إلى ما ذُكر ـ أسباب الرفعة والمنزلة الاجتماعيين؛ التي تتوقف على الكلام والبيان، اللذين يتوقفان بدورهما على نعمة اللسان.

قال بعض العلماء:

... إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة؛ فإنه صغيرٌ جرمُهُ، عظيمٌ طاعتُه وجرمُهُ؛ إذ لا يستبين الكفرُ والإيمانُ إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والطغيان.

ثم إنه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيَّل أو معلوم، مظنون أو مهموم، إلا واللسان يتناوله، ويتعرض له بإثباتٍ أو نفيٍ. فإن كل ما يتناوله

العلمُ يعرب عنه اللسانُ، إما بحقٍّ أو باطلٍ، ولا شيءَ إلا والعلمُ متناوِلٌ له. وهذه خاصيةٌ لا توجد في سائر الأعضاء.

فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان ليس له مردٌّ، ولا لمجاله منتهى ولا حدٌّ)[(١)].

وعلى هذا الأساس، قال الله تعالى ـ ممتناً على الإنسان ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد/ ٨ ـ ٩].

ولعل ذلك ناشئٌ من حجم الفوائد والثمرات التي لا تعد ولا تحصى للسان؛ التي يأتي على رأسها هذه العلوم والمعارف التي انتقلت من الأساتذة إلى الطلاب عبر اللسان؛ حيث يلقي الأستاذُ معارفَه وعلومَه على تلامذته، ويقوم هؤلاء بتدوينها، ثم نقلها ـ بدورهم ـ إلى الأجيال الآتية، إلى أن وصلت البشرية إلى ما وصلت إليه...

ولكن! في مقابل كل هذه الجوانب الإيجابية، والثمرات الطيبة، لنعمة اللسان، فإنه قد يتحوَّل إلى نقمةٍ. وذلك إذا لم يكن محكوماً بالعقل والإرادة الصلبة. ونعم ما قيل:

... فمن أطلق عذبة اللسان، وأهمله مرخى العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرفٍ هارٍ، إلى أن يضطره إلى البوار. ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيّده بلجام الشرع....

والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيلٌ عسيرٌ، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسانُ؛ فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤونة في تحريكه)[(٢)].

---

(١) الغزالي، أبو حامد (ت٥٠٥ هـ)، إحياء علوم الدين، كتاب آفات اللسان، ج٣، ص١٠٨.
(٢) المصدر السابق.

لذلك، جاءت الوصية النبوية الذهبية لأبي ذر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بأن يتجنب خطرين اثنين في جمل ثلاث:

الخطر الأول: الاشتغال بغير المفيد

في الرؤية الإسلامية لا مجال للعبث بالأمانة، والعمر أمانة من الله، والوجود الإنساني أمانة، والنعم كلها أمانة.

لهذا، جاءت الوصية من رسول الله ﷺ بأن يدع ويترك ما لا يصب في المصلحة؛ حيث قال: (**يا أبا ذر! دعْ ما لستَ منه في شيءٍ**).

وهذا التعبير أمرٌ بترك ما لا شأن للإنسان به، لكنه ـ من زاوية أخرى ـ توجيهٌ للإنسان المسلم أن يكون إيجابياً ومحسناً إلى ذاته أولاً، وإلى غيره ثانياً؛ أي أن يجسد الصلاحَ في اهتماماته.

ويدفع ـ بعد ذلك ـ باتجاه تجنبِ خطرٍ آخر يخفق في التعامل معه كثيرون؛ أعني به:

الخطر الثاني: مسؤولية الكلمة

قدمنا بعضَ الحديث عن اللسان، وكونه نعمةً من أعظم النعم. وليس ذلك خاصاً بالرؤية الإسلامية، بل إن التراثَ الإنسانيَّ ـ عموماً ـ حافلٌ بالنصوص التي تؤكد أهمية اللسان من جهةٍ، وخطورته من جهةٍ أخرى.

ونؤكد قبل كل شيءٍ أن اللسان ـ كما قيل بحقٍّ ـ هو (أداة مستعملة)، ومن ثم فـ(لا حمد له، ولا ذمَّ عليه)[1]. لكن إذا وظِّفت هذه الأداة توظيفاً سيئاً فليس وراءه إلا الخراب (فإنك إذا نظرت إلى جميع شرور الدنيا وجدت أولَها كلمةً عارت فجنت حرباً عواناً)[2].

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ)، الرسائل الأدبية، ج١، ص٩١، رسالة في كتمان السر وحفظ اللسان.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٩.

ولنستعرض بعض جوانب هذه الأهمية في نقطتين:

النقطة الأولى: أهمية اللسان

إذا تصفحنا ما قيل في اللسان/الكلام وتبيين أهميته ـ نفعاً وضراً ـ لوجدنا الكثير والكثير مما يجدر التوقف عنده والتدقيق فيه. وليس بمقدورنا ـ هنا ـ أن نستقصي ذلك ونستوفيه. لذلك، سنقتصر على نماذج محدودة مما حُفظ في هذا المجال؛ مما جاء عن الله تعالى وعن خلقه.

أ ـ قال الله تعالى ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن/ ٣ ـ ٤] وفسر البيان بـ(النطق، والكتابة، والخط، والفهم، والإفهام؛ حتى يعرف ما يقول، وما يقال له)(١). كما فُسِّر بأنه (التعبير عمّا في الضمير وإفهام الغير لِما أدركه لتلقي الوحي، وتعرُّف الحق، وتعلُّم الشرع)(٢).

وفي هذا السياق صح القول: إنّ (وضع الألفاظ وإحداث الموضوعات اللغوية من أعظم الألطاف الربانية، وأتم النعم الإلهية)(٣).

وقد تقرر في الفقه أن دية قطع اللسان؛ وهو الوسيلة الأساس في الكلام، والأهم في التواصل البياني بين الناس، تعدل دية الإنسان كاملة(٤).

---

(١) الطبرسي، أبو علي (ت٥٤٨ هـ)، مجمع البيان، ج٩، ص٣٣٠، ذيل الآية الكريمة.

(٢) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٥٧، ص٢٨٣، الباب ٣٩ ـ فضل الإنسان، وتفضيله على الملك، وبعض جوامع أحواله.

(٣) الطباطبائي، السيد محمد علي (ت١٢٤١ هـ)، المناهل، ص٢٦٤، طبعة حجرية دون تاريخ.

(٤) قال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (ت٤٦٠ هـ): في اللسان الدية كاملة؛ بلا خلاف؛ لقوله ﷺ (وفي اللسان الدية). فإن جنى على لسانه فذهب نطقه ففيه كمال الدية. فإن ذهب ذوقُهُ ففيه الديةُ...) المبسوط، ج٧، ص١٣٣، كتاب الديات، فصل دية اللسان.

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة (لسان)، ج٣٥، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤:

اتفق الفقهاء على أنه يجب في اللسان الدية؛ لما روي أن النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم كتب في كتاب عمرو بن حزم رضي الله عنه: **وفي اللسان الدية**)... وإن جنى على لسانه فذهب ذوقه؛ فلا يحس بشيء من المذاق، وجبت عليه الديةُ).

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى تعليل ذلك بأن في قطعه تفويتاً لـ(أعظم المقاصد في الآدمي)[١]؛ وذلك (لأن الآدمي قد امتاز من بين سائر الحيوانات باللسان)[٢].

ب ـ قال بعض الحكماء لأولاده: يا بَنيَّ! أصلحوا من ألسنتكم، فإنَّ الرجلَ لتنوبه النائبةُ فيستعير الدابةَ والثيابَ، ولا يقدر أن يستعير اللسانَ[٣].

جـ ـ قال بعض العقلاء: لسان الإنسان دفة زورقه[٤].

د ـ في الحكمة الصينية: أربعةُ جيادٍ أقل قوةً من لسانٍ واحدٍ[٥].

هـ ـ قال حكيم: المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه[٦].

النقطة الثانية: خطورة اللسان

إلى جانب أهمية اللسان في حياة الإنسان، فإن مخاطره قد تفوق محاسنه فيتحول إلى معول هدم يقوض ما بُنِي، ويحول بين الإنسان والبناء، ولنورد أمثلة من التراث الوحياني والإنساني على ذلك:

أ ـ في الحديث الشريف:

سلامة الإنسان في حفظ اللسان[٧]

---

(١) السرخسي، محمد بن أحمد (ت٤٨٨ هـ)، ج٢٦، ص٦٩، كتاب الديات.

(٢) المصدر السابق، ص٦٨، كتاب الديات.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت٢٥٥ هـ)، الرسائل الأدبية، ج١، ص٣١٤، رسالة في صناعة القُواد، ١ ـ حسنات اللسان.

(٤) حكمة مصرية قديمة تنسب إلى (أمنحمحات) من رجال الألف الثاني قبل الميلاد [قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، سمير شيخاني، مادة (لسان)، ص٥٢٩].

(٥) حكمة صينية [المصدر السابق].

(٦) روي عن الإمام علي عليه السلام؛ كما في عيون المواعظ والحكم، ص٦٤، وتفسير الألوسي، ج١٦، ص٢١٤. ونسب إلى ضمرة بن ضمر؛ كما جاء في ترجمته في أنساب الأشراف، ج١٢، ص١٢٩. وروي مثلاً عن العرب دون أن يعزى إلى شخص بعينه.

(٧) روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ كما في جامع الأخبار، وعنه: جامع أحاديث الشيعة، ج١٣، ص٣٨٧، الباب ٣٠ ـ استحباب الصمت والسكوت الا عن الخير واستحباب اختيار الكلام في الخير، الحديث ١٣٤٥.

ب ـ وقال الشاعر(١):

إنّ اللسانَ إذا حَلَلْتَ عِقالَه ... ألقاك في شنعاءَ ليس تُقالُ

جـ ـ قال الشاعر(٢):

احفَظْ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ ... لا يلدغنَّك إنه ثعبانُ

كم في المقابر من قتيلِ لسانِهِ ... كانت تهاب لقاءَهُ الأقرانُ

د ـ في المثل العربي(٣):

من حكَّم لسانَه شانَهُ وأفسد شأنَهُ

هـ ـ قيل: من أكثر أهجر)(٤).

لكل ذلك؛ ومثله كثيرٌ، يوصي رسول الله ﷺ أبا ذر (رضوان الله عليه) بأمرين اثنين:

الأمر الأول: أن لا ينطق ولا يتكلم في أمرٍ لا يعنيه، ولا يدخل ضمن مسؤولياته. قائلاً:

(يا أبا ذر!... فلا تنطق في ما لا يعنيك) [الفقرة/ ٣٤].

الأمر الثاني: لا يكتفي ﷺ بالنهي عن الكلام في ما لا يعني المتكلمَ، بل يتجاوزه إلى الحث على العمل بالاحتياط؛ من خلال التحذير من خطر اللسان، ومن خلال تحكيم القاعدة في التعامل معه؛ وهي (الصمت)، فقال ﷺ:

---

(١) أبو بكر بن سعدون، كما في مجاني الأدب، ج٣، ص١١٦، باب كتمان السر.

(٢) الأبشيهي، محمد بن أحمد (ت٨٥٢ هـ) المستطرف في كل فن مستظرف، الباب الثالث عشر ـ في الصمت وصون اللسان...، الفصل الأول ـ في الصمت. ونسبه بعضهم إلى الشافعي.

(٣) شيخاني، سمير (معاصر)، قاموس الحكم والأمثال والأقوال المأثورة، مادة (لسان)، ص٥٣٠.

(٤) الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت٣٢٨ هـ)، العقد الفريد، ج٣، ص١٧، فصل من أمثال العرب، إكثار الكلام وما يتقى منه.

(واخزن لسانك كما تخزن وَرِقَك) [الفقرة/ ٣٤].

فهو ﷺ ينبه أبا ذر؛ وإيانا بطبيعة الحال، أن حبسَ اللسان وخزنَه، ليس نوعاً من العقوبة له، وإنما هو شكلٌ من أشكال التقدير له والاهتمام به. وينبهه ـ أيضاً ـ إلى أن اللسانَ لا ينبغي أن يُبتذَل، فلو أن الإنسانَ ملكَ ورِقاً؛ وهو الفضة، فإن الحرص الإيجابي والحكمة يمليان عليه أن يحفظه بخَزنه في حرزٍ حريزٍ.

وقد فصل علماء الأخلاق والتربية آفات اللسان، وذكر بعضُهُم عشرين منها، إليك بعضها:

(١) الكلام في ما لا يعنيك. (٢) فضول الكلام. (٣) الخوض في الباطل. (٤) المراء والمجادلة. (٥) الخصومة. (٦) التقعر والتفاصح (٧) الفحش والبذاءة. (٨) السباب (٩) الغناء. (١٠) السخرية والاستهزاء. (١١) إفشاء الأسرار (١٢) الوعد الكاذب (١٣) الكذب. (١٤) الغيبة (١٥) النميمة (١٦) الازدواجية.

تنبيهٌ: قداسة الكلمة

وقع في وهمِ بعضٍ أن الصمتَ فضيلةٌ مطلقةٌ!

وليس الأمر كذلك! لأن الصواب هو التفصيل. فإن الصمت إنما يكون فضيلةً إذا كان الحديث باطلاً أو لغواً. وأما إذا كان الحديث حقاً أو مفيداً، فالصمت لن يكون فضيلةً؛ بل هو رذيلةٌ.

ومثالاً على ذلك: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتربية، والتعليم، إرشاد الضال... فهذه ـ كلها ـ إنما تكون بـ(الكلمة)؛ أي: بوساطة البيان، ومن المعلوم أن اللسان يأتي في مقدمة وسائل البيان.

بل إن وظيفة الأنبياء عليهم السلام إنما هي البلاغ؛ أي الكلام بمعناه العام. قال تعالى

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور/ ٥٤]. فالكلام؛ وبالتالي اللسان، هو مقدسٌ، ولكنه يكون مقدساً بقداسة مضمونه[١].

ذلك أن: الكلام ينقسم إلى: محمود، ومذموم.

كذلك السكوت ينقسم إلى: ما هو خيرٌ، وإلى ما هو شؤمٌ.

وإن اللائمة كما تقع بالمتكلم بما لا ينبغي كذلك تتعلق بالساكت السكوت الذي لا ينبغي)[٢].

(١) سيأتي فصل مطول حول الموضوع نفسه، هو الفصل ٥١؛ بعنوان (اللسان بين النعمة والنقمة)؛ فانتظر.
(٢) البحراني، الشيخ ميثم (ت٦٧٩ هـ)، شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين (علي السلام)، ص١٤٨.



الفصل السابع عشر

الجدية في العمل، والحزم مع النفس

● [الفقرة/ ٣٥]:

(يا أبا ذر! إن الله جل ثناؤه ليدخل قوماً الجنةَ فيعطيهم؛ حتى يملُوا، وفوقهم قومٌ في الدرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون: ربنا! إخواننا كنا معهم في الدنيا فبم فضَّلتَهم علينا؟! فيقال: هيهات هيهات! إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون).

في هذه الفقرة من الوصية أشار النبي ﷺ إلى عدد من المسائل، فلنستعرضها:

المسألة الأولى: الجنة درجات

تؤكد النصوصُ الإسلاميةُ أن للجنة درجاتٍ ومراتبَ؛ حسب تفاضل الناس. قال تعالى ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه/ ٧٥]، وقال تعالى ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء/ ٢١]، وقال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن/ ٤٦]، وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر/ ٢٧ ـ ٣٠].

وقد تعرَّض رسول الله ﷺ إلى مبدأ التفاضل في المقامات بين أهل الجنة في هذه الوصية؛ كما سيأتي في الفقرة ٤٢ منها؛ فانتظر.

وروي عن الإمام علي عليه السلام، في صفة الجنة قوله: **درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات)**[١].

وروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: **عليك بالقرآن، فإن الله خلق الجنة...، وجعل درجاتها على قدر آيات القرآن. فمن قرأ القرآن قال له: اقرأ وارقَ، ومَن دخل منهم الجنة لم يكن في الجنة أعلى درجةً منه؛ ما خلا النبيِّين والصدِّيقين)**[٢].

وروي عن الإمام علي عليه السلام: **إن أهل الجنة ليتراءون منازلَ شيعتنا كما يتراءى الرجل منكم الكواكب في أفق السماء)**[٣].

وهذا التفاضل بين منازل الجنة ينسجم تماماً واختلاف مراتب التقوى؛ الذي ينبع من اختلاف الأعمال الصالحة؛ بين ما هو فاضل وما هو أفضل.

قال تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود/ ٧].

وقال تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك/ ٢].

وقال تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٣].

وقال تعالى ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران/ ١٦٣].

وقال تعالى ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام/ ١٢٧].

وقال تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة/ ١٧].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٥.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم، وعنه: بحار الأنوار، ج٨، ص٢٩٠، كتاب العدل والمعاد، الباب ٢٣ ـ الجنة ونعيمها، رزقنا الله وسائر المؤمنين حورها وقصورها وحبورها وسرورها، الحديث ٣٩.

(٣) المصدر السابق.

وقال تعالى ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة/ ١٩].

المسألة الثانية: من أسباب التفاضل

ما دمنا نتحدث عن الجنة فإننا نتحدث عن غيبٍ لا نحيط به علماً، ولابد ـ لمن أراد التعرف عليه ـ من الرجوع إلى الوحي؛ كتاباً وسنةً، ومن صفات المؤمنين أنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة/ ٣]. وإذا عُدنا فإننا سنجد في الكتاب تأكيداً على أن الرسول ﷺ إذا نطق فهو ينطق عن الوحي؛ لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم/ ٣ ـ ٤].

١ ـ الحب في الله، والتزاور في الله

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إن الله تبارك وتعالى خلق في الجنة عموداً من ياقوتةٍ حمراءَ، عليه سبعون ألفَ قصرٍ، في كلِّ قصرٍ سبعون ألفَ غرفةٍ، خلقها الله عزّ وجلّ للمتحابِّين والمتزاوِرِين في الله)**[1].

٢ ـ الصيام في رجب

عن النبي ﷺ أنه قال: **إن في الجنة قصراً لا يدخله إلا صُوَّام رجب)**[2].

٣ ـ العدل، وصلة الرحم، والصبر على مسؤولية العيال

عن النبي ﷺ أنه قال: **إن في الجنة درجةً لا ينالها إلا إمامٌ عادلٌ، أو ذو رحمٍ وصولٌ، أو ذو عيالٍ صبورٌ)**[3].

٤ ـ التزام الحق، والزيارة في الله، والإيثار.

---

(١) الخصال، وعنه: بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٩، كتاب العدل والمعاد، الباب ٢٣ ـ الجنة ونعيمها...، الحديث ٣٥.

(٢) النوادر للراوندي، وعنه: بحار الأنوار، ج٩٤، ص٤٧، الباب ٢٥ ـ فضائل شهر رجب وصيامه وأحكامه وفضل بعض لياليه وأيامه، الحديث ٣٢. وانظر ـ أيضاً ـ: كنز العمال، ج٨، ص٦٥٣، كتاب الصوم، صوم النفل، صوم رجب.

(٣) الصدوق، محمد بن علي (ت٣٨١ هـ)، الخصال، ص٩٣، باب الثلاثة، الحديث ٣٩.

عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: **إن لله عزّ وجلّ جنةً لا يدخلها إلا ثلاثة: رجلٌ حكم على نفسه بالحق، ورجلٌ زار أخاه المؤمن في الله، ورجلٌ آثر أخاه المؤمن في الله)**[1].

٥ ـ طيب الكلام والطعام، والصيام، وصلاة الليل

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، يسكنها من أمتي: من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام)**[2].

٦ ـ الصبر على البلاء

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **إن في الجنة منازلَ لا ينالها العباد بأعمالهم، ليس لها علاقةٌ من فوقها ولا عمادٌ من تحتها.**

قيل: يا رسول الله! من أهلها؟

فقال: أهل البلايا والهموم)[3].

المسألة الثالثة: الاستعداد ليوم المعاد

لا يمكن للمؤمن؛ وهو الفقيه المجاهد، أن يركن في دنياه إلى راحة؛ فهو يعلم علم اليقين أن إلى ربه الرجعى والمنتهى، وأن عمله سوف يرى، وأن يوم المرجع هو يوم الحساب والتغابن والحسرة والندامة. ومن ثم فلا مناص من العمل بما يكون سبباً للرضا والرضوان.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص١٧٨، كتاب الإيمان والكفر، باب زيارة الإخوان، الحديث ١١.

(٢) أمالي الصدوق، وعنه: بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٢، كتاب العدل والمعاد، الباب ٢٣ ـ الجنة ونعيمها...، الحديث ٥.

(٣) الحلي، ابن فهد (ت٨٤١ هـ)، عدة الداعي، ص٢٥٥، في الحث على الذكر بالدليل النقلي والعقلي؛ أعلام الدين في صفات المؤمنين، الحسن بن محمد الديلمي، ص٢٧٧.

وباعتبار أن الإيمان مراتب، والفقه والجهاد مراتب أيضاً، فلا غرابة أن يتفاوت الناس في العواقب؛ تبعاً لتفاوتهم في الأسباب.

ولهذا السبب، أخبر النبي ﷺ؛ وهو الصادق الأمين، صاحبه أبا ذر بواقع الاختلاف المصيري، فقال:

(يا أبا ذر! إن الله جل ثناؤه ليدخل قوماً الجنةَ فيعطيهم؛ حتى يُمْلُوا).

فهؤلاء جماعةٌ خيِّرة يجازيها الله تعالى بما تستحق من الخير؛ حتى يفيض عطاء الله عندهم. وهذا ما أشير إليه بمفردة (**يملوا**)؛ من الامتلاء.

غير أن هؤلاء العاملين المحسنين يفاجأون بقوم (**فوقهم... في الدرجات العلى**)، فيثور فضولهم متسائلين؛ وهم يعلمون أن وراء هذا التفضيل سبباً يناسب عدل الله وحكمته، فهم لَما (**نظروا إليهم عرفوهم**).

وسرعان ما تساءلوا بين يدي ربهم؛ قائلين (**ربنا! إخواننا كنا معهم في الدنيا فبم فضَّلتَهم علينا؟!**)

فيأتيهم الجواب؛ مبدِّداً وهماً وقعوا فيه؛ مع أنهم مؤمنون من أهل الجنة! وبطبيعة الحال يقع في مثل ذلك مَن هو دون مستواهم في الفقه والجهاد؛ فضلاً عن أصل الإيمان.

وهذا الوهم يتمثل في الحكم على الناس من خلال الظواهر؛ التي تبدو لنا منهم، فنصف بعضَهم بالصلاح، وبعضَهم الآخرَ بضده، ونفاضل بين أبناء الصنف الأول؛ بأن فلاناً أشدُّ إيماناً من فلان، كما نفاضل بين أبناء الصنف الثاني؛ بأن فلاناً أسوأُ من فلان، وهكذا. وقد نصيب في أحكامنا، وقد نخطئ.

فكان جوابُ الله تعالى المباشر، أو ممن كلفه عز اسمه بالجواب نيابةً عنه، هو (**هيهات! هيهات!**). أي: النفي المطلق لهذا الوهم؛ المبني على أن الأعمال التي ترتقي بالإنسان عند الله تعالى هي ما يطلع عليه الناس! بتأكيد أن المطلِع التام على أعمال الناس الصالحة؛ وغير الصالحة طبعاً، إنما هو الله تعالى، ومَن

أطلعه الله عليها من خواصّ المؤمنين؛ وهم خصوص الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم)[١].

الجد والاجتهاد:

يتمحور ما ذكره النبي ﷺ؛ من خصوصية تسببت في إعلاء مقام هذا الفريق من المؤمنين، في عنوان (الجد والاجتهاد). عبر عنه بقوله ﷺ:

(**إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين تروون، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون**) [الفقرة/ ٣٥].

وقد تسأل وتقول:

أليس أولئك الذين أدخلهم الله تعالى جنته؛ حتى (يُملُوا)، كان ممن يعمل الصالحات، ومنها هذه المذكورات التي يشار إليها كعبادات؛ تتمثل في: الصوم، والإيثار، وقيام الليل...، فما وجه السؤال؟!

الجواب:

بالتأكيد كان أولئك من هذا الصنف، غير أن الفقرة أشارت؛ والله العالم، إلى التميز في الجد والاجتهاد، ففي الوقت الذي كان فيه المؤمنون السائلون يحسبون أنهم قاموا بما وجب عليهم، بل بما ندبوا إليه، كان المسؤولُ عنهم يضاعفون عملهم، ويسارعون إلى الخيرات، بما رآه إخوانهم المؤمنون، وساووهم فيه، وبما خفي على رفاق الإيمان فتفوقوا به عليهم.

لكم في رسول الله ﷺ أسوة

من باب مسك الختام لهذا الفصل يجب القول: إن أسوتهم في هذا الجد

---

(١) راجع ـ للتوسع قليلاً في هذه النقطة ـ الفصل الرابع (الطريق إلى الفاعلية) من الباب الثاني من هذا الكتاب.

والاجتهاد هو صاحب هذه الوصية نفسه. قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٢١].

لذلك، نرى أن من المناسب أن نذكر عنه ﷺ وقفات قرآنية ثلاثاً:

الوقفة الأولى: خاطبه الله تعالى بقوله ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه/ ١، ٢].

وقد روي الثعلبي ـ في مناسبة نزول هاتين الآيتين وما بعدهما ـ أنه: لما نزل على رسول الله [ص] الوحي بمكة اجتهد في العبادة، واشتدت عبادته، فجعل يصلي الليل كله.

فكان بعد نزول هذه الآية ينام ويصلي)[1].

وروى أيضاً ما لفظه: قام رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم حتى تورمت قدماه، وقيل له: يا رسول الله! أليس قد غفر الله لك ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؟! فقال صلى الله عليه [وآله] وسلم: **أفلا أكون عَبْداً شَكُوراً**)[2].

وهذا الوصف؛ كما لا يخفى، يتعلق بالسمو على مستوى علاقة المخلوق بالخالق، وهذا ركنٌ من أركان الصراط المستقيم.

الوقفة الثانية: وصفه الله تعالى بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم/ ٤]. وكفى به وصفاً يحكي واقعه بدون مبالغةٍ أو تهويلٍ.

وهذا الوصف يتعلق بركنٍ آخر من أركان الصراط المستقيم؛ وهو السمو على مستوى الذات.

الوقفة الثالثة: وصفه الله تعالى بقوله ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر/ ٨]. فأيُّ إنسانٍ هذا الذي يواسيه ربه تعالى؛ وهو صاحب الشأن الأصلي في

---

(١) الثعلبي، أحمد بن محمد (ت٤٢٧ هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٦، ص٢٣٧، ذيل الآية المباركة.

(٢) المصدر السابق.

هداية البشر وضلالهم، ومحاسبتهم على أساس هذا وذاك، وأن لا يجعلهم سبباً لألمه وهلاكه!

وترتفع قيمةُ هذه الشهادة إذا التفتنا إلى أن هذا الأسى والتألم والإشراف على الهلاك؛ من رسولِ الله ﷺ، قد تعلق بمَن آيس النبي ﷺ من هدايتهم وأمعنوا في ضلالهم وكفرهم. ويشهد لذلك قوله تعالى ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة/ ٦٨]، وقوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف/ ٦]، فالآيتان تتحدثان ـ في الدرجة الأولى ـ عن غير المسلمين، كما هو واضح لمن راجع التفاسير.

وهذا وصفٌ يتعلق بركنٍ ثالثٍ من أركان الصراط المستقيم؛ وهو السموُّ على مستوى العلاقة بالناس، وتحمّل المسؤولية تجاههم. فلا يكون مؤمناً؛ مكتمل الإيمان، مَن تحركه أحقاده على الآخرين؛ حتى الضال منهم؛ لأن مَن يكون كذلك لا يُتصور في حقه سلامةُ الفعل لعدم سلامة المقصد.

فمن كان أسوتُهم هذا الإنسانَ الكاملَ فلا عجب إذا بالغوا في طلب الصالحات؛ على قاعدة الصراط المستقيم، آناء الليل وأطراف النهار؛ ليُفاجأ ـ مَن هم دونهم في المرتبة ـ بعلو قدرهم ومكانتهم عند الله مَن كانوا يحسبون أنهم يعرفونهم حق المعرفة.



الفصل الثامن عشر

الصلاة عماد الدين ومعراج كلّ تقيّ

● [الفقرة/ ٣٦]:

(يا أبا ذر! جعل الله؛ جل ثناؤه، قرةَ عيني في الصلاة، وحبَّب إليَّ الصلاةَ كما حبب إلى الجائعِ الطعامَ، وإلى الظمآنِ الماءَ. وإن الجائعَ إذا أكل شبع، وإن الظمآنَ إذا شرب روى، وأنا لا أشبع من الصلاة).

خُلق الإنسان لغايةٍ نصَّ عليها القرآن الكريم؛ وهي العبادة. فقال الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]. والعبادة تعني: خضوع العبد للمعبود.

ولم يكتفِ الإسلامُ بعنوان (التعبد)، بل تجاوز ذلك إلى تحديد البرنامج العملي لتجسيد ذلك، ضمن عناوين عديدة، تتفاضل في ما بينها؛ تبعاً لآثارها الإيجابية في تحقيق عنوان الخضوع، وفي إعادة صياغة الشخصية المتكاملة.

وإذا تساءلنا عن أول هذه العناوين، ورجعنا إلى النصوص الشرعية؛ التي هي المصدر الوحيد للتعرف على ما يريده الشارع المقدس، لوجدناه عنوان (الصلاة).

ومن هذا المنطلق يوصي الرسول الأعظم ﷺ أبا ذر؛ في هذه الفقرة، وينطلق من كونه ـ بنص القرآن ـ قدوةً وأسوةً للمؤمنين، فعليهم أن يحتذوا به، ويسيروا بسيرته.

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ؛ في هذه الفقرة، ولعه وعشقه للصلاة؛ ضمن مجموعة أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أنها قرة عينه

الأمر الثاني: أنه يحبها

الأمر الثالث: أنه لا يشبع منها

وقد تدرج ﷺ في بيان علاقته بها:

فهو ـ أولاً ـ: يفتخر بأن الله تعالى جعل قرة عينه (الصلاة). وهو تعبير عن مدى شعوره بالامتنان لمقام الذات المقدسة، وهو تعبيرٌ عن عشقه لـ(الصلاة).

وهو ـ ثانياً ـ: يقر بأن مَن جعل الصلاة معشوقة له إنما هو الله تعالى، فذاك من فعله سبحانه بالعبد، وليست جهداً إنسانياً صرفاً، وأورد لذلك صيغةً صريحةً للدلالة على ذلك بقوله ﷺ **(جعل اللهُ.. قرة عيني في الصلاة)**.

وهو ـ ثالثاً ـ: يوجه أتباعه والمتأسِّين به إلى أن يروا في (الصلاة) منّةً إلهيةً ونعمةً ربانيةً؛ تستوجب الشعورَ بالامتنان، وبالتالي الشكر لله تعالى والحمد له، فهي قُرَّة عينٍ له.

وهو ـ رابعاً ـ: متوله بالصلاة. وقد استعمل لذلك صيغة تجعله واقعاً في الحب بغير اختيار فقد **(حبب إلي الصلاة)**. وذاك يعني أنه أشبه ما يكون بالمجبور غير المختار، فقد زُرع حب الصلاة في قلبه من قِبَل الغير؛ الذي هو الله تعالى القائل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل/ ٥٣].

وهو ـ خامساً ـ: استجاب لهذا التحبيب. فقد صار مُحِباً للصلاة حبَّ الجائع للأكل، وحبَّ العطشان للماء.

وهذا تعبيرٌ عن مدى هذا الحب الذي امتزج باللحم والدم. فليس فينا أحدٌ يستغني عن مأكله ومشربه؛ شعر بذلك أو لم يشعر، التفت أو لم يلتفت. فالرسول الأعظم ﷺ؛ الذي هو أسوتنا وقدوتنا، يوجهنا نحو التعامل مع الصلاة على أننا محتاجون إليها حاجتَنا إلى الطعام والشراب.

لهذا كله، فإن النبي ﷺ، وفي توجيهٍ غيرِ مباشرٍ لنا، يبين علاقته بالصلاة

وحاجته إليها، بأنه لا يشبع منها. فينبغي لنا ـ إذاً ـ أن نرتبط بالصلاة ونحبها؛ كارتباطنا وحبنا للأكل والشرب. جعلنا الله وإياكم من أهلها.

وزيادةً في الترغيب والتحبيب أخذ النبي ﷺ في الحض على الصلاة؛ بذكر بعض فوائدها والثمرات المترتبة عليها؛ ضمن بنود، تقوم في أساسها على التسليم من قِبلنا بمبدأ الغيب؛ الذي يشكل رسول الله ﷺ حلقة الوصل بيننا وبينه؛ بما يوحى إليه من ربه سبحانه.

ولنستعرض ذلك في بنودٍ:

البند الأول: الصلاة رصيد في الجنة

فقال ﷺ:

- **[الفقرة/ ٣٧]:**

> **(يا أبا ذر! أيما رجلٍ تطوَّع في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعة؛ سوى المكتوبة، كان له حقاً واجباً بيتٌ في الجنة).**

وفي بيانٍ له قال المحدث المجلسي رحمه الله؛ شارحاً المقصود من هذه الصلوات في الفقرة، فقال:

ـ الظاهر أن هذا يشمل النوافل المرتبة؛ فيكون موافقاً للأخبار؛ الأربع للعصر، أو الست لكلٍّ من الظهرين.

ـ ويحتمل نسخه بالنوافل المرتبة.

ـ ويحتمل أن يكون المراد سوى المرتبة، ويؤيده لفظ التطوع)[1].

---

(١) المجلسي، الشيخ محمد باقر (ت١١١١ هـ)، بحار الأنوار، ج٨٧، ص٣٤٤، كتاب الصلاة، الباب ١٠ ـ صلاة كل يوم، الحديث ٢.

قلت: مضمون هذا الحديث واردٌ في مجامع الحديث السنية. انظر: سنن النسائي، كتاب الصلاة، باب ثواب من صلى في اليوم والليلة ثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة.

البند الثاني: الصلاة وفود على الله

فقال ﷺ:

- **[الفقرة/ ٣٨]:**

(يا أبا ذر! إنك ما دمتَ في الصلاة فإنك تقرع بابَ الملك الجبار، ومَن يكثر قرعَ بابِ الملِك يُفتحْ له).

البند الثالث: الصلاة عطاء رباني مستمر

قال النبي ﷺ:

- **[الفقرة/ ٣٩]:**

(يا أبا ذر! ما من مؤمنٍ يقوم مصلياً إلا تناثر عليه البِرُّ ما بينه وبين العرش، ووُكِّل به ملَكٌ ينادي: يا ابن آدم! لو تعلم ما لك في الصلاة، ومَن تناجي، ما انفتلت).

البند الرابع: أن الصلاة مضمار تنافس

قال النبي ﷺ:

- **[الفقرة/ ٤٠]:**

(يا أبا ذر! طوبى لأصحاب الألوية يوم القيامة، يحملونها فيسبقون الناسَ إلى الجنة. ألا هم السابقون إلى المساجد؛ بالأسحار وغير الأسحار).

المحصلة: الصلاة ثم الصلاة

لا يقف رسول الله ﷺ؛ وهو الرؤوف بالمؤمنين، والحريص عليهم، عند ما

قدمه من معارف جليلة، بل إنه يجمل ويلخص الصلاة بأنها: (عماد الدين)، أو (عمود الدين)؛ حسب اختلاف الأحاديث والنسخ[١].

وفي هذا التعبير بيانٌ لمحورية الصلاة كعنوان إسلامي أول، يمتاز به المسلم الملتزم من غيره، والمقصود من هذا التعبير هو أن (استحكام الدين واستقراره بها، فبدون الصلاة يكون ديناً بلا عمود)، وليس المقصود (أنه ينتفي الدين بالمرّة)[٢].

فقال النبي ﷺ:

(يا أبا ذر! الصلاة عماد الدين) [الفقرة/ ٤١].

---

(١) في أمالي الشيخ الطوسي (ت٤٦٠ هـ): (عمود الدين)، وفي مكارم الأخلاق للطبرسي (٥٤٨ هـ): (عماد الدين). انظر: كنز العمال، ج٧، ص٢٨٤، كتاب الصلاة، الفصل الثاني - في فضائل الصلاة.

(٢) الأراكي، الشيخ محمد علي (ت١٤١٤ هـ)، كتاب الطهارة، ج١، ص٥٢٠.



الفصل التاسع عشر

مسؤولية الكلمة

● [الفقرة/ ٤١]:

(يا أبا ذر! الصلاةُ عماد الدين، واللسانُ أكبرُ. والصدقةُ تمحو الخطيئةَ، واللسان أكبر. والصومُ جُنَّةٌ من النار، واللسان أكبر. والجهادُ نباهةٌ، واللسانُ أكبرُ).

* * *

نلفت ـ ابتداءً ـ إلى أن النبي ﷺ ينتقل من الحديث عن الصلاة؛ التي يؤكد فيها ـ بحقٍّ؛ كما قدمنا في الفصل السابق ـ أنها عماد الدين، أو عموده، وينتقل ـ مباشرةً ـ إلى التنبيه إلى خطورة التعامل مع اللسان، وأن ذلك من شأنه أن يقوض ما بُني بالصلاة؛ مهما علا وارتفع.

فنحن ـ إذاً ـ أمام حديث، للمرة الثانية[1]، عن اللسان وآفاته والكلمة ومخاطرها. كل ذلك لِما نعرفه جميعاً من أن الكلام سيفٌ ذو حدين، فقد يرتقي بصاحبه إلى الفردوس حيث النعيم، وقد يهوي به إلى قعر جهنم حيث الحجيم.

وقد قدمنا بعضَ ما ينفع في المقام، ونضيف هنا ما نبّه إليه الرسول ﷺ في هذا المقطع، بقوله ﷺ:

---

(١) تقدم بعض الحديث في الفصل ١٧؛ فراجع.

أ ـ (يا أبا ذر! الصلاةُ عماد الدين، واللسانُ أكبرُ)

فالصلاة التي هي عماد الدين، يمكن أن تتقوض بزلة لسان، لذلك فهو (أكبر)؛ لأن القدرة على صونه وحفظه يفتقدها كثيرٌ من الناس، بما فيهم كثيرٌ من المصلين. باعتبار أنهم قد يوفقون إلى التزام الصلاة، لكنهم يخفقون في التحكم في شهوة الكلام، بكل ما يمكن أن يكون مضمونه؛ حقاً أو باطلاً.

ب ـ (والصدقةُ تمحو الخطيئةَ، واللسانُ أكبرُ)

والصدقة ـ بحكم النص ـ لها تأثيرٌ تطهيريٌّ كبيرٌ؛ فهي تمحو الخطايا، بمحو آثارها؛ وهي نعمةٌ لا تقدر بثمنٍ.

لكن اللسان يبقى هو المعضلة؛ التي قد تستعصي على الضبط والتحكم، فما إن تُمحَى للمتصدق خطيئةٌ حتى يقع ـ بسببِ لسانِهِ ـ في أخرى.

لذلك، يكون صونُهُ أهمَّ؛ في قاموس الساعين إلى الصلاح والإصلاح من أهل الصراط المستقيم.

جـ ـ (والصومُ جُنةٌ من النار، واللسانُ أكبرُ)

والصوم، كما يقول الرسول ﷺ جُنّة؛ أي: يقي من النار، وذاك مطمحٌ لا يفرِّط فيه إلا السفهاء والجهال والمغرورون، وفي المقابل يبذل الحكماء والصلحاء في سبيل تحصيله الغاليَ والنفيسَ.

وقد أقسم النبي ﷺ، في إحدى خطبه قائلاً: ... **فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار؛ إلا الجنة أو النار)**[1].

والصوم ـ كما نعرف ـ ليس خفيف المؤونة على الجميع، لكنه كثير المعونة. ومع ذلك فإن التحكمَ في اللسان أشدُّ صعوبةً من ترك المأكل والمشرب... وسائر ما يجب على الصائم تجنبه. لذلك، فهو (أكبر).

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٧٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، الحديث ٩.

د ـ (والجهاد نباهةٌ، واللسانُ أكبرُ)

والجهادُ؛ الذي هو السنام في سلَّم التكاليف الشرعية، والذي به يعز الإسلامُ وأهلُه، وبه ينال النابهون منازلهم العالية[١]، هذا الجهادُ لن يكون إلا في مرتبةٍ أقلَّ صعوبةً من التحكم باللسان؛ لأن الجهادَ العسكريَّ هو مع عدوٍّ خارجيٍّ؛ تتوفر الدواعي إلى منابذته ومحاربته ومقاتلته، أما اللسان فهو جهادٌ معنويٌّ مع عدو من الداخل، حيث تعادي النفس ذاتها، وقد قال رسول الله ﷺ: **أعدى عدوِّك نفسُك؛ التي بين جنبيك)**[٢]. ولهذا أصل قرآني جاء في قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات/ ٤٠ ـ ٤١].

---

(١) قال الطريحي (ت١٠٨٥ هـ)؛ في مجمع البحرين، مادة (نبه): يقال انتبه الرجل من نومه؛ أي: استيقظ. ونبَّهتُهُ على الشيء: واقفته عليه؛ فتنبه هو عليه. ونبُه الرجل بالضم: شرف واشتهر نباهةً فهو نبيه).

(٢) الأحسائي، ابن أبي جمهور (ق ٩ هـ)، عوالي اللئالئ، ج٤، ص١١٨. ورواه البيهقي؛ في كتابه الزهد الكبير، فصل في ترك الدنيا ومخالفة النفس والهوى، تحت الرقم ٣٥١.



الفصل العشرون

التفاضل بين الناس

مبدأ التفاضل والتمايز بين الناس هو من الحقائق التي لا ينكرها أحدٌ. فهذا طويلٌ، وهذا قصيرٌ. وذاك غنيٌّ، والآخرُ فقيرٌ. وهذا عالمٌ، وذاك جاهلٌ، وهكذا.

وهذا التفاضل يمكن النظر إليه من زاويتين:

الزاوية الأولى: الاختيارية، والجبرية

أسبابُ التفاضل هذه بعضُها اختياريٌّ، وبعضُها غيرُ اختياريٍّ.

فالطولُ والقِصَر ـ مثلاً ـ أمران قهريان لا اختيار لنا فيه، فهكذا نُخلَق، طوال القامة طوال، وقصار القامة قصار، وكذلك بالنسبة للجمال في الخلقة والدمامة فيها.

بخلاف صفات أخرى يتحلى بها، من قبيل: العلم، والجهل، والفقر، والغنى، ونحوها؛ مما يرتبط بسعي المتصف بها وعدمه. فالساعي في تحصيل العلم يكون عالماً، والمقصِّر في ذلك يكون جاهلاً، والساعي في تحصيل الثراء يكون غنياً وغيره يكون فقيراً، فإن ذلك كله وأمثاله اختياري[1].

ومن وجوه الفرق والاختلاف أننا نشيد بالفضل من النوع الأول والنوع الثاني على حد سواء، بفارق أننا نشيد بالفضل في نفسه في غير الاختياري، ونشيد بالفاضل إلى جانب إشادتنا بالفضل نفسه في الاختياري.

---

(١) مع التنبيه إلى أن السعي وحده ليس كافياً، بل لا بد من عوامل أخرى خارجة عن الإرادة؛ منها التوفيق أو الامتحان الإلهيين، فلا تغفل.

وقد قيل إن اللفظ المستعمل في اللغة العربية للإشارة إلى الإشادة هو من النوع الأول/الاختياري، ويقال له (المدح)، وإلى النوع الثاني/غير الاختياري يقال له (الحمد)[1].

الزاوية الثانية: إمكانية الحصول والسعي

في الفضل الاختياري ينبغي أن يسعى الإنسانُ للحصول عليه؛ بالطرق المشروعة طبعاً، وفي الجبري ـ أو بعضه ـ فإن من العبث السعيَ في ذلك.

والقاعدة الإسلامية تؤكد على أن دخول الجنة ونيل رضا الله هو من النوع الاختياري؛ الذي ينبغي للإنسان أن يتحرك باتجاهه؛ ف﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم/ ٣٩].

ولا فرق في مبدأ التفاضل بين عالمي الدنيا والآخرة. قال تعالى ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء/ ٢١].

وفي هذا السياق جاء النص النبوي في هذه الفقرة بالقول:

● **[الفقرة/ ٤٢]:**

(يا أبا ذر! الدرجةُ في الجنة فوقَ الدرجة كما بين السماء والأرض، وإن العبدَ ليرفع بصره فيلمع له نورٌ يكاد يخطف بصرَه؛ فيفزع لذلك، فيقول: ما هذا؟! فيقال: هذا نورُ أخيك! فيقول: أخي فلان!كنا نعمل جميعاً في الدنيا وقد فضل علي هكذا؟! فيقال له: إنه كان أفضلَ منك عملاً، ثم يُجعل في قلبه الرضا؛ حتى يرضى).

---

(١) قال أبو هلال العسكري (ت٣٩٥ هـ)؛ في الفرق بين الحمد والمدح: أن الحمد لا يكون إلا على إحسان، والله حامد لنفسه على إحسانه إلى خلقه؛ فالحمد مضمَّن بالفعل. والمدح يكون بالفعل والصفة، وذلك مثل أن يمدح الرجلَ بإحسانه إلى نفسه وإلى غيره، وان يمدحه بحسنِ وجهه، وطول قامته، ويمدحه بصفات التعظيم؛ من نحو: قادر، وعالم، وحكيم. ولا يجوز أن يحمده على ذلك، وإنما يحمده على إحسان يقع منه فقط) الفروق اللغوية، ص٢٠٣، حرف الحاء، الفقرة ٧٩٨ ـ الفرق بين الحمد والمدح.

والنص يشير إلى حقائق:

الحقيقة الأولى: أن في الجنة درجات

أشير ـ في هذه الفقرة من الوصية ـ إلى حقيقة أن الجنةَ درجاتٌ في نصوص القرآن الكريم قبل الحديث النبوي الشريف. وهو بمثابة قانون يشمل المؤمنين والتفاضل في ما بينهم في إنجاز الأعمال الصالحة، وغير المؤمنين ممن يستحق العقوبة من الله تعالى.

وكنموذج على ذلك نورد نموذجين:

النموذج الأول: قوله تعالى ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٩٥].

فالآية واضحة الدلالة في عدم التسوية بين المؤمنين؛ باستثناء المعذورين منهم، وهي واضحة في التفضيل بينهم، فمن جاهد يكون فاضلاً، ومن قعد عن الجهاد يكون مفضولاً، مع أن الفريقين ـ بنص الآية ـ هم محسنون.

لذلك، لا بد من حمل هذا الجهاد على الكفائي منه أو المستحب، وليس على الواجب عيناً؛ لأن مَن ترك هذا الأخير يكون عاصياً؛ وبالتالي فهو لا يستحق الثواب والحسنى، بل يستحق الذم والعقاب.

النموذج الثاني: قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام/ ١٣١ ـ ١٣٢].

والآية الأخيرة ظاهرةُ الدلالة على أن الناس ـ صالحين، وغير صالحين ـ يتفاوتون وفقاً لأعمالهم، فإن كانت الآيةُ خاصةً بغير الصالحين؛ كما يفيده السياق، فهي دالةٌ على أن هذا القانونَ يشملهم كما يشمل الصالحين، وإن كانت عامةً للصالحين وغيرهم؛ وهذا دليلٌ يعزز ما ذكرناه في النموذج الأول.

بل يتطور الخطاب القرآني ليشير إلى معنى أدق وأرق، وهو أن هذه الدرجات ليست شيئاً آخر غير ذات العامل نفسه، وفي ذلك قال تعالى ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ

كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران/ ١٦٢ ـ ١٦٣].

وقد أشار النبي ﷺ إلى حقيقة أن في الجنة درجات بقوله (**الدرجة في الجنة**). وهو في صدد بيان ما تتصف به الدرجة، وذاك يعني ـ بالضرورة ـ أن ثمة درجةً ودرجةً أخرى.

الحقيقة الثانية: أن هذه الدرجات متفاوتة

بيَّن النبيُّ ﷺ أن درجاتِ الجنة ليست متساويةً، وذلك في جملتين:

١ ـ قوله ﷺ: **الدرجة في الجنة كما بين السماء والأرض...**).

٢ ـ قوله ﷺ: **وإن العبد ليرفع بصره...**).

الحقيقة الثالثة: أن هذه الدرجات تتحول إلى نور يخطف الأبصار

وقد بيَّن ﷺ ذلك بقوله (**فيلمع له نورٌ يكاد يخطف بصره فيفزع لذلك...**)، وهو تعبير عن البون الشاسع بين الدرجة والدرجة.

الحقيقة الرابعة: أن الدرجة ليست شيئاً غير المؤمن نفسه

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ ذلك بقوله (**هذا نور أخيك**). فهذه الدرجة المنيرة؛ التي هي بمستوى خطف البصر، هي (نور أخيك)، ونور الشيء ـ كما لا يخفى ـ نابعٌ من الشيء ذي النور، فالدرجة هي صاحبها.

الحقيقة الخامسة: العمل أساس التفاضل

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أن على الإنسان أن يدرك أن مكانته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمله، فكلما كان العمل أفضل كانت مكانة العامل أفضل. وذلك بقوله ﷺ (**إنه كان أفضلَ منك عملاً**).

ويؤكد الأمرَ قولُ الله تعالى خطاباً للكفار ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور/ ١٦].

الحقيقة السادسة: أن عالم الجنة منزل الرضا

وقد بيَّن الرسول ﷺ أن الجنة هي منزل الرضا. وذلك بقوله (**ثم يجعل في قلبه الرضا حتى يرضى**).

ولا مناص من أن يجعل في قلبه الرضا؛ لأن خلافه إما السخط على الله تعالى، أو الحسد للمؤمن، أو الألم الذاتي، وهذه جميعها عيوبٌ لا مكان لها في الجنة؛ لأنها إما رذائل كالأولَين، أو ألمٌ، والجنة موطن الرضا فلا ألم فيها، وموطن الخير فلا سخط فيها ولا قبح، وهي دار السلام، وهي طوبى، وهي دار الفوز العظيم بل نفسه.



الفصل الحادي والعشرون

الدنيا دار حزن وبلاء

مقدمة:

قد لا نجد موضوعاً شغل الناسَ؛ عبر التاريخ، مثل (الدنيا)، وما هو الموقف السليم منها؟

١ ـ فهل هو الرفض المطلق لها؟

٢ ـ أم الاندكاك المطلق فيها؟

٣ ـ أم هو موقف وسط بين هذا وذاك؟

لينتقل التساؤل ـ بعد ذلك ـ إلى أفق آخر هو: تعريف الدنيا، والذي على أساسه يتحدد الجواب عن هذا السؤال وذاك.

وستكون لنا وقفةٌ أخرى لمعالجة مسألة الدنيا؛ في ما يأتي من فقرات من هذه الوصية الشريفة[١].

وعلى أي حال، فإننا إذا عرَّفنا (الدنيا) بالأرض وما عليها؛ من بناء ونبات وحيوان ونحو ذلك من مخلوقات، فلا معنى للقول إن الدنيا مرفوضةٌ؛ لأن كل ذلك هي نعمٌ إلهيةٌ وزينةٌ للحياة الإنسانية، بل هي ضرورات في بعض الأحيان

---

(١) فقد عقدنا الفصل ٢٦ بعنوان (كيف نتعامل مع الدنيا)، والفصل ٢٧؛ بعنوان (الفقه في الدين والزهد في الدنيا) في هذا الكتاب.

للقيام بالعمل الصالح، وهي بالتالي مننٌ ونعمٌ، وطُلب شكرُ الله عليها. فكيف تكون (مرفوضة)؟!

وأما إذا عرَّفنا (الدنيا) بـ: الاعتبارات الاجتماعية، التي تشكّل الأرضيةَ للاختلاف بين الناس؛ بشكلٍ مشروعٍ حيناً، وغيرِ مشروعٍ حيناً آخر، فسيكون القولُ بأنها مرفوضةٌ أمراً منطقياً، وغيرَ مستنكَف، ولا مستغرَب، وذلك أننا أردنا من الدنيا في هذا التفسير الاستغلال السيِّئ لها والجانب السلبي منها.

وعلى هذا الأساس، نستوعب النصوص الدينية التي حفلت بـ(ذم الدنيا). فهي؛ أي النصوص، إنما تذم الدنيا بلحاظ كونها (اعتبارات) تحوَّلت من وسائل إلى غايات. ولإيضاح الأمر نقول:

إن الله سبحانه خلق الإنسانَ ليكون خليفتَه على الأرضِ فقال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة/ ٣٠]. ومعنى هذه الخلافة هو: تجسيد الجانب الرباني من شخصية الإنسان في عمارة الأرض في مستويات ثلاثة:

المستوى الأول: في تعامله مع نفسه

المستوى الثاني: في تعامله مع خالقه

المستوى الثالث: في تعامله مع المخلوق؛ بشراً أو نباتاً أو حجراً، ونحوها.

وهذا البعد الرباني في الإنسان الذي لا يتأتى بغير (عبودية الله). مما يفرض: التخلص من براثن العبودية لغير الله تعالى، وتجنب الوقوع في معصية الله سبحانه.

وهذا ما يفسر تساؤلَ الملائكة ـ في ما حكاه الله تعالى عنهم ـ بالقول ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٣٠].

ومن جهةٍ أخرى فإننا إذا لاحظنا همةَ المؤمن العاليةَ، فإنه ينشد الجنةَ وليس شيئاً دونها، وبلحاظ كونه:

أ ـ يعتقد بما وصل إليه من حكمةٍ مفادها أنه **(لا ثمنَ لأنفسكم إلا الجنةَ؛ فلا تبيعوها إلا بها)**[1]

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٤٥٦.

ب ـ يعيش في وسطٍ بشريٍّ يُعيق حركته تارة، ويعيش تحت ضغط شهواته التي لا يستطيع ضبطَها بغير تضحيات جسام تارةً أخرى. مما يجعله في معرض القلق الشديد على قدرته على تخطي تلك التحديات.

ج ـ يرى في هذه الدنيا عائقاً أمام حركته نحو ربه.

لكلِّ ذلك، فهو في حزنٍ دائمٍ.

ومن هذا المنطلق، يبيِّن الرسول ﷺ لأبي ذر عدداً من الحقائق:

الحقيقة الأولى: الدنيا بين رؤيتين

● **[الفقرة/ ٤٣]:**

(يا أبا ذر! الدنيا سجنُ المؤمن، وجنةُ الكافر، وما أصبح فيها مؤمنٌ إلا حزيناً).

والنبيُّ ﷺ ينبِّه في هذه الفقرة إلى أمرٍ لا ينبغي أن يخفى على حصيفٍ، فالناظر إلى بيته من السطح سيرى أشياءَ تختلف عمّا يراه الناظرُ من الأسفل. وكذلك الدنيا، إذا نظر إليها المؤمنُ سيراها بما تضمه جوانحه من قناعات ومعارف، تلتقي ـ جميعها ـ في أن **(الدنيا دارُ ممرٍّ، لا مقرٍّ)**[(١)].

لذلك، فالدنيا بالنسبة للمؤمن لا يمكن أن تكون غايةً ولا هدفاً؛ إلا في حدود ما تنتقل به ـ بسلامة ـ إلى محطته النهائية؛ التي هي (الجنة).

أما الكافر؛ الذي لا يعتقد بالآخرة، أو الذي لا يبالي بها كانت أو لم تكن، فسيرى في الدنيا فرصةً ذهبيةً؛ أو قل فرصتَه الذهبيةَ، التي لا تُعوَّض، ومن ثم فإنه يعتقد أن عليه استغلالها أفضلَ استغلال.

وإذا اختلفت القناعاتُ فسينعكس ذلك ـ بطبيعة الحال ـ على منظومة القيم، وعلى السلوك القولي والفعلي على حدٍّ سواءٍ.

---

(١) المصدر السابق، الحكمة ١٣٣.

فرؤية المؤمن ستدفع به إلى الشعور بـ(الضيق) أولاً، والشعور بـ(الحزن) ثانياً؛ لأن الدنيا بالنسبة إليه ليست سوى (سجن) يرجو الخلاصَ منه؛ فإن في خلاصه منها تحرراً من هذا الضيق، ولقاءً بالمعشوق. قال تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة/ ٦].

وأما رؤية الكافر للدنيا فستدفع به إلى الشعور بالبهجة والسرور؛ لأن الدنيا ـ حسب رؤيته ـ هي مكانُ وزمان المتعة؛ التي هي بغيته ورغبته؛ فهذه الدنيا ـ بهذه الرؤية ـ هي الـ(جنة).

الحقيقة الثانية: حزن المؤمن

تعبيراً عن رؤية المؤمن الفكرية لـ(الدنيا)، وتسببها بالضرر عليه، من الطبيعي أن يستولي عليه (الحزن)، وهو ما يستولي على مَن ينشد شيئاً لا يدري متى يناله؟ ويشتد حزنه إن كان يخشى؛ بقلقٍ بالغٍ، أن يفوته فلا يناله.

لذلك، قال النبيُّ ﷺ:

(**وما أصبح فيها مؤمنٌ إلا حزيناً**) [الفقرة/ ٤٣].**وقد تسأل**: هل من الصواب أن يستولي (الحزن) على المؤمن؟ ألا ينبغي له التعاملُ مع الدنيا على أنها نعمةٌ؟

الجواب: نعم، هي كذلك؛ في أرضها، وسمائها، وسائر ما فيها؛ فهي رزقٌ ينبغي لنا أن نتنعم به، وهو ما نقرأه في الكتاب الكريم ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف/ ٣٢].

ولكنها ـ إلى جانب ذلك ـ محطةٌ يتباطأ فيها المجِدُّ في سيره عن الوصول إلى هدفه. فإذا لاحظنا وَلهَ المؤمن إلى ربه، فسيكون من اليسير أن نستوعب مبرراتِ هذا الحزن.

وسيكون هذا الحزن مبرَّراً ـ أيضاً ـ إذا لاحظنا ما سيتعرض له المؤمنُ من امتحانات تلحق به الأذى؛ قليلاً أو كثيراً.

وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ؛ مبيِّناً عدداً من المخاطر:

- **[تابع الفقرة/ ٤٣]:**

> **(فكيف لا يحزن المؤمنُ وقد أوعده اللهُ؛ جل ثناؤه، أنه واردٌ جهنمَ، ولم يعِده أنه صادرٌ عنها. وليلقين أمراضاً ومصيباتٍ وأموراً تغيظه، وليُظلَمن فلا ينتصر؛ يبتغي ثواباً من الله تعالى).**

الخطر الأول: دخول جهنم

(جهنم): اسم من أسماء النار، ولكن ليس جنسَ النار، وإنما لخصوص النار التي أوعد الله بأن يعذب بها مستحقي العذاب في الآخرة **(وقد أعدَّ جهنمَ لمخالفيه)**[١].

وقد اختلف اللغويون في أنها كلمة عربية في أصلها أو أعجمية[٢].

وعلى أي حال، فللسائرين إلى الله تعالى؛ وهم جميع الناس؛ صالحين وطالحين، مقصدٌ يتوجهون نحوه؛ هو الغاية المناسبة لهم؛ بلحاظ طبيعة أعمالهم حسناً وقبحاً.

ولَما كانت الجنةُ هي الغايةَ التي تصل إليها قافلة المحسنين؛ فإن جهنم هي (الغاية التي تسير إليها قافلة الشر والخبيث)[٣].

وقد تتساءل: إذا كانت جهنمُ مستقراً لأهلها فهل يدخل المؤمنُ النارَ؟

الجواب: إن هذه الفقرة من الوصية تثبت أصلَ الدخول، وهذا ما يؤكده

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، وعنه: بحار الأنوار، ج٥، ص٢٠، أبواب العدل، الباب ١ ـ نفي الظلم والجور عنه تعالى، وإبطال الجبر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرين، وإثبات الاختيار والاستطاعة، الحديث ٣١ عن الإمام الرضا عليه السلام.

(٢) انظر: تاج العروس، ج٣١، ص٤٣٠ ـ ٤٣١، مادة (جهنم)، باب الميم، فصل الجيم مع الهاء.

(٣) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص٧٥، ذيل قوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ من سورة الأنفال.

القرآن الكريم في قول الله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم/ ٧١].

غير أن من اللازم ـ كما فعله المفسرون ـ أن نحمل هذا الورود على وجهٍ لا يستلزم العقوبةَ؛ لأن الذي يستحق العقاب هو خصوص العاصي، أما المؤمن الذي قد يكون عاصياً وقد لا يكون، فقد نتقبل ورود العاصي؛ بسبب عصيانه، لكن من غير المبرر ورود غير العاصي؛ لانتفاء سببه!

فلا بد ـ إذاً ـ من التصرف في معنى هذا الورود.

ولذلك، فُسِّر بالدخول في جهنم، أو الإشراف على الدخول فيها، وقد يفسَّر بوجوهٍ أخر؛ تُطلَب في مظانها(١).

وعلى أي حال، فمجرد الورود في جهنم؛ بأي تفسير فسرناه، هو خطرٌ محقَّقٌ؛ لا ينبغي التقليل من شأنه، ويزداد خطراً إذا لم يكن الوارد فيها على يقينٍ من النجاة منها.

الخطر الثاني: ما يلاقيه المؤمن من أمراض ومصائب ومحن.

وذاك أمرٌ لا يستثنى منه أحدٌ، بل إن المؤمن ـ كما جاء في الأخبار المستفيضة عن النبي والمعصومين (عليه وعليهم السلام) ـ أشد ابتلاءً بها من غيره، فقد: **ذُكِر عند أبي عبدالله عليه السلام البلاء، وما يَخص الله عزّ وجلّ به المؤمنَ!**

فقال: سُئل رسولُ الله (صلى الله عليه وآله): مَن أشدُّ الناسِ بلاءً في الدنيا؟!

فقال: النبيون، ثم الأمثل، فالأمثل.

---

(١) قال الطبرسي:

اختلف العلماء في معنى الورود على قولين:

أحدهما: إن ورودها هو الوصول إليها، والإشراف عليها، لا الدخول فيها، وهو قول ابن مسعود، والحسن، وقتادة، واختاره أبو مسلم...

والآخر: إن ورودها بمعنى دخولها...

وقال الأكثرون: إنه خطاب لجميع المكلفين، فلا يبقى بر ولا فاجر، إلا ويدخلها، فيكون برداً وسلاماً على المؤمنين، وعذاباً لازماً للكافرين) مجمع البيان، ج٦، ص٤٤١ ـ ٤٤٢، ذيل الآية الكريمة

ويبتلي المؤمنُ بعدُ على قدرِ إيمانِهِ وحسنِ أعمالِهِ؛ فمن صحَّ إيمانُهُ وحسُن عملُهُ اشتدَّ بلاؤُهُ، ومَن سخُف إيمانُهُ وضعف عملُهُ قلَّ بلاؤُهُ)[١].

الخطر الثالث: ما يعانيه المؤمن من إيذاء الظَّلَمة؛ من سلاطين وغيرهم؛ بالترصد والوقيعة وإلحاق الأذى. يلقَى ذلك كلَّه بسبب إيمانِهِ فلا يستعيضه بشيءٍ، ولا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ.

وله في ذلك أسوةٌ حسنةٌ؛ هم الأنبياء عليهم السلام والأولياء عليهم السلام؛ الذين عانوا ما عانوا فلم يكن شيءٌ من ذلك ـ على شدته ـ ليثنيهم عن التعلق بجمالٍ رأوه وحقٍّ عاينوه. وسيظل هذا هو حال المؤمن ما دام في الدنيا.

لكل ذلك، قال النبي صلى الله عليه وآله: **(فلا يزال** [أي المؤمن] **حزيناً حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة)** [الفقرة/ ٤٣].

ويشير القرآن الكريم إلى الخطرين ـ الثاني، والثالث ـ؛ في آيات عديدة:

منها: قوله تعالى ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت/ ٢، ٣].

ومنها: قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام/ ٤٢].

ومفارقته ـ أي المؤمن ـ للدنيا بـ(الموت) ليست سوى مرورٍ على جسرٍ ينتقل به من ضفةٍ إلى ضفةٍ، لكنه في الوقت نفسه انتقالٌ من سيءٍ إلى حسنٍ، ومن ضيقٍ إلى فرجٍ. لذلك، فهو ينتقل به إلى حيث الراحة المادية والكرامة المعنوية.

وقد يلقي الضوءَ على ما قلناه ما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٢٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب شدة ابتلاء المؤمن، الحديث ٢.

طالب ﷺ من قوله: **والله! لابنُ أبي طالب آنسُ بالموتِ من الطفل بثدي أمه**)[١].

وفي حديثٍ يرويه الإمام الصادق، عن آبائه ﷺ، يكشف الإمام أمير المؤمنين ﷺ عن سر هذا الأنس، وجاء فيه: **سئل: بماذا أحببتَ لقاء الله؟**

قال: لمَّا رأيتُهُ قد اختار لي دينَ ملائكتِهِ ورسلِهِ وأنبيائِهِ علمتُ أن الذي أكرمني بهذا ليس ينساني فأحببتُ لقاءه)[٢].

***

ثم إن النبيَّ ﷺ يشير إلى الحزن كسِمةٍ للعبادة، فكلما كان العبدُ أطولَ حزناً كلما كان أعبدَ لله تعالى. ولعل النبيَّ ﷺ يريد ـ من قوله هذا ـ أن للحزن دوراً تربوياً. وذلك، أن الحزن يعين صاحبه على أن يكون أشدَّ تواضعاً لله تعالى، ويشعره باحتياجه الدائم له تعالى؛ فهو لا يرجو إلا فضله، ولا يخشى إلا عدله، ولا يعتمد إلا قوله، ولا يتمسك إلا بحبله[٣].

وإذا كان للحزن هذا الأثر، فإن من الطبيعي أن يكون عبادةً من أفضل العبادات. قال النبيُّ ﷺ:

● **[الفقرة/ ٤٤]:**

(يا أبا ذر! ما عُبِد الله عزّ وجلّ على مثل طول الحزن).

وزيادةً في إيضاح هذا الجانب المضيء للحزن، فإننا بحاجة إلى (علم) نتعرَّف من خلاله على جوانب الجمال في مثل هذا الحزن، وهذا ما نستعرضه بعون الله تعالى وتوفيقه في الفقرة التالية.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٦.

(٢) الخصال للشيخ الصدوق (ت٣٢٩ هـ)، وعنه: بحار الأنوار، ج٦، ص٢٩٣، أبواب العدل، الفصل ٣ ـ في العلل، أبواب الموت، الباب ٤ ـ حب لقاء الله وذم الفرار من الموت، الحديث ١١.

(٣) كما جاء في دعاء للإمام السجاد ﷺ يروى عنه ليوم الأحد، كما في مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي.



الفصل الثاني والعشرون

البكاءُ عاملُ بناءٍ

عوامل عديدةٌ تسهم في بناءِ الإنسانِ؛ على مستوى عقلِهِ، وعلى مستوى روحِهِ. وتتفاوت هذه العوامل في قيمتِها وتأثيرِها. ويأتي البكاءُ ضمن هذه العواملِ.

فلنقف ـ إذاً ـ قليلاً عند هذه العواملِ، ولنتعرَّف؛ من خلال هذا المقطعِ، على أسبابِ هذا التأثيرِ أولاً، وعلى نتائجِهِ ثانياً.

قال رسول الله ﷺ:

● **[الفقرتان/ ٤٥ ـ ٤٦]:**

(يا أبا ذر! مَن أوتي من العلم ما لا يبكيه لحقيقٌ أن يكون قد أوتي علماً لا ينفعه. إن الله نعت العلماءَ فقال عزّ وجلّ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الإسراء/ ١٠٨ ـ ١٠٩].

يا أبا ذر! مَن استطاع أن يبكيَ فليَبكِ، ومَن لم يستطعْ فليُشعِر قلبَه الحزنَ وليتباكَ. إن القلبَ القاسيَ بعيدٌ من الله تعالى ولكن لا تشعرون).

في هاتين الفقرتين محطات عدة:

المحطة الأولى: قيمة العلم بأثره

لا يختلف اثنان ـ ممن اطلع على الكتاب الكريم والسنة المطهرة ـ على محورية العلم في منظومة الفكر الإسلامي. وذلك لِما يترتب عليه من آثارٍ هامةٍ بالنسبة للإنسان؛ على مستوى بناء روحه وفكره. قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر/ ٢٨].

ولو لم يكن للعلم من قيمةٍ سوى تحقيق (الخشية) من الله تعالى في نفس العالِم لكفى. فإن الخشيةَ هي التي تحول بين الإنسان ووقوعِهِ في المعصيةِ؛ التي تجعله في معرض السخط الإلهيِّ، وهذا ما لا يحتمله الإنسانُ.

إن علماً يناله الإنسان لا يؤدي به إلى أن يكون من أهل الخشية، لا قيمةَ له، ولهذا قال رسول الله ﷺ:

(يا أبا ذر! مَن أوتي من العلم ما لا يبكيه لحقيقٌ أن يكون قد أوتي علماً لا ينفعه) [الفقرة/ ٤٥].

فللعلمِ ـ بحسب هذا النص ـ أثرٌ هامٌّ؛ هو: البكاء. الذي هو هنا تعبير عن (الخشية من الله).

والعلمُ الذي لا يدفع بالإنسانِ إلى الخشية من ربِّه، هو علمٌ غيرُ جديرٍ بأن ينال منا اهتماماً؛ لأنه ـ ببساطةٍ شديدةٍ ـ علمٌ غيرُ نافعٍ، إن لم يكن عبئاً على صاحبه.

ثم إن رسول الله ﷺ ـ بعد تقريره لهذه الحقيقة ـ ينتقل إلى تأصيلها وفلسفتها، بقوله ﷺ:

(**لأن الله نعت العلماءَ فقال عزّ وجلّ** ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء/ ١٠٧ ـ ١٠٩]).

فالعلماء ـ وفقاً للرؤية القرآنية ـ هم: العابدون الحقيقيون، والخاضعون

جدياً، لله تعالى؛ بحيث ترقّ قلوبهم؛ إلى حد السجود[١]، بمجرد أن تتلى عليهم آيات الله؛ تأثراً منهم بها، وتفاعلاً مع مضامينها.

وهؤلاء العالمون يعبِّرون ـ بسجودهم ـ عن تعبدهم التام، وعبوديتهم المطلقة لله تعالى، بوضع أشرف أعضائهم؛ وهي الجباه، على الأرض، أو شعورهم بالخضوع التام روحياً، مشفعين ذلك بتسبيح الله؛ أي تنزيهه، من الشك بعدم وفائه بالوعد؛ الذي قطعه على نفسه؛ برحمته إياهم ونصره لهم.

وهكذا يكون العلمُ سلَّماً يرتقون به في مدارج الكمال، والتحليق في عالم الملكوت مرةً بعد أخرى؛ لازديادهم من خلاله من الخشوع بين يدي الله تعالى.

والذي نلحظه ـ هنا ـ أن العلم إنما كانت له هذه القيمةُ بسبب ما يحققه من نتيجةٍ على مَن وُفِّق لنيله.

المحطة الثانية: البكاء أثر إيجابي للعلم

ولو سألت ـ قارئي الكريم ـ عن مظهر الخشوع لله: كيف كان؟

لأجبتك؛ وفقاً للنص ونصوص أخرى: إنه (البكاء).

والبكاءُ له من دلالاتٌ لا تخفى على أحدٍ ممن مارسه ـ لأي سبب ـ باعتباره عاملاً من عوامل التفاعل، أو معبِّراً عن مستوى التفاعل مع حدث من الأحداث، أو ذكرى من الذكريات.

لذلك، قال النبيُّ ﷺ:

(مَن أوتي من العلم ما لا يبكيه لحقيقٌ أن يكون قد أوتي علمَ ما لا ينفعه).

فالبكاء ـ إذاً ـ مطلوب. والعلم إنما يُطلب لينتهي الحال بنا إلى أن نكون من البكّائين؛ لأن العلم الذي لا يهز الإنسانَ هزاً؛ إلى حد الإبكاء، ليس علماً جديراً بأن يسمى علماً، بل سيكون عبئاً وحجةً على صاحبه.

---

(١) سواء فسرناه بما هو معروفٌ من وضع الجبهة على الأرض، أو بما يؤدي معناه معنوياً وروحياً.

المحطة الثالثة: أهمية رقة القلب للإنسان

وقد تسأل ـ مرةً أخرى ـ: لِمَ كلُّ هذا الاهتمام بـ(البكاء)؟

وهل هو؛ من حيث المبدأ، فضيلةٌ نسعى إلى التحقق بها؟

أم إنه رذيلةٌ ينبغي لنا أن نتخلص منها؟!

الجواب: ليس ميسوراً المبادرةُ إلى الجواب عن ذلك، والحكمُ على البكاء وتصنيفُهُ كفضيلةٍ أو رذيلةٍ، ما لم نتعرف على أهمية رقة القلب، ودور البكاء في تحقيق ذلك.

مضافاً إلى أنه قد لا يكون الجوابُ دقيقاً ما لم نتعرف على الدوافع التي تدفعنا نحو ترقيق القلوب.

أولاً: رقة القلب

نعني بـ(رقة القلب): الانفعال والتأثر العاطفي؛ المصحوب بالحنان والعطف والشفقة، من ظاهرةٍ من الظواهر أو موقف من المواقف. وقد يراد بها ـ أحياناً ـ الرحمة؛ المفسرة بـ(التأثر الشعوري الخاص الباعث للراحم على التلطف بالمرحوم)[1].

ومن أمثلة رقة القلب: ما يجده الإنسانُ؛ رقيقُ القلب، من حنانٍ تجاه يتيمٍ يبكي، أو مريضٍ يتلوى من الألم، أو جريحٍ مضرجٍ بدمائه.

والبكاء ـ في مثل هذه الموارد ـ يعتبر حالةً طبيعيةً؛ بل محمودةً؛ لأنه يعبر عن درجةٍ من المواساة للمخلوق، والانكسار أمام الخالق، يوصَف من يفتقدها من الناس بـ(قسوة القلب). وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **من الشقاء جمود**

---

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ج٥، ص١٨٧، بحث علمي، ٢ ـ كيف أمر بقتل الحيوان والرحمة تأباه؟.

قال البيضاوي: الرحمة في اللغة: رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرّحم لانعطافها على ما فيها) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ج١، ص٢٧، تفسير قوله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

العين، وقسوة القلب...)[1]، وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: **ما جفَّت الدموعُ إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوبُ إلا لكثرة الذنوب)**[2].

ولا يغيب عنا قول الله تعالى حاكياً حال نبيه يعقوب عليه السلام وبكائه الشديد على يوسف عليه السلام ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف/ ٨٤].

وإننا إذا لاحظنا طبيعةَ العلاقة بين (الخالق والمخلوق)؛ التي عرضنا بعض معالمها في الباب الأول من الكتاب، لوجدنا أنها تتلخص في: ضرورة خضوع المخلوق للخالق.

ولهذا الخضوع تعبيران:

الأول: تعبيرٌ ماديٌّ عبر الجوارح؛ بأن يتواضع الإنسانُ في مشيته، ويطأطئ برأسه، وتسيل دموعه...

الثاني: تعبيرٌ معنويٌّ عبر الجوانح؛ وهو حالة التفاعل الداخلي التي يجدها مَن رقَّ قلبُهُ. وهذا هو الخضوع المادي؛ وذلك بأن يلمس بين جوانحه حالةً من التهيج الروحي قد تجد طريقها إلى الخارج؛ من خلال ما أشير إليه في التعبير الأول.

ثانياً: لماذا رقة القلب؟

قد لا نجد صعوبةً في تبيين أهمية رقة القلب؛ لأن هذه الحالة هي التي تجسِّر علاقة الإنسان بالآخر. فمن لا يرق قلبُه؛ عند حصول موجِبِها، هو ممن تبلَّد حسُّهُ، وهو فاقد لحقيقة التفاعل مع ما يدور حوله من آلام وآمال، تجاه نفسه أولاً، وتجاه غيره ثانياً.

ولا فرق في ذلك بين:

---

(١) الخصال للشيخ الصدوق، وعنه: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج١٦، ص٤٦، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، الباب ٧٦ ـ تحريم قسوة القلب، الحديث ٦.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٥، عن علل الشرائع للشيخ الصدوق.

أ ـ أن يكون هذا (الآخر) في مستواه وجودياً؛ أعني (الإنسان)؛ الذي قد تجد المعاناةُ وأسبابُها سبيلاً إليه؛ والمعاناةُ سببٌ من أسباب رقة القلب؛ تفرض على السويِّ من الناس أن يواسي أخاه الإنسان.

ب ـ أن يكون هذا (الآخر) فوق مستوى الإنسان؛ ممن له حقُّ الأمرِ والنهيِ عليه، وممن يملك الخيرَ كلَّه، والقوةَ كلَّها، والعزةَ كلَّها؛ وهو الله تعالى؛ الذي هو وليُّ النعمة، والخالقُ، والمالكُ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ.

لهذا وذاك، يليق بالإنسان الرباني؛ الراغب في أن يكون على الصراط المستقيم، أن يرقَّ قلبُهُ؛ ليشكل ذلك دافعاً له:

أ ـ للمواساة تارةً؛ كما في الحالة الأولى.

ب ـ وللشعور بالذنب تارةً أخرى؛ كما في الحالة الثانية؛ وذلك أن المخلوق إذا قصَّر في تنفيذ أوامر الخالق، ولم يتجنب نواهيه، يجدر به أن يرقَّ ويقلقَ.

ج ـ أو للحصول على مراتب أعلى؛ بتأكيد حس العبودية والخضوع بين يدي الله حباً وولهاً.

ولأهمية رقة القلب هذه، نجد النصوصَ الشرعيةَ تؤكد على ضرورة تحصيلها؛ ولو بالاستعانة بما يحصِّلها؛ من قبيل تذكر مصيبةٍ كفقدان قريبٍ، لاستثمار حالة الرقة الحاصلة لتوجيهها نحو الخشية من الله ونحوها. فقد روى إسحاق بن عمار أنه قال: **قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أكون أدعو فأشتهي البكاء ولا يجيئني، وربما ذكرتُ بعضَ مَن مات من أهلي، فأرِقُّ وأبكي، فهل يجوز ذلك؟!**

فقال: نعم، فتذكرهم، فإذا رققتَ فابكِ، وادعُ ربَّك تبارك وتعالى)[1].

ثالثاً: دور البكاء

أحسب أن ما قدمناه ـ في الفقرتين السابقتين ـ أبان لنا دوافعَ البكاء، الذي هو تعبيرٌ عن تلكم الرقة الإيجابية.

---

(١) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب (ت٣٢٩ هـ)، أصول الكافي، ج٢، ص٤٨٣، باب البكاء، الحديث ٧.

ولَما كان البكاءُ هو الحالةَ الوجدانيةَ في الطبيعة الإنسانية، فلا أراني بحاجةٍ إلى الاستدلال على كونها مشروعةً أولاً، ومطلوبةً ثانياً.

وعلى أساس ما ذكرناه، قال ﷺ:

● **[الفقرة/ ٤٦]:**

(يا أبا ذر! مَن استطاع أن يبكيَ فليبكِ، ومَن لم يستطعْ فليُشعِر قلبَهُ الحزنَ وليتباكَ).

والرسول ﷺ يوصينا بأن نكون من أهل البكاء من خشية الله تعالى، وذاك بتوفير أسبابه؛ كالمشاركة في عملٍ عباديٍّ، أو مجلسِ وعظٍ، أو تذكرِ الموت، أو حتى تذكرِ عزيزٍ فقدناه؛ كما قدمنا شاهداً عليه في الفقرة السابقة.

وللبكاء، بعدُ، أثرٌ كبيرٌ في تقريب العبد من الله، ولنورد بعضَ النصوص في ذلك:

أ ـ عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: ... **ما من قطرةٍ أحبَّ إلى الله عزّ وجلّ من قطرةِ دموع في سواد الليل؛ مخافة من الله؛ لا يُراد بها غيره)**[١].

ب ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **ما من شيءٍ إلا وله كيلٌ ووزنٌ؛ إلا الدموع؛ فإن القطرةَ منها تطفئ بحاراً من النار. فإذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهه قترٌ ولا ذلةٌ، فإذا فاضت حرَّمه الله على النار.**

ولو أن باكياً بكى في أمة لرُحِموا)[٢].

جـ ـ عن الإمام الصادق عليه السلام ـ أيضاً ـ أنه قال: **كلُّ عينٍ باكيةٌ يومَ القيامة؛ إلا**

---

(١) المصدر السابق، ص٤٨٢، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٥.

ثلاثة: عينٌ غضَّت عن محارم الله، وعينٌ سهرت في طاعة الله، وعينٌ بكت ـ في جوف الليل ـ من خشية الله)[١].

المحطة الرابعة: خطورة قسوة القلب

في مقابل فضيلة (رقة القلب) والبكاء من خشية الله، نجد رذيلةَ (قسوةِ القلب)؛ التي هي على الضد من رقة القلب. والتي تعبر عن مدى بُعد المتصفِ بها عن ربه تعالى؛ بسبب ما ارتكبه من ذنوبٍ؛ انغمس فيها حتى نسي ربه.

لذلك قال النبي ﷺ:

(إن القلب القاسي بعيدٌ من الله تعالى؛ ولكن لا تشعرون) [الفقرة/ ٤٦].

وكيف لا يكون قاسي القلب بعيداً عن الله تعالى، وهو منغمسٌ في معاصيه من جهةٍ، ويتعالى على رحمة ربه؛ وهو المحتاج إليها، من جهةٍ ثانيةٍ، وهو بين هذا وذاك سادرٌ في غيه لا يرجع لنفسه فيؤنبها، ولا إلى ربه فيستغفره، من جهةٍ ثالثةٍ.

ولأننا ـ نحن الناس ـ لا نحيط خُبراً بعالم الملكوت، بينما رسولُ الله ـ وهو النبي المصطفى ـ مطلعٌ عليه، فإنه ﷺ يخبرنا عن حقيقة بُعد القاسي عن ربه؛ لدلائل بانت له وخفيت علينا.

لذلك، فإننا لا نشعر بهذا البُعدِ؛ لأن ذلك يحتاج إلى رهافةِ حسٍّ نفتقدها غالباً؛ إلا أن يلطف بنا ربُّنا فيكشف عنا غطاءنا ليكون بصر الواحد منا حديداً.

وفي الحديث عن عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: **لَما مات إبراهيم بكى النبيُّ (صلى الله عليه وآله)؛ حتى جرت دموعُهُ على لحيتِهِ!**

فقيل له: يا رسول الله! تنهى عن البكاء وأنت تبكي؟!

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٢.

فقال: ليس هذا بكاء، وإنما هي [هذه] رحمةٌ، ومَن لا يَرحم لا يُرحم)[١].

(١) أمالي الطوسي، وعنه: جامع أحاديث الشيعة، ج٣، ص٤٩٦، الباب ٦ ـ جواز البكاء على الميت...، الحديث ٢.

وفي حديث آخر: ... **فقال عبد الرحمن بن عوف أتبكي، وأنت تنهى الناس؟! قال: إني لم أنهَ عن البكاء، إنما نهيت عن النوح؛ صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة. وهذا هو رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم.**

يا إبراهيم! لولا أنه أمرُ حقٍّ، ووعدُ صدقٍ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك حزناً هو أشدَّ من هذا، وإنا بك لمحزونون، تبكي العين، ويحزن القلبُ، ولا نقول ما يسخط الربَّ) السنن الكبرى للنسائي، باب من رخص في البكاء إلى أن يموت الذي يبكى عليه.



المحتويات

